المتَّقون
ذُروة الكمال البشري

دروس تربوية من وحي خطبة صفات المتّقين
لأمير المؤمنين علي عليه السلام

المتَّقون

ذُروة الكمال البشري

دروس تربوية من وحي خطبة صفات المتّقين
لأمير المؤمنين علي عليه السلام

حسين الخشن

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

عندما تدخل إلى عالم عليّ عليه السلام الرحيب، إلى حياته وسيرته، إلى مواقفه وكلماته، فإنك تدخل إلى عالم مترامي الأطراف، إلى مدينة معارف ومحراب صلاة، وتجد نفسك أمَام إمام في كل شيء، إمامٍ في البلاغة والبيان، وإمام في الفكر والثقافة، وإمامٍ في الأخلاق والتربية، وإمام في السياسية والإدارة والاقتدار، وإمام في العبادة والروحانية، ومن هنا يتملكك إحساس بعدم القدرة على الإلمام بأبعاد شخصيته، وأن الكلمات لا تسعفك ولا تطاوعك على إيفائه حقه.

ولو أنّك ـ على سبيل المثال ـ أجلت الطرف وسرّحت النظر في بعض خطبه عليه السلام لأسرَتْك غزارة علمه، وقوة منطقه، وسلاسة بيانه، فلا تشعر إلّا وقد انجذبت إليه انجذاب الفراشة إلى مصدر النور، وانجذاب العاشق إلى معشوقه.

وإنّ واحدة من أهم الخطب التي تأخذ بألباب من يقرأها بعقل متدبر أو يستمع إليها بمسامع قلبه: الخطبة الشهيرة بخطبة صفات المتَّقين.

ولا شكّ أنّ هذه الخطبة هي من أكمل وأشمل وأبلغ ما ورد في وصف المتّقين وبيان مزاياهم الخُلقية والسلوكية والروحية، وما ينبغي أن يتحلّوا به من صفات، إنْ في علاقتهم مع الله تعالى أو في علاقتهم مع عيال الله.

وخلاصة ما يستفاد من خطبته المشار إليها، أنّ المتَّقين هم صفوة الكمال البشري فهماً ووعياً وبصيرة، وورعاً، وخُلقاً وروحانية واستقامة، وهم بهذا الاعتبار ـ أعني في درجات الكمال الروحي والمعنوي ـ يأتون بعد درجة المعصومين عليهم السلام، وهذا ما يجعلهم مثلاً أعلى لغيرهم، وحُجة على سائر الناس الذين يتعلّلون ويتذرعون بعدم القدرة على الوصول إلى تلك المدارج العالية التي وصل إليها المعصومون.

ولسنا نجانب الصواب قيد أنملة إذا قلنا: إنّ ما تضمّنته هذه الخطبة من صفات

ومفاهيم وأفكار يصلح أن يكون منهجاً تربوياً متكاملاً، وهو كفيل ـ في حال عُمل على تطبيقه وتمثُّل ما جاء فيه ـ ببناء الشخصية الإيمانية الإسلامية الواعية والملتزمة بناءً روحياً واجتماعياً وخُلقياً.. ولهذا عمدنا إلى شرح هذه الخطبة شرحاً مسهباً محاولين استجلاء مضامينها وبيان دلالاتها.

إن هذه الخطبة تشير إلى أهمية الأخلاق في ديننا، فهي ليست أمراً ثانوياً ولا مجرد محاسنَ نتزين بها ثم نخلعها متى شئنا. إنّ الزينة مهما كانت ثمينة تبقَ أمراً طارئاً ويمكن أن نتخلّى عنها، لكنّ الأخلاق ليست كذلك، الأخلاق دين نتديّن به، ومن يخلع رداء الأخلاق فقد خلع الإيمان من رقبته، فالدين هو المعاملة، والدين هو الخلق النبيل، ولذا قال ﷺ فيما روي عنه: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١).

ومن هنا، فإنّ العبارة الشائعة بيننا في تقييم بعض الأشخاص والقائلة: «إنّ فلاناً مؤمن لكن أخلاقه سيئة» هي عبارة غير دقيقة، لأنّ من كانت أخلاقه سيئة لا يكون إيمانه سوياً ومكتملاً.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما تضمنه هذا الكتاب هو محاضرات أُلقيت في مسجد الإمام الرضا عليه السلام في بئر العبد ـ بيروت، في شهر رمضان من عام ١٤٤٣هـ، واستكملناها ـ كدروس أسبوعية ـ بعد انتهاء الشهر المبارك.

آمل من القراء الكرام أن يقدّروا هذا الأمر ـ أعني كون ما في هذا الكتاب هو محاضرات مسجدية ـ وأن يتفهّموا الجنبة الخطابية فيه، ويغفروا لنا ما قد يجدونه من استطراد في بعض المواضع، أو ما يعتري بعض المطالب من قصور، أو من تكرار لبعض الشواهد أو نحو ذلك.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لمراضيه، وأن يجعلنا ممّن لازم التَّقوى قولاً وعملاً، وأن يجعل التَّقوى زادنا ليوم المعاد، إنه سميع مجيب الدعاء.

حسين الخشن
١٥ محرم ١٤٤٥هـ

---

(١) مكارم الأخلاق، ص٨.

المحور الأول

التَّقوى، مفهومها، أبعادها، والسبيل إليها

التَّقوى، مفهومها، أبعادها، والسبيل إليها

رَأَيْنا من الضروري قبل تفصيل الكلام في شرح خطبة أمير المؤمنين عليه السلام وما تضمنته من صفات للمتَّقين، أن نتوقّف بادئ ذي بدء عند صاحب هذه الخطبة، لنسلّط الضوء على بُعد معيّن من أبعاد شخصيته، وهو البُعد الذي جعله يستحوذ ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ على لقب إمام المتَّقين بغير منازع، ثم نُجيل الطرف على رؤيته عليه السلام للتّقوى ومفهومها وأبعادها ودلالاتها وآثارها وثمراتها في الدنيا والآخرة.

وسيجد القارئ في هذا المحور إجابات على الأسئلة التالية:

ـ ما المراد بالتَّقوى؟

ـ وكيف يكون العبد تقياً؟

ـ ما هو السبيل إلى التَّقوى؟

ـ ما هي منافع التَّقوى وآثارها؟

ـ وما هي أهم مجالات التَّقوى؟

(١)
إمام المتَّقين عليه السلام كما وصف نفسه

ما الذي جعل علياً عليه السلام يرقى إلى هذا المقام الشريف، فيغدو إماماً للمتَّقين؟ وماذا تعني هذه الإمامة؟

سوف نجيب على ذلك بصورة موجزة، معتمدين على كلامه عليه السلام وسيرته، وبذلك نترك علياً عليه السلام ليحدثنا عن نفسه.

علي عليه السلام وإمامة المتَّقين

وأن يكون علي عليه السلام إماماً للمسلمين وخليفة لرسول الله فهذا أمر لا نرتاب فيه، وذلك لأنه عليه السلام ـ وبصرف النظر عن النصوص التي تؤكد إمامته وعن الاعتقاد بعصمته[١] ـ قد تحلّى بجملة من المؤهلات القياديّة والكمالات الروحية والأخلاقية التي جعلته الأَولى والأجدر بتسلّم زمام الأمور في قيادة الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والحق يُقال: إنّ الخلافة لم تزينْ علياً عليه السلام ولم ترفع من مقامه، بل هو الذي زانها ورفع من شأنها ومكانتها.

وما يعنينا هنا، هو الحديث عن وجه من وجوه إمامة علي عليه السلام، وهو أنّه كان إماماً في التَّقوى والورع والزهد، وهذه الإمامة ما كان لأحدٍ أن ينازعه فيها، لأنها لا تُخطِئ أهلها وهي لا تصدر بمرسوم، ولا تحتاج إلى بيعة وشورى، ولا يصلها الإنسان عن طريق الدنيا والمزاعم الفارغة، وإنما هي التي تأتي طائعة نحو من يزهد في الدنيا ويعزف عنها

(١) ربما يُقال: إنه مع الالتزام بكون علي عليه السلام معصوماً فلا يبقى وجه للحديث عن التَّقوى، لأن التَّقوى هي صفة اكتسابية، بينما العصمة هي لطف إلهي، ولكننا نقول: إن العصمة وإن كانت لطفاً إلهياً ولكنّ هذا اللطف لا يلغي اختيار الإنسان ودوره في الوصول إلى تلك المرتبة العظيمة، ومن هنا نفهم ما سيأتي من مجاهدة الإمام عليه السلام لنفسه، بل إن توفيقه لهذه المجاهدة للنفس هي مظهر من مظاهر اللطف الإلهي به.

وعن زخارفها برمتها، ويهذّب نفسه ويَحْملُها على تقوى الله والأخذ بأعلى المكارم وأجلِّها. هكذا كان الأمر حقّاً، ولهذا رأينا أنّ كل أهل العرفان والتُّقى قد أقرّوا أن علياً هو ـ بعد رسول الله ﷺ ـ قطب الرحا ومنتهى سلسلة أهل الورع والتّقى.

ومن عناية ربّ العالمين بعلي عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ ـ بإرشاد من الوحي السماوي ـ ينعته بهذا النعت أيضاً، كما روى السُّنّة والشيعة(١)، فقد روى الحاكم النيسابوري، بسنده عن رسول الله ﷺ: «أُوحي إليّ في عليّ ثلاث: أنه سيد المسلمين، وإمام المتَّقين، وقائد الغرّ المحجلين»(٢).

من هو إمام المتَّقين بنظر علي عليه السلام؟

وإذا كان رسول الله ﷺ يصف علياً بأنه إمام المتَّقين، فإنّ علياً عليه السلام بدوره كان يعتقد أن رسول الله ﷺ هو إمام أهل التُّقى، وبنوره اهتدى الخلق، يقول عليه السلام، «**فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى وبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُه وشِهَابٌ سَطَعَ نُورُه، وزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُه، سِيرَتُه الْقَصْدُ، وسُنَّتُه الرُّشْدُ وكَلَامُه الْفَصْلُ وحُكْمُه الْعَدْلُ، أَرْسَلَه عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ وغَبَاوَةٍ مِنَ الأُمَمِ**»(٣). ومن الطبيعي أن يكون رسول الله ﷺ بنظر علي هو إمام المتَّقين، لأنه المُلْهِم والمعلِّم والمثل الأعلى، وكل ما عند علي عليه السلام هو من لطف الله تعالى ورعاية رسول الله ﷺ.

لماذا كان عليٌّ دون سواه إمامَ المتَّقين؟

كيف تأهل عليّ عليه السلام لهذا الشرف الكبير والمقام الرفيع بأن يكون إمام أهل التّقى والمثل الأعلى في أخلاقه وهديه وفكره؟

---

(١) في الحديث الذي رواه الصدوق عن رسول الله ﷺ: «.. يا أم سلمة، اسمعي واشهدي، هذا علي بن أبي طالب، سيد المسلمين، وإمام المتَّقين، وقائد الغر المحجلين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»، **الأمالي** للصدوق، ص٤٦٤.

(٢) قال الحاكم بعد أن رواه: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، **المستدرك على الصحيحين**، ج٣، ص١٣٨، ورواه في **المعجم الصغير** للطبراني، ج٢، ص٨٨، ومحاولات البعض الطعن فيه لا قيمة لها.

(٣) **نهج البلاغة**، ج١، ص١٨٥.

أولاً: تربية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

إنّ إمام المتَّقين علياً عليه السلام هو الشخص الوحيد من بين سائر الصحابة، الذي تربى في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصُنع على عينه، وترعرع في بيته وتحت رعايته، وبيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو بيت التّقى والهدى، وهذا ما جعل علياً ابن الإسلام الأوّل، ولذلك قال عليه السلام فيما روي عنه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وسَمِعَ وأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم بِالصَّلَاةِ**»[1].

والسبق إلى الإسلام في ذلك الزمن الذي عمّ فيه الشرك وطغت فيه «قيم الجاهلية» وساد فيه القهر والمعاناة يعدّ فضيلة ما بعدها فضيلة، والتوفيق إليه يكشف عن حسن السريرة والطوية، وسلامة الفطرة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وقد امتاز علي عليه السلام على غيره من الصحابة أنه لم يعرف ديناً غير الإسلام، ولم يسجد لصنم قط، فلم تنجسه الجاهليّة بأرجاسها ولم تلبسه من مدلهمات ثيابها.

وعن علاقته عليه السلام الوطيدة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وملازمته له وقربه منه، قال عليه السلام في الخطبة القاصعة: «**وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ والْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِه وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِه، ويَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِه ويُمِسُّنِي جَسَدَه، ويُشِمُّنِي عَرْفَه، وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه..**» إنّ هذه العناية الخاصة التي حظي بها عليّ وبهذه الأفعال الحميمة التي أحاطه بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي ذات مدلول تربوي رائع، فهي تصرفات يفعلها الأب بابنه، وعلي عليه السلام كان ـ بحق ـ الابن الروحي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روى الفضل بن عباس قال: «سألت أبي عن وُلْدِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذكور، أيّهم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له أشدّ حبّاً؟ فقال: عليّ بن أبي طالب عليه السلام! فقلت له: سألتك عن بنيه، فقال: إنه كان أحبَّ إليه من بنيه جميعاً وأرأف، ما رأيناه زايَلَه يوماً من

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٣.

الدهر منذ كان طفلاً، إلّا أن يكون في سفر لخديجة، وما رأينا أباً أبرّ بابن منه لعليّ، ولا ابناً أطوع لأبٍ من علي له»(١).

ويضيف عليّ عليه السلام في تلك الخطبة متحدثاً عن علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ**»، فهو منذ طفولته عنوان الصدق والاستقامة، وكيف لا وهو تلميذ الصادق الأمين الذي استطرد الإمام عليه السلام في وصفه بالقول: «**وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّه بِه** صلى الله عليه وآله وسلم **مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِه، يَسْلُكُ بِه طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَه ونَهَارَه**»، وهذه الفقرة من كلامه عليه السلام في تلك الخطبة تدل على عناية الله برسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولطفه به ورعايته له، فهو تعالى كان يسدّده قبل النبوة والبعثة، تهيئة وإعداداً له للقيام بهذا الدور العظيم والمسؤولية الخطيرة ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾[المزمل: ٥]. وهذا المقطع من كلامه عليه السلام حول رعاية الملك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتسديده لخطاه يُعدّ ـ بنظر بعضهم ـ شاهداً على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتبعْ قبل البعثة أي شريعة من الشرائع السابقة(٢)، وإنما كان له شريعة تخصّه، وذلك بإلهام وتسديد من قِبَل الله تعالى.

ثم رجع الإمام عليه السلام في تلك الخطبة إلى بيان قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتلمذه عليه: «**ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُه اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه**» فهو لا يفارقه أبداً كما لا يفارق الفصيل ـ وهو ابن الناقة ـ أمَّه، «**يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِه عَلَماً ويَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِه**»، فهو عليه السلام في إفادة علمية وأخلاقية وروحية يومية ومستمرة.

ويضيف عليه السلام: «**ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاه ولَا يَرَاه غَيْرِي**»، وهذا شاهد آخر على قربه عليه السلام الحسّي والمعنوي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. «**ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّه** صلى الله عليه وآله وسلم **وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا**»(٣)، وهذا هو البيت الأول

(١) **شرح نهج البلاغة**، ج١٣، ص٢٠٠.
(٢) بحثنا هذه المسألة بشكل مفصّل في قاعدة **شرع من قبلنا**، فراجع كتاب القواعد النظمة لفقه العلاقة مع الآخر الديني.
(٣) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٥٧.

في الإسلام، وما أجمله من بيت! وجمال البيوت بأهلها وليس ببنائها الفاخر ولا بأثاثها الوفير، وهذا المعنى يدلّ عليه خبر عفيف الكندي، قال: «وردت مكة لأبتاع لأهلي من طيبها وعطرها فأويت إلى العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً تاجراً، فأنا عنده وقد طلعت الشمس وأنا أنظر إذ جاء شاب فقلّب بصره في السماء، ثم ضرب ببصره قبل الكعبة فلم يلبث أن جاء غلام فقام عن يمينه، فلم ألبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فكبر الشاب فكبرا فركع فركعا فسجد فسجدا، فقال: يا عباس أمر عظيم! قال العباس: أمر عظيم! هل تعلم من الشاب؟ قلت: لا، قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، هل تعلم من المرأة؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى سيدة نساء قريش زوجُ ابن أخي، وهذا علي بن أبي طالب ابن أخي، زعم ابن أخي هذا أنّ ربه ربَّ السماوات والأرض أمره بهذا الدين، لا والله ما أعرف أحداً على وجه الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة»(١).

إلى أن يقول عليه السلام وهو يبين قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشدة التصاقه بالرسالة بما لم يصل إليه أحد من الصحابة فضلاً عن غيرهم: «**أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْه** صلى الله عليه وآله وسلم**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه مَا هَذِه الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ**»(٢).

وقد بلغت علاقة علي عليه السلام برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحبّه لمجالسته والإفادة منه حداً غير معهود، بحيث إنّه كان على استعداد ليتصدق بما يملك من أموال ومتاع، لا لشيء سوى أن يحظى بفرصة لقاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومناجاته! وقد نزل في ذلك قرآن خلّد هذه المكرمة، حيث إنّه نزلت آية تعرف بآية النجوى وقد نهت عن مناجاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا بعد تقديم المناجي بين يديه صدقة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾[المجادلة: ١]، وكان علي عليه السلام وحده الذي تصدّق بماله لأجل أن يحظى

---

(١) **المعجم الكبير** للطبراني، ج١٨، ص١٠١، وج ٢٢، ص٤٥٣.

(٢) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٥٧.

بمناجاة النبي ﷺ! وكأنّ هذه الآية أرادت اختبار الصحابة، وقد نجح علي بن أبي طالب وحده في الاختبار، ثمّ شاءت حكمة الله تعالى نسخ هذه الآية المباركة ولم يعمل بها غيره، فيا لها من فضيلة ومكرمة! روى الحاكم النيسابوري بإسناده عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى قال: «**قال علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: **إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ **الآية، قال: كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فناجيت النبي** ﷺ **فكنت كلّما ناجيت النبي** ﷺ **قدمت بين يدي نجواي درهماً، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد، فنزلت:** ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾[المجادلة: ١٣] **الآية**»، وأضاف الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»(١).

إن هذه العلاقة الوطيدة برسول الله ﷺ هي التي أهّلت علياً عليه السلام ليكون في المستوى الأعلى روحياً وفكرياً، وجعلته أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ خُلقاً ومنطقاً وهدياً، وأن يكون امتداداً طبيعياً لرسول الله ﷺ، عِلْمُه من علمه «**لقد علّمني حبيبي رسول اللّه** ﷺ **ألف باب من العلم، يُفتح لي من كلّ باب ألفُ باب**»(٢)، وأخلاقُه من أخلاقه: «**يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْم مِنْ أَخْلَاقِه عَلَماً**»، وشجاعته من شجاعته، «**كنا إذا احمر البأس اتّقينا برسول الله**»(٣). وقد أوجز علي هذه الحالة الاندماجية برسول الله ﷺ، في قوله عليه السلام: «**وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد**»(٤).

ولذا لم يكن مستغرباً على الإطلاق أن يكون علي عليه السلام على استعداد تام أن يبذل نفسه فداءً لرسول الله ﷺ وأن يواسيه بنفسه دائماً، يقول عليه السلام: «**ولقد واسيته بنفسي في المواطن الّتي تنكص فيها الأبطال، وتتأخّر فيها الأقدام، نجدة أكرمني اللّه بها**»(٥).

---

(١) **المستدرك**، ج٢، ص٤٨٢.
(٢) **والخصال** للصدوق، ص٦٤٧، **والاختصاص** للمفيد، ص٢٨٣.
(٣) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٦١.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٧٣.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧١.

ومن أعظم المواطن التي فداه فيها بنفسه عندما بات على فراشه ﷺ يوم الهجرة بطلب من النبي ﷺ، ولم يسأل النبي عمّا قد يتعرض له بهذا المبيت، بل كان همه شيئاً واحداً وهو سلامة النبي ﷺ، فقال عليه السلام مخاطباً رسول الله ﷺ: «**أو تسلم بمبيتي هناك يا نبي الله؟ قال: نعم، فتبسم علي عليه السلام ضاحكاً، وأهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً بما أنبأه رسول الله ﷺ من سلامته**»(١).

ثانياً: ربيب القرآن الكريم

والسِّمة الأخرى التي تفرّد بها عليٌّ عليه السلام وجعلته إمام أهل التُّقى ومرجع الأمة في الدين، هي علاقته المميزة بالقرآن الكريم بحيث إنه ارتوى من معينه، وقد تقدم قوله عليه السلام في الخطبة القاصعة: «**أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ**». وتوضيحاً لهذه الميزة العظيمة والخصوصية الفريدة نقول:

أ ـ إنّ علياً عليه السلام هو من أئمة من أهل البيت عليهم السلام الذين هم عِدْلُ الكتاب الكريم بنص حديث الثقلين الذي أكّد على عدم افتراقهم عنه، «**ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**»، وهذا الحديث المتواتر عن رسول الله ﷺ لا يؤكد على ضرورة الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن فحسب، بل ويضمن أنهم عليهم السلام مرجعيّة مصونة من الضلال والانحراف «**ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً**»(٢)، وأنهم مرجعية لن تفارق الكتاب طرفة عين. وفي خصوص علي عليه السلام، روى الحاكم النيسابوري بإسناده إلى أم سَلَمة عن رسول الله ﷺ: «**عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض**»، ويعقّب على هذا الحديث قائلاً: «هذا حديث صحيح الإسناد.. ولم يخرجاه»(٣).

ب ـ وهو بحكم قربه من رسول الله ﷺ وتلمذه على يديه كان أعلم الناس ـ بعد رسول الله ﷺ ـ بمواقع نزول الآيات، ولعله لم يجرؤ أحد من الصحابة أن

---

(١) **الأمالي** للشيخ الطوسي، ص٤٦٥، ومناقب **آل أبي طالب** لابن شهر آشوب، ج١، ص١٥٨.
(٢) **سنن الترمذي**، ج٥، ص٣٢٩.
(٣) **المستدرك على الصحيحين**، ج٣، ص١٢٤.

يقول: «**سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلّا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل**»(١). وفي نقل آخر: «**سلوني عن كتاب الله (عزّ وجلّ)، فوالله ما نزلت آية منه في ليل أو نهار ولا مسير ولا مقام إلّا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلّمني تأويلها**»(٢).

وعنه عليه السلام قال: «.. **فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأَنِيهَا وأَمْلَاهَا عَلَيَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وتَفْسِيرَهَا ونَاسِخَهَا ومَنْسُوخَهَا ومُحْكَمَهَا ومُتَشَابِهَهَا وخَاصَّهَا وعَامَّهَا ودَعَا اللَّه أَنْ يُعْطِيَنِي فَهْمَهَا وحِفْظَهَا فَمَا نَسِيتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّه ولَا عِلْماً أَمْلَاه عَلَيَّ وكَتَبْتُه مُنْذُ دَعَا اللَّه لِي بِمَا دَعَا..**»(٣).

وهو الذي حرص بعد وفاة رسول الله ﷺ وإقصائه عن موقع الخلافة أن لا يخرج من بيته حتى يجمع القرآن الكريم، ولذا نراه لما سُئل عن سبب عدم خروجه من بيته بعيد وفاة رسول الله ﷺ، قال: «.. **ولكني آليت ألا أرتدي ردائي إلا إلى صلاة حتى أجمعَ القرآن**»(٤).

ج ـ إنّ علياً عليه السلام قد خاض معاركه كلها من أجل القرآن الكريم، وتحكيم مبادئه، وقاتل مرّة على تنزيله وأخرى على تأويله. روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ منكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله قال: فقام أبو بكر وعمر فقال: لا ولكن خاصف النعل، وعليّ يخصف نعله**»(٥).

---

(١) **الاستيعاب**، ج٣، ص١١٠٧، **والجرح والتعديل** لابن أبي حاتم الرازي، ج٦، ص١٩٢.
(٢) **الأمالي** للصدوق ص٥٢٣، **وكتاب سليم بن قيس**، ص٣٣١، **والاحتجاج** للطبرسي، ج١، ص٣٨٨، ورواه ابن الجوزي عنه: «وقال علي: **سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل**»، انظر: **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، ج١ ص٢٤١. وكذلك المتَّقي الهندي في **كنز العمال**، ج٢، ص٥٦٥.
(٣) **الكافي**، ج١، ص٦٤، و**الخصال** للصدوق، ص٢٥٥، **وكمال الدين وإتمام النعمة**، ص٢٨٤.
(٤) **الاستيعاب**، ج٣، ص٩٧٤.
(٥) **مسند أحمد**، ج٣، ص٣٣.

ثالثاً: تهذيب النفس

ولا يمكن لشخصٍ أن يكون إماماً لأهل التقى وقدوة لأهل الصفا إنْ لم يكن في المستوى الأعلى من الورع ومحاسبة النفس والإمساك بزمامها، وكما قَالَ عليه السلام: «**مَنْ نَصَبَ نَفْسَه لِلنَّاسِ إِمَاماً، فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِه قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِه، ولْيَكُنْ تَأْدِيبُه بِسِيرَتِه قَبْلَ تَأْدِيبِه بِلِسَانِه، ومُعَلِّمُ نَفْسِه ومُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ ومُؤَدِّبِهِمْ**»[١].

وهذا ما عُرف عن علي عليه السلام، فقد كان العابدَ الورع المتهجد بالليل، وصاحب الخلوة والأنس برب العالمين، وكان على الدوام في رياضة مستمرة لنفسه، كما سيأتي في كلامه، وفي سعي دؤوب لتهذيبها وتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، وكان عليه السلام لا يتبرم إذا ما أمره أحدٌ بتقوى الله بل يتقبل ذلك برحابة صدر حتى لو كان الآمر لا يملك من الورع شيئاً، وهذا ليس سهلاً على النفس، ولنتصور مثلاً أنّ شخصاً ذا مكانة دينية واجتماعية وظاهره الإيمان والصلاح، يأتيه شخص عادي وربما غير مستقيم ويقول له: يا فلان اتقِّ الله، فكيف يتلقى الموقف؟ هل يتقبل الأمر أم يتملكه الكبرياء؟! إننا نجد الكثيرين في مثل هذه المحطات تتملكهم حالة الغرور، وتأخذهم العزة، لكنّ علياً عليه السلام أجل وأرفع من ذلك، فقد أرسل إليه ذات يوم معاوية رسالة يأمره فيها بتقوى الله تعالى، فكيف تلقى ذلك؟ وماذا كان جوابه؟ أجابه عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ «**فأمّا أمرك لي بالتَّقوى فأرجو أن أكون من أهلها، وأستعيذ باللّه من أن أكون من الذين إذا أمروا بها أخذتهم العزة بالاثم**»[٢]. إن هذه ثمرة طبيعية لمجاهدته عليه السلام لنفسه ومحاسبته لها.

وتعالوا لنصغي بمسامع القلوب إلى ما جاء في الرواية التالية التي تحكي لنا طريقة وكيفية محاسبة علي عليه السلام لنفسه، يقول الشريف الرضي: «ومِنْ خَبَرِ ضِرَارِ بْنِ ضُمْرَةَ الضَّبَائِيِّ، عِنْدَ دُخُولِه عَلَى مُعَاوِيَةَ ومَسْأَلَتِه لَه عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام.. قَالَ فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُه فِي بَعْضِ مَوَاقِفِه، وقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَه وهُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِه، قَابِضٌ عَلَى

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١٦.
(٢) **شرح نهج البلاغة**، ج١٤، ص٤٣.

لِحْيَتِه يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيم، ويَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ ويَقُولُ: **يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ، لَا حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ وخَطَرُكِ يَسِيرٌ وأَمَلُكِ حَقِيرٌ، آه مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وطُولِ الطَّرِيقِ وبُعْدِ السَّفَرِ وعَظِيمِ الْمَوْرِدِ**»(١). هذا هو علي ﷺ في سموه الروحي، لقد طلّق الدنيا وزهد فيها، وحاسب النفس وهذّبها، وأسكن اللهَ تعالى في قلبه فغرس اللهُ حبَّه في النفوس، وجعل له مكانة في القلوب، وتكمل الرواية ـ بحسب ما جاء في بعض المصادر ـ أن معاوية بعد أن سمع كلام ضرار المذكور آنفاً سأله: «فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذُبح ولدها وهو في حجرها»(٢).

ولا يمكن لإمام المتَّقين أن يغفل عن ملاحظة مسلكه ومظهره العام، لجهة ما يتركه ذلك من تأثير على عامة الناس الذين يرى أنّ عليه الأخذ بأيديهم في رحلة الكمال الروحي والمعنوي، فلا يسعه أن يعيش حياة الترف والبذخ، وفي الأمة أكباد حرى وبطون غرثى تحنّ إلى القد، ولو كان ذلك جائزاً من حيث الشرع في العنوان الأولي، ولذا كان يسعى لمواساة نفسه بضعفة الناس، وقد روي أنه لما قاله له عاصم بن زياد: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ!» فأجابه ﷺ قائلاً: «**وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّه تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُه**»(٣). إنّ القائد لا يعقل أن يكون قدوة ومثلاً أعلى إذا كان يعيش حياة الترف ـ كما كان عليه حكام بني أُمية وبني العباس ومن تلاهم من حكام المسلمين وعلمائهم، وصولاً إلى يومنا هذا ـ فيما شعبُه أو كثير من مواطنيه يعيشون حالة الفقر المدقع، فإنّ لهذا تأثيراً سلبياً كبيراً على ارتباط هؤلاء بالدين نفسه فضلاً عن أن ذلك سيؤثر على صدق انتمائهم للدولة والتزامهم بمقرراتها. إن جوع الفقير قد تبلسمه رؤية إمامه وهو يعيش حالة من الزهد الحقيقي، وأما جوعه وهو يرى أموال الله تتداولها طبقة

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١٧.
(٢) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، ج٣، ص١١٠٨.
(٣) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٨٨.

من المترفين والمحظوظين فهو موجع له وقد يؤثر سلباً على أمانته وإخلاصه فيما يتصل بالمال العام، هذا ناهيك عن أن سلوكاً مترفاً لحاكم يعيش معظم شعبه الجوع ويعاني من مرارة الفقر هو خلاف الأخلاقيات الإنسانية والإسلامية، أجل، لو انعكس الحال فأصبح الزمان زمان رخاء عام فليس على الإمام في مثل هذه الحالة حرج في أن لا يلتزم سلوك التقشف البالغ، بل يحق له التمتع بحلال الدنيا، ولهذا ورد في الخبر أن سفيان بن عُيينه قال للإمام الصادق عليه السلام: «يروى أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن من الثياب وأنت تلبس القوهي (نسبة إلى قوهستان/ ثوب فاخر) والمروي؟! **قال: ويحك إن علي بن أبي طالب كان في زمان ضيق، فإذا اتسع الزمان، فأبرار الزمان أولى به**»[1]، بل إنّ اللباس الخَلِق في زمان الرخاء يصبح مظنة الاتهام بتصنع الزهد. ولهذا قال سيدنا الإمام الرضا عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ: «**إنّ أهل الضعف من مواليّ يحبون أن أجلس على اللبود وألبس الخشن، وليس يحتمل الزمان ذلك**»[2].

---

(١) **اختيار معرفة الرجال**، للكشي، ج٢، ص٦٩١.

(٢) **مكارم الأخلاق**، ص٩٨.

(٢)
الرؤية الصحيحة للتقوى والرؤى الخاطئة

التَّقوى لغة مأخوذة من الوقاية، وهي بمعنى الصيانة، يقال: وقى وجهه من النار أي صانه[١]، وقال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾[الإنسان: ١١]، أي جنبهم وصانهم منه، وأما في اصطلاح علم الأخلاق فهي حالة نفسية راسخة تمثّل وقاية وصيانة للإنسان وجُنَّة له تقيه مخالفة شرع الله تعالى.

ومن الأصل اللغوي نفسه أخذت لفظة التقيّة[٢]، فالتقية أيضاً من الوقاية، حيث يسعى الإنسان الآخذ بالتقيّة إلى أن يقي نفسه المتاعب ويجنبها الأذى، بإخفاء معتقده وما يكون إظهاره مضراً به، فهي فعلٌ يحرس الإنسان من الأذى.

١ - كيف يفسر علي عليه السلام التَّقوى؟

وسيدنا علي عليه السلام قد تكلم عن التَّقوى كثيراً، وسنذكر مجمل كلماته بهذا الشأن، والتي يبيّن فيها دلالات التَّقوى، وخصائصها وثمراتها.. ونشير فيما يلي إلى بعض تلك الخصائص:

أ - التَّقوى حصن وملكة

وفي تعريفه عليه السلام للتّقوى وبيانه لأهم خصائصها نجد أنّ علياً يعبِّر عنها بأنها حصن وحرز للإنسان، وهذه الخصوصية لا تبتعد عن المعنى اللغوي للتقوى كما هو واضح،

(١) راجع: **لسان العرب**، ج١٥، ص٣٧٧.
(٢) راجع كلام اللغويين حول ذلك في المصدر نفسه، ج١٥، ص٣٧٩.

أعني التوقّي. فقد ورد في كلام أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «**فإنّ تقوى الله في اليوم الحرز والجُنَّة، وفي غدٍ الطريق إلى الجنة**»(١)، وقال أيضاً: «**إن التَّقوى دارُ حصن عزيز، والفجورَ دارُ حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه**»(٢). فهي حصن للمؤمن يحميه من الوقوع في حبال الشيطان والسقوط في مستنقع الذنوب والآثام. وإذا وصل العبد إلى درجة التَّقوى وتمكنت منه حَمَتْه وحصنته، «**إن تقوى الله حمت أولياء الله مخاوفه**»(٣). إنّ هذا يعني أن التَّقوى إذا تعمقت في النفس وتجذرت وغدا الإنسان من أهلها فإنها ستصبح ملكة راسخة في النفس وتغدو هي الحرز المكين الذي يحفظ الإنسان من الانزلاق والانحراف.

ب - منتهى درجات الكمال

إنّ الإسلام إذ يدعونا ويرغِّبنا بالتَّقوى فهو يقدّم لنا المتَّقي كشخصية نموذجية تجمع فيها مواصفات الإنسان الكامل أخلاقياً وروحياً، ويفترض بالتَّقوى إذا تمّت رعايتها أنْ توصلَه إلى أعلى درجات السمو، بحيث يعانق رضوان الله ومحبته. يقول علي ﷺ: «**إنّ التَّقوى منتهى رضى الله من عباده وحاجته من خلقه، فاتقوا الله الذي إنْ أسررتم عَلِمَه وإن أعلنتم كَتَبَه**»(٤).

ت - الوصول إلى التَّقوى غير ممتنع

ربما يخال الكثيرون من الناس أنّ الوصول إلى حالة التَّقوى صعب وعسير، وأنّها غير متاحة إلا للأوحدي من العباد؟ وقد يتعذر بعضهم هذه الصعوبة، ليبرر لنفسه الانغماس بالمعاصي، وربما أسهم بعض الخطاب الديني التهويلي في تعميق هذه النظرة لديهم، وهو ما يجعل بعض الناس يعزفون عن الاستقامة ويوغلون في إطلاق العنان لغرائزهم وشهواتهم.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٣٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٥١.
(٣) المصدرنفسه، ج١، ص٢٢٤.
(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١٥٤.

بيد أنّ هذه النظرة خاطئة بالتأكيد، والصواب في ذلك أنّ الطريق إلى دار التَّقوى ليس متعذراً ولا متعسراً، والباب ليس موصداً بل هو مفتوح على مصراعيه، ومتاح لكل إنسان أن يدخله، لأنّ العباد مؤهلون لذلك ومُزودون بكل ما يساعدهم على الوصول إليها، بدءاً من الهداية التكوينية المتمثّلة بالفطرة السليمة والنفس اللوامة، ووصولاً إلى الهداية التشريعية المتمثّلة بالرسل وما جاءت به من كتب وتعاليم. ولهذا فإنّ كل من كان ضميره صاحياً ونفسه اللوامة يقظة فإنّ ذلك ينبهه ويصونه من السقوط والانحراف. وإلى هذه الحقيقة يشير الكلام المروي عن علي عليه السلام: «**ألا وإنّ التَّقوى مطايا ذلل، حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنة**»(١).

لكنّ الإنسان الذي انغمس في الدنيا وأطلق العنان لشهواته، وغدا أسيراً لعاداته وغرائزه يصعب عليه الانتقال من ذلّ الشهوة والمعصية إلى عزّ الطاعة والاستقامة، ويكون من الطبيعي والحال هذه أن يجد صعوبة في الوصول إلى مرحلة التَّقوى، فيكون محتاجاً إلى بذل جهد وعناء، وإلى ممارسة رياضة للنفس، ولكن على الرغم من ذلك، فليس الأمر بمتعذر على الإنسان، لأنه إذا صمم على سلوك طريق التوبة ووجد اللهُ تعالى عنده النية الصادقة فإنه سيسدده ويوفقه لبلوغ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[العنكبوت: ٦٩].

إنّ وصول الإنسان إلى مرحلة التَّقوى وإن كان أمراً ميسوراً، لكنّ المشكلة التي تواجه السالك إلى الله تعالى أنّ مغريات الدنيا وتسويلات النفس الأمارة وتزيينات الشيطان قد تعود به القهقرى، وتسقطه من درجة المتَّقين. إنّ الإنسان يبقى هو الإنسان فقد تعتريه الكثير من نقاط الضعف، ويقع تحت ضغط الغريزة وتأثيراتها، وقد تزلُّ قدمه ويخطئ، وهنا يبرز دور التَّقوى، فهي تقوم بدور إنقاذي ينتشل صاحبها من السقوط، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١]، فالتَّقوى تذكره وتنبهه. ومن الطبيعي أنّ هذه المناعة الروحيّة

(١) **نهج البلاغة**، ج١، ص٤٨، **والكافي**، ج٨، ص٦٧.

إذا تصدّعت مرة تلو الأخرى، فإنها قد تزلزل تلك الملكة إلى حدّ إضعافها وربما رفعها وتلاشيها، فلا يشعر بعدها الإنسان بتأنيب الضمير.. إنّ ملكة التَّقوى تُبنى لَبِنَة لَبِنَة، أما سقوطها فقد يكون دفعة واحدة، لأن البناء صعب والتهديم سهل ويسير، وقد تنهار الملكة بالتدريج، أي تنقضّ لبنة فلبنة ورويداً رويداً حتى ترتفع كلياً.

ث - التَّقوى حاجة مستمرة

وحاجة الإنسان إلى التَّقوى هي حاجة مستمرة ولا تتوقف ما دام في الإنسان عرقٌ ينبض، لأنّ المغريات لا تتوقّف والوساوس لا تنقطع، فكما أننا بحاجة إلى الهواء والغذاء والماء ما دمنا على قيد الحياة، فنحن أيضاً بحاجة مستمرة إلى التَّقوى، ومجاهدة النفس، لحفظ الاستقامة، الأمر الذي يفرض على الإنسان أن يبقى في حالة يقظة روحية ورياضة مستمرة للنفس ومراقبة دائمة لحالاتها المعنوية، انخفاضاً وصعوداً. يقول عليه السلام فيما روي عنه: «**إنما هي نفسي أروضها بالتَّقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر وتثبت على جوانب المزلق**»[1]. ونلاحظ أنه عليه السلام في هذه الكلمة قد استخدم فعل المضارع «أروضها» الدال على الاستمرار. وطبيعي أن التَّقوى إذا أصبحت ملكة يسهل عندئذٍ العمل بمقتضياتها، بل يغدو الخروج عن موجباتها والانقياد للغريزة ثقيلاً على النفس المتقية.

٢ - تفسيرات ورؤى خاطئة

وفي مقابل ما تقدم، فإننا نلاحظ أنّ هناك أكثر من تفسير خاطئ للتقوى ورؤية منحرفة تطرح بشأنها، وإليك البيان:

أ - التَّقوى والخوف

يفسر بعض الناس التَّقوى بمعنى الخوف، فـ«اتقِ الله»، تغدو عندهم مرادفة لـ«خفِ الله»، وهذا تفسير لا يخلو من التباس وربما خطأ، إذ ليس ثمة ما يدلّ على أنّ التَّقوى

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٧١.

هي ذلك أو أنها تُختزل بذلك. ناهيك عن أنّ هذا التفسير له تأثير سلبي على رؤيتنا لله تعالى، حيث إنه يدعونا للتعامل مع الله تعالى من موقع الخوف، وربما يقدمه بصفته مخيفاً، مع أنه جلّ وعلا ليس مصدراً أو سبباً للخوف، فهو الرحمة المطلقة، وهو العدل الشامل، وعليه فَلِمَ نخافه؟! وإذا كانت بعض النصوص من الآيات أو الروايات ذكرت موضوع الخوف من الله ودعت إلى الخشية منه[1] فليس ذلك لكونه تعالى مخيفاً، وإنما غرضها تحذيرنا من مغبة أفعالنا السيئة والتي تجعلنا مطرودين من باب الله تعالى، وفي الحقيقة فإنّ علينا أن نخاف من سوء أعمالنا وقبيح خصالنا، كما قال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾[الرعد: ٢١]، ومن هنا فإننا ندعو دائماً إلى ضرورة إعادة النظر في أسلوبنا التربوي الذي يدفعنا إلى أن نخوّف أطفالنا من الله سبحانه وتعالى، بطريقة تجعل صورته جل وعلا في أذهانهم مرادفة لصورة الكائن المخيف! إنّ الأسلوب التربوي الناجح والصحيح هو الذي يحبب أطفالنا بالله تعالى.

وبناءً على ذلك، فإنّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ..﴾[آل عمران: ١٠٢] يدعونا إلى أن نجعل أنفسنا في وقاية وحصن يعصمنا من سخط الله، وهذا الحصن الواقي ليس سوى اللجوء إلى الله نفسه والتحصن بطاعته تعالى والقرب منه والأخذ بشريعته، وأنت كلّما اقتربت من الله أكثر وقيت نفسك وحصّنتها من النار، فهو الذي يقيك، ولذا تتوجه إليه بالطلب قائلاً: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ٢٠١]. إن تقوى الله في العمق تعني أننا نتوقى بالله لا أننا نتوقى من الله، الوقاية ليست من الله بل هي بالله، وأنا لا أتحصن من الله بل أتحصن بالله وأحتمي به ولا أحتمي منه.. ومن ذا الذي يستطيع أن يتحصن أو يحتمي من الله؟!

وبنظرة أخرى يمكن القول: حيث إنّ عذاب الله تعالى الذي نتوقى منه، هو خاضع لقوانين الله تعالى وهو مما قدره الله تعالى للمشركين والعصاة والمتمردين، فيصح لنا التعبير بجملة: إننا نتوقى من الله تعالى، إلا أنّ التعبير الأدق عن عمق هذا المعنى هو

(١) كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾[المائدة: ٣].

الذي ورد في بعض الأدعية: «أعوذ بك منك»، وعلى منواله تقول: إنّنا نتقي بالله من الله، فنحن نعوذ بلطفه ورحمته من غضبه، وهي دعوة إلى أن يعاملنا بلطفه ورحمته لا أن يعاملنا بعدله وإلا هَلَكْنَا.

ب - التَّقوى والعصمة

وربما يحمل بعض الناس تصوراً مبالغاً فيه عن التَّقوى، فهو يتخيّل أنّ التَّقوى ترادف العصمة، وأنّ المتَّقي هو شخص معصوم أو قريب من ذلك، وربما ساعد على انتشار هذا الفهم غير الدقيق للتقوى التفسير التهويلي المتشدّد للدين بحيث جعل التَّقوى أمراً غير متاح، ويصعب الوصول إلى درجة المتَّقين، وهذا يكون سبباً لترك الكثير لسلوك خط التَّقوى، والابتعاد عن الاستقامة، والانغماس في الشهوات والمعاصي، ولكنّ هذه التصور خاطئ بالتأكيد، فالتَّقوى ليست متعذرة، والوصول إليها ليس أمراً غير ميسور، والمتَّقي ليس إنساناً معصوماً، فهو قد يخطئ ويقع في المعصية والفاحشة، ولكنه إذا وقع في ذلك يعود إلى ربه ولا يصرّ على ما فعل، وإليك هذا المقطع القرآني الذي يبيّن هذه الحقيقة، قال ربنا جلّ وعلا: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣]، ثم تشرع الآيات اللاحقة في بيان من هم المتقون، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[آل عمران: ١٣٤ ـ ١٣٥]، فالمتَّقي قد تزل قدماه وقد يقع في الخطأ ويرتكب بعض المعاصي، ولكنه لا يسمح للنفس الأمارة بالسوء أن تتمادى في جره إلى حضن الرذيلة والتمادي في الذنب والإصرار على المعصية، بل إنه يستيقظ ويعود إلى الله ويستغفره ويتوب إليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٦].

ت - «إذا وصلت فاصنع ما شئت»

وثمة خطأ آخر في باب التَّقوى، وهو ذو صلة بمدى الحاجة إلى التَّقوى من حيث الاستمرار والبقاء، وقبل أن نبيّن هذا الخطأ يجدر بنا التأكيد على أنّ ما تقدم عن مخاطر انزلاق المتَّقين وتعرّضهم لمسّ الشيطان، يفرِضُ عليهم الحذر التام، لأنّ الوصول إلى التَّقوى هو إنجاز مهم بكل تأكيد، ولكنّ الأهم هو المحافظة عليها والبقاء في حرزها وحصنها، والبقاء لا يكون بالابتعاد عما حصل به الوصول، وبعبارة أخرى: كما أنّ الوصول إلى تلك الملكة النفسانية التي تحمي صاحبها لا يكون إلا بسلوك طريق مِنْ سِنْخها، بمعنى أنّ الوصول إلى الله لا بدّ أن يكون بالله، فإنه وبعد الوصول لا يجوز الاسترخاء، لأن السقوط وارد، والسقوط قد يكون مدوياً ولا يستطيع معه الإنسان النهوض مجدداً.

وفي ضوء ذلك تعرف الخطأ أو الانحراف الذي وقع فيه بعض الناس ممن تبنوا منهجاً يقول: «إذا وصلت فاصنع ما شئت». فالتَّقوى ترمي إيصال الإنسان إلى حالة اليقين، فإذا وصل فلا يحتاج بعدها إليها، وما حاجة من يَعْبُر البحر إلى السفينة بعد الوصول إلى الشاطئ؟!

ونقول لأصحاب هذا المنهج إنّكم واهمون ومخطئون وذلك لسببين:

أولاً: إنّ «الوصول عند أهل الوصول يعني ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل»[(١)]. بهذه الكلمة المختصرة ردّ ابن أبي جمهور الأحسائي رحمه الله على بعض مدعي الوصول. وهو ردّ رائع ومتين. ومقصوده أنّ الواصل لا يترك العمل الذي كان سبب وصوله، أجل إنّ الواصل يختلف أداؤه للعمل عن غير الواصل، فغير الواصل تراه أثناء العمل منشغلاً بالعمل معجباً به، فتشغله ملاحظة العمل عن ملاحظة ربّ العمل (المعمول له)، بينما الواصل قد تجاوز هذه العقبة فهو يرى أن التطلّع إلى العمل لا يليق في حضرة ربّ العمل، لأنّ مقتضى الأدب أن لا تتطلّع في محضر ذي الجلال إلى غير بهائه وأن لا تنشغل بغير جماله.

---

(١) **المجلي**، ج٣، ص٩٤٢.

على أنّه ما الذي يضمن لك أن تظلّ في مرحلة الوصول إذا تركت العمل؟ فالعمل كما أوصلك إلى هذه المرحلة، فإنّ له وظيفة أخرى، وهي أنه يحميَك من الرجوع القهقرى أو الطرد من ذاك المقام.

وبكلمة أخرى: إنّ النشاط الروحي مطلوب في الطريق ومطلوب بعد انتهاء الطريق والوصول إلى الغاية، فالعمل مطلوب حدوثاً ليوصلك، ومطلوب بقاءً لتحافظ على حالة الوصول، ولهذا يكون القول: «إذا وصلت فاصنع ما شئت» هو من جملة تسويلات الشيطان، أو النفس الأمارة بالسوء والميّالة إلى اللعب والراحة والدّعة وترك النشاط والعمل.

ثانياً: لو كان العمل هو مجرّد مقدمة للوصول وبعدها فلا يبقى له قيمة تذكر لكان الأنبياء والأولياء عليهم السلام هم أوّل من أُثِرَ عنهم ترك العمل أو عدم الاهتمام به ولو جزئياً، لأنّهم عليهم السلام من أهل الوصول، والحال أننا نجدهم أحرص الناس على العمل والمداومة عليه، فهذا عليّ عليه السلام صاحب مقولة «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»، لم يترك العبادة حتى في ذروة نشاطه الروحي.

ث - «إذا عرفت فاصنع ما شئت»

وأما الخطأ الرابع في هذا المجال، فهو الذي يقول صاحبه إنّ التَّقوى إنما يحتاجها من يجهل الإمام عليه السلام ولا يعرفه، وعليه فـ«إذا عرفت فاصنع ما شئت»، والمُراد بالمعرفة هو معرفة الإمام، فمن عرفه فلا حاجة به إلى العبادة!

وهذا أعظم تحريف للدين، وتسلّلت منه الباطنية للتحلّل من التزام الشريعة، وإطلاق العنان للأهواء والغرائز.

ربما يُقال: إنّ مقولة «إذا عرفت فاصنع ما شئت» ليست مقولة لبعض العرفاء أو المتصوّفة ليسهل ردّها ورفض مضمونها، وإنّما هي نصّ كلام وارد في رواية عن بعض الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

والجواب: صحيح أنّ المقطع المذكور وارد في الرواية لكنّه مقتطع من سياقه، ما أوجد فهماً خاطئاً له، وإليك الحديث بأكمله كما ورد في المصادر، فقد روى الكليني بإسناده عن محمد بن مارد قَالَ: «قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللَّه ﵇: حَدِيثٌ رُوِيَ لَنَا أَنَّكَ قُلْتَ: **«إِذَا عَرَفْتَ فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ»**؟

فَقَالَ: قَدْ قُلْتُ ذَلِكَ.

قَالَ: قُلْتُ: وإِنْ زَنَوْا أَوْ سَرَقُوا أَوْ شَرِبُوا الْخَمْرَ!

فَقَالَ لِي: **إِنَّا لِلَّه وإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ! واللَّه مَا أَنْصَفُونَا أَنْ نَكُونَ أُخِذْنَا بِالْعَمَلِ ووُضِعَ عَنْهُمْ! إِنَّمَا قُلْتُ: إِذَا عَرَفْتَ فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ مِنْ قَلِيلِ الْخَيْرِ وكَثِيرِه فَإِنَّه يُقْبَلُ مِنْكَ**»[1].

(١) **الكافي**، ج٢، ص٤٦٤.

(٣)
التَّقوى في مساراتها وأبعادها

وهنا يبرز أمامنا تساؤل مهم: ما هو المسار الذي تتحرك فيه التَّقوى؟ هل التَّقوى تكون في القلب، أم أنّ مداها أوسع من ذلك؟ ثم ما هي أبعادها؟

١ - مسارات التَّقوى

إنّ التَّقوى لا بدّ أن تتحرك في ثلاثة مسارات:

المسار الأول: تقوى العقل

تنبع أهمية هذه التَّقوى من كون العقل هو مصدر التفكير، وهو إمام القلب وقائد الجوارح، فهو يصدر لها الأوامر والنواهي، فإذا كان العقل فاجراً أفسد القلب، ولوّث سلوك الإنسان، ليكون مصدراً للشر والأذى للآخرين.

إنّ ما تعنيه تقوى الفكر:

أولاً: أن توطن نفسك على الانقياد للحقيقة لا للهوى، فلا تنطق إلّا بما يمليه عليك الحق، ولا تكتب إلا حقاً ويقرب من الحق، فلا يكون همك في الجدال أن تفحم الآخر بل أن توصله إلى الهدى، وهذا يعني أنه لا بدّ أن توطن نفسك وتهذبها كي لا تؤثر فيها القبليات والمسبقات الفكرية، ولا العادات ولا الميول، ولا الرغبة في التجديد لمجرد التجديد.. فذلك كله ينافي تقوى الفكر. يحكى ـ والعهدة على الناقل ـ أن الأردبيلي، وقيل العلامة الحلي عندما عزم على بحث مسألة البئر وهل يجب فيه النزح لوقوع النجاسة أم لا ـ ومعلوم أن المسألة في الفقه خلافية ـ وقد كان لديه بئر في داره، وقد

استعمله في طهارته ردحاً من الزمن فيما يشترط فيه الطهارة، وقد خشي أن يكون هذا الأمر سبباً في التأثير على بحثه للقضية، فسدّ البئر الذي في بيته، ثم شرع في بحثها. وأعتقد أننا في كثير من الأحيان بحاجة إلى سدِّ أبواب التأثر بغير الحق من الهوى أو العصبية أو ما إلى ذلك.

وثانياً: أن لا تتبع الظنون في حكمك وقولك، فإنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً، وقد ذمّ القرآنُ الكريم بعضَ اليهود لأنهم يتّبعون الظن وما تهوى الأنفس، فاتباع الظن هو خلاف ما تقتضيه تقوى العقل.

ثالثاً: أن تجعل نتاج عقلك وما يجود به من أفكار هو لله ولخدمة عيال الله، ولهذا فإن كل علم لا يكون كذلك بل تكون نتيجته الإضرار بالمجتمع فهو علم مرفوض، ولا يبارك به الله تعالى، ومن هنا رفض الإسلام العلوم التي لا تنفع العباد، كعلم السحر ـ إن وافقنا على كونه علماً ـ وكذلك يرفض الإسلام تحريك العقل في إنتاج المعادلات الفكرية المنحرفة والتي تبرر الانحراف أو تسوغ الإجرام أو تستهين بكرامة الإنسان.

ومن المهم جداً لمن يفكّر وينتج الفكر ويؤصل المفاهيم أن يحرص على أن يكون ذلك لله، لا للذات ولا للأنا، وهذا تحدٍّ كبير للعلماء والمفكرين والباحثين، فإنّ التحكم بالأنا ومتطلباتها صعب للغاية.

قصة الشهيد الصدر وفلسفتنا

ينقل أستاذنا السيد كاظم الحائري أنه دخل على السيد الشهيد محمد باقر الصدر ذات يوم وبين يديه كتاب «فلسفتنا» وكان الكتاب قد لاقى شهرة واسعة بعد طبعه وشكل رداً قوياً على الفكر الشيوعي، وحيث كان من المقرر قبل طباعته أن ينشر باسم «جماعة العلماء» في النجف الأشرف لا باسم الشهيد الصدر، ولسبب معين لم ينشر باسم الجماعة، (الظاهر أنهم طلبوا تغييراً لبعض الأفكار والسيد الشهيد لم يقبل) ونشر باسم مؤلفه الشهيد، يقول السيد الحائري: وهنا أخذت السيد الشهيد حالة من البكاء، ولما سأله السيد الحائري عن سر هذا البكاء؟ قال: إني أسأل نفسي لو كنت أعلم

من الأول أن الكتاب سيكون له هذا الرواج الواسع فهل كنت أوافق على نشره باسم «جماعة العلماء»؟! لا أدري، إنه يريد النفوذ إلى نيته ليحاكمها ويساءلها: هل كان همي في التأليف هو أن أكون أنا الذي يرد الشبهات عن الدين أما أنّ همي هو أن تُرد تلك الشبهات عن الدين بصرف النظر عمن يردها؟!

رابعاً: وتقوى الفكر تفرض عليك أن لا تسرق أفكار الآخرين، فإذا أعجبتك فكرة طرحها غيرُك، فلا تنسبها لنفسك فهذا نحو من أنحاء السرقة، بل انسبها إلى أصحابها، لأنك لو نسبتها إلى نفسك فأنت لا تخلو من نوع الكذب، ولا نبالغ بالقول: إنّ من أعظم السرقات اليوم هي سرقة الجهود العلمية للآخرين، وفي هذا السياق ننبه إلى أنه لا يجوز أن تكتب بحثاً علمياً وتعطيه لطالب على أنه هو من كتبه لأن في ذلك غشاً للأمة، حيث ستسهم في إنتاج جيل من حملة الشهادات الجهلاء، نعم يجوز لك أن تدربه وتساعده على طريقة إعداد البحث وتسدّد أفكاره.

وإذا راعى العالم هذه الضوابط في بحثه وكلماته وكتاباته عندها يغدو أميناً على الفكر وينتفع بعلمه ويبارك اللَّهُ فيه، وفي الدعاء «**اللَّهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع.. ومن علم لا ينفع**»(١).

المسار الثاني: تقوى القلب

وهي تعني أن تستشعر عظمة الله تعالى في قلبك، وأن يحضر جلَّ في علاه في وجدانك بما يقيك من الانحراف ويحصنك من الانجرار مع النفس الأمارة والهوى، والقرآن الكريم يضيف التَّقوى إلى القلوب، للدلالة على أهميّة القلب ومحوريّتها في مسألة التَّقوى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢].

إنّ دور القلب في العلاقة مع الله دور أساسي، فالإيمان لا يجمد عند حدود العقل بل لا بدّ أن يسري إلى القلب ليمنحه الاطمئنان والسلام ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ

(١) مصباح المتهجد، ص٧٥، ومسند أحمد، ج٢، ص١٦٧.

قَلْبِي ﴾[البقرة: ٢٦٠]. وإنّ القلب المتَّقي هو القلب الطاهر الذي لا ينبض إلّا بالخير، ولهذا نجد أن الأدعية المأثورة تؤكد كثيراً على طهارة القلب، «**اللَّهم طهر قلبي من النفاق**»(١)، وفي دعاء آخر: «**اللَّهم طهّر قلبي من كل آفة تمحق بها ديني وتبطل بها عملي**»(٢)، وفي دعاء ثالث: «**وأبرِءْ قلبي من الرياء والشك والسمعة في دينك**»(٣).

المسار الثالث: تقوى الحواس

إنّ لكل حاسة من حواسنا تقواها، فتقوى العين أن تغضّها عمّا حرم الله النظر إليه، وتقوى الأذن أن لا تستمع بها إلى ما حرّم الله كالغيبة والنميمة ونحوهما، وتقوى الفم والبطن أن لا تدخل فيهما ما حرّم الله من المأكل والمشرب، وتقوى اللسان أن لا تتكلم به فيما حرّم الله من الغيبة والنميمة والكذب والفحش والفتنة، روي عن الإمام علي عليه السلام: «**وَلْيخزِنِ الرجل لسانه. فإنّ هذا اللسان جِموح بصاحبه، والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه**»(٤).

وتقوى اليد أن لا تمدها إلى ما حرّم الله، إما بالاعتداءً على الغير ضرباً أو نحوه، أو بملامسته ملامسة محرمة، أو مصافحته مصافحة محرمة كما في بيعة الظالم.

وتقوى الفرج أن لا تسمح له أن يقودك إلى ما يغضب الله تعالى، ومن هنا ورد عنه عليه السلام: «**من ملك شهوته كان تقياً**»(٥). وقال الشاعر(٦):

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إنّ الجبال من الحصى!

---

(١) **إقبال الأعمال** لابن طاووس، ج١، ص١٧٨.
(٢) **الكافي**، ج٣، ص٤٣.
(٣) **مصباح المتهجد**، ص١٤٣.
(٤) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٩٤.
(٥) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٥٥.
(٦) **مجمع البيان**، ج١، ص٨٣.

٢ - التَّقوى في بُعْدَيها الفردي والاجتماعي

وفي تصنيف آخر للتَّقوى، يمكننا أن نتحدث عن نوعين: التَّقوى الفردية والتَّقوى الاجتماعية، وإليك شيء من التفصيل حول ذلك:

أ - التَّقوى الفردية

من البديهي أنّ كل فرد منّا مسؤول عن بناء نفسه، وهو معني بأن يزكّيها ويهذّبها، ومدعو ليحملها على ما يرضي الله تعالى، وقد لخّصَ بعض الأئمة ﷺ التَّقوى بكلمة، فقد سئل عنها؟ فأجاب: «**أن لا يفقدك اللَّه حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك**»(١).

إنّ المتَّقي هو الإنسان الذي يُكرِم نفسه ولا يهينها، وهو الذي يحسن إليها ولا يسيء لها، فإنّ المعصية ليست في واقع الأمر سوى إذلال للنفس وتوهين لها، كما قال أبو ذر فيما روي عنه، فقد كتب رجل إلى أبي ذر رضي الله عنه، يا أبا ذر أطرقني بشيء من العلم، فكتب إليه: «العلم كثير، ولكن إن قدرت أن لا تسيء إلى من تحبه فافعل، قال فقال له الرجل: وهل رأيت أحداً يسيء إلى من يحبه؟! قال له: نعم، نفسك أحبُّ الأنفس إليك فإذا أنت عصيت الله فقد أسأت إليها»(٢).

وتقوى الفرد هي الأساس لتقوى المجتمع، لأن المجتمع هو مجموع هؤلاء الأفراد والأشخاص، فإذا حرص كل واحد على سلامة نفسه وتُقاها فإن ذلك سيؤدي إلى سلامة المجتمع برمته.

ب - التَّقوى الاجتماعية

وبالإضافة إلى مسؤوليتنا عن بناء الفرد على أساس التَّقوى، فثمة مسؤولية أخرى، وهي مسؤولية نشر ثقافة التَّقوى في المجتمع وحَمْل الآخرين عليها، وهذه المسؤولية بالإضافة إلى أنها فعل دعوة إلى الله وإلى الخير، فهي في الوقت عينه تمثل حماية للفرد

---

(١) نسبه بعض العلماء إلى الإمام الصادق عليه السلام، انظر: **نور البراهين** للسيد نعمة الله الجزائري، ج١، ص٢٠٤، ونسبه المحقق الأردبيلي إلى أهل البيت عليهم السلام، انظر: **زبدة البيان في أحكام القرآن**، ص٨، وفي **البحار** أنه عليه السلام سئل فيما المروة؟ فأجاب بما ذكر، **بحار الأنوار**، ج٧٥، ص٣٤٩.

(٢) **الكافي**، ج٢، ص٤٥٨.

نفسه وللبيئة التي يعيش فيها، فإنّ المسلم لا يعيش في جزيرة معزولة عن الآخرين، وتقاه لن تكون ذات ثمرة كبيرة وقد لا تبقى طويلاً، إن لم يسعَ إلى حمل الآخرين عليها ويدعوهم إليها، وينبغي أنّ يُعلم أنّ الإسلام لا يؤمن بمنطق «نفسي نفسي والنجاة من النار»، ولهذا تقع علينا مسؤولية دعوة الآخرين إلى الله تعالى، وحملهم على الفضيلة وإبعادهم عن الرذيلة، وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة أفضل السبل لنشر ثقافة التَّقوى، وذلك في مقابل الوسائل الكبيرة والمتعددة التي تعمل على نشر الرذيلة والانحطاط الأخلاقي في المجتمعات، وتحرض على المجاهرة بارتكاب المعاصي وانتهاك الحُرمات، وطبيعي أنّ هذا الجهد لا ينوء به الفرد وحيداً، وإنما يحتاج الأمر إلى مؤسسات تخطيطية وأجهزة تنظيمية وكوادر يتحلّون بالكفاءة التامة للعمل على ذلك.

وقد نصّ الذكر الحكيم على أنّ تربية الآخرين على التَّقوى هي من مسؤولية كل مؤمن، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ**﴾[التحريم: ٦]، إنّ كل مؤمن مسؤول عن نفسه وبيته، وإذا كان الشخص رسولاً أو إماماً أو قائداً فهو مسؤول عن الأمة، وقد تتوسع المسؤولية لتصل إلى البشرية جمعاء، ولهذا وجدنا أن الأنبياء عليهم السلام قاطبة حملوا لواء الدعوة إلى تقوى الله، لاحظوا ما جاء في سورة الشعراء على لسان أكثر من نبي من الأنبياء عليهم السلام: ﴿**إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[الشعراء: ١٠٦]، ﴿**إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[الشعراء: ١٢٤]، ﴿**إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[الشعراء: ١٤٢]، ﴿**إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[الشعراء: ١٦١].

ومن جميل ولطيف ما اشتملت عليه هذه الآيات هو التعبير عن العصاة والمجرمين والمكذبين بالنبي عليه السلام بأنهم أخوة للنبي عليه السلام «أخوهم» لينبهنا الحق من خلال هذا التعبير على أنّ هذا الفاسق والمنحرف والمقصر هو مهما كان أخٌ لنا في الإنسانية، وعلينا أن نهتم به ونتحمل مسؤولية دعوته إلى الله تعالى كما نهتم بدعوة أخينا النسبي.

أين نختبر تقوانا؟

إنّ التَّقوى لا تختبر ويعرف صدقها من زيفها بمجرد صَلَاتنا وصيامنا وحَجِّنا، وإنما تختبر التَّقوى في ميادين أخرى:

أولاً: إنّ شبكة العلاقات الاجتماعية هي المختبر الحقيقي لإيماننا وصدق تقوانا واستقامتنا، إذ ما أسهل أن تكون متقياً وأنت في بيتك أو معبدك بعيداً عن معترك الحياة، لكن ماذا سيكون حالك لو عاشرت الناس ودخلت معترك الحياة، ووجدت أن هذا يشتمك ويسيء إليك، وذاك يسرقك ويطمع فيك، وثالث يكذب عليك ويغشّك، ورابع لا يفي بوعده ولا عهده معك، وخامس يتعامل معك بغلظة، فهل تبقى تقواك عندئذٍ معك أم تغادرك إلى غير رجعة؟ قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

وعن الإمام الباقر عليه السلام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**إن لأهل التَّقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد..**»[(١)]، ويستفاد من كلامه هذا أنّ الميدان الأبرز لاختبار إيماننا ليس الصلاة والصيام، وإنما في العلاقات الاجتماعية، ولهذا إذا أردنا أن نكون من أهل الورع والتَّقوى فلا يجوز أن نترك شيئاً في ذمتنا من حقوق الناس المادية والمعنوية، فحقوق الناس ثقيلة في الميزان الإلهي، فهو قد يتجاوز ويعفو عن حقوقه الخاصة، لأنّه العفو الكريم، لكنّ حقوق العباد تحتاج إلى عفو صاحب الحق نفسه، ولذلك لا بدّ من الالتفات إلى الديون وعدم التساهل فيها، فإنا نرى أنّ كثيراً ممن يحسبون أنفسهم في عداد المؤمنين المتَّقين، يقترضون من الآخرين ثم يهملون سداد الدَّين ويتناسونه، وربما كان بعضهم بانياً على عدم السداد من أول الأمر، وهذا أمر خطير عند الله تعالى، وإذا حلّ وقت الدَّين فلا يجوز للمقتدر التسويف في سداده، في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مطل الغني ظلم**»[(٢)] وإن لم تكن قادراً فيفترض بالدائن أن يمهلك، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[البقرة: ٢٨٠]، إنّ بعض

(١) **الخصال**، ص٤٨٣.
(٢) **تحف العقول**، ص٢٦٧، **سنن الدارمي**، ج٢، ص٢٦١.

الأشخاص يكون مديناً ويستحقّ دَين الآخرين، ويطلبونه منه، مع ذلك وبدل سداد الدّين يذهب إلى الزيارة!! من قال لك إن هذه الزيارة تُقبل منك! إنّ حقوق الآخرين ولا سيما النساء هي من أهم ما يُختبر به إيماننا، ألا ترون أن بعض المؤمنين غير مستعد أن يبتلع نقطة ماء لأنها تضرّ بصيامه، لكنه مستعد ان يبتلع حقوق أخواته أو مهر زوجته دون أن يرمش له جفن!!

ثانياً: وثمّة ميدان آخر نتبين به صدق إيماننا وتقانا، ألا وهو حفظ النظام، فالإنسان لا يكون متقياً إذا كان يعتدي على الطريق العام أو يرمي النفايات في الفضاء العام أو يسرق المياه أو الكهرباء دون أن يدفع فاتورة ذلك، أو يركن سيارته في وسط الطريق ويخلق مشكلة سير خانقة!! عن علي عليه السلام: «**عباد الله اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم**»[1].

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٨٠

(٤)
ما هو السبيل إلى التَّقوى؟

ذكرنا سابقاً أنّ وصول العبد إلى امتلاك الروح التقوائية أمر ميسور وليس متعذراً، ولكن الأمر يحتاج إلى إرادة وجدٍّ واجتهاد، فالدرجات العليا لا ينالها الكسالى، والسؤال الذي يطرح نفسه في المقام: ما هي الطريق التي توصل العبد إلى درجة المتَّقين؟

١- الالتفات إلى أهمية التَّقوى في حياتنا

إنّ ثمة أمراً تمهيدياً وأساسياً في المقام إذا لم نلتفت إليه فلن نضع خطانا في مسار أهل التَّقوى، وهذا الأمر هو إحساسنا بأهميّة امتلاك هذه الروح التقوائية، وفضيلة الوصول إلى تلك الدرجة الرفيعة. إننا إذا لم نشعر بأهمية ذلك فلن نطلب ذلك الشرف ولن نسعى في سبيل تحصيله، لأنّ الجاهل بالشيء لا محرك له نحوه ولا حافز عنده تجاهه، ومن لا يحسّ بالعطش لن يطلب الماء.

وأعتقد أنّ الإنسان السليم ذا الفطرة السوية ينبغي أن يدرك ضرورة حضور الله في حياته وأهميّة أن يعيش حالة التَّقوى والاستقامة، وهذا الإدراك فطري، وما علينا سوى الحرص عليه والعمل على تنميته، والانسجام مع مقتضياته، وأن لا نسمح له بأن يغادرنا، وبالأحرى علينا أن لا نسمح لأهوائنا وشهواتنا أن تعبث بنا وتتملكنا فيغادرنا ذاك الإحساس الفطري النقي.

وعلينا في هذا المجال استغلال الفرص التي تهيِّئنا للسير في خط التّقى قبل فوات الأوان، أكانت فرصة زمنية أو مكانية أو مرحلة عمرية، كمرحلة الشباب، فعن رسول الله ﷺ: «**يا علي بادر بأربع قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك،**

وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك»(١)، ومرحلة الفتوّة والشباب هي أعظم فرصة للنجاح، لأنّ روح الشباب وفطرته النقيّة تجعل الإنسان أكثر تفاعلاً وحيويّة في السير والسلوك نحو الله تعالى، وأشدّ ارتقاءً بالعبادة من غيره من الناس، ومن هنا ورد في الأحاديث النبوية الشريفة امتداح الشاب العابد، فعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**سبعة في ظلّ عرش الله عزّ وجل يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ، ورجل تصدّق بيمينه فأخفاه عن شماله، ورجل ذكر اللَّه عز وجلّ خالياً ففاضت عيناه من خشية الله عز وجل، ورجل لقي أخاه المؤمن فقال: إنّي لَأُحِبُك في اللَّه عزّ وجل، ورجل خرج من المسجد وفي نيته أن يرجع إليه، ورجل دعته امرأة ذات جمال إلى نفسها، فقال: إنّي أخاف اللَّه رب العالمين**»(٢).

٢ - الحذر من لصوص الطريق

والأمر الآخر الذي علينا التنبه له والحذر منه، هو لصوص الطريق، فإنّ الطريق إلى الله تعالى والوصول إلى درجة التَّقوى محفوفة بالمخاطر وملأى باللّصوص وقطّاع الطرق ورفاق السوء الذين يعملون على إضلال الناس، ويزيّنون لهم المعاصي، ويوسوسون لهم، ويسعون إلى حجبهم عن الله تعالى، هذا ناهيك عن النفس الأمّارة بالسوء التي تزيّن لصاحبها ترك الطاعة وفعل المعصية.

قال الشاعر:

إِنــي بُـلِـيـتُ بِــأَرْبــعٍ مَــا سُـلِّـطُـوا ... إِلاَّ لأَجْــلِ شَــقَــاوَتــي وَعَــنَــائِــي
إِبْـلِـيْـس والــدُنْــيَـا ونَـفْـسِـي وَالــهَــوَى ... كيفَ الـخَـلاصُ وكُـلُّـهُـم أَعْـدَائِــي(٣)

ولكل واحدة من هذه الأربع درع يستطيع الإنسان إذا لبسه أن يحمي نفسه من مكائدها، وفي ثنايا البحوث الآتية سوف نذكر كثيراً من وسائل الاحتراس التي تحصن الإنسان من ذلك.

---

(١) **من لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص٣٧٥.
(٢) **الخصال**، ص٣٤٣، **وصحيح البخاري**، ج٢، ص١١٦.
(٣) **المواعظ العددية**، ص٦١١.

٣ - الطريق المشروع للوصول إلى حالة التَّقوى

ونأتي إلى السؤال المهم في المقام، كيف السبيل لاكتساب صفة التَّقوى؟

في البداية، لا بدّ من إلفات النظر إلى أنّ الذي يحدّد لنا الطريق ويبيّن معالمه هو الله تعالى، لأنه الأعلم بذلك منا، هو الأعلم بنوازعنا وأهوائنا، والأعلم بحالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، وكيف لا يكون كذلك وهو خالقنا، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤] وهو الأعلم أيضاً بمطبات الطريق وصعوباته، وعليه، ليس بإمكاننا أن نبتكر طريقاً من عند أنفسنا، والله تعالى لم يخلقنا ويتركنا تائهين في صحراء الجهل والضلال لا نعرف السبيل، كلا وحاشاه، بل إنه رسم لنا معالم الطريق، ووضع لنا من خلال رسله وكتبه المقدسة منظومة متكاملة توصلنا إلى أعلى درجات الكمال المعنوي، لذا كان هو المرجع الصالح لتحديد الطريق.

وإذا اتّضح ذلك فإننا نسأل ما هو الطريق المشروع والمستفاد من الكتاب والسنة للوصول إلى التَّقوى؟

يمكن القول: إنّ الطريق الشرعي يعتمد الخطوات التالية، أولاها: العمل على تخلية النفس من الرذائل، وتحليتها بالفضائل والأعمال الصالحة، وصولاً إلى التجلية والصفاء الروحي. فهي إذن تخلية + تحلية = فتجلية. والخطوتان الأوليان ليستا طوليتين، بل لا بدّ أن تسيرا معاً وبشكل متزامن، إن الإتيان بما يسمى التحلية قد يساعد على التخلية والتخلص من الرذائل.

ترك الحرام والمعاصي (التخلية)

إنّ كثيراً من الناس يدركون خطأهم وأن ابتعادهم عن الله هو عمل غير صائب، وأن لأنفسهم عليهم حقاً، لكنهم يسوّفون ويهملون ويلههم الأمل، وتشغلهم هموم الدنيا، إن الأمر بحاجة إلى وقفة وانعطافة في حياتنا، لأن الآخرة هي مستقبلنا.

وقد أخبرنا الله تعالى أنّ الآخرة هي المستقبل الأبقى والأوفى، وأنه لا قيمة للدنيا

وأعمالها وأموالها وجاهها إن خسر الإنسان الآخرة، قال الله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[الأعلى: ١٦ - ١٧]، إنّ زاد الآخرة هو كلّ عمل يقرّبنا من الله تعالى ويرضيه عنّا ويبعدنا عن غضبه ونقمته. إنّ زاد الآخرة هو تقوى الله، قال الله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[البقرة: ١٩٧].

امتثال أوامر الله (التحلية)

ولا تقوى بدون امتثال أوامر الله ونواهيه، والإتيان بواجباته التي افترضها على العباد، وأولى تلك الواجبات: الصلاة، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام وهو مروي عن الإمام الرضا عليه السلام أيضاً: «**الصلاة قربان كل تقي**»[1]. فلا يمكن أن تكون متقياً بدون صلاة، أو بصلاة ميتة، كما يفعل كثيرون من أبناء هذا الجيل الذين يستهترون بالصلاة، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]، فالصلاة هي القربان، وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى، وكما أن الصلاة توصل الإنسان إلى حالة التَّقوى، فإن الصوم كذلك، وقد نصّ الذكر الحكيم على أن الصوم يسهم في وصولنا إلى التَّقوى، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣]، والصوم إنما يسهم في هذه النتيجة، لأنه يعلم الإنسان ضبط الشهوة والغريزة والإمساك بالهوى والسيطرة على الأنا، وتلك أولى درجات تهذيب النفس.

٤ - طرقٌ غير مشروعة[2]

وثمة طرق غير مشروعة وفي الحد الأدنى لا يُنصح بها في الوصول إلى حالة التقى، بما تتضمّن من قيود كثيرة، ومن هذه الطرق:

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٣٤، وروي ذلك عن الإمام الرضا عليه السلام، **الكافي**، ج٣، ص٢٦٥.
(٢) لقد تكلمنا عنها بتفصيل في كتاب: **مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم**، فراجع.

الأول: التصوّف الخاطئ

إنّ البعض فهم التَّقوى بطريقة خاطئة تتلخص بأمرين خاطئين: الأول: الابتعاد عن الناس أو العزلة عنهم، والثاني: الانقطاع عن الدنيا وملذاتها، حتى لا تتلوث نفوسنا بملوثاتها وزخارفها، وهو ما جعل المؤمن يفضل الابتعاد عن الاختلاط بالناس، ليلوذ بالعزلة بما يحفظ إيمانه وتقاه، وهذا الأسلوب هو ما اعتمده بعض الزهاد لحماية إيمانهم وورعهم.

ولكننا نعتقد جازمين أنّ الوصول إلى الله تعالى لا يوجب ـ إطلاقاً ـ انقطاع المسلم عن الدنيا وملذّاتها، ولا يحتّم عليه أن يمتنع عن التواصل مع الناس، فالمؤمن يمكنه ـ بالإضافة إلى الالتزام بالواجبات العباديّة ـ أن يخصّص وقتاً لمناجاة ربه في الليل ـ كما هو المستحبّ ـ أما في النهار، فإنّ عليه أن يتحرّك فيه فيما يهمّه وما يعنيه من شؤون الحياة ومتطلّباتها، وهذا ما علّمه الله لنبيّه ﷺ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾[المزمل: ٦ ـ ٧]، ففي اللّيل يخصّص المتَّقي وقتاً لينطلق في سياحة روحيّة تعرج به إلى الله تعالى، وفي النهار ينطلق ليتحرّك في مسارات الحياة الاجتماعية والسياسية والتجارية، ويسعى لتأمين مستلزمات العيش الكريم، له ولعياله، فيأكل ويشرب ويتزوج ويستعمل الطيب، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٢].

وفي الحديث عن علي عليه السلام: **«واعْلَمُوا عِبادَ اللَّه أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وآجِلِ الآخِرَة، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، ولَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ، سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِه الْمُتْرَفُونَ، وأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَه الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ والْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّه غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ ولَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ»**[1].

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٢٧.

هذه هي النظرة المتوازنة للأمور، إنه توازن بين متطلّبات الدنيا ومتطلّبات الآخرة، وهذا ما يؤمن للإنسان السعادة في الدارين، فهو يتطلّع إلى الآخرة ويحسب حسابها في كل ما يُقدِم عليه، ولكنه لا ينسلخ عن الدنيا ومتطلباتها.

قصة الإمام عليه السلام مع الأخوين علاء وعاصم ابني زياد

وقد حدث مع أمير المؤمنين قصة جميلة ومعبّرة عند دخوله البصرة، مع شخصين أخوين، لكل منهما سلوك يغاير سلوك الآخر، فأحدهما توسع في الأخذ بالدنيا والاستمتاع بحلالها فبنى قصراً واسعاً، والآخر ضيّق على نفسه واعتزل العباد، وهجر الأهل والعيال وعاش حياة الزهد والتقشف، فما كان منه إلّا أن وجّه الاثنين إلى السلوك الصحيح، وإليك هذه القصة كما وردت في نهج البلاغة، فقد ذكر الشريف الرضي أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام دخل وهو في البصرة على العلاء بن زياد، وهو من أصحابه يعوده، فلما رأى سعة داره قال: «**مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِه الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ، وبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ، تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ.** فَقَالَ لَه الْعَلَاءُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ، قَالَ: ومَا لَه؟ قَالَ: لَبِسَ الْعَبَاءَةَ وتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا! **قَالَ: عَلَيَّ بِه**، فَلَمَّا جَاءَ، **قَالَ: يَا عُدَيَّ نَفْسِه لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ، أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ ووَلَدَكَ! أَتَرَى اللَّه أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وهُوَ يَكْرَه أَنْ تَأْخُذَهَا؟! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّه مِنْ ذَلِكَ**، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ! قَالَ: **وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّه تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُه**»[(١)].

الثاني: طريق العرفان المزيّف[(٢)]

والطريق الآخر الذي تعتمِدُ عليه عمليّةُ التهذيب هو ما يمكن تسميته بأسلوب

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٨٨.

(٢) في مقابل العرفان الحقيقي.

العرفان المزيف، وهو الذي تعتمده بعض الجماعات التي تدعو الشخص المنتسب إليها إلى إحصاء زلّاته وأخطائه في سجلّ خاص، ثمَّ يَعْرِضُ ذلك على شيخه لتقييمها، ليعمل على توجيهه وإرشاده! وهذا أسلوب غير مشروع، بل إنّه يتنافى مع التعاليم الإسلامية الآمرة بالستر وعدم فضح الإنسان نفسه أمام الآخرين على قاعدة «إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا».

وأغرب من ذلك، هو الأسلوب الذي نُقل عن البعض دعوة أتباعه إلى الأخذ به، وهو يتمثّل في دعوة الرجال ـ مثلاً ـ إلى تعمّد النظر في وجوه الحسان من النساء والتأمّل في مفاتنهن، والخلوة بهن، مع عدم وجود رابط شرعي بين الطرفين، بل إنّ بعضهنّ من المحصنات، شريطة أن يترافق ذلك ويتزامن مع السعي التام وبذل الجهد في إماتة الغريزة الجنسية وتدريبها على عدم الانجذاب الغرائزي إلى الجنس الآخر. وذلك على قاعدة أنّ «العين لا ترى نفسها إلا بمرآة»، والمرأة الأجنبية هي المرآة التي يختبر المؤمن إيمانه وإرادته من خلال النظر إليها، ووصل الأمر بهؤلاء إلى حدّ الدعوة إلى ما يسمونه «الزواج الروحي»، وهو عبارة عن علاقة بين الجنسين يزعمون أنّها علاقة روحيّة بحتة ويتواصل فيها الطرفان مع عدم وجود رابطة شرعية بينهما، ويتحادثون ويخرجون في نزهات مشتركة!

فهذا الأسلوب المبتدع ليس من منهج القرآن ولا منهج رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام في شيء، ولا من سيرة العرفاء الحقيقيين في شيء. إنّ العرفان الحقيقي يعتمد الأساليب المشروعة في عملية تهذيب النفس وإصلاحها، ولا يلتمس مثل هذه الأساليب الملتوية والمشبوهة، والتي قد تعدّ باباً من أبواب الانحراف أكثر ممّا قد تساعد على تهذيب النفس، فالقرآن الكريم يدعو المؤمنين والمؤمنات إلى غضّ أبصارهم عند النظر إلى الجنس الآخر، لأنّ ذلك أزكى لنفوسهم وأطهر لهم، ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾[النور: ٣٠ ـ ٣١].

الثالث: طريق اليوغا

وثمة طريق آخر شائع اليوم، ويستهوي بعض المؤمنين، وهو طريق اليوغا، ونحن يتملكنا العجب من بعض المؤمنين ممّن يفتّش عن الراحة النفسية فيما يسمى باليوغا، وهي ليست أعمالاً رياضية بحتة، وإنما قد تكون مبنية على خلفية فكرية وربما يمارس فيها طقوس غير إسلامية، وما الحاجة بنا إلى سلوك هذا الطريق! إنّ من يمتلك هذا الزاد العظيم من أدعية أهل البيت عليهم السلام ولا سيما أدعية الصحيفة والمناجاة الشعبانية ودعاء كميل ودعاء أبي حمزة الثمالي وغيرها، هل يبقى بحاجة بعدها إلى اللجوء إلى اعتماد وسائل أخرى لتحقيق الراحة النفسية؟!

ولو أننا عملنا على «تسويق» ما لدينا من تراث روحي وتقديمه بقالب جذاب يناسب أبناء هذا الجيل، لاستطعنا أن نستغني عن الرجوع إلى الأساليب والطرق غير المشروعة، ولأظهرنا للعالم أجمع حُسن هذا الدين وجامعيته.

(٥)
ثمرات التَّقوى وآثارها

إنّ الأخذ بالتَّقوى والتزامها في الحياة له ثمار جليلة وآثار طيبة على الفرد والمجتمع، ويمكن تصنيف هذه الآثار إلى: الآثار الدنيوية والآثار الأخروية، وقبل عرض هذه الثمار نتقل كلاماً لبعض العارفين أورده الشيخ البهائي (١٠٣١هـ) في الكشكول، قال: «قال بعض العارفين: إنّ خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهي التَّقوى، انظروا ما في القرآن الكريم من ذكرها، فكم علق عليها من خير ووعد لها من ثواب وأضاف إليها من سعادة دنيوية وكرامة أخروية لنذكر لك من خصالها وآثارها الواردة فيه اثنتي عشرة خصلة:

الأولى: المدحة والثناء قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦].

الثانية: الحفظ والحراسة قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾[آل عمران: ١٢٠].

الثالثة: التأييد والنصر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾[النحل: ١٢٨].

الرابعة: النجاة من الشدائد والرزق الحلال، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[الطلاق: ٢ ـ ٣].

الخامسة: صلاح العمل قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

السادسة: غفران الذنوب قال تعالى بعد قوله: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾[الأحزاب: ٧١].

السابعة: محبة الله تعالى قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ٧٦].

الثامنة: قبول الأعمال قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧].

التاسعة: الإكرام والإعزاز قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

العاشرة: البشارة عند الموت قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[يونس: ٦٣ ـ ٦٤].

الحادية عشرة: النجاة في النار قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾[مريم: ٧٢].

الثانية عشرة: الخلود في الجنة قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣] فقد ظهر أنّ سعادة الدارين منطوية فيها ومندرجة تحتها، وهي كنز عظيم وغنم جسيم وخير كثير وفوز كبير»(١).

وتفصيلاً لثمرات التَّقوى وآثارها الطيبة نشير إلى ما يلي:

١ - الأثر الأخروي

إن الثمرة الأرقى والأعلى للتقوى، هي العاقبة الأخروية، وهي رضوان في دار السلام، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاد: زاد مبلغ ومعاد منجح**»(٢)، وفي تصوير رائع لهذه العاقبة، يقول تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[ق: ٣١] ما أجمل هذه الصورة! لنتصور أن الجنة بنفسها تُقرَّب نحو المتَّقين وتساق إليهم، فلا يحتاجون إلى عناء المشي إليها، وهذه المسافة المتبقية للدخول إليها تأخذهم إليها الملائكة بكل احترام، حتى إذا أشرفوا عليها وجدوا أبوابها مفتّحة وكأنها تنتظرهم، قال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣].

---

(١) **الكشكول**، الشيخ البهائي العاملي، ج٢، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) **نهج البلاغة**، ج١، ص٢٢٣.

إنَّما يتقبل الله من المتَّقين

إنّ وصول الإنسان المتَّقي إلى هذه العاقبة الجليلة والخاتمة السعيدة التي لا يعدلها شيء على الإطلاق، هو أمر رهن أيدينا واختياراتنا في هذه الدنيا، وما علينا إلا أن نتهيأ لذلك ونعمل له من الآن، شريطة أن يكون عملاً خالصاً لوجه الله، إنّ العمل في ميزان الله تعالى ليس بكميته وإنما هو بنوعيته ومقصده، فلا قيمة لعملٍ لا يراد به وجه الله سبحانه. إنّ أعمالنا تكتسب قيمتها بصدورها عن تقوى الله تعالى.

وقد قدم لنا القرآن الكريم مثلاً معبراً يشير فيه إلى هذه الحقيقة، وهو مثل ابني آدم، قال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]، إنّ الآية ـ كما تلاحظ ـ تتحدث عن أنّ كل واحدٍ من ابني آدم قابيل وهابيل قد قام بعمل مشابه لعمل الآخر بحسب الظاهر ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾، لكنّ مع ذلك فإن الله تعالى تقبل من أحدهما وهو هابيل ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل، لكن لماذا لم يتقبل من قابيل؟

ليس في الأمر أي اعتباطية، وإنما السر في ذلك يكمن في أنّ أحدهما (هابيل) قد انطلق في قربانه من موقع التَّقوى، فكان عمله خالصاً لله تعالى، ولا يرجو به إلا رضوان الله، بخلاف (قابيل) فإنه لم يكن متقياً، وقدم القربان لا لله تعالى، ولهذا لم يتقبل الله قربانه، وهنا وبدل أن يراجع قابيل حساباته، عزم على قتل أخيه، وتوعده قائلاً: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، بيد أنّ أخاه أجابه: ولِمَ تقتلني وبما جنيت عليك؟! أتقتلني لأن الله تقبل قرباني ولم يتقبل قربانك؟! إنّ الله لم يتقبل قربانك لأنك لست متقياً، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وإنّ ردة فعل قابيل هذه المتمثلة بتهديده لأخيه بالقتل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ هي خير شاهد على عدم تقواه، في المقابل، فإن الدليل على تقوى هابيل أنه قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ٢٨].

إنّ آية ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تهزّ كيان الإنسان حقاً، وتدفعه لتركيز النظر على نوعية العمل لا على كميته، وأن يحدق في نيته حين العمل، بدل أن يحدق في كثرة

العمل وتراكمه كماً، لأنه كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيّات**»(١)، فما لم يكن عملك لله تعالى فلن يُقبل منك.

وقصة قربانَيْ ابني آدم هذه، قد حدث نظيرها في صدر الإسلام، وهي قصة قربانين أو عملين خيريين أيضاً، عنيت بذلك قصة المسجدين اللذين بُنيا في المدينة المنورة من قبل جماعتين من الأنصار، حيث إنّ ظاهر الأمر أنّ كل جماعة بنت مسجداً للصلاة للتقرب إلى الله تعالى، ولا فرق بين مسجد وآخر، وتأكيداً على هذا الخلوص لله في تقديم القربان طلبت كل جماعة من النبي ﷺ أن يصلي في مسجدها، وقد استجاب ﷺ لإحداهما فصلى في مسجدها، ووعد الأخرى بالصلاة في مسجدها أيضاً بعد عودته من بعض غزواته، لكن الله تعالى أوضح لنبيه ﷺ وكشف للأجيال كلها حقيقة الأمر في بناء المسجدين، وهي أنّ أحدهما وهو المسجد الذي صلى فيه النبي ﷺ هو مسجد بني على التّقوى، وهو مسجد قباء المعروف إلى يومنا هذا، قال تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: ١٠٨]. وأنّ المسجد الآخر هو مسجد ضرار ولم يبن لله تعالى ولم يؤسس على التّقوى، وقد أمر النبي ﷺ بهدمه، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[التوبة: ١٠٧].

وعلينا أن نلفت النظر إلى حقيقة أنّ العمل الصادر عن تقوى هو عمل طاهر وزاكٍ، وأنّ الله ينمّيه ويضاعفه، مهما كان قليلاً، ولذلك ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ؟!**»(٢).

باختصار: إنّ التّقوى هي روح العمل وقوامه، وكل عمل كان لغير الله ومتجاوزاً لحدود شرع الله لن يتقبل، ويحسن بنا هنا أن نذكر قصة ذاك السارق المتذاكي، الذي

(١) **تهذيب الأحكام**، ج١، ص٨٣.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٢١.

كان يسرق ثم يتبرع بما سرق للفقراء، فعن الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: «إنّ من اتّبع هواه وأُعجب برأيه، كان كرجل سمِعت غثاء العامة تعظّمه وتصفه، فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره ومحلّه، فرأيته قد أحدق به خلق [الكثير] من غثاء العامة فوقفت منتبذاً عنهم متغشياً بلثام أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوغهم حتى خالف طريقهم وفارقهم ولم يقر فتفرقت العوام عنه لحوائجهم، وتبعتُه أقتفي أثره، فلم يلبثْ أن مرّ بخباز فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معاملة، ثمّ مرّ بعده بصاحب رمان فما زال به حتى تغفّله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معاملة، ثم أقول: وما حاجته إذا إلى المسارقة، ثم لم أزل أتبعه حتى مرّ بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه ومضى، وتبعته حتى استقرَّ في بقعة من الصحراء، فقلت له: يا عبد الله لقد سمعت بك وأحببت لقاءك، فلقيتك ولكنني رأيت منك ما شغل قلبي! وإني سائلك عنه ليزول به شغل قلبي، قال: ما هو قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين، ثم بصاحب الرمان وسرقت منه رمانتين! قال: فقال لي: قبل كل شيء حدثني من أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم عليه السلام من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قال: حدثني من أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة. قال: لعلك جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم قلت: بلى. فقال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به وتركك علم جدك وأبيك لئلا تنكر ما يجب أن يحمد ويمدح عليه فاعله؟! قلت: وما هو؟ قال: القرآن كتاب الله! قلت: وما الذي جهلت منه؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[الأنعام: ١٦٠]، وإني لمّا سرقت الرغيفين كانت سيئتين ولمّا سرقت الرمانتين كانت سيئتين فهذه أربع سيئات، فلمّا تصدقت بكل [واحد] منهما كان لي [بها] أربعين حسنة، فانتقص من أربعين حسنة أربع بأربع سيئات بقي لي ست وثلاثون حسنة. قلت: ثكلتك أمك! أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت أنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧]، إنك لما سرقت رغيفين كانت سيئتين ولما سرقت رمانتين

كانت أيضاً سيئتين ولما دفعتهما إلى غير صاحبيهما بغير أمر صاحبيهما كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات، فجعل يلاحظني فانصرفت وتركته»(١).

٢ - الأثر النفسي والروحي

وهذا الأثر من أعظم آثار التَّقوى، وتوضيحاً له نقول: إنّ حضور الله في عقل المتَّقي وقلبه ووجدانه يشكل رقيباً(٢) ضابطاً له يحجزه عن السيئات، ويحرره من رقّ الشهوات، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام فيما ورد عنه: «**فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ وَيَنْجُو الْهَارِبُ وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ**»(٣).

والملكة في كلامه عليه السلام إشارة إلى عبودية الهوى ورقيّة الأنا، وتقوى الله هي التي تحرر الإنسان من هذه الملكة، ومن رقّ الشهوات والغرائز، وهذه الرقية هي من أخطر أنواع الرقية، وسيبقى الإنسان يعاني منها ما دام ضعيفاً أمام الهوى ومتطلبات النفس الأمارة بالسوء.

وفي ضوء ما تقدم يتضحُّ أنّ أول ما يربحه المتَّقي ـ بالإضافة إلى محبة الله ورضوانه ـ هو نفسه، ومعنى أنّه يربح نفسه أنّ التَّقوى تجعله يعيش حالة من الاستقرار والتوازن على الصعيد النفسي والروحي والاجتماعي، وما أعظمها من ثمرة من ثمار التَّقوى، ﴿**إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**﴾[الدخان: ٥١]. وكيف لا يعيش المتّقي هذا الاستقرار النفسي والحال أنّ التَّقوى تُعلِّمه التوكل على الله والقناعة بما أتاه والرضا بما قسمه له، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أحب أن يكون أتقى الناس فليتوكل على الله**»(٤).

إنّ الإنسان المتَّقي هو إنسان مرتاح الضمير، وتقواه تمنحه قسطاً من الراحة النفسية،

---

(١) **معاني الأخبار**، ص٣٤ ـ ٣٥.
(٢) لنا عودة إلى موضوع الرقابة في الفقرة اللاحقة.
(٣) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٢٢٣.
(٤) **معاني الأخبار**، ص١٩٢.

يقول علي (عليه السلام) فيما ورد عنه: «**فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ**»(١)، وعنه (عليه السلام): «..**ألا وإنّ من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب**»(٢)، والاستقرار النفسي والاجتماعي له تأثيره البالغ على راحة الجسد، لأن أمراض الجسد قد تتأثر كثيراً بأمراض النفس.

٣ - التَّقوى والفرقان

ومن ثمار التَّقوى التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، أنها تزود صاحبه بالفرقان، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ**﴾[الأنفال: ٢٩]، والفرقان هو الهداية والبصيرة التي يفرق بواسطتها بين الحق والباطل. إنّ الذي تغادره التَّقوى هو شخص يبتعد عن خط الفطرة، وينغمس في المعاصي، وربما يقع في الشرك، وهو ما يجعل على عقله غشاوة، ويُطبع على قلبه، فيحصل لديه تشويش كبير ما يؤثر على سلامة الرؤية. إنّ خطورة الكفر والجحود والمعاصي والذنوب أنها تعمي البصائر، قال تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾[الحج: ٤٦]. وهنا يأتي دور التَّقوى لتجلي الصدأ عن القلوب فيعود نور العقل من جديد للانبعاث والتفريق بين الحق والباطل، وبناءً على هذا فالمتَّقي لا يكون أعمى البصيرة ولا يتخبط خبط عشواء ولا يعيش حالة من التذبذب بين الحق والباطل، لأنّ تقواه تسدده وتلهمه طريق الحق، حتى لو زلّت به القدم في بعض الأحيان، فإنّ تقواه كفيلة بإرجاعه إلى الصراط السوي قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ**﴾[الأعراف: ٢٠١].

روي أن الحارث بن حوط قال لعلي (عليه السلام): «أترى أنّ طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على الباطل؟! فقال علي: **يا حارث أنت ملبوس عليك، إن الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال وبإعمال الظن، اعرف الحقّ تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله**»(٣).

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٩٣.
(٣) **أنساب الأشراف**، ج٢، ص٢٣٨.

٤ - التَّقوى والرفاه الاقتصادي

ونقرأ في بعض الآيات القرآنية أنّ التَّقوى هي مفتاح الرزق وسببٌ لنزول الخيرات، فكيف نفهم ذلك مع أنّ الواقع قد لا يكون كذلك؟ حيث إنّ كثيراً من المتَّقين هم من الفقراء!

والجواب: إنّ أثر التَّقوى على الصعيد الاقتصادي يمكن فهمه على مستويين:

المستوى الأول: المستوى الفردي والجزئي، وفي الإشارة إلى هذا المستوى يمكننا أن ندرج قول الحق تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ**﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

إن تأمين الرزق للمتّقي وفتح أبواب الفرج في وجهه نفهمه في إطار إيماننا باللطف الإلهي المحدق بعباده المخلصين، وحصول هذا اللطف أمر محسوس. نعم، هو يحتاج إلى أهلية خاصة على الصعيد الإيماني، والتصديق به أمر طبيعي للمؤمن، ولا ينبغي أن نؤخذ بالمادة وقوانينها إلى الحد الذي نغفل فيه عن رؤية الله تعالى بصفته خالق تلك القوانين ومسببها، وإثباتاً لهذا اللطف فإننا نحيل على تجارب أهل الإيمان، وما أكثرها، وقد حدثنا القرآن الكريم عن أنبياء قاسوا الويلات وعانوا ما عانوه لكنهم ثبتوا على الحق واستقاموا على الهدى ففرّج الله عنهم ونصرهم، فهذا يوسف الصديق عليه السلام أخرجه الورع والتوكل والصبر من قعر البئر إلى عرش الملك، وذاك إبراهيم الخليل عليه السلام أنجته تقواه وتوكله وثقته بالله من النيران وتحولت إلى برد وسلام، وهكذا الحال في أيوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ**﴾[الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

ولكن هذا الرزق الذي يمنّ الله به على المتَّقين وباب الفرج الذي يفتحه أمامهم لا يعني تعطيل مبدأ الأسباب، بل إنّ هذا الباب من اللطف لا بدّ أن يتماشى ويتواكب مع الأخذ بمبدأ الأسباب، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت** ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ**﴾[الطلاق: ٢ ـ ٣]

أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي فأرسل إليهم فقال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول الله تكفل الله بأرزاقنا، فأقبلنا على العبادة، فقال: إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»(١).

المستوى الثاني: المستوى السنني الكلي، وفي هذا السياق يمكن أن ندرج قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[الأعراف: ٩٦]. ومن روعة هذه الآية وجمال تعبيرها أنها لم تستخدم تعبير «لأنزلنا» المتعارف في مثل هذه الموارد، وإنما استخدمت تعبير الفتح «لفتحنا»، وهو تعبير يوحي بعظيم النعم المنزلة ووفرتها، وهكذا استخدمت تعبير البركات، ولا يخفى أنّ كون النازل من عند الله تعالى بركة لا يتصل بكثرة النازل بل بعظيم نفعه وفائدته، ولنا عودة مفصلة إلى موضوع البركة وعلاقة التَّقوى بها.

وهذه السُّنة الإلهية قد أشار إليها تعالى في العديد من الآيات القرآنية، ومنها ما جاء في سورة نوح ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[نوح: ١٠ ـ ١٢]. والذي نعتقده أن هذه الآيات هي من سنخ الآيات السننية، أي التي تبيّن سنة إلهيّة، والتي تتحدث عن نوع الجنس البشري.

ويسأل الكثيرون: إننا آمنا واتقينا ولم نجد شيئاً من هذه البركات، بينما أولئك الغربيون أو غيرهم كفروا وعصوا وغمرتهم النعم وعاشوا برفاهية؟!

والجواب: إن هذا ناشئ عن سوء فهمنا للتقوى، فقد فهمنا التَّقوى ببُعدِها الزهدي المنكفأ عن الحياة، وهذا فهم خاطئ، فالتَّقوى منهج متكامل في الدين والدنيا، والآيات المذكورة تشير إلى أنّ الأخذ بهذا المنهج المتكامل الذي أراد الله لعباده أن يسيروا على هديه، هو الذي يضمن للإنسان سعادة الداريْن.

التَّقوى كلٌ لا يتجزأ، فلا يمكن أن يكون العبد متقياً في جانب وغير متقٍ في

---

(١) **الكافي**، ج٥، ص٨٤.

جانب آخر، ولا يمكن أن تكون مؤمناً في الاعتقاد كافراً في الاقتصاد مثلاً. وإننا عندما نفهم التَّقوى كذلك ونتحرك لتطبيق هذا المنهج في حياتنا عندها ستغدق علينا الأرض والسماء بخيراتها، وبذلك يتضح لنا أنّ ما يجري من تفاوت وظلم مردُّه إلى الانحراف عن خط الاستقامة والتكذيب، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[الأعراف: ٩٦]، والتكذيب هنا هو أقرب إلى التكذيب العملي، وأخذهم بما كانوا يكسبون، هو أيضاً نتيجة طبيعية لعدم أخذهم بالمنهج، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[الروم: ٤١].

إنّ التَّقوى تقود إلى الاستقامة بأبعادها كافة، الاستقامة في الأخلاق وفي السياسة وفي الاقتصاد وفي الحياة الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾[الجن: ١٦].

وبناءً على ذلك لا بدّ من بيان أمرين:

الأمر الأول: إن حالة المسلمين المتردية وما يعانيه الكثير منهم من فقر وجوع وتخلف ليس مرده إلى دينهم إطلاقاً، وسوء أوضاعهم لا يصلح دليلاً على الاستنتاج بأن التَّقوى لا علاقة لها بحضارة المجتمع، بل إنّ مردّ ما يعانونه من فقر وتخلف على أكثر من صعيد إلى تخليهم عن تعاليم دينهم وابتعادهم عن التَّقوى. إنّ التَّقوى التي تعني الاستقامة وإقامة العدالة في المجتمعات والابتعاد عن الظلم والجور هي أساس الحضارة الإنسانية. في الحديث الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللَّه فَرَضَ لِلْفُقَرَاءِ فِي مَالِ الأَغْنِيَاءِ مَا يَسَعُهُمْ ولَوْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَسَعُهُمْ لَزَادَهُمْ، إِنَّهُمْ لَمْ يُؤْتَوْا مِنْ قِبَلِ فَرِيضَةِ اللَّه ولَكِنْ أُتُوا مِنْ مَنْعِ مَنْ مَنَعَهُمْ حَقَّهُمْ لَا مِمَّا فَرَضَ اللَّه لَهُمْ، ولَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدَّوْا حُقُوقَهُمْ لَكَانُوا عَائِشِينَ بِخَيْرٍ**»[(١)].

ولو أنّنا اتّقينا الله لحاربنا الفساد والمفسدين! لو أننا اتقينا الله لأدينا الحقوق إلى أهلها، لو أنّنا اتّقينا الله حقّاً لأقمنا نظاماً عادلاً ووزعنا الثروات على المحتاجين بالعدل،

(١) **الكافي**، ج٣، ص٤٩٧.

بدل أن يحتكرها الظلمة الذين اتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، إن ثروات الأمة أصبحت ملك السلاطين وملك العوائل المالكة وحواشيها.. لو أنّنا اتّقينا الله لقطعنا أيدي المستكبرين الذين يسرقون ثرواتنا ومواردنا.

إنّ فهمنا المذكور للتّقى والتدين يقودنا للقول: إنّه لا يمكننا بشكل من الأشكال أن نجد تعايشاً بين التَّقوى والفساد، ولا أن نجد متقياً يسير في ركاب الطاغية، فإذا رأيت متجلبباً بلباس أهل التقى وهو يداهن الظالمين ويبرر جرائمهم وفسادهم فاعلم أنه لص بثوب زاهد ورجل دين.

إنّ مشكلتنا أننا أخذنا من الإسلام شيئاً ومن الكفر أشياء! وحملنا من التَّقوى ظاهرها ومن الفجور باطنه، فاتقينا في شيء وعصينا في أشياء. كما قال الشاعر عمر الخيام:

في يدي مصحف وخمر بأخرى بين هذا وذاك طوراً فطوراً
أكثر النّاس لو تأمّلت في النّاس فهم يحملون ديناً وكفراً

الأمر الثاني: إننا نقول لكل من يتخيّل أنّ النظام الغربي هو المثل الأعلى الذي لا يجارى: إن دول الغرب حققت لشعوبها الكثير مما تصبو وتطمح إليه، وإنّ نظامهم الذي أرسوه قد حقق الكثير من الشفافية والمحاسبة، ولكنْ علينا أن نقولها بوضوح: إنّ هذا النظام ليس هو النظام العادل ولا الأكمل، وما جرى ويجري هو عدالة مجتزئة، فرفاهية الإنسان الغربي قامت على جماجم الملايين من الفقراء في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية وعلى سرقة خيرات القارات وثرواتها، وهم يمارسون أبشع عمليات التجويع بحق الشعوب التي لا تنقاد لسياساتهم، والأمثلة كثيرة من إيران إلى فلسطين ولبنان والعراق واليمن.. إن «عدالة» الغرب عدالة منقوصة وفي جانب معين هي عدالة متوحشة لا ترى قيمة لغير الإنسان الأبيض والغربي، ومردّ ذلك إلى أنها تقوم على أسس مادية لا تحسب لله تعالى حساباً. لكن مما يؤسف له حقاً أننا كمسلمين نتغنى بعدالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد أننا لم نعمل على تقديم نموذج لدولة معاصرة تطبق العدل بجميع جوانبه بما يليق بقيمنا التي ننادي بها وندعو إليها، ويبقى مشروع العدالة عندنا مشروع

حلم نتطلع إليه وإلى من يجسده على أرض الواقع، حيث نعتقد أنه لا بدّ أن يتحقق ذات يوم، وذلك على يد إمام من أئمة أهل التقى، وهو المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف والذي قال في شأنه جده أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ولأخرجت الأرض نباتها ولذهبت الشحناء من قلوب العباد واصطلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها إلا على النبات وعلى رأسها زينتها لا يهيجها سبع ولا تخافه لو تعلمون**»[(١)]. ولا ريب عندنا في أنّ هذا الوعد سيتحقق ذات يوم، لأنه وعد إلهي، لكن إلى أن يأذن الله بذلك، فنحن معنيون ومدعوون في بلادنا ودولنا أن نعمل على بناء مجتمع العدل ونقدم نموذجاً للعدالة الإسلامية.

٥ - التَّقوى وعزة الإنسان

ومن ثمار التَّقوى أنها تسهم في بناء الشخصية العزيزة الكريمة، فمن يتق الله ويرتبط به يشعر بالغنى النفسي، لأنه يتّصل بمصدر العزة والقوة، فلا يسمح لنفسه أن تُذَل تركع لغيره، من ظالم أو غيره، ولا يسمح للآخرين أن يذلوه أو يذلوا المجتمع الذي ينتمي إليه، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون: ٨].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اعلموا عباد اللَّه: أن التَّقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه. ألاّ وبالتَّقوى تقطع حمة الخطايا**»[(٢)].

وعلينا أن نُثقف مجتمعنا ونربيه على ثقافة العزة، فمجتمع أهل التَّقوى ليس مجتمع الذل والتبعية، بل مجتمع العزة والكرامة والاستقلال، وهذه المعاني لا تتحقق بمجرد رفع الشعارات العريضة، وإنما تتحقق بالعمل الجاد والتخطيط الملائم والسعي المناسب نحو الاستقلال، وهذا معنى أن يكون المؤمنون أعزاء، فلا تكتمل عزة الأمة ولا كرامتها إن لم تتحرر من قيود التبعية، وتستقل عن الآخرين، ولهذا نجد أن الإسلام

---

(١) **الخصال**، ص٦٢٦.

(٢) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٥١.

أولى هذا الأمر أهمية خاصة، وقد سعى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام إلى بناء الشخصية الإسلامية المستقلة التي لا تشعر بالدونية أمام الآخر، بل تشعر بالنديّة معه، ومن هنا ورد في العديد من الأحاديث الشريفة النهي عن التشبه بالآخرين، وتكرر في الأحاديث الشريفة عبارة: «**ولا تشبهوا باليهود**» أو عبارة: «**ولا تشبهوا بالمجوس**» في إرشاد نبوي إلى ضرورة أن لا يكون المسلم تبعاً للآخرين[١]، وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا تزال هذه الأمة بخير ما لم يلبسوا لباس العجم ويطعموا أطعمة العجم، فإذا فعلوا ذلك ضربهم اللّه بالذل**»[٢].

(١) كما استنتجنا ذلك وأوضحناه في كتاب القواعد الناظمة لفقه العلاقة مع الآخر الديني، فليراجع.
(٢) **المحاسن للبرقي**، ج٢، ص٤١٠.

(٦)
التَّقوى: عنوان الكرامة

واستكمالاً للحديث الآنف عن عزّة أهل التَّقوى وكرامتهم، لا بدّ أن نتوقف عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

لنا مع هذه الآية المباركة عدة وقفات:

أولاً: التَّقوى مفتاح الكرامة الإلهية وعنوانها

وفي ضوء ما تقدم، يغدو واضحاً أن من يدخل في الحصن الإلهي وهو حصن التَّقوى ويكتسب شرف أن يكون من المتَّقين هو من أشرف الناس وأكرمهم عند الله تعالى، ولكنّ هذا الشرف لا يناله إذا كان ذليلاً وتابعاً، فإنه بذلك يخالف إرادة الله تعالى، ولا يكون من أهل التَّقوى والكرامة، إنّ هذا ما نستوحيه من الآية أعلاه، فهي إذ تبين تنوع الخلق إلى ذكر وأنثى وتعدد قومياتهم، تؤكد أن الكرامة هي لأهل التَّقوى، والوجه في ذلك أن هؤلاء هم العاملون بأوامره والآخذون بسننه، وهذا بكل تأكيد سوف يوصلهم إلى درجة الكرامة.

ثانياً: التنافس المذموم

إنّ الآية المباركة تشير إلى مبدأ قرآني عظيم وهو رفض الأشكال المزيفة للتمايز بين البشر، وهذا الرفض ينطلق من أنّ الناس كلّهم خلق الله وعياله، فلماذا يتميّز أحدهم عن الآخر؟ نعم تقر الآية أساساً واحداً للتمايز بين العباد، فما هو؟ ليس هو الجاه ولا كثرة

المال ولا الأولاد ولا النسب ولا الحسب ولا الجمال ولا غير ذلك مما هو زائل، وإنما المبدأ هو التَّقوى، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[الحجرات: ١٣]، وقد أكّد النبي ﷺ على هذا الأمر في الكثير من المناسبات ومن أهمها حجة الوداع، حيث قال: «**أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه إلّا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللَّهم فاشهد، فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض... أيها الناس ربكم واحد وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلّا بالتَّقوى ألا هل بلغت؟ اللَّهم فاشهد،** قالوا: نعم قال: **فليبلغ الشاهد الغائب**»(١).

التفاخر بالتَّقوى!

قد تقول: إنّ التَّقوى ذاتها غدت عنواناً للتفاخر بين الناس، حيث يقول بعض الناس: أنا أتقى الناس وأعبد الناس، وأولهم إقداماً وأكثرهم بذلاً وجهاداً! فإقرار مبدأ التَّقوى كأساس للتمايز سوف يعيد إنتاج مناخ التفاخر من داخل البوتقة الإيمانية في الوقت الذي يراد محاربته! ألم يكن الأجدى إقفال هذا الباب كليّة والقول للناس إنّه لا تمايز بين أحد منهم أبداً وهم سواسية؟!

والجواب على ذلك:

أ ـ إنّ الله تعالى عندما استثنى مبدأ التَّقوى كأساس للتمايز عند الله تعالى، فإنما يريد أن يوجهنا إلى الأساس الصحيح للتمايز عنده، فعند الله تعالى لا قيمة للمظاهر بل للأعمال الخالصة، ولا قيمة للكم بل للنوع والكيف، فموازين الله تعالى يوم القيامة لا ينجح فيها إلا أهل الإخلاص والورع، فكل عمل يؤتى به خالصاً لوجه الله وخدمة عيال الله هو الذي يعوّل عليه في ميزان العدل الإلهي، وأما الأعمال التي يكون دافعها حب الظهور والتفاخر والرياء فلا قيمة لها في

(١) **البيان والتبيين**، للجاحظ، ص٢٢٩، **وشرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، ج١، ص١٢٨، ورواها مع شيء من التغيير في **تحف العقول**، ص٣٤.

ذاك الميزان، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[الملك: ١ ـ ٢]. ومن الطبيعي أنّه إذا انضمّت الكمية إلى الكيفية فتلك غاية المنى والهدف الأسمى.

ب ـ إنّ اعتماد هذا الميزان لا يخلق مشكلة بين الناس، فلا مجال للتفاخر على أساس التَّقوى، لأنّ من يدعي أنّه الأتقى والأورع فهذا قد يكون مؤشراً على ضعف تقواه أو أنه خطى الخطوة الأولى خارج خط التَّقوى، وربما سقط في الميزان الذي يدعي أنّه ناجح فيه، لماذا يا ترى؟ لأنّ التفاخر والمباهاة لا ينسجمان مع التقى، فالمتَّقي لا يزكي نفسه ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢]، بل إنه يحاذر من تزكية الناس له كما سيأتي لاحقاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه لا يعلم المتَّقي حقاً إلا الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢].

ثالثاً: وهْمُ التميّز

وما أكثر الأوصاف التي يتوهم الناس أنّها تمثل القيمة التي تسمح لهم بالتفوّق والتميّز على الآخرين، فأنت ترى من يقول أو من يعتقد: أنه الأفضل لأنه أكثر مالاً وولداً أو أنه الأفضل لكونه الأعلى منصباً، أو أنه الأفضل، لكونه الأجمل أو لأنه ابن الحسب والنسب.. ولكنّ هذه الأسس الشائعة للتمايز والتفاخر كلها واهية وموهومة، وقد ألغاها الإسلام، وإليك تفصيل الكلام في بعض هذه المظاهر:

أ ـ التفاخر بالأموال والأولاد، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠].

ب ـ التفاخر بالجاه، فهذا فرعون يفتخر على موسى بغناه وجاهه،، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ❁ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ❁ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف: ٥١ ـ ٥٣]. وقد دفع هذا الأمر المشركين إلى أن يقولوا إنّ النبوة كان ينبغي أن تنزل على رجل ذي جاه! قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ❁ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣١ ـ ٣٢].

التفاخر بالأحساب، وهذا شكل آخر من أشكال التمايز التي دعا الإسلام إلى تحطيمها، لأنّ الناس خلقوا من آدم، وآدم من تراب، وآية «التعارف» الآنفة الذكر رأت أن تعدد القبائل هو مدعاة للتعارف والتلاقي وليس للتفاخر أو التناحر، وقد سعى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رفض هذا الشكل من التفاخر من خلال سيرته وبدأ بأسرته وهي الأسرة المعروفة بحسبها ونسبها، ففي الحديث عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام: **«أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم زَوَّجَ الْمِقْدَادَ بْنَ أَسْوَدَ، ضُبَاعَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا زَوَّجَهَا الْمِقْدَادَ لِتَتَّضِعَ الْمَنَاكِحُ ولِيَتَأَسَّوْا بِرَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ولِتَعْلَمُوا أَنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقَاكُمْ وكَانَ الزُّبَيْرُ أَخَا عَبْدِ اللَّه وأَبِي طَالِبٍ لأَبِيهِمَا وأُمِّهِمَا»**[1].

وفي الخبر عن أبي جعفر عليه السلام: **«إِنَّ رَجُلاً كَانَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ يُقَالُ لَه جُوَيْبِرٌ أَتَى رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم مُنْتَجِعاً لِلإِسْلَام (طلب معروفه) فَأَسْلَمَ وحَسُنَ إِسْلَامُه وكَانَ رَجُلاً قَصِيراً دَمِيماً مُحْتَاجاً عَارِياً وكَانَ مِنْ قِبَاحِ السُّودَانِ فَضَمَّه رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم لِحَالِ غُرْبَتِه وعَرَاه وكَانَ يُجْرِي عَلَيْه طَعَامَه صَاعاً مِنْ تَمْرٍ بِالصَّاعِ الأَوَّلِ وكَسَاه شَمْلَتَيْنِ وأَمَرَه أَنْ يَلْزَمَ الْمَسْجِدَ ويَرْقُدَ فِيه بِاللَّيْلِ.. فَإِنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم نَظَرَ إِلَى جُوَيْبِرٍ ذَاتَ يَوْمٍ بِرَحْمَةٍ مِنْه لَه ورِقَّةٍ عَلَيْه فَقَالَ لَه يَا جُوَيْبِرُ لَوْ تَزَوَّجْتَ امْرَأَةً فَعَفَفْتَ بِهَا فَرْجَكَ وأَعَانَتْكَ عَلَى**

(١) الكافي، ج٥، ص٣٤٤. وتهذيب الأحكام، ج٧، ص٣٩٥.

دُنْيَاكَ وآخِرَتِكَ فَقَالَ لَه جُوَيْبِرٌ يَا رَسُولَ اللَّه بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي مَنْ يَرْغَبُ فِيَّ فَوَاللَّه مَا مِنْ حَسَبٍ ولَا نَسَبٍ ولَا مَالٍ ولَا جَمَالٍ فَأَيَّةُ امْرَأَةٍ تَرْغَبُ فِيَّ فَقَالَ لَه رَسُولُ اللَّه ﷺ يَا جُوَيْبِرُ إِنَّ اللَّه قَدْ وَضَعَ بِالإِسْلَامِ مَنْ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ شَرِيفاً وشَرَّفَ بِالإِسْلَامِ مَنْ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَضِيعاً وأَعَزَّ بِالإِسْلَامِ مَنْ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ذَلِيلاً وأَذْهَبَ بِالإِسْلَامِ مَا كَانَ مِنْ نَخْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ وتَفَاخُرِهَا بِعَشَائِرِهَا وبَاسِقِ أَنْسَابِهَا (الباسق المرتفع) فَالنَّاسُ الْيَوْمَ كُلُّهُمْ أَبْيَضُهُمْ وأَسْوَدُهُمْ وقُرَشِيُّهُمْ وعَرَبِيُّهُمْ وعَجَمِيُّهُمْ مِنْ آدَمَ وإِنَّ آدَمَ خَلَقَه اللَّه مِنْ طِينٍ وإِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّه عَزَّ وجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَطْوَعُهُمْ لَه وأَتْقَاهُمْ ومَا أَعْلَمُ يَا جُوَيْبِرُ لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَضْلاً إِلَّا لِمَنْ كَانَ أَتْقَى لِلَّه مِنْكَ وأَطْوَعَ ثُمَّ قَالَ لَه انْطَلِقْ يَا جُوَيْبِرُ إِلَى زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ فَإِنَّه مِنْ أَشْرَفِ بَنِي بَيَاضَةَ (قبيلة من الأنصار) حَسَباً فِيهِمْ فَقُلْ لَه إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّه إِلَيْكَ وهُوَ يَقُولُ لَكَ زَوِّجْ جُوَيْبِراً ابْنَتَكَ الذَّلْفَاءَ، قَالَ فَانْطَلَقَ جُوَيْبِرٌ بِرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَى زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ وهُوَ فِي مَنْزِلِه وجَمَاعَةٌ مِنْ قَوْمِه عِنْدَه فَاسْتَأْذَنَ فَأُعْلِمَ فَأَذِنَ لَه فَدَخَلَ وسَلَّمَ عَلَيْه ثُمَّ قَالَ يَا زِيَادَ بْنَ لَبِيدٍ إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّه إِلَيْكَ فِي حَاجَةٍ لِي فَأَبُوحُ بِهَا أَمْ أُسِرُّهَا إِلَيْكَ فَقَالَ لَه زِيَادٌ بَلْ بُحْ بِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ شَرَفٌ لِي وفَخْرٌ فَقَالَ لَه جُوَيْبِرٌ إِنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ لَكَ زَوِّجْ جُوَيْبِراً ابْنَتَكَ الذَّلْفَاءَ فَقَالَ لَه زِيَادٌ أَرَسُولُ اللَّه أَرْسَلَكَ إِلَيَّ بِهَذَا فَقَالَ لَه نَعَمْ مَا كُنْتُ لأَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ لَه زِيَادٌ إِنَّا لَا نُزَوِّجُ فَتَيَاتِنَا إِلَّا أَكْفَاءَنَا مِنَ الأَنْصَارِ فَانْصَرِفْ يَا جُوَيْبِرُ حَتَّى أَلْقَى رَسُولَ اللَّه ﷺ فَأُخْبِرَه بِعُذْرِي فَانْصَرَفَ جُوَيْبِرٌ وهُوَ يَقُولُ واللَّه مَا بِهَذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ ولَا بِهَذَا ظَهَرَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَسَمِعَتْ مَقَالَتَه الذَّلْفَاءُ بِنْتُ زِيَادٍ وهِيَ فِي خِدْرِهَا، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَبِيهَا ادْخُلْ إِلَيَّ فَدَخَلَ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَه مَا هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي سَمِعْتُه مِنْكَ تُحَاوِرُ بِه جُوَيْبِراً فَقَالَ لَهَا ذَكَرَ لِي أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَرْسَلَه وقَالَ يَقُولُ لَكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ زَوِّجْ جُوَيْبِراً ابْنَتَكَ الذَّلْفَاءَ فَقَالَتْ لَه واللَّه مَا كَانَ جُوَيْبِرٌ لِيَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ بِحَضْرَتِه فَابْعَثِ الآنَ رَسُولاً يَرُدُّ عَلَيْكَ جُوَيْبِراً فَبَعَثَ زِيَادٌ رَسُولاً فَلَحِقَ جُوَيْبِراً فَقَالَ لَه زِيَادٌ يَا جُوَيْبِرُ مَرْحَباً بِكَ اطْمَئِنَّ حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكَ ثُمَّ انْطَلَقَ زِيَادٌ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ لَه بِأَبِي أَنْتَ

وأُمِّي إِنَّ جُوَيْبِراً أَتَانِي بِرِسَالَتِكَ وقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ زَوِّجْ جُوَيْبِراً ابْنَتَكَ الذَّلْفَاءَ فَلَمْ أَلِنْ لَه بِالْقَوْلِ ورَأَيْتُ لِقَاءَكَ ونَحْنُ لَا نَتَزَوَّجُ إِلَّا أَكْفَاءَنَا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ لَه رَسُولُ اللَّه ﷺ يَا زِيَادُ: جُوَيْبِرٌ مُؤْمِنٌ والْمُؤْمِنُ كُفْوٌ لِلْمُؤْمِنَةِ والْمُسْلِمُ كُفْوٌ لِلْمُسْلِمَةِ فَزَوِّجْه يَا زِيَادُ ولَا تَرْغَبْ عَنْه قَالَ فَرَجَعَ زِيَادٌ إِلَى مَنْزِلِه ودَخَلَ عَلَى ابْنَتِه فَقَالَ لَهَا مَا سَمِعَه مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَتْ لَه إِنَّكَ إِنْ عَصَيْتَ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَفَرْتَ فَزَوِّجْ جُوَيْبِراً فَخَرَجَ زِيَادٌ فَأَخَذَ بِيَدِ جُوَيْبِرٍ ثُمَّ أَخْرَجَه إِلَى قَوْمِه فَزَوَّجَه عَلَى سُنَّةِ اللَّه وسُنَّةِ رَسُولِه ﷺ وضَمِنَ صَدَاقَه..»[١].

رابعاً: التفاخر كمرض نفسي

والواقع أنّ التفاخر بالأحساب والأنساب يبلغ بالإنسان مبلغاً خطيراً يدفعه إلى التكبر على الآخرين، والنيل منهم والاستخفاف بكراماتهم والسخرية والاستهزاء بهم، فهو آفة نفسية خطيرة، وقد تكون منطلقاً للكثير من المشكلات الاجتماعية، ومن هنا كان موقف الإسلام منه هو موقف الرفض المطلق، وأعتقد أنّ علاج هذه الآفة يكون من خلال:

أ ـ تنبيه الإنسان إلى ضرورة عدم الاتّكال على حسبه، ففي الحديث عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**آفَةُ الْحَسَبِ الِافْتِخَارُ والْعُجْبُ**»[٢].

ب ـ تذكيره بالأساس الصحيح للتمايز وهو التقى، ففي وصية النبي ﷺ لعليٍّ عليه السلام قال: «**يا علي آفة الحسب الافتخار**، ثم قال: **يا علي إن الله قد اذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنّ الناس من آدم، وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم**»[٣].

ج ـ تهذيب النفس، ومن أروع أساليب تهذيب النفس في هذا المجال ما جاء

---

(١) **الكافي**، ج٥، ص٣٤٠.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢٨.
(٣) **وسائل الشيعة**، ج١٦، ص٤٣.

في وصية الإمام السجّاد عليه السلام للزهري: «**وإنْ عرض لك إبليس لعنه الله بأن لك فضلاً على أحد من أهل القبلة، فانظر إن كان أكبر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإن كان أصغر منك فقل: قد سبقته بالمعاصي والذنوب فهو خير مني، وإن كان تربك فقل: أنا على يقين من ذنبي في شك من أمره فما لي أدع يقيني لشكي**»[(١)].

ونحوه ما جاء عن الإمام علي عليه السلام في وصف المتَّقين وكيفية تهذيبهم لأنفسهم، يقول: «**فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَه فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ**»[(٢)].

---

(١) **الاحتجاج**، للطبرسي ج٢ ص٥٢.
(٢) **نهج البلاغة** ج٢ ص١٦٣.

(٧)
التَّقوى والحاجة إلى الرقيب

قلنا في فقرة سابقة إنّ حضور الله تعالى في نفس المتّقي يمثّل رقيباً يضبط سلوكه ويقيه المعاصي ويحميه من الانزلاق مع الشهوات، وهذا الأمر يدفعنا للحديث عن أنواع الرقابة التي تحجز الإنسان وتحصّنه وتساعده في السيطرة على أهوائه وشرور نفسه.

وبديهي أنّ أهواء الإنسان التي قد تشده إلى المعاصي والانسياق مع الغريزة والتماهي مع النفس الأمارة بالسوء لن تؤدي إلى انحرافه على المستوى الشخصي فحسب، بل قد تؤدي إلى تعدّيه على غيره من بني الإنسان وإخلاله بالنظام العام، وهذا ما يفرض وجود أكثر من ظابط ومراقب يحرس الإنسان ويعيده إلى الصواب وينبهه عن الغفلة، ويضعه عند حدّه ويمنع تجاوزاته وعدوانه، ولأن الله تعالى هو الأعلم بالنفس الإنسانية ونوازعها وخطرها على استقرار الحياة، فقد وضع صمامات أمان تسهم إلى حد كبير في تهذيبها من جهة، وفي وضع حدّ لعدوانيتها بما يحقق حدّاً مقبولاً من الانتظام في هذه الحياة من جهة أخرى، ويمكننا هنا أن نذكر أربعة صمامات، ونصطلح على كل واحد منها بالرقيب، وسوف نلاحظ أن هناك رقابتين يكون تأثيرهما المباشر من داخل النفس فتكون وظيفتهما من قبيل رفع المقتضي للانحراف، وهما رقابة الله ورقابة الضمير، وأنّ هناك رقابتين من خارج النفس، وتكون وظيفتهما من قبيل إيجاد المانع أمام الانحراف والمحاسبة عليه، وإليك شرح أنحاء الرقابة المذكورة:

أولاً: الرقابة الخارجية

ونبدأ بالرقابتين الخارجيتين:

١ - الرقيب القانوني

إنّ تحقيق الانتظام في المجتمع يتوقّف على وجود قوانين، ويحتاج أيضاً إلى أجهزة وقائية تنبثق عن السلطة العادلة لتحاسب المخلّين بأمن الناس والذين يخرقون تلك القوانين ويعتدون على السلام الاجتماعي أو الذين يتلاعبون بالأمن الاقتصادي فيمارسون الاحتكار والتلاعب بالأسعار من موقع الشجع والطمع، كما يحصل في أيامنا هذه حيث يعمد بعض الناس إلى احتكار السلع الأساسية، وهؤلاء الذين يمارسون الاحتكار لأجل الربح هم أشخاص لا إنسانيون حتى لو كانوا على هيئة إنسان، هؤلاء ليسوا مؤمنين حتى لو جلسوا في الصف الأمامي في الصلاة ومجالس الدعاء والعزاء، وعلى الدولة القيام بواجب محاسبتهم كباراً كانوا أو صغاراً.

ويؤسفنا تراجع الرقابة القانونية في الكثير من دولنا ومجتمعاتنا، ولكننا نؤكد على أنّ تراجع الدولة لا يجوز اتخاذه مبرراً لتجاوز القوانين، هذه القوانين وضعت لأجلنا، وإذا تجاوز الآخرون القوانين وانتهكوها لا يحق لنا انتهاكها، نعم على السلطات المسؤولة أن لا تقتصر على ملاحقة الضعفاء وتترك الحيتان الكبار، فهذا سبب دمار المجتمعات وهلاكها، كما قال ﷺ فيما روي عنه: «**فإنما أهلك الناس قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(١).

إنّ تراجع منطق الدولة له ضحايا وأولى ضحاياه، هو الأمن الاجتماعي، والاقتصادي والغذائي، والدوائي، ولهذا نجد أن حالات الفقر تتزايد وتستشري الجريمة وتزداد وتيرة السرقات والسلوكيات العشائرية، وهذا كله يؤدي إلى اختلال النظام العام، مع أنه لا حياة للمجتمعات دون ذلك، ولذا كانت الغاية الأسمى للمولى عز وجل، هي حفظ النظام، وقاعدة حفظ النظام هي من أهم القواعد المقاصدية في التشريع الإسلامي، كما أوضح ذلك الحديث المروي عن علي عليه السلام: «**لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ**

(١) صحيح البخاري، ج٥، ص٩٤.

فِي إِمْرَتِه الْمُؤْمِنُ، ويَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، ويُبَلِّغُ اللَّه فِيهَا الأَجَلَ ويُجْمَعُ بِه الْفَيْءُ، ويُقَاتَلُ بِه الْعَدُوُّ وتَأْمَنُ بِه السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ بِه لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ويُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ»[١]، وعنه عليه السلام مخاطباً للخوارج: «**كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحداً، فإنْ فعلتم نفذت إليكم بالحرب**»[٢]. ويمكننا القول: إنّ الشرائع برمتها ما كانت في جانب كبير منها إلا لغرض نظم شؤون العباد.

٢ - الرقيب الاجتماعي

وإذا تقاعست الدولة عن القيام بواجبها لقمع التعديات وحفظ الانتظام العام، فإنّ على المجتمع ـ بمؤسساته الأهلية وعامة أفراده ـ أن يقوم بدور الرقيب والحارس، فلا يسمح للفوضى أن تعمّ، ولا للمنكرات والفواحش أن تشيع وتنتشر، ولا بدّ أنْ يعنى أفراد المجتمع بالتكافل والتضامن والتعاضد الاجتماعي، لأن كل فرد في المجتمع مسؤول بقدر ما يستطيع عن حفظ الانتظام العام، فهو مدعو إلى أن يشارك بالكلمة الناقدة وبالموقف المساعد، ولا أحد يمنعه هذا الحق، ولا يستخفنّ أحد بكلمته وموقفه، فهي قد ترشد وتسدد أو تضغط للحد من الفساد، وعلينا في هذا العصر أن نستفيد من وسائل التواصل لتوعية الناس على حقوقهم وبيان آلامهم ونقد مواقع الفساد وهذا ما يسهم في تشكيل رأي عام ضاغط باتجاه تغيير الأمور نحو الأفضل، وعلى الذين يخاطبون الناس من صحفيين ورجال دين أن لا يكذبوا على الناس، بل عليهم مصارحتهم بالحقائق، ولا يجوز لهم أن ينشروا اليأس في النفوس، وفي الوقت عينه لا يجوز لهم أن يخدروا الناس، ويوحوا لهم وكأن الأمور بخير.

إنّ الكلمة الصريحة الصادقة هي فعل جهاد عندما تقال في مجالها في وجه سلطان جائر أو ظالم، فلنرفعِ الصوت في وجه الفاسدين والمحتكرين والظالمين والمعتدين والذين يعيثون في الأرض فساداً وطغياناً. وإذا لم تنفعِ الكلماتُ ولم تردع هؤلاء،

---

(١) **نهج البلاغة**، ج١، ص٩١.

(٢) **سبل السلام**، للصنعاني، ج٣، ص٢٥٨. قال: «ثبت من قول علي عليه السلام».

فبإمكاننا أن نستخدم أسلوب المقاطعة، وهذا حق من حقوقنا، ولهذا نقولها لجميع الناس: قاطعوا المحتكرين، قاطعوا الذين يروجون الفساد، فالمقاطعة هي من أنجع أساليب ردع الفاسدين، وهي شكل من أشكال النهي عن المنكر، أكان المنكر أخلاقياً أو اقتصادياً أو سياسياً.

ثانياً: الرقابة الداخلية

وأما الرقابتان الداخليتان، فهما رقابة الضمير ورقابة الله تعالى، وإنما نعدّ رقابة الله تعالى داخلية، بلحاظ أثرها الذي يعمل داخل النفس المؤمنة(١)، مع أنّ الفاعل وهو الحقّ تعالى هو بنحوٍ من الأنحاء خارجٌ عن النفس(٢)، ولك أن تقول إن رقابة الله هي صنف ثالث فهي رقابة داخلية كونها تؤثر بشكل مباشر في الداخل، وخارجية باللحاظ المذكور، وإليك تفصيل الكلام في هاتين الرقابتين:

١ - الرقيب الداخلي/الضمير

وهذه الرقابة ـ أعني رقابة الضمير ـ مهمة جداً ويعوّل عليها الإسلام كثيراً، ويُفترض بالتربية أن تعمل على ترسيخها والإفادة منها، لأنّها تشكل وازعاً ورادعاً للإنسان يمنعه من التعدي والظلم حتى لو لم يطله رقيب السلطة القضائية لسبب أو لآخر، إن يقظة الضمير تبرهن على إنسانية الإنسان، وهذا الضمير هو عبارة أخرى عما يسميه القرآن الكريم بالنفس اللوامة والتي أقسم رب العزة بها، فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ١ ـ ٢]. إنّ النفس اللوامة إذا ماتت فينا فربما تحوّل الإنسان إلى وحش وأصبح رهينة النفس الأمارة بالسوء، وقد لا يقف الأمر عند حدود أن النفس لا تأمره بالخير ولا تنهاه عن المنكر، بل إنها قد تأمره بالمنكر وتنهاه عن المعروف، دون أن

(١) وهو ما لا يحصل في الرقابة الاجتماعية أو القانونية، فإنهما تؤثران في السلوك، لا في النفس.
(٢) وحقيقة الأمر هي كما قال علي عليه السلام: «**داخل في الأشياء لا كشيء داخل في شيء، وخارج من الأشياء لا كشيْ خارج من شيء، سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره**»، **الكافي**، ج١، ص٨٦، **والمحاسن**، للبرقي، ج١، ص٢٤٠.

يشعر بتأنيب الضمير، قد يصل الأمر إلى حد موت الضمير، وطبيعي أن موت الضمير لا يحصل فجأة، وإنما يحصل بالتدريج، وكذلك سائر الأحاسيس الإنسانية فهي تموت شيئاً فشيئاً.

ومن هنا فنحن معنيون أن ننمي نبض الإنسانية في قلوبنا وأن نشحن وجداننا وقلوبنا بالأحاسيس الجميلة والعواطف النبيلة، وأن نقدم على خطوات ومبادرات توقظ النفس من غفلتها وتخرج القلوب من قسوتها وتحجرها، وعلى سبيل المثال: فإنّ زيارة مريض أو يتيم أو نحو ذلك قد تكون سبباً ليقظة الأحاسيس الإنسانية.

٢ - الرقابة الإلهية

وتبقى الرقابة الأعلى، وهي رقابة الله تعالى، وتمتاز هذه الرقابة بأنّها لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، وهذه الرقابة لا تعمل إلا في المؤمن بالله تعالى، إن المؤمن حقاً لا بد من أن يستحضر ـ على الدوام ـ رقابة الله تعالى في كلماته وأفعاله كلها. قد يمكنك أن تحتال على القوانين، أن تسرق وتظلم وتعتدي ولا تراك عين الرقيب في هذه الدنيا، لكن هل تستطيع أن تحجب عين الله تعالى؟! لقد نبّه الله تعالى إلى هذا النوع من الرقابة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦]، إنه تعالى مطّلعٌ على الضمائر ويعلم الوساوس وحديث النفس ولا تخفى عليه خافية، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد. ومما يدخل في هذا النوع من الرقابة رقابة الملكين العتيدين، ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٧ ـ ١٨].

(٨)
البركة وعلاقتها بالتَّقوى

وربطاً بالحديث المتقدم عن آثار التَّقوى، وما تضمنته الآية من تنزل البركات على المتَّقين، رأينا من المناسب أن نسلط الضوء على مفهوم البركة، وهو مفهوم يتردد كثيراً في النصوص والأدبيات الدينية، وعلى ألسنة المؤمنين، فما المقصود بالبركة؟ وما هو منشأها، هل هو أمر غيبي أم لا ؟ وما هي موجبات البركة وما هي أسباب ارتفاعها؟

١ - البركة مفهوماً ومصدراً

البركة: الزيادة والنماء، والنفع، والمبارك هو الذي ينفع الناس، أعم من أن يكون مادياً أو معنوياً، فعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم: ٣١]: نفاعاً[١]، وقد جعل الله تعالى شجر الزيتون مباركاً، في قوله تعالى: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[النور: ٣٥] قيل: «هي شجرة الزيتون، لأنها كثيرة البركة والمنفعة يسرج بدهنها ويؤتدم به ويوقد بحطبها ويغسل الإبريسم برمادها. وهي على ما نقل أول شجرة نبتت بعد الطوفان في الأرض»[٢].

وقد تأتي البركة بمعنى القداسة، فقد نقل عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[النمل: ٨]، أنه «يعني به قدس من في النار»[٣].

وكل ما عند الله تعالى، وما يأتي من قِبَلِه فهو مبارك، فالله هو مصدر البركة والخير

(١) **الكافي**، ج٢، ص١٦٥.
(٢) **مجمع البحرين**، ج٥، ص٢٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٥٧.

والقداسة، ولذا وجدنا أن البركة في القرآن تأتي منسوبة إلى الله تعالى، فهو المبارك (بالفتح) وهو المبارك (بالكسر) ومنزل البركة، (يتكرر في القرآن فعل باركنا، أنزلناه مبارك..)، والله تعالى لا يصدر منه إلا الخير والبركة.

وعلى هذا المعنى فيكون كل ما زودنا به الله تعالى من نعم هو بركات، فالماء الذي زودنا به هو مبارك، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾[ق: ٩]. والأرض التي هيأها لنا ومهدها هي بركة وهكذا..ولهذا يفترض بنا أن نطلب البركة من الله تعالى كما طلبها نوح من ربه وهو في السفينة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون: ٢٩].

إلا أنّ هذا لا يلغي وجود بركات إلهية من نوع خاص، أعني بركات ذات بعد معنوي، فالبركة أمر نسبي، فرب أمر تكون بركته عامة ومفهومة للجميع، ورب أمر تكون بركته من نوع خاص، فإذا ما خصص شيء بوصف البركة فهذا لا ينفي البركة عن غيره. فبركة الكعبة شيء، وبركة سائر الأرض شيء آخر.

وبعبارة أخرى: هناك بركات عامة يستفيد منها البر والفاجر، وهناك بركات لا يستفيد منها إلا من توجّه إليها وآمن بها واتبعها، فالقرآن مثلاً هو منبع البركات المعنوية ولكن لا يستفيد من بركاته إلا من آمن به وعمل بتعاليمه قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[الأنعام: ٨٩] وهناك نحو من البركات لا دخل لإيمان العبد فيها، فهي تنال من يعمل بالسنن والقوانين، أكان مؤمناً أو كافراً.

٢ - عناصر البركة

من لطف الله تعالى بنا أنه جعل للإنسان العديد من عناصر البركة والخير:

أ ـ الزمان المبارك، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان: ٣]، وبركة هذه الليلة هي من نوع خاص ولا يستفيد منها إلّا من آمن بها وهي ليلة مباركة بنزول الملائكة فيها ونزول الألطاف الإلهية على العباد، لأنها ليلة التقدير ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[القدر: ١].

ب ـ **المكان المبارك**، وكما يوجد زمان مبارك فهناك مكان مبارك، ويأتي البيت الحرام على رأس ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦]. وبركات هذا البيت ومنافعه كثيرة: قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[الحج: ٢٨]، فهناك البركات المعنوية والروحية حيث رحمة الله التي تشمل أهل البيت الذين يأمونه بإخلاص، وهناك بركات اجتماعية، من خلال هذه اللقاءات التعارفية للمؤمنين..

ويليه في ذلك المسجد الأقصى الذي باركه الله وبارك ما حوله، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١]. وقال تعالى وهو يشير إلى الأرض المباركة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨١]. وقال بعض العلماء: «والأرض المباركة: القدس والخليل كما جاءت به الرواية»(١).

وذكر الحر العاملي في مقدمة كتاب أمل الآمل أن جبل عامل جزء من الأرض المقدسة(٢). وعلينا أن نعي معنى بركة المكان أو الزمان ونفهمه بشكل كامل وغير مجتزئ، فلا يجوز اختصار بركة الكعبة المشرفة على مجرد تقبيل الحجر الأسود كما يفعل البعض، حيث يكون كل همّه أن يصل إلى الحجر الأسود ولو بأن يتعارك مع الآخرين أو يؤذي الطائفين، إن بركة ذاك المكان في أنه محل تنزّل الألطاف والرحمات الإلهية، فطف حوله وقبله وتمسح به لكن الأهم أن تكون روحك مع الله تعالى.

ج ـ **الكتاب المبارك**، وهو القرآن الكريم: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: ١٥٥]، القرآن مائدة عظيمة الفوائد، كثيرة المنافع،

---

(١) **مجمع البحرين**، ج٥، ص٢٥٩.

(٢) قال الشيخ الحر عن بلاد عاملة: «أنها داخله في الأرض المقدسة أو متصلة بها، كما يظهر من الاخبار ومن أقوال أكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾[المائدة: ٢١]»، **أمل الآمل**، ج١، ص١١. وذكر بعض الروايات الدالة على ما ذكره.

جليلة البركات معنوياً وفكرياً واجتماعياً واقتصادياً.. وبركات القرآن ليست في تحويله إلى مجرد كتاب نزين به مجالسنا ونقبّله أو نضعه في مكتباتنا أو نعلق بعض آياته في بيوتنا، فهذا اجتزاء لمفهوم البركة، إنّ بركة القرآن هي في أنه كتاب الروح وكتاب الأخلاق وكتاب العقيدة والشريعة، وكتاب الهداية، ولهذا عقبت الآية المباركة على وصف المبارك بالأمر باتباعه.

د ـ **الإنسان المبارك:** وإلى الزمان المبارك والمكان المبارك هناك الإنسان المبارك، فهناك أشخاص وجودهم بركة ونعمة للإنسانية جمعاء، ويأتي الأنبياء على رأسهم، قال تعالى على لسان السيد المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم: ٣١]، وبركة الأنبياء عليهم السلام في رسالتهم وفي تعاليمهم وفي شخصياتهم المقرّبة من الله حيث يشكّلون عناصر أمن في المجتمعات.

٣ - تشويه واتجار

هذا وقد أصاب مفهومَ البركة نوعٌ من التشوه، وسادت نظرة مغلوطة اتجاه الأشخاص «المباركين»، حيث يظنّ البعض أنّ البركة تنسحب على كل من يسمى «رجال الدين» وأن هؤلاء قديسون ويمنحون البركة للآخرين، ولذلك نرى في بلادنا الكثير من الساسة الكذبة يذهبون إلى «رجال الدين» من المسلمين أو المسيحيين ويقولون أتينا لأخذ البركة! وبعض «رجال الدين» يغريهم هذا الأمر وربما يظنون أنفسهم كذلك. إنّ ظاهرة لجوء السياسيين إلى رجال الدين لأخذ البركة بزعمهم هي ظاهرة فيها الكثير من الخداع والتضليل، لأن الكثير من رجال الدين لا يحملون من بركة الدين شيئاً، والكثير من السياسيين لا يريدون البركة ولا يؤمنون بها، وإنما يريدون غطاء دينياً لسياساتهم ومواقعهم.

ومن جهة أخرى، فإنّ فريقاً من الناس يأتون بأبنائهم إلى «رجل الدين» طالبين منه أن يمسح على رأس الولد أو ما إلى ذلك بغرض مباركته، وهكذا انتشر سوق الأشياء المباركة، ماء مبارك ومقدس، قماش مبارك وهكذا..

إنّ هذا نوع اتجار بالدين، البركة لا تكون بهذه الطقوس والأعمال وإنما تكون بالقرب الروحي من الله والتوكل عليه والأخذ بما جاء به أنبياؤه، والعمل بالسنن الإلهية الحاكمة

على هذا الكون، ولذا وردت البركة في القرآن منسوبة إليه تعالى كما قلنا. على أن هذه الظاهرة تشي بفهم خاطئ للدين ووظيفته وهو أنه مصدرٌ للبركة بالمعنى الشعبي للبركة، والحال أنّ بركة الدين في قيمه ومنهجه التغييري المناهض للفساد والظلم والانحراف.

وعليه، فالشخص المبارك هو القريب من الله تعالى، والقريب أيضاً من عيال الله بمساعدتهم وتحقيق احتياجاته، والعمل على هدايتهم إلى سواء السبيل، ورد في الخبر عن علي بن شعيب، قال: «دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام، فقال لي: **يا علي من أحسن الناس معاشاً** ؟ قلت: أنت يا سيدي أعلم به مني. فقال عليه السلام: **يا علي من حسن معاش غيره في معاشة. يا علي من أسوأ الناس معاشاً؟** قلت: أنت أعلم، **قال من لم يعش غيره في معاشه**»[١].

٤ - شروط نزول البركة

يمكن اختصار القول في المقام بأن البركة لا تكون بالادّعاءات والمظاهر والشكليات، إنّ محققات البركة وموجبات نزولها هي بالإيمان بالله والاستقامة على جادة الشريعة، بعيداً عن الغش والظلم، والأخذ بالسنن الكونية، وإليك تفصيلاً لذلك طبقاً لما جاء في النصوص الدينية:

أ - **الإيمان والتَّقوى**: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف: ٩٦].

ب - **إطاعة الله تعالى**: عن الإمام الرضا عليه السلام: «**أوحى الله عز وجل إلى نبي من الأنبياء: إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية**»[٢].

ج - **العدل والاستقامة**: عن الإمام علي عليه السلام: «**بالعدل تتضاعف البركات**»[٣].

د - **الالتزام بالموازين والمكاييل**، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كيّلوا طعامكم، فإنّ البركة في الطعام المكيّل**»[٤].

---

(١) **تحف العقول**، ص٤٤٨.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص٢٧٥.
(٣) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١٨٨.
(٤) **الكافي**، ج٥، ص١٧٦.

٥ - ما يُذهب البركة

في المقابل فإنّ الكفر والتمرد على الله وظلم عباده والعبث بنواميس الكون هي من أهم موجبات زوال البركة وأسباب ارتفاعها. وهذا تفصيل موجز لهذه الأسباب:

أ ـ **الظلم والتكذيب**: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ب ـ **ارتكاب الفواحش**: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أربع لا تدخل بيتا واحدة منهن إلا خرب ولم يعمر بالبركة: الخيانة، والسرقة، وشرب الخمر، والزنا**»[(١)].

ج ـ **الكسب الحرام**: فالمال الحرام لا يبارك الله فيه، فعن الإمام الكاظم عليه السلام لداود الضرمي: «**يا داود، إن الحرام لا ينمى، وإن نمى لا يبارك له فيه، وما أنفقه لم يؤجر عليه، وما خلفه كان زاده إلى النار**»[(٢)].

د ـ **الظلم والعدوان**: عن الإمام علي عليه السلام: **إذا ظهرت الجنايات ارتفعت البركات**»[(٣)].

٦ - البركة في آخر الزمان

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أننا نتطلّع إلى اليوم الذي تعمّ بركته ويفشو فيه العدل وينتشر السلام والأمن، وهو يوم يأذن الله تعالى للمهدي المنتظر بالخروج، في الحديث عن الإمام الحسين عليه السلام وهو يتحدّث عن آخر الزمان بعد قيام دولة العدل المنتظر: «**ولتنزلن البركة من السماء والأرض، حتى إن الشجرة لتصيف بما يريد الله فيها من الثمرة، وليؤكل ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء، وذلك قوله تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾[الأعراف: ٩٦]»[(٤)].

---

(١) ثواب الأعمال، ص٢٤٢.
(٢) الكافي، ج٥، ص١٢٥.
(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص١٢٥.
(٤) مختصر بصائر الدرجات ص٣٨.

(٩)
مع المتَّقين في سورة البقرة

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[البقرة: ٢ ـ ٥].

إن هذا المقطع وهو الأول من سورة البقرة ذكر خمس صفات للمتَّقين، وهي:

١ ـ الإيمان بالغيب، ٢ ـ إقامة الصلاة، ٣ ـ الإنفاق، ٤ ـ الإيمان بما أنزل على رسول الله وعلى سائر الأنبياء، ٥ ـ اليقين بالآخرة.

وإذا إردنا تصنيف هذه الصفات فيمكن إرجاع بعضها إلى أعمال القلب والعقل، وهي ثلاث: الإيمان بالغيب، الإيمان بما أنزل على رسول الله، والإيمان باليوم الآخر[1]، وبعضها الآخر يمكن إرجاعه إلى أعمال سلوكيّة وهي إقامة الصلاة، والإنفاق.

وطبيعي أنّ القرآن الكريم لم يجرِ وفق التصنيفات الشائعة لقضايا الدين، وإنما مازج بين قضايا الاعتقاد وقضايا السلوك العملي، ولعلّ الحكمة في ذلك أنه أراد أن يوصل رسالة مفادها أنّ ثمّة تمازجاً وتكاملاً بين الإيمان والعمل، وأنّ الإيمان لا يمكن أن ينفك عن السلوك.

وفيما يلي بيان مفصّل لهذه الصفات:

---

(١) ويمكن اختصار ما ذكر بصفتين، وذلك بعد إرجاع الإيمان بالآخرة إلى الإيمان بالغيب، وخص الإيمان باليوم الآخر بالذكر لأنه من أعظم مصاديق الإيمان بالغيب.

الصفة الأولى: الإيمان بالغيب

إنّ عالم الغيب، يقابل عالم الشهود، والغيب تارة يكون نسبياً، كغيبية ما يجري خارج الدار بالنسبة للجالس فيها، ولكنه إذا خرج من الدار أمكنه الاطلاع على الأمر وارتفع الغيب، وتارة أخرى يكون غيباً مطلقاً، كغيبيّة عالم الآخرة بالنسبة لأهل الدنيا. وجعلُ الإيمان بالغيب هو الصفة الأولى للمتَّقين هو أمر له دلالته وأهميته الكبرى التي تتصل بموقع الغيب في المنظومة الاعتقادية وفي حياة الإنسان على حد سواء، ولهذا فأهمّ ما يميّز الفرد المؤمن عن غيره ويميز المجتمع المؤمن عن غيره هو الإيمان بالغيب، فما هي دلالات الإيمان بالغيب؟ وهل يعني ذلك فصله عن عالم الشهود والحسّ؟

أولاً: دلالات الإيمان بالغيب

أ ـ الدلالة الأولى، هي رفع مستوى الإنسان عن الجمود في نطاق المحسوسات والانحباس في أسر الماديات، بما يجعله يغفل عمّا وراء المحسوسات، ولا يرى ما وراء المادة، إنّ التأكيد على الإيمان بالغيب يعني أنّ المحسوسات ليست كل شيء في هذا العالم وليست آخر المطاف، بل هناك شيء فوقها، فالله تعالى ـ بنظرة معينة ـ غيب، وذلك لكونه مما لا تدركه الأبصار والحواس، بيد أنه تعالى ـ ومع كونه غير محسوس ـ أكثر حضوراً من كل المحسوسات، ووجوده تعالى هو من البديهيات واليقينيات، وبهذا المعنى فهو ليس غيباً بل هو الحضور والشهود بعينه، كما ورد: «**متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى كان لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك**»[(١)]، وقد ورد في الخبر أن ذعلب اليماني سأل علياً عليه السلام فقال: «هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: **أفأعبد ما لا أرى!** فقال: وكيف تراه، فقال: **لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ**

---

(١) من تتمة دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، وقد ناقشنا في صحة انتساب هذه التتمة إليه عليه السلام، راجع: **الشيعة والغلو**، ص٢٠٨.

غَيْرَ مُلَابِسٍ بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ»[1].

ب ـ الدلالة الثانية للإيمان بالغيب هي أن يدرك الإنسان أنّ ثمة عوالم أخرى مجهولة وغائبة عنه، وبالتالي عليه ـ حتى وهو يسعى إلى اكتشافها ـ أن يتواضع معرفياً وعلمياً، وأن لا يأخذه الغرور[2] العلمي ليبادر إلى إنكار كل ما لم يكتشفه وفق أدواته، فهو ليس محيطاً بكل شيء، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، ومجاهل الكون وإن كانت تتكشف أمامه شيئاً فشيئاً وقد يصلُ إلى كثير منها لكنّ لا زال الكثير منها طي الكتمان، وبعبارة أخرى: الإيمان بالغيب يعني الإقرار بمحدودية علمنا ونهائيته، مهما بلغ وسما، ولهذا فإنّ العلماء حقاً والذين يحترمون علمهم يقرّون بهذه الحقيقة، وقد نقل عن ابن سينا قوله: «بلغ علمي حداً علمت أني لست عالماً»، وكأنه يريد القول ـ لو صحت نسبة الكلام إليه ـ أنه كلما فتح أمامه باب للعلم انفتحت أبواب أخرى مجهولة أمامه.

ثانياً: تصحيح أفهام خاطئة

وعلينا التنبيه إلى أن الإيمان بالغيب لا يعني:

أ ـ انفصالنا عن الواقع المعاش، أو إبعادنا عن عالم المحسوسات، ولا التنكر للقوانين التي تحكمه، بل يعني أن تتحرك في هذه الحياة من موقع الملتفت إلى أنّ وراء هذا الكون يَدَ حكمةٍ أبدعته وأتقنته، وأنّه ليس منبثقاً من اللاشيء وليس قائماً على العبثية، ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: ١٩١].

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٠٠.

(٢) عن الغرور راجع الملاحق.

ب ـ ولا يعني أن تكون في اعتقاداتك غير عقلائي، كما يزعم البعض ممن يتهم المؤمنين بأنهم غيبيون، لأنّ غيبيتنا لا تبعدنا عن الحضور والمشاركة الفاعلة في هذا العالم وبقوة، تفكيراً وتخطيطاً وتنظيماً وعملاً وتطويراً، فهي ليست غيبية تجريدية، ولا تنافي أيضاً العقل، لأنّ العقل هو الذي دفعنا إلى الإيمان بالغيب. وإذا جاز لنا أن نصف الله تعالى بأنه غيب، فنحن نؤمن بالله، لأن عقلنا دفعنا إلى هذا الإيمان، ولهذا فإننا لا نرى في قول البعض عنا إننا غيبيون توهيناً أو سبّة حتى لو أراد هو ذلك، نعم، إننا غيبيون ولكننا ـ كما ذكرنا ـ لا ننفصل عن الحياة وتحدياتها والتأثير الفاعل فيها.

الصفة الثانية: القيام للصلاة

ومن الصفات المهمة للمتَّقين أنهم مقيمون للصلاة، كما ذكرت الآية المباركة، ويهمني هنا في شرح هذه الصفة تسليط الضوء على أمرين:

الأول: إنّ الصلاة هي مظهر الارتباط بالغيب وتجسيد إيماننا به وعلامة الخضوع لله تعالى وباب استمداد القوة والعون منه تعالى، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، ولأنها كذلك نأخذها كما جاءتنا تعبداً وانقياداً. إنّ الصلاة هي التعبير الأسمى عن عبوديتنا الكاملة لله تعالى، ولذلك نأخذها تسليماً، ولا نناقش فيها بالقول مثلاً: لماذا هذه الصلاة ركعتان وتلك ثلاث وتلك أربع؟! إلى غير ذلك من الأسئلة. وعلينا أن نلتفت إلى الحقيقة التالية وهي أننا ـ كبشر ـ في انقيادنا وخضوعنا لله في الصلاة لسنا الوحيدين في ذلك، بلْ إننا أَقلُّ المخلوقات انقياداً له تعالى، فنحن قد نعصي الله تعالى ونتمرد عليه، لكنّ سائر المخلوقات لا تعرف التمرد، والقرآن الكريم يحدثنا عن أنّ المخلوقات كافة منقادة لله تعالى، بل لك أن تقول هي في حالة صلاة لله تعالى، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾[النور: ٤١]، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[الرعد: ١٣] ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[الإسراء: ٤٤] ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾[الرحمن: ٦]، والسجود هو غاية الخضوع، إنّ الكون بكل ما فيه هو أكبر خاضع لله

تعالى ولقوانينه وأوامره التكوينية، ولهذا نستطيع القول: إن الكون كله محراب لله تعالى [١]. ولذلك عليك أن تعي جيداً أنك عندما تتوجه إلى الله تعالى في الصلاة فإنك تتوجه إليه مع أفواج من الملائكة والمخلوقات العاقلة وغير العاقلة، وما يميزك عنهم أنك تصلي عن إرادة واختيار، أما سائر المخلوقات فهي تصلي بانقيادها التكويني لله جلَّ وعلا.

الثاني: ورد في الآية وفي سائر آيات القرآن الكريم عبارة: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[الأنعام: ٧٢]، ولم ترد فيه عبارة «صلّوا»، ودلالة «صلّوا» غير دلالة «أقيموا الصلاة»، وهذا كالفرق بين أن تقول للبنّاء: ابنِ لي بيتاً وقولك: أقم البناء، ففي الأول، أنت تأمره بإيجاده بعد أن كان غير موجود، وأما قولك: أقم البناء، فهو يدل على أنّ البناء كان موجوداً لكنك تريد الاهتمام به وتجديده ورعايته، كذلك أقم الصلاة، فالمتَّقي لا يُقال له «صلِّ»، لأنه من الطبيعي أن يكون من أهل الصلاة، وإنما يُقال له أقم الصلاة، أقمها في حدودها وشروطها، بما يعبّر عن الاهتمام البالغ بها والمحافظة عليها والخشوع فيها، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * ... وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ٩]. المتَّقي المؤمن لا يُبتلى بترك الصلاة أبداً، وإنما يبتلى بالتقصير بحقها، ولهذا فإن المتَّقي لا يدعو قائلاً: «رب اجعلني من المصلّين»، بل يقول: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾[إبراهيم: ٤٠] وأما الذين يأتي التعبير عنهم بأنهم لم يصلوا فهم أهل النار، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾[المدثر: ٤٢ ـ ٤٣]. وهكذا فإنّ النبي ﷺ لا يُقال له: «صلّ» وإنما يُقال: «أقم الصلاة»، وعلى ضوء ما ذكرناه، علينا أن لا نكتفي بالصلاة، وإنما نسعى لإقامتها، فما أكثرَ المصلّين فينا وما أقلّ المقيمين للصلاة! وهذه الإقامة هي التي كان حماد بن عيسى لا يتقنها رغم جلالة قدرها، فعاتبه الإمام الصادق عليه السلام على ذلك، ففي الخبر عن الكليني عن عَلِيّ بْن إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبيه عَنْ حَمَّادِ بْنِ عِيسَى قَالَ: «قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام يَوْماً: يَا حَمَّادُ تُحْسِنُ أَنْ تُصَلِّيَ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي أَنَا أَحْفَظُ كِتَابَ حَرِيزٍ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: لَا عَلَيْكَ يَا حَمَّادُ قُمْ فَصَلِّ، قَالَ: فَقُمْتُ بَيْنَ يَدَيْه مُتَوَجِّهاً إِلَى الْقِبْلَةِ فَاسْتَفْتَحْتُ الصَّلَاةَ فَرَكَعْتُ وسَجَدْتُ، فَقَالَ:

(١) كما يقول السيد موسى الصدر، **موسوعة الإمام الصدر**، ج١٠، ص٩٤.

يَا حَمَّادُ لَا تُحْسِنُ أَنْ تُصَلِّيَ مَا أَقْبَحَ بِالرَّجُلِ مِنْكُمْ يَأْتِي عَلَيْه سِتُّونَ سَنَةً أَوْ سَبْعُونَ سَنَةً فَلَا يُقِيمُ صَلَاةً وَاحِدَةً بِحُدُودِهَا تَامَّةً! قَالَ حَمَّادٌ: فَأَصَابَنِي فِي نَفْسِي الذُّلُّ، فَقُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ: فَعَلِّمْنِي الصَّلَاةَ، فَقَامَ أَبُو عَبْدِ اللَّه ﷺ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ مُنْتَصِباً فَأَرْسَلَ يَدَيْه جَمِيعاً عَلَى فَخِذَيْه قَدْ ضَمَّ أَصَابِعَه وقَرَّبَ بَيْنَ قَدَمَيْه حَتَّى كَانَ بَيْنَهُمَا قَدْرُ ثَلَاثِ أَصَابِعَ مُنْفَرِجَاتٍ واسْتَقْبَلَ بِأَصَابِعِ رِجْلَيْه جَمِيعاً الْقِبْلَةَ لَمْ يُحَرِّفْهُمَا عَنِ الْقِبْلَةِ وقَالَ بِخُشُوعٍ اللَّه أَكْبَرُ..»(١).

الصفة الثالثة: ومما رزقناهم ينفقون

من وحي هذه الآية المباركة أتوقف عند النقاط التالية:

الأولى: هذه الآية تتصل بالمسؤولية الاجتماعية للإنسان المتقي، فهو إنسان يشعر بالآخرين ويهتم بحاجاتهم ويسعى لمساعدتهم والإنفاق عليهم مما آتاه الله تعالى، والإنفاق في الإسلام على صنفين: الإنفاق الواجب ومنه الزكاة والخمس، وكذا الإنفاق على الوالدين والزوجة والأولاد، والصنف الثاني: هو الإنفاق المستحب، وهو الصدقات والتبرعات التي يبذلها الإنسان في مساعدة الفقراء والمحتاجين وسائر وجوه الخير وفي سبيل الله تعالى، بما في ذلك الإنفاق على الحيوان، لأنه كما ورد في الخبر: «**إن في كل كبد حرى أجراً**»(٢).

والإنفاق له شروط وضوابط:

منها: (وهذا شرط كمال) أن يكون من المال الطيب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[البقرة: ٢٦٧].

ومنها: (وهذا شرط قبول) أن يكون الإنفاق لله تعالى وليس رياءً ولا سمعة ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[الإنسان: ٨ ـ ٩]، لا نريد منكم أن تهتفوا باسمائنا أو تنحنوا أمامنا، فحسابنا مع الله وليس معكم.

---

(١) الكافي، ج٣، ص٣١١.
(٢) المستدرك، ج٣، ص٦١٩.

الثانية: يُلفت النظر أنّ هذه الآية قد أشارت إلى إنّ ما تنفقون منه هو مما أمدكم به الله تعالى، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾[الأنفال: ٣]، وهذا المعنى تضمنته آيات أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧] وفي آية ثالثة: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[النور: ٣٣]، وهذا المعنى يعبّر عن حقيقة واقعية سواء التفتنا إليها أو لم نلتفت، ومفادها أننا وما نملك لله تعالى، واستحضار العبد لهذا المعنى والتوجه إليه يعمق لديه الإحساس بأنه لا منة له في الإنفاق على غيره، لأن هذا المال وإن تعبتَ في تحصيله لكن الله تعالى هو الذي هيأ لك أسبابه وأعطاك الطاقة والقدرة على اكتسابه، وإذا جاز التعبير، فإنّ الله تعالى شريك معك فيه، وشراكة الله تعني أن تدفع منه شيئاً لله، والدفع له تعالى يكون بمساعدة عيال الله، ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[الذاريات: ١٩]، فأنت إذ تنفقْ فأنت تنفق من حصة الله تعالى، وهذا الأمر يغفل عنه كثيرون، ممن يقولون: المال مالي وأنا تعبت فيه ولا أريد أن أُعطيَ أحداً! وربما يصل الأمر ببعضهم إلى حدّ أن يكون لسان حاله كلسان مقال قارون عندما طلب منه قومه أن يحسن كما أحسن الله إليه، فكان جوابه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص: ٧٨]، في إنكارٍ منه لنعم الله عليه وألطافه به والتي مكنته من الحصول على هذا المال. بينما الإنسان المؤمن يرى أنّ كل ماله إنما حصّله بتوفيق الله له، ولذا فهو يعطي الفقير بلا منة، إذ لا موجب للمنة، قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[البقرة: ٢٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[المدثر: ٦] وعلى ماذا تمنُّ على الآخرين؟ على مالٍ حصلتَه من مملكة الله! واستعنت على تحصيله بقدرة هي رشحة من قدرة الله، وبعلمٍ زودك به الله.

الثالثة: إن الإنفاق لا ينحصر بالمال، بل يحصل ويتحقق بكل ما خوّلك الله مما يصدق عليه عنوان الرزق، والله تعالى لم يرزقك المال فقط، بل رزقك العلم والحكمة والجاه والجوارح.. فإذا كنت تملك علماً فيمكنك أن تنفق منه، ونفقة العلم أعظم من نفقة المال، لأنه كما قال علي عليه السلام: «**المال تُنْقِصُه النفقة والعلم يزكو على الانفاق**»[1]

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٣٦.

وإذا كنت تملك خبرة بالحياة وشؤونها فيمكن الإنفاق منها بأن تنصح[(١)] إنساناً وترشده إلى عمل من أعمال البر أو إلى طريقة للعيش ليكفَّ وجهه عن الناس وهذا من أعظم النفقة، وهو يقيناً أفضل من إعطائه المال في كل يوم وهو ما يبقيه محتاجاً ويمدّ يد الاستعطاء إليك، إذن النصيحة هي من أجمل وجوه النفقة، وإبداء الرأي الصائب هو نفقة، وكذلك استخدامك لجاهك هو من النفقة.

الرابعة: إنّ الدعوة إلى الإنفاق/ الزكاة تُعطف في كتاب الله دائماً على الأمر بإقامة الصلاة، وكثيراً ما تتكرر هذه المعادلة الثنائية: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[المائدة: ٥٥]، وهاتان العبادتان: إحداهما عبادة روحية وهي الصلاة، والأخرى عبادة مالية، وهذه الثنائية في العمل العبادي لها دلالة هامة، وهي أن الإسلام يقوم على دعامتين: علاقة عامودية مع الخالق، وأخرى أفقية مع المخلوق، وبعبارة أخرى: الخضوع للخالق والإحسان إلى المخلوق، ولا يكتمل دين الإنسان بغير هاتين الدعامتين، فمجرد أن تنفتح على الخالق وتنسى المخلوق لا يكفي بل هذا مرفوض، وأن تُحسن إلى المخلوق وتنسى الخالق هذا أيضاً مرفوض، والصحيح هو الجمع بين الأمرين.

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾

هذا المقطع من الآية يتضمن عقيدتين إسلاميتين:

الأولى: الإيمان بما أُنزل إلى الرسول، وهو القرآن الكريم.

الثانية: الإيمان بما أنزل من قبلك وهي زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام.

وثمّة فارق رئيسٌ بين هاتين العقيدتين، فالعقيدة الأولى، وهي الإيمان بما أنزل على رسول الله وهو القرآن، ليست عقيدة تجريدية تقتصر على الإيمان النظري، فالقرآن الكريم لم ينزل ليكون كتاباً نؤمن فيه أو نزين به بيوتنا أو نتلوه في ذكرى أمواتنا فحسب، وإنما هو كتاب الحياة، فهو المرجعيّة التي تشكّل أفكارنا ورؤانا وترسم لنا الخط الذي علينا اتباعه في هذه الحياة.

---

(١) حول مفهوم النصيحة راجع الملاحق.

وأمّا العقيدة الثانية، وهي الإيمان بما أنزل من قبل رسول الله ﷺ، فهي عقيدة تقتصر على الإيمان النظري، ولا يتبعها عمل بما في تلك الكتب، فالمسلم ليس ملزماً بالعمل بكتب الآخرين[١]، لأن شريعته كاملة وهو ملزم باتباعها، وكتابه وهو القرآن الكريم مهيمن على غيره من الكتب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤٨] كما أنّه كامل ولا نقص فيه، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨] إذن ما هي دلالة الإيمان بما أنزل من قبلنا؟

إنّ دلالة ذلك هي الاعتراف بالنبوات السابقة، فإنّ خطّ النبوة هو خط تكاملي من عند الله تعالى، والإسلام هو الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة، وهو ما جاء ليلغي بل ليكمل، وهذا ما يعكس اعترافاً بأتباع تلك الشرائع السماوية السابقة وإقراراً لها على دينها، وهذه الحقيقة قد عبر عنها نبينا ﷺ في قوله حسب ما روي عنه: «**إنما مَثَلِي ومَثَلُ الأنْبِياءِ مِن قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ مِن زَواياهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به ويَعْجَبُونَ له ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ قالَ فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتَمُ النبيِّينَ**»[٢].

الصفة الخامسة: وبالآخرة هم يوقنون

وهذه صفة اعتقادية، أي تتصل بعقد القلب على الإيمان بيوم القيامة، ولكنْ بالتأكيد لها تأثير كبير على تقوى الإنسان واستقامته، لأنّ الإيمان بالآخرة يمثل عاصماً للإنسان عن الانجراف مع الشهوات.. وعن هذه الصفة نتكلم في النقاط التالية:

أ - لماذا علينا الاعتقاد بيوم القيامة؟

إنّ الاعتقاد بالبعث هو من ضروريات الدين[٣]، وأساسياته، وتنشأ ضرورة الاعتقاد باليوم الآخر:

أولاً: من رغبة فطرية وجدانية، فالإنسان مفطور على حب البقاء، والقضايا الفطرية

---

(١) نعم هناك كلام فقهي عما ثبت من أحكام وردت في شرع ما قبلنا، وقد أوضحنا الرأي فيها في بحث عن تلك القاعدة، فراجع كتاب: **فقه القواعد الناظمة للعلاقة مع الآخر الديني**. (تحت الطبع).

(٢) **صحيح البخاري**، ج٤، ص١٦٣.

(٣) وقع الكلام في كونه أصلاً من أصول الدين أو ضرورياً من ضروريات الدين. راجع كتابنا: **أصول الاجتهاد الكلامي**.

هي دائماً صادقة، الفطرة لا تكذب ولا تخطئ، ولذا كانت إحدى وظائف الأنبياء ﵈: أن يطلبوا من العباد أداء ميثاق الفطرة، والإسلام يعمل كثيراً على الفطرة في تربية الإنسان «**كل مولود يولد على الفطرة..**» وإذا تم العبث بالفطرة فتأكدوا أن الإنسان قد انتهى وأصبحت البشرية على مشارف الهلاك، لأن الفطرة هي منشأ كل خير على المستوى الفردي والاجتماعي.. إن ما يجري اليوم في العالم من تشريع المثلية هو عمل مخالف للفطرة ومضاد للنواميس وتغيير لخلق الله، وإذا كان لدى المثلي ميول معينة إلى جنسه فهذه حالة مرضية علينا معالجتها لا الإقرار بها وتشريع القوانين لحمايتها، وإلا تعالوا وشرعوا القوانين لمن لديه ميول إلى ممارسة الجنس مع الأطفال أو مع المحارم!! أنت مفطور على حب الخير وهذه فطرة صائبة، وأنت مفطور على حب البقاء، وهذه فطرة صادقة، والفطرة هي مرتكز للتشريع في الإسلام، فالتشريع لا يمكن أن يضاد الفطرة، بل لا بد أن ينسجم معها، والخلاصة أنّ الإيمان بالآخرة هو استجابة لنداء الفطرة.

ثانياً: إن الإيمان بيوم الآخرة فيه استجابة لحكم عقلي، فالعقل يحكم بضرورة وجود يوم يُنتصف فيه للمظلوم من ظالمه، ويكرم فيه المحسن وينال المسيء جزاءه، وإلى هذه اللّابديّة العقليّة تشير بعض الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم: ٣٥ ـ ٣٦]، وقال عزّ وجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ**﴾[المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

ثالثاً: الإيمان باليوم الآخر هو مطلب ديني نصّت عليه الرسالات السماوية كلها، فقد اتفقت النبوات على الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا قرآننا الكريم قد ضمّ آلاف الآيات (قيل أربعة آلاف آية) التي تتحدث عن المعاد تصريحاً أو تلميحاً، وهذا أمر يدعو إلى التبصر، ويدفع إلى إيلاء قضية المعاد حقها من التفكير والاستعداد، إنّ آيات القرآن الكريم مع البسملة هو ٦٣٤٨ آية، وعليه، فإذا كان من بينها ٤٠٠٠ آية تتحدث عن المعاد فهذا يعني أنّ ما يقرب من ثلثي القرآن الكريم يشير إلى قضية المعاد، ويصح لنا أن نقول إنّ هذا يعني أن علينا أن نعطي لقضية المعاد ثلثي اهتمامنا.

ب - ما هو دور الإيمان بالآخرة في حياتنا؟

ما الذي يضيفه لنا الإيمان بالآخرة؟ أو ما الذي يغيّر في حياتنا؟ والجواب:

أولاً: هو يعطي للحياة الدنيا معنى ومغزى، لأنّ حياةً تنتهي بالموت بالرغم مما فيها من تفاوت بين الناس وما فيها من ظلم وقهر، هي حياة عبثية وما كان للحكيم أن يفعل ذلك، أي ينهي الحياة بهذه الطريقة التي تضيّع حق المعذبين، ولا يؤخذ للمظلوم بحقه من الظالم.

ثانياً: إنّ الإيمان بالآخرة يمدّ الإنسان بالأمل ويزوده بالصبر ويدفعه إلى تجاوز الآلام والنوائب وتقبلها، لأنه إذا لم يُجاز عليها في الدنيا، فهو سوف يجازى عليها ثواباً ورضواناً يوم القيامة.

ثالثاً: إنّ الإيمان بالآخرة يخلِّصُ صاحبه من كثير من الإشكالات والاعتراضات التي تواجهه حول ما يجري في هذا العالم، حيث يتساءل الكثيرون لماذا يا رب نحن فقراء وغيرنا أغنياء؟! لماذا يا رب نحن نمرض وغيرنا أصحاء؟! بل لماذا المرض والألم والخوف؟! وهذه الأسئلة وغيرها ليس من المفترض أن يكون لها وقع كبير في نفس الشخص المؤمن بالآخرة[1]، لأنه يعتقد أن الدنيا ليست نهاية المطاف، وإنما هي مزرعة الآخرة، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، ولذا ليس المهم من يضحك أولاً بل من يضحك أخيراً، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[المطففين: ٣٤ ـ ٣٥]، نعم، لو كانت الدنيا نهاية المطاف لكان لهذه الإشكالات وجه ومحلّ.

رابعاً: إن الإيمان باليوم الآخر، يشكل أفضل مربٍ للإنسان وضابط لحركته ورقيب على أقواله وأفعاله، لأن إيمانه بالبعث يعني أن كل عمل من أعماله سيجازى عليه في ذلك اليوم، بل إن العمل سيعرض أمامه يوم تبلى السرائر، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧ ـ ٨]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: ٣٠].

والثمرات المتقدمة للإيمان بيوم القيامة لا تقتصر على الفرد بل هي تشمل الفرد والمجتمع معاً.

(١) راجع حول ذلك كتابنا: **هل ظلمنا الله؟**

ج - اليقين بالآخرة

ويبقى أن نشير أخيراً إلى أنّ الآية المباركة في وصفها للمتَّقين لم تقل: «وبالآخرة هم يؤمنون» بل قالت: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[البقرة: ٤]، واليقين هو حالة الاطمئنان الكامل الذي ينبغي للإنسان أن يسعى للوصول إليه، جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الإيمان أفضل من الإسلام وإن اليقين أفضل من الإيمان وما من شيء أعز من اليقين**»[1]. ولأن موانع الوصول موجودة، فعلينا أن نبقى في سعي دائم للوصول إلى ذلك المقام، وعلينا أن نستعين دائماً بدعاء الله ليرزقنا اليقين، كما جاء في دعاء أبي حمزة الثمالي عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وارزقنا اليقين وحسن الظن بك**»[2]، ومن رُزِقَ اليقين فقد رزق شيئاً ثميناً فليحرص عليه، وكما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك الفتى الذي وصل إلى مرحلة اليقين: «**أبصرت فاثبت**»[3].

ولأهميّة التحلّي باليقين وكونه الطموح الأسمى والغاية القصوى لأولياء الله، وجدنا أنّ خليل الله إبراهيم عليه السلام يطلب من الله برهاناً يعينه على اطمئنان القلب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾[البقرة: ٢٦٠]. هذا ولكنّ إبراهيم الخليل عليه السلام كان من أهل اليقين، بحسب ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: ٧٥]، وعليه فكيف نفهم طلبه المعجزة ليطمئن قلبه؟

والجواب: لعلّ سؤال المعجزة حصل في المرحلة الأولى من عمره، وهذا ما يستفاد من قوله في الآية الثانية ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، فإنه جاء تفريعاً على إراءته ملكوت السماوات والأرض، ما يشير إلى أنه قبل ذلك كان مؤمناً ولم يكن موقناً. وفي الخبر أنّ إبراهيم عليه السلام كان موقناً لكنه طلب الزيادة، عن صفوان بن يحيى قال: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾[البقرة: ٢٦٠] أكان في قلبه شك؟ قال: لا، كان على يقين، ولكنه أراد من الله الزيادة في يقينه»[4].

---

(١) **الكافي**، ج٢، ص٥١.
(٢) **مصباح المتهجد**، ص٦٠٠.
(٣) **الكافي**، ج٢، ص٥٤.
(٤) **المحاسن**، ج١، ص٢٤٧.

المحور الثاني

في رحاب خطبة
صفات المتّقين

بين يدي الخطبة

قبل أن نسرح النظر في فقرات هذه الخطبة ونستلهم منها الدروس والعِبَر، يجدر بنا أن نقدّم بعض النقاط التمهيدية:

الخطبة كاملة

قال الشريف الرضي: «ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المتَّقين: رُوِيَ أَنَّ صَاحِباً لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يُقَالُ لَه هَمَّامٌ، كَانَ رَجُلًا عَابِداً فَقَالَ لَه: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَتَثَاقَلَ عليه السلام عَنْ جَوَابِه، ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ اتَّقِ اللَّه وأَحْسِنْ ـ فَـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨]، فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَّامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْه، فَحَمِدَ اللَّه وأَثْنَى عَلَيْه وصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّه سُبْحَانَه وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّه لَا تَضُرُّه مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاه، ولَا تَنْفَعُه طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَه، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ ووَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ومَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ ومَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّه عَلَيْهِمْ، ووَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ، ولَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّه عَلَيْهِمْ، لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَه فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ، قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا. أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا

تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ به أَنْفُسَهُمْ ويَسْتَثِيرُونَ به دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّه تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ، وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ويَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا، ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، ولَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَه فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي. اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ. فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَه قُوَّةً فِي دِينٍ، وحَزْماً فِي لِينٍ، وإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وعِلْماً فِي حِلْمٍ، وقَصْداً فِي غِنًى، وخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ وصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وطَلَباً فِي حَلَالٍ، ونَشَاطاً فِي هُدًى وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ، يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمْسِي وهَمُّه الشُّكْرُ ويُصْبِحُ وهَمُّه الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً ويُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ، إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْه نَفْسُه فِيمَا تَكْرَه، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ، قُرَّةُ عَيْنِه فِيمَا لَا يَزُولُ وزَهَادَتُه فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ والْقَوْلَ بِالْعَمَلِ، تَرَاه قَرِيباً أَمَلُه قَلِيلًا زَلَـلُه خَاشِعاً قَلْبُه، قَانِعَةً نَفْسُه مَنْزُوراً أَكْلُه سَهْلًا أَمْرُه، حَرِيزاً دِينُه مَيِّتَةً شَهْوَتُه مَكْظُوماً غَيْظُه، الْخَيْرُ مِنْه مَأْمُولٌ والشَّرُّ مِنْه مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَه ويُعْطِي مَنْ حَرَمَه، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَه بَعِيداً فُحْشُه، لَيِّناً قَوْلُه غَائِباً مُنْكَرُه حَاضِراً مَعْرُوفُه، مُقْبِلًا خَيْرُه مُدْبِراً شَرُّه، فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ وفِي الْمَكَارِه صَبُورٌ، وفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، ولَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ، يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْه، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ ولَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، ولَا يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ ولَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، ولَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ ولَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، ولَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ، إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّه صَمْتُه وإِنْ

ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُه، وإِنْ بُغِيَ عَلَيْه صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّه هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَه، نَفْسُه مِنْه فِي عَنَاءٍ والنَّاسُ مِنْه فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَه لِآخِرَتِه وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِه، بُعْدُه عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْه زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ، ودُنُوُّه مِمَّنْ دَنَا مِنْه لِينٌ ورَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُه بِكِبْرٍ وعَظَمَةٍ ولَا دُنُوُّه بِمَكْرٍ وخَدِيعَةٍ.

قَالَ: فَصَعِقَ هَمَّامٌ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُه فِيهَا! فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَمَا واللَّه لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْه، ثُمَّ قَالَ: أَهَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا. فَقَالَ لَه قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لَا يَعْدُوه، وسَبَباً لَا يَتَجَاوَزُه فَمَهْلًا لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ»[١].

قصة الخطبة

إنّ هذه الخطبة كان لها مناسبة أو قصة معينة، فالإمام عليه السلام لم يبادر إليها من تلقاء نفسه، وإنما كانت استجابة لطلب بعض أصحابه، وقصة الخطبة ذُكرت في مقدمتها، وهي «أَنَّ صَاحِباً لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يُقَالُ لَه هَمَّامٌ كَانَ رَجُلًا عَابِداً، فَقَالَ لَه: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَتَثَاقَلَ عليه السلام عَنْ جَوَابِه، ثُمَّ قَالَ يَا هَمَّامُ اتَّقِ اللَّه وأَحْسِنْ، فَـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨]، فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَّامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْه، فَحَمِدَ اللَّه وأَثْنَى عَلَيْه وصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، ثُمَّ قَالَ عليه السلام **أَمَّا بَعْدُ..**».

أهمية الخطبة

الخطبة ـ كما هو واضح ـ تمثل بياناً مفصّلاً وشرحاً وافياً لصفات المتّقين، فقد ذُكر فيها نيف وسبعون صفة من صفاتهم[٢]، وهي ـ بحقّ ـ خطبة جامعة مانعة، وتضع بين أيدينا دستوراً في الأخلاق العملية، التي تنظم سلوك المسلم في كافة شؤونه وشجونه وحالاته، وفي صفاته الروحية والسلوكية والاجتماعية، وقد صيغت بقالب عرفاني بديع

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٦٥.

(٢) بحسب تعداد ابن ميثم البحراني، راجع: **اختيار مصباح السالكين**، ص٣٨٢.

وبأسلوب لغوي بليغ ومؤثر جداً، ومما لا شك فيه أنّ الإمام عليه السلام كان يصف المتَّقين وهو ينظر إليهم بعين البصيرة ويتمثلهم أمام ناظريه، والخطبة في الحقيقة تعكس شخصيته وصفاته عليه السلام، فهو إنما برع في بيان صفاتهم الأخلاقية والسلوكية، لأنه كان يتمثلها في حياته، ويجسدها في سلوكه، ويختزنها في نفسه، ومن أحرى بوصف المتَّقين من إمامهم وسيدهم!

ولأهمية الخطبة فقد أصبحت مورداً للشرح والبيان، وقد شرحها كثيرٌ من الأعلام شرحاً مستقلاً، ناهيك عن شرحها ضمن الشروح العامة للنهج، وقد أشار إلى عدد من تلك الشروح السيد عبد الزهراء الحسيني(١).

الخطبة في الميزان الأدبي

من المعلوم أنّ علياً عليه السلام قد امتاز بلغة أدبية عالية في مضامينها، ساحرة في سبكها وتعبيراتها، بعيدة الأغوار عميقة الدلالة، كيف لا وهو أمير البلغاء وسيد الفصحاء، وأبلغ من نطق بالضاد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن هنا غدا كلامه عليه السلام مرجع الشعراء والنحاة واللغويين، والبلاغة عند علي عليه السلام بشتى أنواعها وأدواتها، من التشبيه والتمثيل والمجاز والاستعارة والكناية.. تأتي عفو الخاطر، لا تجد عنده تصنعاً ممجوجاً ولا تسجيعاً متكلفاً ومذموماً.

لاحظ على سبيل المثال قوله متحدثاً عن التَّقوى: «**ألا وإنّ التَّقوى مطايا ذلل حُمِل عليها أهلها وأُعطوا أزمتها، فأوردتهم الجنة**»(٢)، تجد أنه في هذه الجملة الصغيرة التي لا تتجاوز السطر الواحد قد جمع بين جمال الوصف ولطيف التمثيل واختصار التعبير، وذلك في سياق ترغيب الناس «في التَّقوى والميل إلى ركوبها في السير إلى الله تعالى وإلى الغاية المعينة وهي الجنة، حيث صوّرها بالمطيّة الموصوفة بالوصف المذكور الموصلة راكبها إلى الغاية المقصودة له، وذلك الوصف: كونها ذلولاً ومع زمام يتمسك به الراكب،

---

(١) راجع: **مصادر نهج البلاغة وأسانيده**، ج٣، ص٥٤.

(٢) **نهج البلاغة**، ج١، ص٤٨، **والكافي**، ج٨، ص٦٧.

وكما أنها بهذا الوصف تلزم الطريق المستقيم ولا تتجاوزه وتسير براكبه حتى توصله إلى مقصده، كذلك التَّقوى إذ سهولة طريق السالك إلى الله بالتَّقوى تشبه ذلّ المطية والحدود الشرعية وقوانينها التي تكون مع التَّقوى تشبه زمامها، وإيصال التَّقوى صاحبها إلى السعادة الأبدية التي هي قرب الحق ودخول الجنة تشبه إيصال المطية المذكورة راكبها إلى مقتصده والتشبيه فيه وفي السابق تشبيه معقول بمحسوس لقصد الإيضاح»(١)

والخطبة التي بين أيدينا، أعني خطبة «صفات المتَّقين» هي الأخرى قد صيغت بلغة أدبية عالية، فكانت سلسة في البيان وقريبة إلى الوجدان.

مصدر الخطبة

ومما تمتاز به هذه الخطبة تعدد مصادرها، فلم ينفرد الشريف الرضي برواياتها في نهج البلاغة، بل رواها آخرون قبله، منهم الشيخ الكليني في الكافي، والشيخ الصدوق في الأمالي وصفات الشيعة، والإسكافي في التمحيص، وهي مروية أيضاً في كتاب سُليم بن قيس، إلى غير ذلك من المصادر.. ونحن في شرحنا للخطبة سنعتمد رواية النهج، وإن كان ربما رجعنا لغيرها عند اختلاف النسخ.

من هو همّام؟

لا يخفى أنّ الخطبة أنشأها الإمام عليه السلام بطلب وإلحاح من صاحبه همّام، فمن هو همّام هذا؟

قال ابن أبي الحديد: «هو همام بن شريح بن يزيد بن عمرو.. بن سعد العشيرة». في المقابل، فقد رجّح بعض الأعلام ومنهم السيد الأمين أن همّاماً هذا، هو «همّام بن عبادة بن خثيم ابن أخ الربيع بن خثيم أحد الزهاد الثمانية»(٢)، وذلك استناداً إلى ما رواه الكراجكي(٣).

---

(١) **شرح أصول الكافي**، للمازندراني، ج١١، ص٤١٧.
(٢) **أعيان الشيعة**، ج١٠، ص٢٧١.
(٣) **كنز الفوائد**، ص٣١.

وكيف كان، فلا ريب أنّ هماماً «كان من شيعة علي عليه السلام وأوليائه» عليهم السلام كما عبر ابن أبي الحديد[١]، «وكان عابداً ناسكاً مجتهداً»[٢] كما جاء في رواية الكافي[٣]، وهمام في اللغة: البعيد الهمة[٤]، وإنّ قول همام رضي الله عنه للإمام: «صف لي المتَّقين كأني أنظر إليهم» مؤشر على هذا البعد التورعي في شخصيته، كما أنّ صعقته التي كانت فيها نفسه بعد فراغ الإمام عليه السلام من الخطبة هي دليل آخر على أنه كان من أهل الصفاء وأهل الله تعالى، ولهمام نظراء في أصحاب علي عليه السلام وهم يشكّلون نماذج عالية في الخلق والشجاعة والنبل والورع والتقى والزهد.

تثاقل الإمام عن إجابته

والظاهر أنّ الإمام عليه السلام إنما تثاقل عن جواب همام واكتفى بالقول: «**يا همام اتق الله وأحسن..**»، لأنه أحسّ بأن لديه روحية خاصة بحيث قد تؤثر فيه الموعظة أثراً بالغاً فخاف عليه عليه السلام، كما جاء في أواخر الخطبة: «**أما والله لقد كنت أخافها عليه**».

إنّ قوله عليه السلام لهمام: «**اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**» لا يمثل إجابة منه عليه السلام على طلب همام، بل هو على الأرجح استمرار منه عليه السلام في الإعراض عن الجواب الحقيقي، لكأنه عليه السلام أراد أن يقول له: التَّقوى معلومة إجمالاً، فاتق الله وأحسن، فإنّ الله وعد في كتابه أن يكون ولياً وناصراً للمتَّقين والمحسنين[٥]، لكن همام لم يقنع بذلك، و«عزم عليه» أي أصر وأقسم عليه عليه السلام، بأن يصفهم له، عند ذلك استجاب الإمام وأخذ في وصفهم.

الشرح التفصيلي للخطبة

وفيما يلي نشرع في شرح هذه الخطبة المباركة، وما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام فيها

(١) **شرح نهج البلاغة**، ج١٠، ص١٤٣.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص٢٢٦.
(٣) جاء ذلك في مستهل الخطبة، والظاهر أن الكلام للكليني أو أحد الرواة.
(٤) **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، للراوندي، ج٢، ص٢٧٥.
(٥) كما ذكر ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج١، ص٣٥.

من صفات خلقية ومعنوية واجتماعية، وتجدر الإشارة إلى أن الصفات التي سيذكرها عليّ عليه السلام، هي للمتَّقين وليست للمعصومين، والمتَّقي عنده عليه السلام هو النموذج الكامل الذي يبلغ بتقاه إلى منتهى الكمال البشري، فيستطيع أي إنسان أن يصل إلى هذا المستوى، ولكن عليه أن يجد ويجتهد.

قال عليه السلام: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّه سُبْحَانَه وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ، غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّه لَا تَضُرُّه مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاه، ولَا تَنْفَعُه طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَه**».

اللّه الغني

توضيحاً وبياناً لما جاء في هذا المقطع، نقول:

أولاً: غنى اللّه وفقر العبد

لما رأى علي عليه السلام إصرار همّام على التعرّف التفصيلي على صفات المتَّقين، حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «**أما بعد فإنّ الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم..**»، وهو عليه السلام بهذا الكلام يريد أن يبين حقيقة، وهي أنّ التَّقوى والعبادة والورع وأعمال الخير تعود بنفعها إلى صاحبها، وأن عصيان العبد لربه يعود بالأثر السيئ على العبد نفسه، دون خالقه، أما بالنسبة لله تعالى فلا ينبغي التوهم أنه ينتفع بشيء من أعمال عباده ولا يضرّه شيء من سيئاتهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]، إن انتفاعه بغيره معناه أنّ لديه نقصاً يريد أن يرفعه، وقد تنزه تعالى عن النقص والعيب، فهو ذو القوة الكاملة والقدرة التامة والمتينة.

ثانياً: قد تسأل، ولماذا خلقنا؟

والجواب: هناك أكثر من نظريّة طرحها علماء المسلمين في تفسير هدف خلق الخلق بشكل عام بما في ذلك خلق الإنسان، وهذه النظريات ليست متنافية، بل قد تعبّر عن معنى واحد بألسنة شتى، كما أنّ بعضها يكمل البعض الآخر، فهناك النظرية العرفانية التي ترى أنّ الخلق هو عمل تقتضيه صفات الحق جل وعلا، فهو أهل الفيض والخير والمحض والجود، والجواد لا يُسأل عن سبب لكرمه وإنما عن بخله، وهناك

النظرية الفلسفية التي ترى أنّ الوجود خير محض وهو يقيناً أفضل من العدم، ولا ينظر إلى الوجود والخلق باعتباره شرّاً إلّا الجاهلون والفاشلون في هذه الحياة والذين يستسلمون لخوفهم، ويخافون التحدي والمواجهة وخوض غمار الحياة، ولهذا فلا ينبغي أن تسأل عن سبب الإيجاد بل الذي يُسأل عنه هو سبب الإعدام. وأما في الرؤية القرآنية فإنّ الله تعالى خَلَق الخَلْق ليعبدوه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، وثمرة عبادته تعالى تعود إليهم، فهم بادئ الأمر لا بدَّ أن يتعرفوا عليه تعالى، لأنه لا يمكن أن يعبد الإنسان من لا يعرف، وإذا عرفوه عبدوه، وبذلك يصلون إلى أعلى درجات الكمال المعنوي والروحي، وصولاً إلى أسمى الغايات وهي لقاء الله تعالى ورضوانه. هذا مختصر القول فيما يمكن أن يطرح من نظريات في مسألة الخلق، وقد أوضحناها بالتفصيل في كتابنا «هل ظلمنا الله؟» فليراجع.

باختصار: ليس بالإمكان أبدع مما كان، وعلينا أن ننظر بإيجابية إلى الأمور «كن جميلاً ترَ الوجود جميلاً».

«فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، ووَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ».

العطاء الإلهي

ما جاء في هذا المقطع، هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢]، ويهمني هنا أن أشير إلى أمرين:

أولاً: العطاء المادي والمعنوي

إنّ القسمة الإلهية للعباد لا تقتصر على العطاء المادي، بل تشمل أيضاً العطاء المعنوي، وعمدة ذلك: مكارم الأخلاق ودرجات الكمال المعنوي، وحيث إن حديثه عليه السلام في هذه الخطبة عن العطاء المعنوي، عقب عليه السلام على ذلك بالقول: «**فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ**»، فعلى الإنسان أن يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ ما يتحلّى به من ملكات وفضائل إنما هي عطاء إلهي، ولا بدّ أن يقدر هذه النعمة ويشكرها.

ثانياً: سرّ التفاوت في العطاء المادي

إنّ في قسمة الله تعالى لمعايش العباد شيئاً من التفاوت، فثمة غني وفقير، ما يؤدي إلى اختلاف مواضع الناس في الدنيا، ويبدو أنّ ذلك ليس أمراً جزافياً وإنما هو جارٍ وفق منطق السنن والمبادئ الحاكمة، ومن أهم هذه السنن والمبادئ:

١ ـ **مبدأ العمل والكد**، فالعمل سرّ النجاح، ومن يعمل سوف يحصد أفضل ممن لا يعمل، وأمّا من يتكاسل فلن يحصد سوى الخيبة، ولا يحق له أن يعترض على خالقه، ولا يفترض به أن يتبرم ويشكو فهو من كتب على نفسه أن يعيش مهاناً ذليلاً وأن يبقى في حضيض الاستجداء والاستعطاء من الآخرين، وقد ورد عن علي عليه السلام: «**هيهات من نيل السعادة السّكون إلى الهوينا والبطالة**»(١).

٢ ـ **مبدأ الأخذ بالعدل**، فمن تخطيط الله تعالى لإدارة هذه الحياة أنه خلق الإنسان وجعله خليفته على الأرض، وطلب إليه أن يأخذ منها ما يكفيها من ثرواتها الطبيعية، ولا يستأثر بما هو زائد عن حاجته، وأن يعدل في تقسيم تلك الثروات، ونهاه عن الظلم وحذره من مغبته، فإذا عدل فقد سَعُد وسعد غيره، وأما إذا ظلم واستأثر فإنه يعتدي على حقوق الآخرين، ويكون هو الظالم لهم، وليس الله تعالى كما يتوهم الجهلة.

والدعوة إلى العدل مبنية على مبدأ تكويني مفاده أنّ الله تعالى زود الإنسان وسائر المخلوقات بما تحتاجه، ولم يجعل في طاقات الطبيعة نقصاً أو بخلاً أو شُحاً، ومهما استهلك منها الإنسان، فإنها تعيد إنتاج نفسها، وبالتالي فالنقص الذي يصيب بعض الناس لم يأتهم من قبل الله تعالى، وإنما هو ناتج عن الظلم وسوء توزيع الثروات، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾[إبراهيم: ٣٤]. وفي الخبر عنه عليه السلام قال: «**لو عدل في الفرات لأسقى ما على الأرض كلّه**»(٢).

---

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٥١٢.

(٢) **الأصول الستة عشر من الأصول الأولية**، ص٣٤٢، وعنه **بحار الأنوار**، ج٣، ص١٠٢. وسند الرواية هكذا: «عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده قال: قال عليه السلام..»، ويرجح أن الرواية عن أبي الإمام الصادق عليه السلام، وذلك لأنّ الرواية مأخوذة من نوادر علي بن أسباط، والرواية التي قبلها عن أبي عبد الله عليه السلام.

وثمة تكليف شرعي في المقام، وهو أن على الناس أن ينتزعوا حقهم بأيديهم، وأن يأخذوا حقوق المضطهدين والمظلومين أيضاً، وأن لا يسمحوا للظالم والفاسد أن يعبث في ثروات الأرض ويستأثر بمقدرات البلاد، في الحديث عن علي عليه السلام: «..**فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع»**[1]، وروي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه الصادق عليه السلام قَالَ: «**مَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَمْ يُؤْخَذْ لِضَعِيفِهَا مِنْ قَوِيِّهَا بِحَقِّه غَيْرَ مُتَعْتَعٍ**»[2].

ثالثاً: سرّ التفاوت في العطاء المعنوي

وأمّا اختلاف الناس في العطاء المعنوي، فهو أيضاً ليس جزافياً وإنما يخضع لقوانين، وما يمكن التنبيه عليه في هذا المقام، هو أنّ قابلية النفس واستعدادها للتحلي بالفضائل المعنوية هي قابلية فطرية جبلية عامة، أي لا تستثني أحداً من العباد، فالقسمة في الاستعدادات والقابليات هي قسمة عادلة، وأمّا التحلّي الفعلي بالفضائل وامتلاكها فهو يخضع للعديد من الاعتبارات والحسابات، منها: العناصر الوراثية، فما يحمله الأبوان من خصائص تكوينية ينتقل إلى الأولاد، **ومنها**: العناصر التربوية الاكتسابية، فما يكتسبه الأبوان ويتحليان به من فضائل أو رذائل ينتقل ـ بحكم قانون الوراثة ـ إلى الأولاد، وربما كانت الصحبة والرفقة هي المؤثر الأكبر في شخصية الأولاد، وتأتي وسائل التواصل الإلكترونية ووسائل الإعلام في زماننا على رأس قائمة أخطر المؤثرات على شخصية الإنسان.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٣، ص١٠٢.

(٢) **الكافي**، ج٥، ص٥٦. قال ابن الأثير: «غير متعتع بفتح التاء أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه، يقال تعتعه فتتعتع»، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج١، ص١٩٠، ونحوه ما في **الوافي**، ج١٥، ص١٧١.

(١)
مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ

منطق أهل التَّقوى:

أولى الفضائل التي ذكرها الإمام عليه السلام كصفة من صفات المتَّقين، هي صفة تتّصل بمنطق الإنسان وما يتلفظ به من خلال لسانه أو ما يكتبه ببنانه، وجعْلُها أولى الفضائل يؤشر على أهميتها، لأنّ تأثير الكلام سلباً أو إيجاباً لا ينحصر بالفرد بل يمتدّ إلى المجتمع برمّته، ونوضح هذا الأمر فيما يلي:

أولاً: الكلام ترجمان الإنسان

إنّ اللسان هو ترجمان العقل والقلب، والمرآة التي تعرفك الأشخاص وتظهر لك معادنهم وهو خير معبِّر عن شخصية صاحبه، فإذا أردت أن تتعرّف على عقل إنسان ووعيه وفهمه للأمور، فدعه يتكلم، وهذا ما عبرت عنه الحكمة المروية عن علي عليه السلام: «**تكلموا تُعرَفوا، فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه**»[1]. وقد يضمر الإنسان بعض الأمور لكنّه إذا تكلم فضحه لسانه ووجه، يقول عليه السلام: «**مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِه وصَفَحَاتِ وَجْهِهِ**»[2].

ثانياً: مسؤولية الكلمة

والكلمة التي يطلقها الإنسان تؤثر عليه وعلى علاقاته بالآخرين، فالكلمة يمكن

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٩٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٧.

أن تعمر ويمكن أن تدمر، وكم من كلمة أشعلت ناراً وأحرقت مجتمعاً! وكم من فتنة أُوقدت جمرتَها كلمة! وكم من كلمة حقنت دماً وأصلحت ذات البين وبلسمت جرحاً! ولهذا كان الكلام مسؤولية، وعليك ألا تستخف به، لأنك إذا أطلقت العنان لكلمتك أصبحت أسيراً لها، عن علي عليه السلام: «**الكلام في وثاقك ما لم تتكلّم به، فإذا تكلّمت به صرت في وثاقه، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك، فرب كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة**»[(١)]. ومن هنا، فإنّ الله تعالى كما يحاسب العبد على فعله فإنّه يحاسب على كلامه، في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا أبا ذر، منْ مَلَكَ ما بين فخذيه وبين لحييه دخل الجنة.** قلت: يا رسول الله، إنا لنؤخذ بما تنطق به ألسنتنا؟ قال: **يا أبا ذر، وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم، إنك لا تزال سالما ما سكت، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك. يا أبا ذر، إن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله (جلَّ ثناؤه) فيكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس ليضحكهم بها فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض**»[(٢)].

ثالثاً: إمام اللسان

وحيث كان للسان هذا الدور الكبير في إصلاح حياة الإنسان أو إفسادها، كان بحاجة إلى قائد يأتمر بأمره وينتهي بنهيه، وهذا القائد هو العقل، فهو الذي يفترض أن يأمره بالكلام أو السكوت، والحكيم أو العاقل حقاً هو الذي يجعل لسانه تحت إمرة عقله وليس العكس. وعن قيادة العقل للسان يتحدث علي عليه السلام فيقول: «**لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه**»[(٣)]. إنّ الذي يجعل لسانه خلف عقله سوف يمنعه ذلك من أن يتسرّع بالكلام

(١) **نهج البلاغة** ج٤ ص٩١.

(٢) **الأمالي**، للطوسي، ص٥٣٧، **ومكارم الأخلاق**، ص٤٦٩، وفي حديث معاذ بن جبل عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «.. **ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟** قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسانه، قال: **كف عليك هذا**. فقلت: يا نبيّ الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلّا حصائد ألسنتهم**»، **سنن الترمذي**، ج٤، ص١٢٥.

(٣) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١١، قال الشريف الرضي تعليقاً على هذه الكلمة: «وهذا من المعاني العجيبة الشريفة. والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلّا بعد مشاورة الروية ومؤامرة الفكرة، والأحمق تسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره ومماخضة رأيه. فكأن لسان العاقل تابع لقلبه، وكأن قلب الأحمق تابع للسانه»، المصدر نفسه.

وأن تتحكّم به الانفعالات، ويدفعه إلى درس القضية التي تواجهه ويقلّبها وجهاً وظهراً، وبعد ذلك وبعد أن يكون قد هدأ غضبه وسكن روعه فإنه يتكلم، وهذا ما يؤمنه الندم والاعتذار، وأما الأحمق فإنه يجعل لسانه قائداً له فيتكلم قبل أن يتأمل ويتدبر بعواقب كلامه، فيقع في المحذور. ومن هنا فكثرة الكلام لا تعبر عن حكمة ولا عقل وإنما قد تكون دليل نقصان العقل، والتجربة الإنسانية تؤكد أنّ من يكثر من الكلام يكثر خطأه وزلـله.

رابعاً: أدب اللسان

والشرع بدوره، ولمعرفته بخطورة ما يصدر عن اللسان، وضع له ضوابط، وهذا ما فرض أن يكون للسان أدب خاص في منطق الدين، فليس متاحاً للإنسان أن يطلق العنان للسانه ليتكلم بما يحلو له، كما يفعل بعض الناس ممن يتكلمون دون ضوابط وقيود، فلا مانع لديه من أن ينال من أعراض الآخرين شتماً وقذفاً ومفاكهة.. إنّ الإسلام يحرم ذلك كله، ويدعو الإنسان ليحرك لسانه فيما يجمل ويحلّ، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت: ٤٦].

وسوف نعود مع الإمام عليه السلام إلى موضوع أدب النطق وضوابط الكلام في فقرة أخرى من هذه الخطبة وهي قوله: «**بعِيداً فُحْشُه، لَيِّناً قَوْلُه**». وسوف نتوقّف عندها ملياً بعون الله وتوفيقه.

خامساً: صدق الكلام

ومن أهم ضوابط الكلام وقيوده في منطق الإسلام أن يكون ملازماً للصواب، وهذا ما عبّرت عنه كلمته عليه السلام: «**منطقهم الصواب**»، والصواب هو الكلام الصادق والذي يكون في محله وموضعه المناسب، فأهل التَّقوى يتحلّون بالصدق، ولا يقترفون الكذب، فهم يرون أن هذا اللسان هو عطية الله لهم وزكاته أن يحركوه فيما يرضي الله تعالى، والتزام الصدق واجتناب الكذب هو مما يرضيه، وقد علموا أنّ المؤمن لا يكون كذاباً، وأنّ الإيمان قد يجتمع مع الجبن ولكنه لا يجتمع مع الكذب، في الحديث عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «**سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم، قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: ويكون كذاباً؟ قال: لا**»[(١)].

(١) **المحاسن**، ج١، ص١١٨.

والصدق يوصل الإنسان إلى مراميه وأغراضه الدنيوية أكثر مما يوصله الكذب، روي عن علي عليه السلام: «**يبلغ الصادق بصدقه ما لا يبلغ الكاذب باحتياله**»[١]، وعنه عليه السلام: «**الصدق منجاة وكرامة**»[٢]، وأما الكذب فحبله ـ كما يقول المثل ـ قصير، وهو فضيحة في الدنيا قبل الآخرة.

وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أصدق خلق الله، حتى عرف بـ«**الصادق الأمين**»[٣]. وكذلك سائر أهل بيته عليهم السلام فعن السيدة عائشة وقد ذكرت فاطمة عليها السلام: «**والله ما رأيت أحداً كان أصدق منها إلّا أباها**»[٤].

والصواب يختزن أيضاً معنى الحكمة، فالكلام الصائب هو الذي يكون في موضعه المناسب، ومحله اللائق، وعليه فالمتَّقي كما لا يتفوه بالكذب فهو لا يتفوه بما لا يليق وإن كان صدقاً.

---

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٥٥٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٢.
(٣) راجع حول ذلك: **بحار الأنوار**، ج١٥، ص٣٨٤، و١٦، ص٤١.
(٤) **كشف الغمة**، ج٢، ص٩١.

(٢)
ومَلْبَسُهُمُ الاِقْتِصادُ

لباس المتَّقين

انتقل الإمامعليه السلام إلى فضيلة أخرى من فضائل المتَّقين، وهي تتصل بلباسهم، وتوضيحاً لهذه المسألة نقول:

أولاً: حاجة الإنسان للباس

لا يخفى أنّ اللباس المعهود له أكثر من وظيفة، فهو يقي صاحبه البرد والحر، وهذه وظيفة مادية، وله وظيفة أخرى جمالية، وهي التزين والتجمل، وإلى هاتين الوظيفتين، المادية والمعنوية، أشار الله تعالى في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٢٦]، فستر العورة والوقاية من البرد والحرّ باللباس هي وظيفة مادية، وأما قوله: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾، فهو إشارة إلى التزيّن به، وهي متعة معنوية، ثم إنّ الآية المباركة أشارت إلى أن ثمة نوعاً من اللباس أسمى من ذلك كله، وهو اللباس الذي يستر الإنسان من المعايب ومن التهتك أمام الله تعالى ويبعده من التجرؤ عليه، وهذا اللّباس هو لباس التَّقوى، فإذا كان اللباس المادي يقينا البرد والحر، فالتَّقوى تقينا الفجور والفسق، وتقينا حرّ النار، وإذا كان اللباس يُجمِّل أجسادنا فالتَّقوى تزيّن أرواحنا وتجمل نفوسنا.

ثانياً: لباس الاقتصاد

ويؤكد الإمامعليه السلام في كلمته أعلاه على أنّ أهل التّقى يرتدون من الألبسة ما يكون في حد الوسط من حيث نوعيته، فلا يكون لباسهم مصداقاً للترف والإسراف، ولا يكون

أيضاً خَلِقاً مهترئاً وغير لائق، بسبب خسته وابتذاله، فلباس المتَّقي بين هذا وذاك، وهذا هو ملبس الاقتصاد، إن لباس السرف هو لباس يعبّر عن خيلاء الإنسان وغروره، واللباس المهترئ ينافي احترام الإنسان واتزانه.

ثالثاً: الاقتصاد منهج عام

ثمّ إنّ الاقتصاد لا ينحصر باللباس بل هو سلوك علينا اتباعه في قضايانا الاستهلاكية كلها، في بيوتنا وسياراتنا وأكلنا وشربنا وغير ذلك، وإننا اليوم ندرك أهمية الاقتصاد، لأنّ الإسراف المتزايد والاستنزاف المتسارع لموارد الطبيعة يهدد البشرية في قُوْتِها وحاجاتها، بل ويهدد الحياة برمّتها على هذا الكوكب، ومن هنا ندرك أهمية وعظمة التعاليم الإسلام الخلاقة والمبدعة في هذا المجال، من قبيل ما تضمّنته الآية ﴿**وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ**﴾[الأعراف: ٣١]. وإلى هذه الوسطية والاعتدال في الاستهلاك أشارت الآية المباركة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان: ٦٧].

رابعاً: لباس علي عليه السلام

قد تسأل: إذا كان الاقتصاد في اللباس وغيره مطلوباً فلماذا لم يأخذ الإمام علي عليه السلام بالحد الوسطي في اللباس والأكل والشراب، بل كان يلبس من الثياب ما خشن، ويأكل من الطعام ما جشب؟

والجواب: إنّ ما ذكرناه هو القاعدة العامة، ولكن لهذه القاعدة استثناءات، ومن هذه الاستتثناءات أنّه إذا كان الزمن زمن فقر وعوز، فعلى إمام المسلمين أن يواسي ضعفة العباد، ومن هنا وجدنا أن علياً عليه السلام قد أنّب وعاتب بعض أصحابه (وهوعاصم بن زياد) عندما دخل البصرة ورأى أنه تزهد ولَبِس الْعَبَاءَة وانقطع عن الدنيا، ولما قال له عاصم: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ» فأنت قدوتي وأنا أتبعك، فأجابه عليه السلام: «**وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ إِنَّ اللَّه تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ**

أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُه»[١]، وقال عليه السلام: «**أَلَا وإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاه بِطِمْرَيْه، ومِنْ طُعْمِه بِقُرْصَيْه، أَلَا وإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، ولَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ واجْتِهَادٍ وعِفَّةٍ وسَدَادٍ، فَوَاللَّه مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، ولَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً ولَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً**»[٢]، والطِّمر هو الثوب الخلق.

طبيعي أن علينا التنبيه هنا أن ثوب علي عليه السلام كان متواضعاً بسيطاً، لكننا لا نعتقد أنه كان من الخسة إلى حد أن يكون مهيناً، بحسب أعراف ذلك الزمان، فهذا ما لا يرتضيه علي عليه السلام لنفسه ولا يرضاه الله له.

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٨٧.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٧٠.

(٣)
ومَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ

مشي المتَّقين

ونأتي إلى سِمة أخرى من سمات المتَّقين وهي التواضع، فنقول:

أولاً: التواضع واحترام الإنسان لإنسانيته

إنّ التواضع خُلُق نبيل يُعبِّر فيه الإنسان عن احترامه لإنسانيته عندما يتواضع للآخرين، وأما التكبّر فهو سلوك متعجرف ويلجأ إليه ـ عادة ـ من لديه مرض أو عقدة نفسية مستحكمة، فكأنه يستكمل نقصه بهذا السلوك المتعجرف! لكنّ المتَّقي بما أنه يستمد العزة والقوة من الله تعالى، فهو يشعر بأنّ وجود الله في نفسه يملأ عقله وقلبه وحياته، وأنه يقوي ضعفه بالله، ولذا كان من الطبيعي أن لا يستعلي على خلق الله ولا يمشي بكبر بينهم، وإنما يسير بينهم بكل تواضع، ولماذا يتكبر عليهم، والحال أنّ مآله ومآلهم إلى الوهن وأرذل العمر ثم إلى القبر والفناء؟!

ثانياً: التواضع في المشي وغيره

والتواضع أيضاً هو سلوك عام لا ينحصر بالمشي، بل هو يجري في الكثير من تصرفاتنا وأفعالنا، فبعض الناس يظهر تكبره على الآخرين من خلال جلوسه أو من خلال طريقة حديثه، فهذا كله منهي عنه، وربما كان تأكيد الآيات وكذا كلام علي ﵇ على مشي التواضع، لأنّ التواضع أو التكبر(١) أكثر ما يظهران من خلال المشي.

---

(١) راجع حول مفهوم التكبر ملاحق الكتاب.

ولهذا وجدنا القرآن الكريم يؤكد وينص في غير آية على مشية التواضع كسيرة عامة في الحياة، قال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[الإسراء: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٨ ـ ١٩]، وفي آية ثالثة: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٦٣].

ثالثاً: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدوة في التواضع

وقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدوة المتواضعين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «.. **ولَقَدْ كَانَ صلى الله عليه وآله وسلم يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، ويَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ ويَخْصِفُ بِيَدِه نَعْلَه، ويَرْقَعُ بِيَدِه ثَوْبَه ويَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ ـ ويُرْدِفُ خَلْفَه..**»[(١)].

وبهذه الأخلاق بُعِث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يبعث كلَّ يوم ما دامت هذه الأخلاق فينا، البعثة ليست يوماً في عمود الزمن إنها حركة متجددة، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي نحتفل بولادته يوماً في السنة ثم نعود إلى حياتنا وكأن شيئاً لم يكن لا بدّ أن يولد فينا في كل لحظة وفي كل ساعة، يولد في أخلاقنا وفي انتظام مجتمعاتنا وفي سلوكنا والبعثة أيضاً كذلك ليست يوماً في العام، بل لا بدّ أن تكون حركة مستمرة.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٥٩.

(٤)
غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللّه عَلَيْهِمْ

غضّ البصر

وفي هذه الفقرة يتكلم علي ﷺ عن فضيلة غض البصر، ويمكننا توضيحاً لهذا الأمر أن نذكر بعض النقاط:

أولاً: نعمة البصر

البصر نعمة عظيمة منحنا الله إياها لنرى بها الأشياء والألوان والأحجام وتتشخص بها الأمور ونتحرك من خلال نورها في حياتنا، فهي نعمة وما أعظمها من نعمة! لا يعرف قدرها إلا من فقدها، وقد قيل: «**إذا أردت أن تعرف نعمة الله عليك فاغمض عينيك**»، ونعمة البصر لا تنحصر بما ذكرنا فحسب، بل إنّ لها وظيفة جمالية، فالإنسان لديه حاجة مشروعة في أن يستمتع بتسريح البصر، كما قال تعالى عن بقرة بني إسرائيل ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[البقرة: ٦٩]، وفي الحديث عن أبي الحسن الكاظم ﷺ قال: «**ثلاثة يجلون البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء الجاري، والنظر إلى الوجه الحسن**»[(١)]، ما يعني أنّ من حق العين عليك ومن حق نفسك عليك أن تُمتِّعَ النظر بمظاهر الجمال في الطبيعة، وهذا ما يبعث على الارتياح في النفس. والتأمل في هذا الحديث عن الإمام الكاظم ﷺ يدفعني إلى الاستنتاج بأنّ طريقة بناء المدينة الإسلامية ينبغي أن تكون بنحو لا تختفي فيه ظواهر الطبيعة ومظاهرها من الماء والشمس والتراب والخضرة. وهذا أمر طبيعي فإنّ الإنسان كلما كان أقرب إلى الطبيعة كان أقرب إلى الله تعالى، لأن الطبيعة تريحه نفسياً، ناهيك عن أنها مظهر جميل من مظاهر اقتدار الله تعالى وبديع صنعه.

---

(١) **المحاسن**، ج٢، ص٦٢٢، و**الخصال**، ص٩٢.

ثانياً: غضّ البصر لا غمضه

إنّ هذه الحاسة قد أراد لها خالقها أن تتحرك في ضوء ما ينفع الإنسان كما سلف، لكن دون الوقوع في المحظور شرعاً، فلم يسمح الله تعالى للعين أن تمتد إلى ما حرّم الله بأن تتلذذ بالنظرة الخائنة إلى مفاتن النساء وأن تتفحص عورات الآخرين وتلاحق ما يكرهون كشفه للآخر. إنّ لك أن تنظر إلى النساء وتحادثهن ولكن لتكن نظرتك عادية، نظرة الإنسان إلى الإنسان. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإسلام لا يدعو الرجل إلى إغماض العين عند رؤية النساء، وإنما يدعوه إلى غض الطرف، وشتان بين الغض والغمض، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[النور: ٣٠ ـ ٣١] إنّ الغمض يعني ترك النظر بالكلية، وأما الغضّ فليس إغماضاً بل هو كسر حدة النظر، بمعنى أن لا يحدق ويملأ عينيه في المرأة المحرمة عليه عندما ينظر إليها.

والدعوة إلى غضّ البصر هي تماماً كالدعوة إلى غضّ الصوت، قال تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[لقمان: ١٩]، فالله تعالى يحبّ الصوت الهادئ الذي لا يزعج الآخرين، وإظهار الصوت عند الكلام أمر طبيعي وليس منهياً عنه، وإنما يُنهى عن الصوت المرتفع جداً وهو الصراخ المزعج، ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[لقمان: ١٩].

ثالثاً: فلسفة غض البصر

إنّ السّر وراء هذا التكليف الإلهي، وهو غض البصر، حماية الإنسان وتحصينه أخلاقياً، وذلك لأن النظرة الخائنة اللامسؤولة قد يتبعها ما لا تحمد عقباه، فالنظرة قد توقع في الحسرة، في الحديث: «**النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة**»(١). وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**النظر سهم من سهام إبليس مسموم، وكم من نظرة أورثت حسرة طويلة**»(٢).

---

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص٣١٤.
(٢) الكافي، ج٥، ص٥٥٩، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص١٨.

والسؤال: إلى أين يتوجّه هذا السهم الذي يطلقه إبليس؟

الجواب: إنه سهم يوجِّهُه إبليس لقلوبنا ولعفتنا، إن النظرة الخاطئة تخدش حياءنا وتسيء إلى روحانيتنا.

وكما قال الشاعر أحمد شوقي:

نــظــرة فـابـتـسـامـة فـسـلام فـكـلام فـمـوعـد فـلـقـاء

قد يُقال: لا موجب لغض البصر، لأننا إذا ربينا الإنسان نفسياً وكان مهذباً وخلوقاً فلن ينظر نظرة خيانة.

ولكننا نقول: هذا صحيح، فإنّ النفس هي التي تعطي الأمر للعين لتنظر نظرة بريئة أو خائنة، لكن هذه النفس تتأثر بما ترى وما تسمع، فلا بدّ أن نولي الأهمية للبصر ولكل الأدوات التي تؤثر على النفس، فالدعوة إلى غضّ البصر تهدف إلى تهذيب النفس والروح، ولذلك نحن نتوجه في الدعاء إلى الله تعالى طالبين منه أن يطهّر قلوبنا وأن يطهّر جوارحنا، «**اللّٰهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**»[1].

وتمييز النظرة الخائنة عن النظرة البريئة أمر ميسور، والإنسان رقيب نفسه، ويعرف ما يدور في خلده، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[القيامة: ١٤]. لكن لا ينبغي أن نخلط بين نظرة الإعجاب ونظرة الخيانة، فنظرة الإعجاب بالجنس الآخر هي نظرة طبيعية ومشروعة، بخلاف نظرة الخيانة، وما أقبح بالإنسان الذي يوحي أن نظراته بريئة، ولكنها في العمق نظرات خيانة!

---

(١) **مصباح المتهجد**، ٥٩٩.

(٥)
ووَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ

وظيفة السمع

بعد حديثه عليه السلام عن وظيفة البصر انتقل للحديث عن وظيفة حاسة أخرى، وهي السمع، وبياناً لوظيفة السمع نشير إلى ما يلي:

أولاً: السمع بوابة العقل والقلب

إنّ السمع هو باب القلب والوجدان، ويمكن من خلال هذا الباب أن تدخل ما يميت الروح أو ينعشها، وإذا كانت النظرة سهم من سهام إبليس، فإن الكلمة الخبيثة ـ نظير كلمات الغيبة والسخرية والفحش والغناء المحرم ـ التي يتلقّاها السمع قد تخدش صفاء الروح وتلوثها، وربما تكون سبباً لقطع علاقتك مع الله تعالى.. ومن جهة أخرى، فإنّه ومن خلال بوابة السمع يمكنك أن تثري العقل وتغنيه أو تشله وتخدره، ودور السمع في إثراء الفكر وإغناء التجربة هو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨].

ثانياً: لمن تعطي سمعك؟

وفي ضوء ما تقدم، فإنّ علينا أن لا نستخفّ بهذا المدخل العظيم للمعرفة وهذا المؤثر الكبير في مسار حياتنا، وفي استقامتنا أو انحرافنا. إن الإصغاء إلى أحد والاستماع إليه مسؤولية، فعليك أن تعرف لمن تعطي سمعك، في الحديث عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَه فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللَّه عَزَّ وجَلَّ**

فَقَدْ عَبَدَ اللَّه وإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ»[١]، وعليك أيضاً أن تحدد من يكون صديقاً لك يحادثك ويكلمك، فإن كان الصاحب ممن يغلب على كلامه ومنطقه غيبة الناس وأكل لحومهم والتفكه بأعراضهم، أو أنّ كلامه في الأعم لا يخلو من الفحش والسباب فهذا قد يودي بك إلى الهلاك من حيث لا تدري، ومن كان كذلك هو في الواقع عدو لك وليس صديقاً، فعليك أن تفارقه. ويعلمنا الإمام الصادق عليه السلام درساً بليغاً في ذلك، فقد كان له صديق لا يكاد يفارقه ولكن لمّا سمعه الإمام عليه السلام ذات يوم يقذف غلامه ترك مصادقته حتى فرّق الموت بينهما كما تقول الرواية[٢].

وفي أيامنا هذه برزت ظاهرة جديدة وهي وجود من يلقي في أسماعنا الكثير من الأفكار والمعلومات، وهو يكلمنا ويخاطبنا دون أن نصادقه ونصاحبه، ولكن وبالرغم من ذلك ـ أي من عدم مصاحبتنا له ـ فقد يكون أخطر علينا من أصدقاء السوء الذين نجالسهم، عنيت بذلك هؤلاء الذين نشاهدهم ونستمع إليهم من خلال الشاشة، ولا سيما الشاشة الصغيرة التي بأيدينا، بالله عليكم هل إننا نستفيد من وسائل التواصل بما يغنينا روحياً ويثري تجربتنا؟ أكاد أجزم أن ضررها أكثر من نفعها بالنسبة لأكثرنا.

ثالثاً: المتقون أناس مثقفون

وإذا جئنا إلى المتَّقين، فإنهم يعون مسؤولية السمع ودوره المؤثر على شخصية الإنسان، ولهذا هم ليسوا على استعداد للاستماع إلى الكلام الذي يلوث أرواحهم أو عقولهم، فهم يتحرون ما ينفعهم ولا يضرهم، وقد «**وقفوا أسماعهم على العلم النافع**»، ولاحظوا ودققوا جيداً في دقة هذا التعبير: «**وقفوا**»، أي إنهم جعلوا أسماعهم وقفاً على العلم النافع وبذلك أعطوا نعمة السمع حقها.

---

(١) **الكافي**، ج٦، ص٤٣٤.

(٢) تقول الرواية: «**كَانَ لأَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام صَدِيقٌ لَا يَكَادُ يُفَارِقُه إِذَا ذَهَبَ مَكَاناً فَبَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي مَعَه فِي الْحَذَّائِينَ ومَعَه غُلَامٌ لَه سِنْدِيٌّ يَمْشِي خَلْفَهُمَا إِذ الْتَفَتَ الرَّجُلُ يُرِيدُ غُلَامَه ثَلَاثَ مَرَّات فَلَمْ يَرَه، فَلَمَّا نَظَرَ فِي الرَّابِعَة قَالَ: يَا ابْنَ الْفَاعِلَة أَيْنَ كُنْتَ؟ قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام يَدَه فَصَكَّ بِهَا جَبْهَةَ نَفْسِه ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّه تَقْذِفُ أُمَّه! قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ لَكَ وَرَعاً فَإِذَا لَيْسَ لَكَ وَرَعٌ فَقَالَ جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ أُمَّه سِنْدِيَّةٌ مُشْرِكَةٌ فَقَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ نِكَاحاً تَنَحَّ عَنِّي قَالَ فَمَا رَأَيْتُه يَمْشِي مَعَه حَتَّى فَرَّقَ الْمَوْتُ بَيْنَهُمَا**» المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢٤.

وكأنّ الإمام عليه السلام بهذه الإشارة يريد أن يؤكد على سمة هامة للمتَّقين، وهي أنهم أناس مثقفون ومنهومون بالمعرفة والقراءة، «**منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا**»[١]، فالمتَّقي ليس ـ كما يتخيّل البعض ـ شخصاً جاهلاً، بل هو من أكثر الناس قراءة وتفكّراً وتدبراً، وعلمُه وتفكّرُه هما اللذان ساعداه في الوصول إلى مرحلة التَّقوى. المتَّقي ليس إنساناً يهتم بروحه فقط، بل يهتم بالعقل والروح معاً، مجسداً حالة من التوازن الضروري لاستقامة الحياة، فهو يعطي الروح ما تحتاجه، ويعطي العقل ما يتطلبه.. إنّ المتَّقين يقرأون جيداً في السياسة والاقتصاد والتاريخ والفلسفة كما يقرأون في الدين والتجارب الدينية والروحية، ومن هنا لنا أن نسأل اليوم: أين المتقون من الكتاب؟ وأين هم في ميدان العلم والثقافة؟!

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١٠٥، ورواها الكليني بسنده عَنْ سُلَيْم بْن قَيْس قَالَ: «سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ: **قَالَ رَسُولُ اللَّه** صلى الله عليه وآله وسلم: **مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبُ دُنْيَا وطَالِبُ عِلْمٍ**..»، **الكافي**، ج١، ص٤٦.

(٦)
نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ، كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ

المتَّقون في حالَتي الشدّة والرخاء

إن الإمام ﵇ يشير في هذه الفقرة إلى أن المتَّقي يكون في حالتي الرضا والبلاء على حدٍ سواء، فكيف نفهم ذلك؟

يمكن فهم ذلك بنحوين:

النحو الأول: أن يكون نظره ﵇ إلى علاقة المتَّقي بربه وإلى حضور الله في حياته وفي نفسه، فلو أننا أخذنا موقف الأعم الأغلب من الناس في مواجهة الابتلاءات والنعم، فسوف نجد أنهم لا يتعاملون مع ذلك لجهة لجوئهم إلى الله على نهج واحد، فهم في السرّاء ينسون الله تعالى ونعمه وألطافه، وأما في الضرّاء فيلجأون إليه ويطلبون كشف الضرّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٢]. فعلاقة هؤلاء الناس مع الله هي علاقة مصلحة، ولا يتعاملون معه من موقع أنه تعالى له واجب الشكر عليهم وأنهم بحاجة لهذه العلاقة في السراء كحاجتهم إليها في البلاء.. أما المتَّقي فلا يختلف تعامله مع ربه في الحالين، بل علاقته مع الله في البلاء والرضا على حد سواء. وهذا الموقف للمتَّقي يمثل الجانب الأعلى من التسليم لله تعالى، ونقيضه ما ذكرته الآية وهو أن ينسى العبد ربّه كلياً في الرضا ويذكره في الشدائد، وثمة حالات قد تكون متوسطة، وهي التي يزداد فيها توجه العبد لله تعالى وإقباله عليه في حالة الشدة، أكثر من توجهه إليه في الرخاء، ولعل أكثر المؤمنين كذلك.

النحو الثاني: أن يكون نظره ﷺ إلى مواقف الإنسان العملية في حالتي الرضا والشدة، ففي حالة الرضا هو مع الإسلام والخط الديني الملتزم، أمّا في حالة الشدائد والصعاب فيتخلى عن إيمانه وينسحب ليجلس على التل، إن لم يتحوّل إلى عدو، وهذه حالة فريق من الناس، فهو معك موقفاً وكلاماً ما دام أن ذلك لا يكلّفه العناء ولا المخاطرة ولا يعرضه وأمواله وأولاده للتحديات، أما إذا حمي الوطيس وأصبح الموقف مكلفاً نكص على عقبيه، وهذا ما فعله أهل الكوفة بمسلم بن عقيل، فقد بايعوه بالآلاف ثم بين ليلة وضحاها تبخروا من حوله حتى أخذ يلتفت يميناً ويساراً فلم يجد أحداً.. لكن أهل التَّقوى ليسوا كذلك، فحالهم في الشدائد لا يختلف عن حالهم في الرخاء، خذ مثالاً على ذلك، جون مولى أبي ذر، وجون في يوم العاشر طلب من الإمام ﷺ أن يأذن له القتال، فقال له الإمام ﷺ: «**إنما تبعتنا طلباً للعافية فلا تبتلِ بطريقنا**، فقال: أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم»[١]، معاذ الله أن أفعل ذلك، فأذن له الإمام ﷺ فقاتل حتى قُتل.

(١) **اللَّهوف على قتلى الطفوف**، ص٦٥.

(٧)
وَلَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّه عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ

الإيمان بالجنة والنار

وهذه صفة جليلة من صفات المتَّقين، وبياناً لها نقول:

أولاً: الإيمان بالجنة والنار

إن المتَّقين يولون موضوع الجنة والنار أهمية خاصة، فهم ـ من جهة ـ يؤمنون بالجنة والنار، تصديقاً لكلام ربّهم الذي يركز على موضوع الجنة والنار تركيزاً كبيراً ويشير إليهما في مئات الآيات، وهذا التأكيد ليس أمراً عبثياً بل له دلالته الكبيرة، فالدار الآخرة هي دارنا المستقبلية، ونحن في هذه الدنيا بُناة الجنة والنار، فمنا من يبني جنته ومنا من يبني ناره المؤصدة.

وهم ـ من جهة ثانية ـ يتعاملون مع وعد الله بالجنة لعباده الصالحين ووعيده بالنار لعبيده الفاسقين المتمردين معاملة جدّية، معاملة مَنْ هو على يقين بصدق الوعد الإلهي، ولذلك فهم يتطلّعون بعشق وشوق إلى الجنة ونعيمها، ويخافون النار وأهوالها.

وهم ـ من جهة ثالثة ـ يعلمون أن الجنة والنار ليستا ورقتي حظ أو يانصيب، كلا، بل لكل واحدة منهما مسارها ومستلزماتها، والإنسان بوعي واختيار يُقدم على هذه أو تلك، فالمؤمن بحسن اختياره ساق نفسه إلى الجنة، والفاجر المتمرد بسوء اختياره جرّ نفسه إلى النار.

ثانياً: الإيمان بالجنة والنار ودوره في تقويم السلوك

وإذا كان الأمر كما ذكرنا، فإنّ علينا أن نسأل أنفسنا: هل نحن نؤمن إيماناً حقيقياً بالجنة والنار؟ وإذا كنا نؤمن فأين يظهر ذلك في سلوكنا في هذه الدنيا؟!

إن معظم الناس ـ مع الأسف ـ يؤمنون بالجنة والنار إيماناً لفظياً وقد يؤمن كثيرون بهما إيماناً عقلياً أيضاً، بمعنى الاقتناع العقلي بضرورة وجود حياة أخرى، وذلك حتى لا تكون هذه الحياة الدنيا عبثية، ولكن هذا الاعتقاد يبقى نظرياً ولا يكون عند كثيرين فاعلاً ولا ذا أثر في حياتهم! إنّ الاعتقاد بالجنة والنار ليس مجرد عقيدة نظرية تقتنع بها العقول، بل إنّها فوق ذلك عقيدة راسخة تطمئن بها القلوب، وتنعكس على السلوك. ومن هنا فإنّنا نعتقد أن الإيمان بالجنة والنار إن لم يسهم في تربية الإنسان وتقويم سلوكه يبقَ إيماناً جامداً ولا ثمرة له.

ثالثاً: الجنة دار القرب والنار دار البعد عن الله

وبنظرة أعمق لمفهوم الجنة والنار، فإنّ النار عند أولياء الله هي دار الابتعاد عن الله تعالى، والجنة هي دار القرب منه جل وعلا، فليس ما يؤلم هؤلاء في النار هو عذاباتها الجسدية بل يؤلمهم البعد عن الله تعالى، كما قال علي عليه السلام في دعاء كميل: «**فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟!**»(1)، وما يشوقهم إلى الجنة ليس حديث الحور والقصور والأنهار والعسل والفواكه، بل رضوان الله تعالى ولقاؤه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢].

رضاك رضاك لا جنات عدن ... وهل عدن تطيب بلا رضاكا

ومن هنا فإن لنا أن نسأل: كيف لمن يؤمن بنار هي دار الفرقة والغربة والوحشة أن

(١) مصباح المتهجد، ص٨٤٧.

يخطو بقدميه وعن سابق تصور وتصميم إليها، وكيف لمن يؤمن بجنة هي دار الرضوان ودار لقاء الله تعالى أن يسمح لنفسه بالابتعاد عنها مقدار خطوة؟!

إنّ الشوق إلى الجنة هو شوق إلى الله تعالى وإلى لقاء الله، والخوف من النار هو خوف الابتعاد عن الله تعالى، ولأن الله تعالى حاضر في نفس المتَّقي حضوراً تاماً وكاملاً، فإن شوقه إلى الجنة/ دار لقاء الله، وخوفه من النار/ دار فراقه، بلغ حداً عظيماً، بحيث إنه لولا الأجل المكتوب عليه لَمَا استقرت روحه في جسده طرفة عين، كما سيأتي في فقرة أخرى من فقرات هذه الخطبة.

(٨)
عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ

حضور اللّه تعالى في نفوس المتَّقين

وهذه الصفة هي من أعظم صفات المتَّقين، وبياناً لها ولأثرها نقول:

أولاً: حضور اللّه يطرد ما عداه

إنّ هذه الفقرة تشير إلى شدة حضور الله في قلوب المتَّقين وعقولهم وحياتهم، بما يعبّر عن خلوص توحيدهم لله تعالى، لأنه عندما يملأ الله ـ بعظمته ـ هذه النفوس فيصغر فيها ما دونه مما يمكن أن يكون نداً لله تعالى، وكلما زاد حضوره تعالى ضعف وجود من سواه إلى حد التلاشي.

وأول ما يتلاشى من هذه النفوس أمام حضور الله وعظمته هو الأنا وما يختلج فيها من كِبْر وعجب، وإذا تراجع حضور الأنا أمام حضور الله تعالى فبالأولى أن يتراجع حضور الآخرين من مخلوقات الله، من الضعفاء الذين نخالهم أقوياء ومن الأذلاء الذين نخالهم أعزاء، ومن الصغار الذين نظنهم عظماء وزعماء وأمراء. إنّ هؤلاء الذين نبيع ديننا وآخرتنا من أجل دنياهم ليسوا شيئاً أمام عظمة الله ولن يغنوا عنا من الله شيئاً، بل إنهم سوف يتبرأون منا عند أول تحدٍ أو منعطف، كما أنهم سوف يتبرأون من أتباعم يوم يقوم الأشهاد، كما أخبرنا ربنا جلّ في علاه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧].

ثانياً: كيف ننمي حضور الله في نفوسنا؟

إنّ هذه القلوب من حيث الأصل مفطورة على معرفة الله تعالى، فهو عزّ وجل ليس غريباً عنها، ولكنّ حيث إن المسار الخاطئ الذي يسلكه الإنسان في الحياة الدنيا قد ينسيه الله، كان بحاجة إلى أن يؤكّد هذا الحضور وينمّيه، ولا ريب أنّ أهم ما يعينه على تعزيز حضور الله في قلبه هو التأمّل في آيات الله تعالى، والتدبّر في أسرار عظمته وآياته في الآفاق وفي الأنفس، إنّ ذلك التأمل سوف يرينا الله حقّاً بعظيم صفاته وأسمائه الحسنى، بربوبيته ورحمانيته، بقدرته وعزته وجماله وبهائه، وإذا عرفنا ربّنا حقاً بهذه الصفات والأسماء عرفنا حجمنا الصغير والحقير أمام الله، فمن أنا أمام القوي العزيز؟ ومن أنا أمام المبدع الخلاق؟ ومن أنا أمام الأول والآخر؟ وما علمي بجنب علمه؟ وما قدرتي بجنب قدرته؟! وهل جمالي إلا رشحة من جماله؟ وهل قدرتي إلا رشحة من قدرته؟

إذن المعرفة التأملية تعرفنا ربّنا وتعمّق حضوره في نفوسنا، ثم تأتي بعد ذلك العبادة والمناجاة والخلوة بالله تعالى لتزيد هذا الحضور رسوخاً وعمقاً وبهاءً وجلالاً.

ثالثاً: ثمرة حضور الله في نفوسنا

إنّ ثمرة حضور الله تعالى في نفوس المتَّقين، لا تنحصر في كون ذلك يجعلهم من صفوة الموحدين لله فحسب، بحيث تغدو قلوبهم خالصة لله، تنبض بحبه وحب من يحبه، بل إنّ ذلك الحضور سوف يمدّ أصحابه بالشجاعة والقدرة على التحمل في ذات الله تعالى والصبر على مكاره الدهر، إذ ما دام الألم في الله فهو يحلو ويطيب، كما قال الإمام الحسين عليه السلام: «**هون عليّ ما نزل بي أنه بعين الله**»(١). وأضف إلى ذلك أنّه مع تراجع حضور الأنا وما تستولده في النفس من كبر وعجب ورياء، فإنّ الإنسان سوف يتوازن ويتواضع وتستقيم حياته وعلاقاته الاجتماعية، لأنّ هذه الأمراض النفسية هي من أكثر أسباب النزاع والشقاق بين الناس.

---

(١) **اللهوف**، ص٦٩.

(٩)
فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ

المتّقون وإيمانهم بالجنة والنار

هذا المقطع يتحدث فيه الإمام عليه السلام عن الإيمان بالجنة والنار، والذي هو عبارة أخرى عن الإيمان باليوم الآخر، وبياناً لذلك نقول:

أولاً: الإيمان بالآخرة كموجّه ورقيب

أشرنا في فقرة سابقة إلى محورية الإيمان بالآخرة وركنيته، وأنّ المؤمن لا يكتمل إيمانه ولا تتمّ عقيدته إذا لم يؤمن بيوم القيامة، ونبّهنا إلى أن مئات الآيات القرآنية تتحدث عن المعاد، وما نروم التركيز عليه في تعليقنا على هذه الفقرة، أنّ الإيمان بالجنة والنار يفترض أن يكون إيماناً موجِّهاً ومنظماً لسلوك الإنسان في الدنيا، لأن الدنيا مزرعة الآخرة. وعلى ضوء هذا، فإن سلوكَ الشخص الذي يؤمن بيوم القيامة وبالجنة والنار لا بدّ أن يكون مختلفاً عن سلوك من لا يؤمن بذلك. إن سلوك المؤمن بالآخرة هو سلوك يتّسم بالاستقامة والجدية والابتعاد عن العبث واللهو واللغو قدر المستطاع، لأنه يعلم أنه في مضمار سباق وأنّ الغاية إمّا الجنة أو النار.

والإيمان بالآخرة يفترض أن يكون ضابطاً لحركات العبد حتى لو كان داخل بيته ولم يره أحد، ولم يكن هناك رقيب عليه من بني جنسه، فرقابة الله تكفي وهي لا تغيب ولا تخطئ، وهو عزّ وجلّ ليس رقيباً فحسب، بل هو في الوقت عينه المحاسب والمعاقب والمثيب، كما قال علي عليه السلام فيما روي عنه: «**اتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّه فِي الْخَلَوَاتِ فَإِنَّ الشَّاهِدَ**

هُوَ الْحَاكِمُ»[١]، ومن هنا إذا وجدت الإنسان غارقاً في المعاصي ومتبعاً للشهوات، فاعلم أنّ سلوكه هذا هو سلوك من لا يؤمن بالآخرة ولا يخاف الحساب، ولذا لم يجد وازعاً ورادعاً يردعه.

ثانياً: الإيمان بالجنة والنار بين الإيمان الشكلي والإيمان الحقيقي

هذا ولكنّ بعضَ المؤمنين ـ مع الأسف ـ لا يكون إيمانهم بالله وبيوم القيامة فاعلاً، وإنما هو مجرد لقلقة لسان، أو في أحسن الحالات هو إيمان عقلي لا ينفذ إلى القلب ليطهره من الشرك والغل والأنانية والرياء، ولا إلى السلوك ليوجهه حيث طاعة الله ورضوانه. هذا حال من كان إيمانهم شكلياً، لأنهم تلقّوا ذلك عن الآباء والأجداد. والتحدي الأكبر الذي يواجه المؤمنين هو كيف يرتقون بإيمانهم من الإيمان اللفظي إلى الإيمان الحقيقي، وكيف يرتقون بالإيمان العقلي إلى الإيمان القلبي بحيث تشعر النفس ببرد اليقين والاطمئنان، كما أحسّ العقل بساطع البرهان.

أما أهل التَّقوى فإيمانهم ويقينهم جعلهم يرون بعين الله تعالى ويصدّقون قوله ويتعاملون معه بكل جدية، وإيمانهم بالجنة والنار ليس إيماناً عقلياً مجرداً، بل هو إيمان عقلي قلبي وانعكس على سلوكهم، فكأنّهم يَرَون الجنة ونعيمها رأي عين، ولذا فهم ليسوا على استعداد ليستبدلوا بها غيرها، وكأنهم أيضاً يَرَون النار وأهوالها رأي عين ولذا فهم لا يهمون بمعصية فضلاً عن أن يُقدِموا عليها. إن من كانت النار نصب عينيه، فهو ليس مستعداً أن يقحم نفسه أو أهله فيها من خلال ارتكاب المعاصي والابتعاد عن خطّ طاعة الله تعالى.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٧٧.

(١٠)
قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ

الحزن والفرح في حياة المؤمن

ما المقصود بكون قلوبهم محزونة؟ وهل يستفاد من ذلك أن الفرح مكروه لأهل التَّقوى؟ هذا يحتّم علينا أولاً أن نبين معنى الفرح وموقف الإسلام منه، ثم نطل على بيان المقصود بكون قلوب المتَّقين محزونة.

أولاً: الفرح وحاجة الإنسان إليه

لا يخفى أنّ التشريع الإسلامي وانطلاقاً من واقعيته قد راعى متطلّبات الإنسان الدنيوية والأخروية، الروحية والمادية، موازناً بين هذا وذاك، فهو في الوقت الذي يؤكد على حاجة الإنسان إلى العلاقة العبادية مع الله ووضع لها برنامجاً خاصاً يرقى بالإنسان إلى أعلى درجات السمو الروحي والكمال المعنوي، فإنه أيضاً يؤكد على أنّ النفس البشرية لها متطلّبات مادية وترفيهية، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[القصص: ٧٧]، وهنا تتجلّى واقعية الإسلام فهو: لم يمانع من ممارسة الإنسان للمرح واللّهو البريء، فالصبي بحاجة إلى المرح وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، «**من كان له صبي فليتصاب له**»(١)، والشاب بحاجة أيضاً إلى المرح وكذلك الكبير، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما من مؤمن إلّا وفيه دعابة**، قلت وما الدعابة؟ قال: **المزاح**»(٢).

---

(١) **الجامع الصغير** للسيوطي، ج٢، ص٦٣٩، **وعوالي اللئالي**، ج٣، ص٣١١، **وشرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، ج١٦، ص٦٢، **وربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، ج٤، ص٣٩.

(٢) **الكافي**، ج٢، ص٦٦٣. الحديث ٢.

وعن مزاح رسول الله ﷺ ورد أنه: «أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال: **يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز**، قال: فولّت تبكي. فقال: **أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول:** ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا * عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾[الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]»(١).

وانطلاقاً من هذه الحاجة إلى المرح فقد شرع الإسلام الفرح والتزين في الأعياد، حتى سُمِّي يوم العيد بيوم الزينة، ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾[طه: ٥٩]، وفي الخبر أنه أهدي الفالوذج إلى علي عليه السلام يوم النوروز فقال: «**نورزونا كل يوم**»(٢).

وفي ظلِّ الأزمات الاقتصادية والأمنية الصعبة التي تواجهنا وتضغط على أعصابنا فإننا أحوج ما نكون إلى أن نخرج مع أولادنا وعيالنا في نزهات ترفيهيّة تخفف من رتابة الحياة وتجدد نشاطنا، وقد كان بعض الأئمة عليهم السلام يخرج للنزهة، كما روي عن الإمام الرضا عليه السلام(٣).

إنّ على الرساليين والدعاة أن يعوا ويدركوا أننا كما نحتاج إلى المساجد لعبادة الله فنحن بحاجة إلى متنزهات للترويح عن النفس، وهذا ما نستفيده من الحديث الذي يقسم وقت الإنسان إلى ثلاث ساعات، فعن علي عليه السلام: «**للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يرمّ معاشه، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذّتها فيما يحل ويجمل**»(٤).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفرح بالمعنى المذكور مشروع ومباح شريطة:

أولاً: أن لا يبتعد عن خط الشريعة في الحلال والحرام، فلا يفرح المسلم بما يغضب الله تعالى، فإنه فرح عاجل وسيعقبه الندم والحسرة يوم القيامة.

---

(١) **الشمائل المحمدية**، للترمذي، ص١٣١.

(٢) **تاريخ بغداد**، ج١٣، ص٣٢٧.

(٣) في صحيحة إِبْرَاهِيمَ بْن أَبِي مَحْمُود قَالَ: «قَالَ لَنَا الرِّضَا عليه السلام: **أَيُّ الإِدَامِ أَحْرَى (أجزأ)؟** فَقَالَ بَعْضُنَا اللَّحْمُ وقَالَ بَعْضُنَا الزَّيْتُ وقَالَ بَعْضُنَا اللَّبَنُ، فَقَالَ هُوَ عليه السلام: **لَا بَلِ الْمِلْحُ ولَقَدْ خَرَجْنَا إِلَى نُزْهَةٍ لَنَا ونَسِيَ بَعْضُ الْغِلْمَانِ الْمِلْحَ فَذَبَحُوا لَنَا شَاةً مِنْ أَسْمَنِ مَا يَكُونُ فَمَا انْتَفَعْنَا بِشَيْءٍ حَتَّى انْصَرَفْنَا**»، **الكافي**، ج٦، ص٣٢٦.

(٤) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٩٣.

ثانياً: أن لا يؤدّي إلى البطر والطيش، وقد ورد في صفات المؤمن: «**لا يخرق به فرح ولا يطيش به مرح**»(١)، أي لا يصير الفرح سبباً لخرقه وسفهه، ولا يصير المرح سبباً لطيشه وخفته، وهذا ما يشير إليه قوله خطاباً لقارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[القصص: ٧٦]، فإنّ المراد بالفرح في الآية الشريفة هو البطر الذي وقع فيه قارون الطاغية المتجبر.

وهناك نوع آخر من الفرح، هو أسمى من الفرح المذكور، إنه الفرح الروحي الذي يعيشه المؤمن عندما يكون متحركاً في خط مرضاة الله، إما بأن يكون في عبادة أو مناجاة لله تعالى: «**بذكرك عاش قلبي**»(٢)، أو يكون في حالة جهاد في سبيل الله ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الروم: ٤ ـ ٥]، أو يكون في طاعة الله أو في هدايته، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨].

ثانياً: الحزن وحالاته المشروعة

وعلى ضوء ما تقدّم عن رؤية الإسلام للفرح، يتضح جزء من الصورة عن رؤية الإسلام للحزن أيضاً، ولتوضيح الصورة بشكل كامل نقول: إنّ ثمّة حالات يكون الحزن فيه مشروعاً:

الحالة الأولى: الحزن على فقد عزيز، وحزن كهذا هو حالة طبيعية تعتري الإنسان، حاله في ذلك حال الفرح، ومن الطبيعي أن يكون مشروعاً، لأن الإسلام لا يحرِّم الأشياء الجِبليّة ما لم تتجاوز الحدود، وقد قالها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما روي عنه: «**العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إن شاء الله إلا ما يرضي الرب، وإنّا عليك يا إبراهيم لمحزونون**»(٣)، ويعتبر الإمام علي عليه السلام أن الحزن على فقد الولد هو حق للرحم، قال عليه السلام «وقد عزى به

(١) **الكافي**، ج٢ ص٢٢٩.
(٢) **مصباح المتهجد**، ص٥٩٢.
(٣) **الطبقات الكبرى لابن سعد**، ج١، ص١٣٩.

الأشعث بن قيس في مصيبة ابنه: **إنْ تَحْزَنْ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ مِنْكَ الرَّحِمُ، وَإنْ تَصْبِرْ فَفِى اللّهِ خَلَفٌ مِنْ ابْنِكَ، إنَّكَ إنْ صَبَرْتَ جَرى عَلَيْكَ الْقَدَرُ، وَانْتَ مَأْجُورٌ، وَإنْ جَزَعْتَ جَرى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَانْتَ مَأْثُومٌ**»[١].

الحالة الثانية: حزن العبد المقصِّر في جنب الله تعالى، أو الذي يخاف التقصير والانغماس في الدنيا، أو حزن الإنسان المؤمن الذي يؤلمه أن يرى إشراك الناس في الله وجهلهم به، وانغماسهم في الشهوات والمعاصي، وهذا فيما يبدو هو معنى قوله: «**قلوبهم محزونة**»، والحزن بهذا المعنى يفترض أن يدفع الإنسان للتغيير وتهذيب النفس.

وليس حزن المتَّقين حزناً مَرَضياً ليتحوّل إلى عقدة نفسيّة بحيث يتحول معها المؤمن إلى شخص كئيب وتبدو علامات الكآبة على محياه.

طبيعي أنّ المؤمن إذا اعتراه ما يوجب الحزن والهم، فيجدر به اللجوء إلى الله ليرفع عنه الحزن ويفرّج غمّه، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان أبي إذا أحزنه أمر جمع النساء والصبيان فدعا وأمّنوا**»[٢].

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٧٠.
(٢) **مكارم الأخلاق**، ص٢٧٤.

(١١)
وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ

المتَّقي ومجانبة الشر

وهذه صفة عظيمة من صفات المتَّقين تتّصل بسلوك المتَّقي وتعامله مع الآخرين، ونوضحها فيما يلي:

أولاً: دلالة قوله «شرورهم مأمونة»

يلاحظ أنّ الإمام عليه السلام لم يقل: إنّ المتّقي لا يصدر منه الشر تجاه غيره، فهذا مفروغ منه، فتقوى الإنسان تحجزه عن إيذاء الآخرين والتعدي عليهم، ولا تلتقي ـ أي التَّقوى ـ مع إيذاء الآخرين، بالفعل أو القول، وإنما تحدّث عليه السلام عن أنّ شر المتَّقي مأمون، أي إنّ الآخرين يطمئنون له ولا يخافون شره وغدره، وعندما يأمنك الآخرون فهذا يعني أنك إنسان في قمة الإنسانية. ويؤسفني أنّ هذه الصفة وهي «الأمن من المتّقي» قد اهتزت في أيامنا، بسبب أنّ البعض بسلوكه الترهيبي أعطى انطباعاً عن المسلمين أنهم قوم يغدرون ويسفكون الدماء، حتى أصبحت صورة المسلم تستدعي الخوف لدى بعض الناس، وكأنه وحش كاسر!

ثانياً: ما السر في كون شره مأموناً؟

والجواب: إنّ المتَّقي إنما يكون شره مأموناً ليس بسبب ضعفه أمام الآخرين، بل بسبب تقاه وورعه وإيمانه، فهم يأمنونه لأن دينه يحجزه ويمنعه من الفتك والغدر بالآخرين، وقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«الإيمان قيد الفتك»**[1]، وهذه الصفة

(١) المجازات النبوية، ص٣٥٦. ومسند أحمد، ج١، ص١٦٦، وسنن أبي داود، ج١، ص٦٣١، وفي تهذيب الأحكام، ج١٠، ص٢١٤: «الإسلام قيد الفتك».

الجليلة نجدها قد تجسدت في رسول الله ﷺ، فقد روي أنه ﷺ بينما كان في غزوة وفي طريق الرجوع جلسوا ليأخذ قيلولة وكانوا في واد كثير العضاة (شجر له شوك) فتفرقوا يستظلون تحت الشجر، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه على واحدة من تلك الأشجار ذات الورق الكثير فاستلقى ونام، وهكذا فعل المسلمون، وكان أحد المشركين قد تعقب النبي ﷺ وصحابته ولما لاحظ أن النبي ﷺ قد نام وسيفه معلق على الشجرة تقدم واستل السيف ثم «**قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: فما يمنعك مني؟ قال ﷺ: الله، قال: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف، قال له: من يمنعك مني؟** فقال: كن خيراً مني..»[(١)]، وفي رواية الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أنه لما قال له النبي ﷺ والآن من ينجيك مني؟ قال: جودك وكرمك يا محمد، فتركه**»[(٢)]. إنّ هذا خير مثال عملي لقوله «شرورهم مأمونة».

(١) **صحيح ابن حبان**، ج٧، ص١٣٨، وج ١٠، ص٤٠٠.
(٢) **الكافي**، ج٨، ص١٢٧.

(١٢)
وأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ

المتَّقون: نحافة الأجساد وخفة الحاجات

إنّ هاتين الصفتين، وهما نحافة الأجساد وخفة الحاجات هما من باب واحد، وهو قلّة المتطلّبات، وكيف كان، فإليك بيان هاتين الصفتين:

أولاً: نحافة أجساد المتَّقين

إنّ نحافة أجساد المتَّقين ناتجة عن كونهم مشغولين فيما يرضي الله تعالى، ومتفكرين في آياته، كما أنهم من أهل الصيام والقيام، وأهل العلم والعمل، وأهل الجهاد والدعوة، وهم بالتالي غير مهمومين بالأكل والشراب، كما هو حال المترفين في الدنيا المشغولين والمنهمكين بطعامها وشرابها، بحيث يصل حال البعض منهم إلى ما وصفهم به علي عليه السلام: «**أو أكون كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها**»(١)، هذا ناهيك عن أنّهم يدركون مخاطر التخمة على الروح والجسد، فهي سبب للكثير من الأمراض الروحية والصحية، كما سيأتي لاحقاً في شرح قوله عليه السلام: «**منزوراً أكله**».

ثم إنّ هذه الصفة هي صفة غالبية في المتَّقي، ولا يمنع ذلك أن لا يكون بعض أهل التَّقوى ذا جسم سمين، لسبب أو لأخر، فلا نستطيع أن نحكم على الشخص السمين مثلاً بأنه ليس من أهل التَّقوى، فإنّ الأمر قد يكون لسبب غير إرادي أو لمرض أو نحو ذلك، وحتى لو كان بسبب كونه أكولاً فهذا أيضاً لا ينافي تقاه.

(١) **نهج البلاغة**، ج٣، ص٧٢.

ثانياً: خِفّة الحاجات

وأما خِفّة حاجاتهم فهي ناشئة من أنّ متطلباتهم يسيرة، فهم يقتصرون على الضروريات في هذه الحياة الدنيا، وهذا ناشئ عن قناعتهم ورضاهم بما رزقهم الله تعالى. (ولنا عودة إلى موضوع القناعة عند شرح قوله عليه السلام: «**قانعة نفسه**»)، وهذه الصفة مهمة للغاية، فالمتَّقي هو إنسان غير متطلب، يرضى باليسير، وهذا أمر مريح له ولغيره، إنّ صاحب المتطلبات الكثيرة ولا سيما التي لا حاجة ماسّة إليها هو إنسان يعيش في عناء وتعب، ويصعب عليه التعامل مع تقلبات الحياة ومتغيرات الظروف، ولذا لن يشعر بالسعادة أبداً، بل هو في حالة توتر وإحباط دائمين أو غالبين، وأضف إلى ذلك أنه يُتعب من حوله حيث تراه شاكياً متبرماً.

(١٣)
وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ

العفّة مفهومها، مناشئها، مجالاتها، وآثارها

العفّة من أهمّ الصفات الحسنة التي يُعوّل عليها كثيراً في علم الأخلاق فهي تسهم في حفظ الإنسان من الانزلاق مع الشهوات بما يفقده إنسانيته وكرامته، وطبيعي أن تكون صفة لازمة لأهل التَّقوى، وهذا بيان موجز حول العفة وآثارها:

أولاً: معنى العفة

العفة لغة «الكفّ عمّا لا يحل»[(١)]، وأما في الاصطلاح الأخلاقي فهي ملكة نفسانية رادعة للإنسان وحاجزة له عن الفجور وهي تمنحه اقتداراً عالياً على التزام جادة التَّقوى واجتناب المحذور وكل ما يشين، وهي تعبّر عن إرادة وثبات، وثمرتها منع العفيف من اقتحام المحارم أو مدّ يده إلى مال الغير، والعفة أيضاً تحرض وتدفع بصاحبها باتجاه مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، ومن هنا نفهم كلام علي عليه السلام: «**مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّه بِأَعْظَمَ أَجْراً، مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ، لَكَادَ الْعَفِيفُ أَنْ يَكُونَ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ**»[(٢)].

ولا ينبغي التخيّل بأنّ العفيف يُخمد غريزته أو يقمع شهوته، كلا، فهذا ظن خاطئ، فهو إنسان ولديه غريزة، ولا يحق له منعها من أن تتحرك وترتوي بما أحلّ الله تعالى[(٣)]، إنما هو ذاك الذي يمنعها من الفجور والتحرك على هواها.

---

(١) **كتاب العين**، ج١، ص٩٢.

(٢) **نهج البلاغة**، ص٥٥٩، تحقيق صبحي الصالح، وموجوة في شروح النهج، انظر: **شرح نهج البلاغة** لابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٢٣٣. حيث ذكرها باعتبارها رواية موجودة في الأصل.

(٣) قال ابن ميثم البحراني: «وملكة العفّة فضيلة القوّة الشهويّة، وهى الوسط بين رذيلتي خمود الشهوة والفجور»، **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص٤١٦.

ثانياً: مناشئ العفة

للعفّة مناشئ عديدة، وعُمدتها اثنان:

١ ـ العقل، فالعاقل، عندما يدرس عواقب الفجور والتفلت يدرك أن ذلك يخدش حياءه ويسقط مرؤته، عن علي عليه السلام: **«من عقل عف»**[(١)].

٢ ـ الغيرة، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «قدر الرجل على قدر همته.. وعفته على قدر غيرته»[(٢)]. إنّ الغيرة تحجز صاحبها وتعفه، قال علي عليه السلام أيضاً: «ما زنى غيور قط»[(٣)].

ثالثاً: مجالات العفة

العفة لها مجالات مختلفة، من أهمّها:

الأول: حفظ الفرج من أن ينجرف بالإنسان ويفقده تقاه واستقامته، ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النور: ٣٣]. وإنّ غضّ البصر عمّا حرم الله تعالى هو من مظاهر العفة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أكثر الأشخاص عرضة للانحراف هم أصحاب الجمال من الرجال أو النساء، ومن هنا جاء في كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام: **«زكاة الجمال العفاف»**[(٤)]، فالجمال نعمة من نعم الله عليك، والنعمة ابتلاء، والجمال هو غالباً في معرض أن يوقع صاحبه بالفتنة وقد يجرّه إلى الانحراف، ولذا تحتاج هذه النعمة إلى زكاة، وزكاتها هي العفاف.

الثاني: حفظ البطن، فلا ترنو به إلى تناول الحرام، وأعظم الحرام أكل أموال الناس.

---

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٢٨.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١٤.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٧٣.
(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٧٥.

وعفة البطن لا تقف بصاحبها عند هذا الحد، بل إنّ الإنسان العفيف لا يسمح لنفسه أن تُذل بالسؤال والطلب، مع حاجته وفقره، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[البقرة: ٢٧٣].

رابعاً: آثار العفة على الفرد والمجتمع

لا يخفى أنّ العفّة لها آثار طيبة وثمار عديدة:

الثمرة الأولى: تحصين الفرد والمجتمع، أما الفرد فإنها تكسبه فضيلة عظيمة وتعينه على التزام خط التقى والاستقامة، وأما المجتمع فلأنها تحصنه وتحميه أمام موجات الفجور الطاغية. إن حصانة الفرد والمجتمع هي من أهم آثار التزام العفة نهجاً في الحياة، في صحيح هشام بن سالم عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**أَمَا يَخْشَى الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ أَنْ يُبْتَلَوْا بِذَلِكَ فِي نِسَائِهِمْ**»(١)، **وقد تسأل**: وما ذنب نسائهم حتى يبتلوا بهذا البلاء؟ **والجواب**: إن هذا الابتلاء ليس بالضرورة أن يفهم على أنه عقوبة لهم، وإنما هو جارٍ وفق قانون «كما تدين تدان»، فإنّ من لم يعف عن أعراض الناس، فمن الطبيعي أن يعامله الآخرون بالمثل. على أنّ عدم عفته تفقده الغيرة، وبالتالي فهو لن يربي أهله على نهج العفة، وعندها يكون من الطبيعي أن يسلكوا سبيله ويقتدوا به.

الثمرة الثانية: أنّ العفة تكسب صاحبها مرضاة الله وثوابه، عن علي عليه السلام: «**من عف خف وزره، وعظم عند الله أجره**»(٢). وقد عدّت بعضُ الأخبار تعفف الإنسان بحفظ فرجه وبطنه عن الحرام عملاً عبادياً بل من أفضل أنواع العبادة، فعن الإمام الباقر عليه السلام: قَالَ: «**مَا عُبِدَ اللَّه بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وفَرْجٍ**»(٣).

الثمرة الثالثة: زكاة الأعمال، ثمّة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام تربط بين العفّة وزكاة العمل،

---

(١) الكافي، ج٥، ص٥٥٣.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٥٩.
(٣) الكافي، ج٢، ص٧٩.

قال ﴿عليه السلام﴾: «**بالعفاف تزكو الأعمال**»(١). وهذا أثر عظيم، ويمكن فهمه على أنه أثر معنوي للعفة، وقد يقال إن ثمة ترابطاً طبيعياً بين تزكية الإنسان لنفسه ليكون عفيفاً وبين زكاة عمله، لأن العفة لا تتجزأ فالعفيف هو الذي يزكي نفسه، ومن زكت نفسه زكا عمله.

خامساً: موسى ويوسف ﴿عليهما السلام﴾ نموذجان في العفة

وأكثر ما نعانيه اليوم هو تحدي السقوط أمام شهوة الغريزة الجنسية، حيث يتذرع الكثيرون بأن انتشار الفجور والتعري يصعّب عليهم ـ ولا سيما الشباب ـ أن يحفظوا شهواتهم ويعفوا أنفسهم ويتحكموا بفروجهم.

ولكننا نعتقد أن الأمر على صعوبته ليس ممتنعاً، فالعفة تبقى خياراً ممكناً، وقوة الإرادة تحمي الإنسان من السقوط والانحراف، ولنا في أنبياء الله ﴿عليهم السلام﴾ خير مثال يحتذى في العفة، ونذكر في السياق نموذجين لنبيين عظيمين ابتليا بهذا الأمر:

النموذج الأول: نبي الله يوسف ﴿عليه السلام﴾، فقد جسّد خير مثال في العفة والحشمة، فلم يسمح لجماله أن يكون نقمة عليه، عندما رفض الاستجابة لامرأة العزيز رغم الإغراءات التي أحاطت به، ومحاولاتها لإيقاعه في حبالها، وجذبه إليها، فقد استعصم وعفّ، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[يوسف: ٣٢]. إنّ قصّة يوسف ﴿عليه السلام﴾ هذه تعدّ درساً بليغاً لكلّ الشباب الذين تواجههم الإغراءات، فالإغراءات كلها تهون أمام ما واجهه يوسف وقد لا تصل إلى معشار ما وصل إليه الأمر معه، وبالرغم من ذلك فقد انتصرت الإرادة عنده على الغريزة وتغلّب حبُّ الله على هوى النفس. ويستفاد من بعض الأخبار أنّ يوسف الصدّيق سوف يتّخذه الله يوم القيامة حُجّة له على الشباب الذين أغراهم جمالهم فانحرفوا، كما ستكون السيدة مريم ﴿عليها السلام﴾ حجّة الله على النساء الجميلات اللاتي أغراهن حسنهنّ وجمالهنّ فانحرفن. ففي الحديث عن أبي عَبْدِ اللَّه الصادق ﴿عليه السلام﴾: «**تُؤْتَى بِالْمَرْأَةِ الْحَسْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي قَدِ افْتُتِنَتْ فِي حُسْنِهَا، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مَا لَقِيتُ! فَيُجَاءُ بِمَرْيَمَ ﴿عليها السلام﴾ فَيُقَالُ: أَنْتِ أَحْسَنُ أَوْ هَذِهِ؟ قَدْ حَسَّنَّاهَا فَلَمْ تُفْتَتَنْ! وَيُجَاءُ**

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص١٨٧.

بِالرَّجُلِ الْحَسَنِ الَّذِي قَدِ افْتُتِنَ فِي حُسْنِه فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَقِيتُ! فَيُجَاءُ بِيُوسُفَ ﷺ فَيُقَالُ: أَنْتَ أَحْسَنُ أَوْ هَذَا؟ قَدْ حَسَّنَّاه فَلَمْ يُفْتَتَنْ! وَيُجَاءُ بِصَاحِبِ الْبَلَاءِ الَّذِي قَدْ أَصَابَتْه الْفِتْنَةُ فِي بَلَائِه فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَدَّدْتَ عَلَيَّ الْبَلَاءَ حَتَّى افْتُتِنْتُ! فَيُؤْتَى بِأَيُّوبَ ﷺ فَيُقَالُ: أَبَلِيَّتُكَ أَشَدُّ أَوْ بَلِيَّةُ هَذَا فَقَدِ ابْتُلِيَ فَلَمْ يُفْتَتَنْ!»(١).

النموذج الثاني: موسى الكليم ﷺ، فهو نموذج آخر للشاب العفيف، فإنه لما ورد ماء مدين ووجد ابنتي شعيب تذودان أغنامهما ومواشيهما عن الماء، فاستخبرهما عن سبب ذلك، فأخبرتاه أنهما لا تسقيان حتى يسقي الرعاة، فحركته الغيرة والشهامة، فسقى لهما بكل حشمة وعفّة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ۞ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[القصص: ٢٣ ـ ٢٤]، ثم لما أخبرت البنتان أباهما بما فعله هذا الشاب معهما بكل شهامة وعفة، حيث سقى لهما ثم تولّى إلى الظل، أرسل خلفه، فجاءته إحداهما وهي ممتلئة حياءً، كما قال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص: ٢٥]. وقد ورد في خبر صفوان عن أبي الحسن ﷺ(٢): «في قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] قال: قال لها شعيب: يا بنية هذا قوي برفع الصخرة، الأمين من أين عرفتيه؟ قالت: يا أبت إني مشيت قدامه، فقال: امشي من خلفي فإنْ ضللتُ فأرشديني إلى الطريق، فإنّا قوم لا ننظر إلى أدبار النساء»(٣).

---

(١) **الكافي**، ج٨ ص٢٢٨.

(٢) وهو الرضا ﷺ، لأن صفوان من أصحابه.

(٣) **من لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص١٩، وقريب منه ما في **تفسير القمي**، ج٢، ص١٣٨، وروى الطبري بإسناده عن السدي: «قالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] وهي الجارية التي دعته، قال الشيخ: هذه القوة قد رأيت حين اقتلع الصخرة، أرأيت أمانته، ما يدريك ما هي؟ قالت: مشيت قدامه فلم يحب أن يخونني في نفسي، فأمرني أن أمشي خلفه»، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج٢٠، ص٨.

سادساً: إعفاف الأولاد

وحرصاً منه على نشر العفة في المجتمع دعا الإسلام الآباء إلى السعي من أجل إعفاف أبنائهم وبناتهم، ففي الخبر عن رسول الله ﷺ أنّ «**من حقّ الولد على والده أن يزوّجه إذا بلغ**» «**أو يعفّ فرجه**»[1] والمراد بإعفاف الولد مساعدته على تهيئة ظروف الزواج ومقدّماته عند بلوغه ذلك السن، بما يحصّنه من الوقوع في الحرام، ويبعده عن أجواء الانحراف، ويمكن القول: إنّ قضيّة الإعفاف ترمي إلى ما هو أبعد من مجرّد المساعدة المادية وتهيئة المقدّمات، فهي مضافاً إلى ذلك عملية تربوية ثقافية تتحرَّك في إطار توجيهه للتحلّي بالأخلاق الفاضلة وتحصينه روحياً وإعداده تربوياً، الأمر الذي يبعده عن الوقوع في أسر الهوى وسيطرة الغريزة وشباك الانحراف.

وقد ذكرنا هذا الحق ـ حق الإعفاف ـ بالتفصيل في كتابنا حقوق الطفل في الإسلام، وأشرنا هناك إلى أنّ الدعوة إلى إعفاف الأبناء ـ ذكوراً وإناثاً ـ هي تأكيد على أنَّ مسؤولية الآباء والأمهات لا تنقطع بمجرّد بلوغ الأبناء ونضوجهم من الناحية الجنسية، بل إنّ المسؤولية تتضاعف وتتأكّد في هذه المرحلة الحساسة التي لها تأثير هام على مستقبل الابن واستقرار حياته؛ لأنّ الخطأ والانحراف في هذه المرحلة قد يُعقِّد حياته القادمة ويرخي بظلاله السيّئة عليها.

---

(١) هذا المضمون مرويّ من طرق الفريقين راجع: **روضة الواعظين**، ص٣٦٩، **ومكارم الأخلاق**، ص٢٢٠، **وكنز العمّال**، ج١٦، ص٤١٧، **ومستدرك الوسائل**، ج١٥، ص١٦٩.

(١٤)
صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ

الصبر وأهل التَّقوى

ومن صفات المتَّقين، أنهم من أهل الصبر في هذه الدار، ولنا مع هذه الصفة عدة وقفات سريعة:

أولاً: الصبر مفهومه، أهميته وثماره

الصبر خلق نبيل ومقام عظيم ولا يناله إلا ذو حظ كبير، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت: ٣٥]، والصبر له آثار جليلة:

أولاً: هو أعظمُ معين للإنسان ومساعد له في بلوغ حاجاته ومآربه، فمع عدم التحلّي بالصبر يصعب على الإنسان الوصول إلى ما يصبو إليه ويبتغيه في هذه الدنيا من تحصيل ثروة أو وظيفة أو مهنة، بما يعينه على الحياة الحرة والكريمة.

ثانياً: إنّ بلوغ الإنسان درجات الكمال والتحلي بالمكرمات واكتساب الفضائل يحتاج إلى صبر وأناة وتحمل، صبر في مواجهة طباع النفس، وصبر في مواجهة الأشخاص الذين يستفزّونه ويسيئون إليه.

ثالثاً: ونحن لا نحتاج إلى الصبر في رحلتنا في هذه الدنيا فحسب، بل نحتاجه أيضاً في مسيرنا إلى الله تعالى، لأن المغريات كثيرة فيحتاج المتَّقي في مواجهتها إلى عزيمة وصبر وأناة.

رابعاً: والصبر يجنب الإنسان خطر الانهيار وعدم التماسك في مواجهة الأزمات والشدائد، فمن لم يصبر، أي الجزوع، هو إنسان ضعيف ولا يتحلى بالعزم، فهو فاشل، بخلاف الصبور فإنه إنسان لا يسمح للمصائب أن تسقطه أو تخرجه عن توازنه ووقاره، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الجزع ينافي الإيمان، لأنّ الجزوع لا يتقبل القضاء والقدر، فيعترض على إرادة الله تعالى، فيقع في المحذور، يقول عليه السلام «**إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأَنْتَ مَأْجُورٌ، وإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأَنْتَ مَأْزُورٌ**»[1].

وبملاحظة ما تقدم يتضح سبب هذا المدح العظيم لأهل الصبر في القرآن الكريم، ويكفيك أنّ الله تعالى أعلن حبه لهم، ﴿**وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾[آل عمران: ١٤٦] وأنّ لهم البشرى منه جلَّ وعلا: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾[البقرة: ١٥٥].

ثانياً: تصحيح فهم خاطئ

وعلينا تصحيح نظرة خاطئة عن الصبر، من خلال التأكيد على أنّ الصبر ليس ضعفاً بل هو قمة الشجاعة، كما قال عليه السلام: «**والصبر شجاعة**»، خلافاً لما يظن البعض من أنّ الصبر هو ضعف وجبن، فإذا ترفعت وأغضيت عن مقابلة السيئة بمثلها قد يقال: هذا جبن، ولكن الصحيح أن هذا منتهى الشجاعة، لأنك سيطرت على غضبك وانفعالاتك ولم تحركها فيما لا ضرورة للتحرك فيه.

وثمة نظرة أخرى خاطئة إزاء الصبر، وهي ما يروجه بعض الناس من أنّ الصبر هو وصفة مخدرة يطرحها «رجال الدين» بهدف إقناع الناس بالسكوت على الواقع المنحرف والسلطان الفاسد والظالم. والحقيقة أنّ الدين يدعوننا في مواجهة الظالم والفاسد إلى المواجهة والجهاد، ويدعوننا أيضاً إلى الصبر، لكنه صبرٌ في طريق المواجهة والتغيير، وهو صبر لا غنى عنه في نجاح عملية التغيير، فعندما يواجه الإنسان عدواً يظلمه ويعتدي عليه أو يسلب أرضه، ففي هذه الحالة لا يستطيع المواجهة ولا التغيير إلا بالتحمل والصبر، فالصبر يعطيه قوّة المقاومة، ولولا صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) **نهج البلاغة**، ج٣، ص٧١.

والمجاهدين معه في صدر الإسلام ما انتصرت الدعوة، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[المزمل: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾[فصلت: ٣٤ ـ ٣٥]. وهكذا يتضح أن علماء الدين (وليس وعاظ السلاطين) لا يهدفون بهذا الخطاب الداعي إلى الصبر أن يشلّوا إرادة الناس ويخدروهم، وإنما يريدون دعوتهم إلى اختزان الغضب وتفجيره في المكان المناسب. إنّ الإسلام بدعوته إلى الصبر لا يريد للناس أن يستسلموا للأمر الواقع أو أن يسكتوا على الفاسد، أو يركنوا للظالم، بل إنه يدعوهم إلى مواجهة ذلك وتغيير الواقع نحو الأفضل، ولكن ضمن خطة مدروسة حتى لا يقع المجتمع في حالة من الهرج والمرج واللانظام.

وهكذا فعندما يواجه المؤمن ظروف صعبة من القهر والفقر والجوع فإنّ الصبر هو الذي يجعله قادراً على التغلب على هذه الظروف، فلا يخضع ولا يبيع كرامته أو عرضه أو شرفه ولا يلجأ إلى الانتحار، فالشجاعة هي من الصبر.

وعندما تضغط على الإنسان غرائزه ليقع فيما حرّم الله أو ليمد يده إلى ما حرّم الله فيحتاج إلى قوّة وشجاعة إلى مواجهة ذلك الضعف، والصبر هو تلك القوّة والوسيلة.

ثالثاً: أقسام الصبر

وحيث قد تمّت الإشارة إلى أن للصبر أنحاءً عديدة، فلا بأس أن نسلّط الضوء على هذه النقطة من وحي كلمة أخرى للإمام عليه السلام يشير فيها إلى أصناف الصبر، يقول: «**الصَّبْرُ صَبْرَانِ صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَه وصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ**»[(١)]. وإليك بيان هذين القسمين:

القسم الأول: الصبر على ما تكره، فالمرء على سبيل المثال يكره الفقر، ولكن كيف يواجه ذلك؟ إن مواجهة الفقر والجوع لا تكون بالتبرم ولا بكثرة الكلام وإنما تكون بالصبر والتخطيط في خط السعي من أجل تأمين لقمة العيش الكريم، والصبر في هذا

(١) **نهج البلاغة** ج٤ ص١٤.

الخط وإن كان مراً لكنه أحلى وأطيب من ذلّ السؤال. وعليك أن تعي أنه عندما يُسرق مالك، فليس خصمك هو الله تعالى، وإنما خصمك هو الطبقة الفاسدة التي أوصلتك إلى هذا الإفلاس، فلماذا تعترض على الله أكثر مما تعترض عليها، وعليك أيضاً أن توجه ثورتك إلى هذه السلطة بدل أن تفجّر غضبك بأبنائك وزوجتك..

مثال آخر: إن الإنسان يكره المرض، ولكن ماذا أمام المريض إلا الصبر في رحلة الاستشفاء وأخذ العلاج والدواء ولو كان مراً؟ إنّ الصبر هنا هو الذي يزوده بالقوة، ليتغلب على المرض. **ومثال ثالث**: وهو أنّ الإنسان يكره الظلم، وما عليه في مواجهة الظالم إلا أن يتحلى بالصبر ـ إلى جانب التخطيط والعمل ـ حتى يعرف كيف يرفع أذاه وظلمه عنه، أما إذا انهار أمام الظالم ولم يصبر في مواجهته فيكون قد أمكن الظالم من نفسه ومهد له طريق السيطرة عليه.

القسم الثاني: الصبر على ما تحبّ، فالإنسان يحب السعادة، وطريق السعادة محفوف بالصعاب، ولن يصل إليها إلا بالصبر والتحمل والكد. وهو أيضاً يحب الوصول إلى أعلى درجات العلم والمعرفة، والعلم لا يأتيك لوحده، وإنما عليك أن تسعى إليه وأن تصبر في رحلة التعلم وتسهر الليالي. وهو أيضاً يحب الحياة الكريمة، والحياة الكريمة لا تُعطى بالمجان، فعليه أن يصبر في خط السعي والكد، لأنه «**من طلب العلى سهر الليالي**»، وكما قال شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

إنّ مشكلة بعض الناس أنه يريد أن يأكل العسل دون أن تمسه أبر النحل ويريد الوصول إلى الرفاهية دون تضحيات، وهذا أمر خلاف سنن التاريخ، وقد قالها الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي:

إذَا مَا طَمَحْتُ إلى غَايَةٍ ... رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الحَذَر
وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وُعُورَ الشِّعَابِ ... وَلا كُبَّةَ اللَّهَبِ المُسْتَعِر
وَمَنْ لا يُحِبّ صُعُودَ الجِبَالِ ... يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَر

هُوَ الكَوْنُ حَيٌّ، يُحِبُّ الحَيَاةَ وَيَحْتَقِرُ الْمَيْتَ مَهْمَا كَبُر
فَلا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطُّيُور وَلا النَّحْلُ يَلْثِمُ مَيْتَ الزَّهَر

وهكذا فإنّ الإنسان يحب أن يكون له ذرية صالحة، وصلاح الذرية لا يكون بالأمنيات بل بالصبر على تربيتهم وتعليمهم ومتابعة مشكلاتهم.

رابعاً: جزاء الصابرين

إنّ الإمام عليه السلام في قوله: «**صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً**» يشير إلى أنّ عناء الصبر مهما اشتد وصعب فهو قليل، لأنّ عاقبته ثمينة وغالية وهي الراحة والسعادة، وأهل التّقوى قد صبروا أياماً قليلة على عناء الدنيا وتحدياتها وما واجهتهم به من عنت وتكذيب واستهزاء واستعلاء، ولكن ذلك لا يذهب عند الله هباءً، بل له ثمن عظيم، وهو الراحة الطويلة في جنات الخلد، وهذا فيه تشويق للمتّقين وتخفيف عنهم، قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[الإنسان: ١٢]، وفي الخبر عنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ والصَّبْرِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وجَهَنَّمُ مَحْفُوفَةٌ بِاللَّذَّاتِ والشَّهَوَاتِ، فَمَنْ أَعْطَى نَفْسَه لَذَّتَهَا وشَهْوَتَهَا دَخَلَ النَّارَ**»(١).

ثم إنّ الإمام عليه السلام وفي بيان هذه العاقبة الطيبة للمتّقين والتي ينالونها جزاء صبرهم، يستخدم تعبيراً آخر، وهو قوله: «**تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ**»(٢)، أي إن تجارتهم هي تجارة مربحة، لأنّها تجارة مع الله تعالى، والمرجح أن يكون ذلك إشارة إلى صبرهم في الدنيا، فهو التجارة المربحة التي يسرها لهم الله تعالى ووفقهم إليها. ومن هنا كان هذا المدح العظيم لأهل الصبر ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦] وكانت لهم البشرى من الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥].

---

(١) **الكافي**، ج٢، ص٩٠.

(٢) قال ابن أبي الحديد: «تجارة مربحة، أي تجارتهم تجارة مربحة، فحذف المبتدأ. وروى: (تجارة مربحة)، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل»، **شرح نهج البلاغة**، ج١٠، ص١٤٢.

خامساً: علي عليه السلام إمام الصابرين

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمير المؤمنين عليه السلام إذ يتحدث في الفقرة المتقدمة عن الصبر، فهو إنما يتحدث عن تجربة، فقد واجه العنت والظلم والتنكر لدوره ومكانته، فواجه ذلك كله بالصبر والحكمة، فصبر على ما جرى معه في موضوع الخلافة عندما أبعده القوم عن حقه، وتنكروا له إلى حدّ أنه لم يُسأل ولم يؤخذ برأيه ولو على سبيل المشورة، فراعه ذلك وصدمه، لكنه صبر[١]، رغم عظيم الفادحة، قال عليه السلام: «**وطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ويَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، ويَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّه، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وفِي الْعَيْنِ قَذًى وفِي الْحَلْقِ شَجًا**»[٢]، وآثر مصلحة الأمة على مصلحته الخاصة، فقد روي أنه قال لما عزموا على بيعة عثمان: «**لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ وَزُهْداً فِيمَا تنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِه**»[٣].

(١) يقول عليه السلام: «فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يبَايِعونَه فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَه أَنْ أَرَى فِيه ثَلْماً أَوْ هَدْماً تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِه عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ»، **نهج البلاغة**، ج٣، ص١١٩.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٢٤.

(١٥)
أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا

نظرة علي عليه السلام إلى الدنيا

هذه الكلمة تسلط الضوء على علاقة المتَّقي بالدنيا، ويهمنا هنا بيان حقيقة هذه العلاقة، لما يشوبها من التباس، حيث قد يفهم البعض من كلام الإمام علي عليه السلام ضرورة معاداة الدنيا، وبالتالي فإنّ على المتَّقي أن يختار بين أن يكون من أهل الدنيا أو أهل الآخرة، فهل صحيح أنّ الدنيا هي عدو للمؤمن وأنّ عليه العمل على معاداتها ورفضها؟

والإجابة على ذلك، نوضحها من خلال النقاط التالية:

أولاً: الدنيا مزرعة الآخرة

إنّ كلام الإمام علي عليه السلام الذي يمثّل الإسلام فيما يقوله بشأن الدنيا أو غيرها، يضع الدنيا في موضعها الملائم المتوازن، وذلك في مقابل نظريتين مغاليتين، تقعان على طرفي نقيض، إحداهما نظرة ترى أن الدنيا هي آخر المطاف، أو كما قال تعالى عن لسان المشركين: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون: ٣٧]، وبالتالي فعلينا استغلالها لإشباع شهواتنا وإرواء غرائزنا، وأن نفعل فيها ما يحلو لنا أكان من حلال أو حرام. وإنّ كثيراً من الناس حتى لو كانوا نظرياً يؤمنون بالآخرة، فإنّهم من الناحية العمليّة يتعاملون مع الدنيا كأنها نهاية العالم، ولا يحسبون حساباً للآخرة في تصرفاتهم. وفي الطرف المقابل توجد نظرة أخرى تزهد في الدنيا زهداً مجحفاً، بحيث إنها لا تعمرها ولا تستفيد من خيراتها، أما النظرة الإسلامية في هذا الشأن فهي

نظرة متوازنة، ترى أنّ الدنيا حاجة للإنسان، وهو لا يستغني عنها وعن الأخذ من متاعها مما هو حاجة له في حياته، ولكن لا بدّ أن يكون الأخذ بما لا يفسد الروح، ولا يشكل عدواناً على الآخر ولا يشكل تجاوزاً للحدود، فالدنيا هي مرحلة تحضيرية تمهيدية، يزرع فيها الإنسان والحصاد يوم القيامة، وهذه هي نظرة علي عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ والآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، ولَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ ولِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ..**»(١).

ثانياً: سر التحذير من الدنيا

إنّ غفلة معظم بني الإنسان عن مكانة الدنيا وموقعها كمحطة عبور نحو الحياة الأبدية، وسقوطهم في شباكها وحبالها وتعلقهم بها وبزخارفها، حتّم على أنبياء الله وأوليائه عليهم السلام أن يتوجهوا إلى الناس بخطاب تحذيري تنبيهي، يضع الدنيا في موضعها، ويركّز على إظهار مكائدها وما تُزين به نفسها للعباد، وذلك حتى لا يغترّوا بها ولا يقعوا في حبالها، بما ينسيهم لقاء الله تعالى، يقول علي عليه السلام: «**فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ وتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ ورَاقَتْ بِالْقَلِيلِ وتَحَلَّتْ بِالآمَالِ وتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، ولَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا، غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ..**»(٢).

وفي هذا السياق يؤكد الإمام عليه السلام أنّ امتلاك الدنيا والحصول على زخارفها ليس دليل الكرامة عند الله وأنّ الزهد بها وعدم امتلاك الشخص لزخارفها ومناصبها ليس دليل الهوان عند الله تعالى، يقول عليه السلام: «**ولَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِئِ الدُّنْيَا وعُيُوبِهَا إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِه وزُوِيَتْ عَنْه زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِه، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِه أَكْرَمَ اللَّه مُحَمَّداً بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَه فَإِنْ قَالَ أَهَانَه فَقَدْ كَذَبَ واللَّه الْعَظِيمِ بِالإِفْكِ الْعَظِيمِ وإِنْ قَالَ أَكْرَمَه فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّه قَدْ أَهَانَ غَيْرَه حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَه، وزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْه**»(٣).

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢١٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٠.

ثالثاً: هل الدنيا عدو؟

وما تقدم لا يعني أنّ الدنيا هي في حدّ ذاتها عدوٌ لبني آدم، أو أنها شرّ، كلا وإنما هي مركب ومطيّة تقودنا إلى الآخرة، والعقل والنقل يقولان لنا: عليكم أن تستفيدوا من هذه المطية للوصول إلى الآخرة بحمل خفيف، فإذا أحسن الإنسان في الإفادة منها فهو الرابح والسعيد، وإن أساء فهو المسؤول والمحاسب وليست هي، لأنه وبسوء اختياره غرق في وحولها، ومن كلامه عليه السلام الذي يوضح فيها هذه النظرة إلى الدنيا ومتاعها ما قاله للعلاء بن زياد الحارثي، وهو من أصحابه، لما دخل عليه في البصرة يعوده، فلما رأى سعة داره قال: «**مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بسعة هذِهِ الدار فِي الدُّنْيَا، أَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟ وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ: تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ**»[١].

أجل، إنّ العدو في نظر القرآن الكريم هو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر: ٦].

وفي هذا السياق، نفهم كلام الإمام علي عليه السلام في بيان صفة المتَّقين، فهو يرى أنّ الدنيا بزينتها وزخارفها كأنها تحاول الإيقاع بالإنسان، لكنّ المتَّقي يتغلّب بقوة إرادته عليها، ولا يسمح لها أن تهزمه، وهي وإن حاولت أن تضعه في أسرها لكنه بتقاه يتحرر من قبضتها.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٦١.

(١٦)

قال عليه السلام: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ».

المتقون وإحياء الليل بالعبادة وقراءة القرآن

من أهم صفات أهل التَّقوى أنّ لديهم برنامجاً خاصاً لليلهم، كما أن لهم نشاطاً خاصاً في نهارهم كما سيأتي، فهم يحرصون على أن تكون لهم خلوة أو فسحة ليليّة خاصة لمناجاة الله تعالى، ومحاسبة النفس ومساءلتها، ومراجعة الأعمال والأقوال، وإليك بيان ذلك:

أولاً: لماذا الليل؟

إنّ اختيار الليل للخلوة بالله تعالى ليس عبثاً، وإنما له حكمة بالغة، فالليل له ميزته، ففيه يفرغ الشخص من الهموم، وتنام العيون، وتهدأ الأصوات والضوضاء، ويسود السكون، فتغدو النفس فيه أكثر قابلية واستعداداً للتوجه إلى الله تعالى والإقبال عليه، ويكون ذلك مظنة استجابة الدعاء ونزول الرحمة وشمول اللطف الإلهي للعبد، ولهذا حثّ القرآن الكريم على قيام الليل، وقد عبّر القرآن الكريم عن صلاة الليل بأنها أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٦].

ثانياً: أنواع عبادة الليل

ويستفاد من القرآن الكريم أن كل أشكال العبادة ملائمة لليل:

١ ـ **الاستغفار**: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٥ ـ ١٨]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[آل عمران: ١٦ ـ ١٧].

٢ ـ **التسبيح**: قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[ق: ٣٩ ـ ٤٠].

٣ ـ **الدعاء**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٥ ـ ١٧].

٤ ـ **الصلاة**: قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩].

٥ ـ **قراءة القرآن**: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل: ١ ـ ٤].

ثالثاً: كيف يقرأ المتَّقي القرآن؟

وعلي عليه السلام في هذه الفقرة الآنفة يركز على العمل الأخير، أعني على تلاوة القرآن الكريم في الليل، مسلطاً الضوء على أمور عدة:

أولاً: شكل القراءة: قال عليه السلام: «**يرتلون القرآن**»، التلاوة، هي القراءة التي فيها ترسل وبيان، في الخبر «سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الترتيل؟ فقال: **حفظ الوقوف وأداء الحروف**»[(١)].

(١) **شرح نهج البلاغة**، للراوندي، ج٢، ص٢٧٧.

ثانياً: الوظيفة النفسية والروحيّة للقراءة، قال عليه السلام: «**يحزنون به أنفسهم**»، والوجه في ذلك أنّ القلوب تبتلي بمرض القسوة القاتل، وجلاء صدأها يكون بتلاوة القرآن، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[الزمر: ٢٣]. وقد روي عن تلاوة الإمام الكاظم عليه السلام للقرآن أنه كان «إذا قرأ تحزّن وبكى وبكى السامعون لتلاوته»[١].

ثالثاً: شفاء داء النفوس والعقول والمجتمعات، «**ويستثيرون به دواء دائهم**»، أي يحركون ويهيجون به دواء أمراضهم، وذلك لكونه يجلو الصدأ عن العقول، وذلك من خلال التدبّر بآياته والعمل بقواعده وسننه، وهذا ما يجعلهم يلتمسون فيه الحلول لمشكلاتهم. وقد ذكر ابن أبي الحديد أن هذا المقطع: «إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فقلت لها إنّ البكاء لراحة به   يشتفي من ظن ألا تلاقيا»[٢]

رابعاً: القراءة التفاعلية، وتلاوتهم للآيات في جوف الليل هي تلاوة ذات نكهة أو بصمة خاصة، فهي صادرة من أعماق القلب، فهم يتفاعلون بكل كيانهم مع الآيات الكريمة، «..**فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ..**».

يقول الشارح البحراني تعليقاً على المقطع المتقدم: «وذلك إشارة إلى تطويع نفوسهم الأمّارة بالسوء بالعبادات، وشرح لكيفيّة استثارتهم للقرآن العزيز في تلاوته وغاية ترتيلهم له بفهم مقاصده وتحزينهم لأنفسهم به عند ذكر الوعيدات من جملة استثارتهم لأدواء دائهم، ولمّا كان داؤهم هو الجهل وسائر رذائل العمليّة كان دواء

(١) **أعيان الشيعة**، ج٢، ص٦.
(٢) **شرح نهج البلاغة**، ج١٠، ص١٤٣.

الجهل بالعلم ودواء كلّ رذيلة الحصول على الفضيلة المضادّة. فهم بتلاوة القرآن يستثيرون بالتحزين الخوف من وعيد اللَّه المضاد للانهماك في الدنيا، ودواؤه العلم الَّذي هو دواء الجهل، وكذلك كلّ فضيلة حثّ القرآن عليها فهي دواء لما يضادّها من الرذائل، وباقي الكلام شرح لكيفيّة التحزين والتشويق»[1].

(١) شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٤١٧.

(١٧)
وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا، وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ

بعض صفات المتَّقين في النهار

وأما عن حال المتَّقين في النهار، فيركّز الإمام عليه السلام على بعض ما ينبغي أن يتّصفوا به:

أ ـ **الحِلم**: فهم من أهل الحِلم، والحلم هو الأناة والتمهل والتجاوز عن الإساءة، والابتعاد عن التسرع في المواقف وردات الأفعال، فالحليم هو الذي لا يستفزه غضب ولا يتملكه الطيش والانفعال، وهذه من صفات الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[البقرة: ٢٣٥]، وقد أرادنا الله أن نتخلق بأخلاقه، ونتحلّى بها، وحاجة الإنسان إلى الحِلم في أيامنا حاجة عظيمة، فمصاعب الحياة كثيرة وهي تستفز غضب الإنسان، وتثير انفعالاته، لذا فهو بحاجة إلى الحِلم، وأن يتدرب على الحلم ويسعى لضبط أعصابه، وقد قالَ عليه السلام: «**إنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّه قَلَّ مَنْ تَشَبَّه بِقَوْمٍ، إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ**»[١].

والحلم ليس ضعفاً، وإنما هو دليل قوة، لأن من ينتصر على غضبه ويمسك نفسه من الاسترسال معه هو من أقوى الأقوياء، ولكنّ للحلم موضعه وهو الحياة الاجتماعية في التعامل مع الناس، وأما في ميادين الحرب مع الأعداء، فلا بدّ أن يكون الإنسان قوياً شديداً، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[الفتح: ٢٩]، كما أنّ حدود الحلم تنتهي عندما يبدأ المس بالكرامة، فالمتَّقي لا يسمح لأحد أن يمسّ بكرامته.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٤٧.

ب ـ **العلم**: والمتَّقي هو إنسان عالم أو متعلم، وليس إنساناً جاهلاً، فهو يجمع إلى جنب الورع العلم، لأن من الخطر الكبير أن يكون الإنسان متديناً دون علم وَفِقْهٍ، فإن خطره على الدين كبير، لا يقلّ عن خطر العالم الفاجر، الذي لا ورع له، عنه عليه السلام «**ما قصم ظهري إلا رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك، هذا ينفر عن حقه بهتكه وهذا يدعو إلى باطله بنسكه**»[1]، وهذا فيه كسر للنظرة النمطية حول الزاهد وهو أنه إنسان بسيط أو جاهل، والإمام عليه السلام قد تكلّم عن العلم في العديد من كلماته، وقد تقدم فيما سبق كلام حول ذلك عند شرح فقرة «**ووَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ**».

ت ـ **البرّ**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى (البر) هو العطوف على عباده ببره ولطفه. والبر والبار بمعنى، وإنما جاء في أسماء الله تعالى البر دون البار. والبر بالكسر: الإحسان. ومنه الحديث في (برّ الوالدين) وهو في حقهما وحق الأقربين من الأهل ضد العقوق، وهو الإساءة إليهم والتضييع لحقهم. يقال بر يبر فهو بار، وجمعه بررة، وجمع البَر أبرار، وهو كثيراً ما يخص بالأولياء والزهاد والعباد. ومنه الحديث: «**تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة**»[2]، أي مشفقة عليكم كالوالدة البرة بأولادها»[3]. والمتَّقي هو من أهل البر والإحسان واللطف بغيره، لا يعتدي على أحد ولا يخدش مشاعره، ولا يؤذيه، بل يرفق به ويحسن إليه. وثمة دوائر إنسانية خاصة يحرص الإسلام كثيراً على ضرورة رعايتها، وعلى رأس ذالك الوالدان، في الحديث عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**جَاءَ رَجُلٌ وسَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم عَنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ فَقَالَ: ابْرَرْ أُمَّكَ ابْرَرْ أُمَّكَ ابْرَرْ أُمَّكَ، ابْرَرْ أَبَاكَ ابْرَرْ أَبَاكَ ابْرَرْ أَبَاكَ وبَدَأَ بِالأُمِّ قَبْلَ الأَبِ**»، وفي الحديث عن

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٧٩.

(٢) المجازات النبوية، ص٢٦٩، والمعجم الصغير للطبراني، ج١، ص١٤٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص١١٦.

أبي عبد الله عليه السلام قال: قَالَ: رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم **رَحِمَ اللَّه مَنْ أَعَانَ وَلَدَه عَلَى بِرِّه** قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ يُعِينُه عَلَى بِرِّه؟ قَالَ: **يَقْبَلُ مَيْسُورَه ويَتَجَاوَزُ عَنْ مَعْسُورِه ولَا يُرْهِقُه ولَا يَخْرَقُ بِه..**»[١]. ومن العوامل المؤثرة في بر الأولاد لآبائهم: العدل بين الأبناء، روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**اعدلوا بين أولادكم في النِّحل** (جمع نحلة وهي الهدية) **كما تحبُّون أن يعدلوا بينكم في البِّر واللّطف**»[٢].

ث ـ **الخوف**: «قد براهم الخوف بري القداح»، يقصد الخوف من تجاوز حدود الله تعالى والوقوع في ظلم خلق الله تعالى، وخوف العذاب الأخروي، ﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾[الإنسان: ٧]، قال المازندراني: «يعني قد براهم الخوف كبري القداح[٣] في النحافة والدقة، وإنما يفعل الخوف ذلك لاشتغال النفس المدبرة للبدن بسبب الخوف عن النظر في صلاح البدن ووقوف القوة الشهوية والغاذية عن أداء بدل ما يتحلل «**ينظر إليهم الناظر**» من أهل الدنيا الذي طوره غير طورهم «**فيقول مرضى**» أي هم مرضى، نظراً إلى نحافة أجسادهم «**وما بالقوم من مرض أم خولطوا**»، أي اختلت عقولهم نظراً إلى تكلمهم بكلام خارج عن دركه «فقد خالط القوم أمر عظيم»، وهما الخوف من ذكر النار وما فيها»[٤]. وأنت ترى أنه[٥] فسر البري بالمعنى الحرفي الذي يظهر على أجسادهم، مع أنّ من الراجح أنه تمثيل مادي لمعنى معنوي، وهو أن الخوف أثر فيهم وفي سلوكهم، فاستقاموا واعتدلوا وابتعدوا عن الشبهات، وهذه التصرفات قد تعد عند أهل الدنيا ضرباً من الجنون.

---

(١) **الكافي**، ج٦، ص٥٠.

(٢) **السنن الكبرى** ج٦ ص١٧٨

(٣) وهي السهام التي تنحت نحتاً.

(٤) **شرح أصول الكافي**، ج٨، ص٣٩١.

(٥) وكذلك فعل ابن ميثم من قبله، راجع: **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص٤١٨.

(١٨)
لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ

ميزان أعمال المتَّقي

في هذه الفقرة يشير الإمام عليه السلام إلى سِمة هامة في المتَّقين تجعلهم في حالة تطور وتقدم، وبيان ذلك:

أولاً: الطموح العالي

إن قوله عليه السلام «**لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ**»، يشير إلى أنّ المتَّقي هو إنسان ذو طموح عالٍ، كما قال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «**ارم ببصرك أقصى القوم**»(١)، المتقون ليسوا أشخاصاً كسالى، ولا ذوي سقوف منخفضة فيما يتطلّعون إليه، كما قد يتخيّل بعض الناس، وزهدهم وورعهم وتواضعهم لا ينافي سعيهم الدؤوب للتغيير والإصلاح، ولا يَحُول دون مثابرتهم نحو التقدم والوصول إلى الأفضل. المتقون الذين جاهدوا النفس الأمارة بالسوء هم أصحاب همم عالية، والحياة لا تليق إلا بأصحاب الهمم العالية، ولا تفتح أبوابها إلا لهم. وهم يعلمون أن الأمم والشعوب لا ترتقي ولا تتقدم إذا كانت حليفة التواني والتراخي، وهم يدركون أن السعادة لا تنال إلا بالعمل الجاد والهادف «**هيهات من نيل السعادة الركون إلى الهوينا والبطالة**»(٢)، ولأجل هذا فإنّ أهل التَّقوى يستقلون أعمالهم ولو كانت كثيرة، ليبقى لديهم حافز نحو التغيير والتقدم.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج١، ص٤٣.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٥١٢.

يُحكى أنّ عالماً سأل ابنه: من هو مثلك الأعلى؟ فقال الابن: أنت يا أبي! فقال له أبوه: إذن لن تصل إلى مستواي، قال: ولماذا؟ قال: لأنّي جعلت مثلي الأعلى وقدوتي في الحياة أميرَ المؤمنين علياً عليه السلام، فوصلت إلى هذا المستوى، فإذا جعلتني قدوتك فلن تصل إلى مستواي.

ثانياً: اتهام النفس بالتقصير

ويضيف عليه السلام ـ ربطاً بالصفة السالفة الذكر ـ قائلاً: «**فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ**»، وهذا المعنى مستقى من قوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾[المؤمنون: ٦٠]، وخلاصة هذه الصفة: أنّ المتَّقين وبوحي من طموحهم العالي، وسعياً نحو استمرار التجدد، فإنهم يتهمون أنفسهم بالتقصير ولا يرونها كاملة، وذلك انطلاقاً من حقيقة واقعية، وهي أن درجات الكمال لا حدّ لها، فمن يتخيّل أنه قد وصل إلى ذروة الكمال فهو مشتبه وواهم، وشعوره بذلك هو أشبه بالتورم والانتفاخ في الشخصية ليس إلّا، لأنّ درجات الكمال المعنوي تبقى مفتوحة، وكذلك درجات الكمال المعرفي، فمهما تعلّمت وقرأت يبقَ أمامك الكثير من المجاهيل لتتعلمها وتكتشفها. إنّ شعور الإنسان بالامتلاء ينشأ عن حالة من الجهل المركب أو من الإعجاب بالنفس، و«**عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ**»، كما قال عليه السلام فيما روي عنه[١]. إنّ العجب بالنفس هو حجاب يمنع من الازدياد. وقد قال المتنبي مخاطباً سيف الدولة:

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وأمّا خوفهم من أعمالهم فمردّه إلى خشيتهم بأن لا تكون هذه الأعمال كاملة وخالصة لوجه الله تعالى. لكن تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الخوف لا يتحول إلى عقدة بل يكون دافعاً لمزيد من المراقبة والمحاسبة للنفس، وهذا يعينهم على فعل الأفضل والأحسن.

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٤٩.

(١٩)
إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَه فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ

المتَّقي وامتداح نفسه

في هذا المقطع يتطرق الإمام عليه السلام إلى موضوع مهم، وهو موضوع المدح، وكيفية التعامل معه، وإليك بيان ذلك:

أولاً: كراهية مدح النفس والغير

الإنسان تارة يزكي نفسه ويمدحها، وأخرى يزكي الآخرين ويمدحهم، والإسلام لا يحبّ لا هذا ولا ذاك:

أما تزكية النفس: فالأدب الإسلامي يدعو إلى تجنبه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[النجم: ٣٢]. إنّ هذه التزكيّة قد تُفسد إخلاصك في العمل، وتعميك عن رؤية عيوبك، ولذا الأجدى بالعاقل أن ينشغل بملاحظة عيوبه ليصلحها بدل الانشغال بمدح نفسه وتعداد إنجازاته.

وأما تزكية الغير فهي أيضاً ليست محمودة إذا كان المدح في وجهه، لأنّ ذلك قد يشعره بالزهو والإعجاب المتزايد بالنفس، بما قد يعميه عن رؤية عيوبه وقد يدفعه إلى الكبر، يقول علي عليه السلام: «**ثم رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ، ولَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْه، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ وتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ**»[١]، أو الغرَّة. ويلاحظ أن بعضهم قد يعتاد

(١) **نهج البلاغة**، ج٣، ص٨٨.

على مدح الآخرين له عند كل عمل يقوم به، حتى إذا فعل أمراً ولم يمدحه أحد شعر بالحزن، وربما لام الآخرين على ترك مدحه! وأما إذا كانت التزكية في ظهر الغيب، فلا ضير فيها، بل قد تكون راجحة لبعض العناوين.

ثانياً: كيف يقابل المتَّقي حالة مدحه؟

ولو أنّ أحدهم أقدم على مدح المتقي، فإنه يسعى أن لا يطرب ولا يزهو وينتشي بسبب حالة المدح، بل يعمل في دخيلة نفسه على مواجهة ذلك، من خلال استحضار نقاط ضعفه، ومن خلال اللجوء إلى الله تعالى، ليقول لنفسه قبل المادحين: «**أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ**». وقد أشار الإمام زين العابدين عليه السلام إلى أهمية اللجوء إلى الله والاستعانة به في تأديب النفس في مثل هذه الحالات، وذلك خشية الوقوع في فخ الفخر والتكبّر، فقال في دعاء مكارم الأخلاق: «**وَلا تَرْفَعْنِي فِيْ النَّاسِ دَرَجَةً إلّا حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلا تُحْدِثْ لِي عِزّاً ظَاهِراً إلّا أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا**»(١).

وهذا المعنى قد حصل مع الإمام علي عليه السلام نفسه في بعض الأوقات، فقد روي أنه وبينما كان عليه السلام يخطب مدحه أحد أصحابه وأثنى عليه، فقال عليه السلام: «**وقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الإِطْرَاءَ، واسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ ولَسْتُ بِحَمْدِ اللَّه كَذَلِكَ، ولَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ، لَتَرَكْتُه انْحِطَاطاً لِلَّه سُبْحَانَه، عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِه مِنَ الْعَظَمَةِ والْكِبْرِيَاءِ**»(٢).

قصة الإمام الخميني مع الشيخ المشكيني

وقد حصل في بداية انتصار الثورة الإسلامية في إيران أنْ قام جمعٌ من العلماء بزيارة الإمام الخميني رحمه الله، وتكلّم الشيخ المشكيني رحمه الله باسمهم، فمدح الإمام بكلمات قد

(١) **الصحيفة السجادية**، من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٢٠٠.

تكون اليوم ومن خلال ما نسمعه من مدح وإطراء كلمات عادية، لكن ردة فعل الإمام كانت درساً عظيماً، حيث بان الانزعاج عليه، ثم خاطب الشيخ المشكيني: «لأبدأ بعتاب أوجهه للشيخ المشكيني.. يكفينا ما بُلينا به من التعلّق بهوى أنفسنا.. لذا لا تلقوا أقوالاً تزيد في ثقل أحمال نفوسنا، بما يرجع بنا القهقرى! ادْعُ لي أنْ أصيرَ إنساناً (آدميّاً)! ادْعُ أن نلتزم ولو بظواهر الأحكام.. إذ قَصُرَتْ أيدينا عن بلوغ بواطنها.. عسى أن نعمل في الأقل الأدنى بهذه الظواهر!».

(٢٠)
فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى له قُوَّةً فِي[1] دِين

قوةً في[2] دين

يشرع الإمام عليه السلام في هذا المقطع وما يليه بذكر ما أسماه علامات المتَّقين، وتسميتها بالعلامات تشي بكونها لصيقة بهم إلى درجة أنهم يُعرفون بها، ومن هذه العلامات: أنّ لهم قوةً في دين، وبياناً لهذه الفقرة نقول:

أولاً: القوة علماً وعملاً

يتميّز المؤمن المتّقي بقوته في دينه، والقوة في الدين، إما علمية أو عملية[3]، أما قوته العلمية والنظريّة، فهي أنّه يمتلك براهين قويّة تثبت دينه، ولا يبني اعتقاده على جرف هارٍ، ولهذا فهو لا يسقط أمام الشبهات والوساوس، وكذلك يمتلك قوة من الناحية العملية لجهة تمسكه بدينه، فهو لا يداهن ولا يماري على حساب دينه، ولا يتخلى عنه عند أول منعطف، بل يتمسك به رغم الاستهزاء والعنت، لا تأخذه في الله لومة لائم، كما قال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[المائدة: ٥٤]، وقد عرف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان صلب الإيمان، وقد رفض التراجع عن رسالته ودعوته ولو أعطوه ملك الدنيا.

---

(١) قال المعتزلي: «هذه الألفاظ التي أولها: «**قوة في دين**»، بعضها يتعلق حرف الجر فيه بالظاهر، فيكون موضعه نصبا بالمفعولية، وبعضها يتعلق بمحذوف، فيكون موضعه نصبا أيضا على الصفة»، **شرح نهج البلاغة**، ج١٠، ص١٥٠.

(٢) في هنا للظرفية، أي قوي في أمر الدين.

(٣) قال المازندراني: «أي له قوة نظرية وعملية فيه فيعلمه ويعمل به ويقاوم فيه الوسواس ولا يدخل فيه خداع الناس»، **شرح أصول الكافي**، ج٩، ص١٥٦.

ثانياً: علي عليه السلام وأصحابه كانوا أقوياء في دينهم

والصلابة في الدين، كانت ميزة عُرف بها أمير المؤمنين عليه السلام، فقد رفض المداهنة والتنازل والمساومة، وكانت المبدأية شعاره، والحق دثاره وحليفه، ولم يترك له الحق صديقاً ولا صاحباً، وهكذا كان أصحابه عليه السلام، فقد عُرفوا بالشدة والصلابة في ذات الله، يُقدَّمُ أحدهم للذبح بحدّ السيف ويُطلب منه أن ينجو بنفسه بسبِّ علي عليه السلام والبراءة منه فيرفض ويصبر على الذبح، كما جرى مع حجر بن عدي الكندي، وميثم التمار وغيرهما من أصحابه، ولم تكن الشجاعة في ذات الله حكراً على الرجال من أصحابه، فالنساء اللاتي تربين تحت منبره، قد تحلين أيضاً بالشجاعة والجرأة في قول كلمة الحق، كما هو الحال في سودة الهمدانية، والزرقاء بنت عدي بن غالب(١)، وغيرهما(٢).

---

(١) روى ابن طيفور: «قال: سمر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس امرأة كانت من أهل الكوفة وكانت ممن يعين علياً عليه السلام يوم صفين فقال لأصحابه: أيكم يحفظ كلام الزرقاء؟ فقال القوم: كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين؟ قال: فما تشيرون علي فيها؟ قالوا نشير عليك بقتلها؟ قال: بئس ما أشرتم علي به أيحسن بمثلي أن يتحدث الناس أني قتلت امرأة بعد ما ملكت وصار الأمر لي، ثم دعا كاتبه في الليل فكتب إلى عامله في الكوفة أن أوفد إلي الزرقاء ابنة عدي مع ثقة من محرمها وعدة من فرسان قومها ومهدها وطاء ليناً واسترها بستر حصيف، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فاقرأها الكتاب، فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إليّ لم أرم بلدي هذا وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بي، فحملها في هودج وجعل غشاءه حبراً مبطناً بعصب اليمن ثم أحسن صحبتها... فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحبا وأهلاً خير مقدم قَدِمه وافد كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت مسيرك؟ قالت: خير مسير كأني كنت ربيبة بيت أو طفلا ممهداً، قال: بذلكَ أمرتهم فهل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: سبحان الله أنى لي بعلم ما لم أُعَلّم وهل يعلم ما في القلوب إلا الله! قال: بعثت إليك أن أسألك ألست راكبةَ الجمل الأحمر يوم صفين بين الصفين توقدين الحرب وتحضين على القتال فما حملك على ذلك؟ قالت يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر (في ابن الأعثم: بقي) الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر، قال لها: صدقتِ فهل تحفظين كلامك يوم صفين؟ قالت ما أحفظه؟ قال: ولكني والله أحفظه لله أبوك لقد سمعتك تقولين: «أيّها النّاس إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن قصد المحجة فيا لها من فتنة عمياء صماء يسمع لقائلها ولا ينظار لسائقها. أيها الناس إنّ المصباح لا يضيء في الشمس وإنّ الكوكب لا يقد في القمر وإنّ البغل لا يسبق الفرس وإن الزف لا يوازن الحجر ولا يقطع الحديد إلا الحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه ومن استخبرنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكان قد اندمل شعب الشتات والتأمت كلمة العدل وغلب الحق باطله فلا يعجلنّ أحد فيقول: كيف وأنى ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ألا إنّ خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير في الأمور عواقباً، إيها إلى الحرب قدماً غير ناكصين فهذا يوم له ما بعده» ثم قال معاوية: والله يا زرقاء لقد شركت علياً عليه السلام في كل دم سفكه! فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير وسرّ جليسه، قال لها: وقد سرّك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سرني قولك، فأنى بتصديق الفعل، فقال معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أحب (في تاريخ دمشق: أعجب) من حبكم له في حياته، اذكري حاجتك، قالت: يا أمير المؤمنين إني قد آليت على نفسي أن لا اسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً ومثلك أعطى عن غير مسالة وجاد عن غير طلب، قال: صدقت فاقطعها ضيعة أغلتها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها وردّها والذين معها مكرمين»، **بلاغات النساء**، ص٣٢ ـ ٣٣، **وتاريخ مدينة دمشق**، ج٦٩، ص١٦٦.

(٢) تكلمنا عن هؤلاء النسوة الجليلات في كتاب: **المرأة في النص الديني**، فليراجع.

وهكذا لا بدّ أن يكون المؤمن ـ ولا سيما القائد ـ صلباً قوياً في ذات الله، قال عليه السلام: «**لاَ يُقِيمُ أَمْرَ اَللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلاَّ مَنْ لاَ يُصَانِعُ وَلاَ يُضَارِعُ وَلاَ يَتَّبِعُ اَلْمَطَامِعَ**»[١].

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٢٦.

(٢١)
وحزماً في لين[١]

وبياناً لهذه الصفة نشير إلى الأمور التالية:

أولاً: الحزم جدية وليس تجبراً

إنّ الإمام عليه السلام يؤكد أنّ شخصيّة المؤمن المتَّقي هي شخصية تتسم بالحزم المشوب باللّين، ولا يراد بالحزم هنا أن يكون ذا شخصيّة متجبّرة متكبّرة ومتعجرفة، فهذه ليست من سمات المؤمن في شيء، ومن الخطأ تربوياً أن يكون الأب والمربي ذا شخصية حديدية قاسية لا تعرف اللّيونة والحنان ولا تظهر على شفتيها الابتسامة، بحيث إذا دخل المربي أو الأب إلى غرفة الطلاب أو الأبناء يشعر الطلاب أو الابناء بالخوف وترتعد فرائصهم، وكأنهم أمام مستكبر ظالم.

وإنما الحزم هنا يعكس حالة الجدية التي فيها شيء من الوقار والهيبة، وذلك في مقابل الشخصيّة الهزليّة المتراخية الضعيفة التي يسهل التطاول عليها، وهذه السمة «الحزم مع اللين»، تحتاجها الشخصية القيادية وتحتاجها أيضاً الشخصية التربوية، فإن المربي لن ينجح إذا لم يتحلَّ بالحزم، بحيث كانت شخصيته ضعيفة، لأنها عند ذاك سيكون في معرض التطاول عليه. ولذا فالمطلوب منه أن يظهر الجدية والحزم في قراراته، بعد أن يكون قد درسها بدقة وعناية، وعليه أن لا يسمح بكسر تعليماته وتجاوزها، فمثلاً عندما تجعل وقتاً ملائماً ومناسباً لنوم الأطفال وتأمرهم بذلك فلا تراخى في تطبيق ذلك، وكل أمرٍ تصدره أظهر الجدية في تطبيقه.

---

(١) أي مع لين.

ثانياً: الحزم المشوب باللين

والتحلّي بالحزم لا يفترض أن يغيّب بعداً آخر في الشخصية القيادية والتربوية، وهو الرفق واللّين والحب، لهذا علينا أن نشفع الحزم باللين والرفق، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ٢١٥]، ويقول علي عليه السلام لمالك الأشتر لما ولاه مصر: «**وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، والْمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ، ولَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ**»(١).

(١) **نهج البلاغة**، ج٣، ص٨٤.

(٢٢)
وإيماناً في[1] يقين

الإيمان واليقين

وهذه الصفة مهمة جداً ونوضحها من خلال النقاط التالية:

أولاً: اليقين هو أعلى مراتب أهل الإيمان

لا يخفى أنّ الإسلام يُكتفى فيه بالانتساب الظاهري إلى الدين، وهو أعمّ من الإيمان، إذ قد لا يكون الإسلام راسخاً في النفس، ولذا ليس كل مسلم مؤمناً، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[الحجرات: ١٤]، وأما الإيمان فهو الاعتقاد الراسخ. والمؤمنون على مراتب، فهناك مؤمنون يكون إيمانهم ضعيفاً لا يبلغ مرحلة اليقين التام، وهناك مؤمنون يكون إيمانهم أقوى رسوخاً في الوجدان والقلب، وأعلى درجات الإيمان هي التي تبلغ حالة اليقين، وإيمان أهل التَّقوى هو كذلك، فهو ليس إيماناً عادياً بل هو من سنخ الإيمان الراسخ والذي بلغ درجة اليقين، ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْعَمَلَ الدَّائِمَ الْقَلِيلَ عَلَى الْيَقِينِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّه مِنَ الْعَمَلِ الْكَثِيرِ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ**»[2].

ثانياً: ثمرات اليقين

إنّ بلوغ اليقين هو الطموح الأسمى والغاية القصوى لأولياء الله، بل لكل إنسان يعي معنى أن يكون متيقناً، فاليقين:

---

(١) «أي كائناً في يقين، أي مع يقين»، راجع **شرح نهج البلاغة**، للمعتزلي، ج١٠، ص١٤٨.

(٢) **الكافي**، ج٢، ص٥٧.

أ ـ يجعلك تستقبل حوادث الزمان وتبدلات الدهر بصدر رحب، ومتقبلاً لما يصيبك في هذه الحياة، راضياً بما قسمه الله لك، غير متبرم بقضائه، ولا معترض على قدره، وقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**الرضا بمكروه القضاء من أعلى درجات اليقين**»[١]، والإمام الحسين عليه السلام وصل إلى هذه الدرجة العليا فرغم المصائب والنوائب التي نزلت عليه يوم العاشر، كان يقول: «هوّن ما نزل به أنه بعين الله»[٢].

ب ـ واليقين بما يمدك به من الاطمئنان يجعلك شخصاً متصالحاً مع نفسك ومع الناس كلهم.

ج ـ واليقين بما يمنحك من الاستقرار النفسي فهو يجعلك أكثر تركيزاً وأقدر على اتخاذ القرارات الصائبة في حياتك.

د ـ ومن أهم ثمرات اليقين أنه ينجيك من كل حالات الكآبة والقلق والأمراض النفسية التي تواجه الإنسان بسبب خوفه من الموت ومفارقة الحياة، أو مفارقة الشباب أو المال أو المنصب والجاه. وبالتالي فهو يغنيك عن عيادات الطب النفسي واستخدام العقاقير المهدئة.

ثالثاً: ما الذي يورث اليقين؟

إنّ أهم سؤال يشغل الإنسان المؤمن: كيف أصل إلى مرحلة اليقين؟

وهذا السؤال قد أجبنا عليه في محل آخر[٣]، وذكرنا أن ثمة طرقاً غير مشروعة يزعم أصحابها أنها توصل إلى اليقين، منها طريق بعض المتصوفة، ومنها غير ذلك، ولكننا قبل أن نحدّد ما هو الطريق الموصل إلى اليقين لا بد أن نؤكّد على أنّ أفضل وخير من يعيّن

(١) **التمحيص**، للإسكافي، ص٦٠، و**عيون الأخبار** لابن قتيبة، ج٢، ص٤٠٣.
(٢) **اللهوف**، ص٦٩.
(٣) راجع كتاب **مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم**، ص١٠٨، وما بعدها.

لنا هذا الطريق هو الله تعالى، فهو الأعلم بعباده وبنوازعهم وبما يوصلهم إليه وما يبعدهم عنه، وهو الذي يدلهم على ذلك، كما دلّ إبراهيم الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: ٧٥]، ولهذا لا مجال لاعتماد الطرق المبتدعة في العبادة، فهذه لا تقرب إلى الله ولا توصل إليه، بل إنها قد تبعد عنه جلّ وعلا، فعلينا سلوك طرق العبادة المشروعة، فهي التي توصل إلى اليقين، أكانت عبادة شعائرية، أو كانت عبادة تأملية وتدبريّة، فإنّ التدبر في آيات الله تعالى يقرب العبد من اليقين والاطمئنان، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

ولا بدَّ أيضاً من الالتفات إلى مفسدات اليقين ليتسنّى لنا اجتنابها، وعلى رأس ذلك يأتي الشك، فعن علي عليه السلام: «**الشك يفسد اليقين ويبطل الدين**»[١]، ومن هنا نجد أنّ علياً قال ـ فيما روي عنه ـ تعليقاً على تهجد الخوارج وعبادتهم: «**نوم على يقين خير من صلاة في شك**»[٢]، وممّا يفسد اليقين أيضاً مخالطة المنغمسين في الشهوات والمولعين بالدنيا، فعنه عليه السلام: «**خلطة أبناء الدنيا تشين الدين وتضعف اليقين**»[٣].

رابعاً: علي عليه السلام النموذج الأعلى لأهل اليقين

ولا يخفى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد وصل إلى الذروة في مسار أهل اليقين، وهو القائل: «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[٤]، ويقينه عليه السلام هذا قد تجلى في حياته، ويكفيك أنه لما ضربه عبد الرحمن ابن ملجم بالسيف على أم رأسه قال كلمته الشهيرة: «**فزت ورب الكعبة**»[٥].

وفي صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشخاص آخرون قد بلغوا مرحلة اليقين، ومنهم حارثة بن مالك، ففي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حارثة بن مالك بن النعمان فقال له: كيف أنت يا حارثة؟ فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصبحت مؤمناً حقاً! فقال**

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢١.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٢٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٤٢.
(٤) **الروضة في فضائل أمير المؤمنين** عليه السلام، ص٢٣٥.
(٥) **خصائص الأئمة** للشريف الرضي، ص٦٣، **مناقب آل أبي طالب**، ج١، ص٣٨٥.

له رسول الله ﷺ: **يا حارثة لكل شئ حقيقة فما حقيقة يقينك؟ قال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت ليلي، وأظمأت هواجري، وكأني أنظر إلى عرش ربي وقد وضع للحساب، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأني أسمع عواء أهل النار في النار، فقال رسول** الله ﷺ: **عبد نور الله قلبه للايمان، فأثبت، فقال: يا رسول الله ادعُ الله لي أن يرزقني الشهادة، فقال: اللَّهم ارزق حارثة الشهادة، فلم يلبث إلا أياماً حتى بعث رسول** الله ﷺ **سرية فبعثه فيها، فقاتل فقتل سبعة أو ثمانية ثم قتل**»[١].

(١) **المحاسن** للبرقي، ج١، ص٢٤٧، والكافي، ج٢، ص٥٤.

(٢٣)
وحرصاً في[1] علم[2] وعلماً في حلم

فأهل التَّقوى يحرصون على العلم والازدياد منه، أكثر من حرصهم على الذهب والفضة، وقد تقدم بيان ذلك في قوله «وأما النهار فعلماء حلماء»، فراجع.

والحديث عن الحلم قد سلف أيضاً، ولكن الإضافة التي اشتملت عليها هذه الفقرة أنّ المطلوب من المتَّقي «أن يمزج بالحلم العلم فلا يجهل ويطيش»[3].

(٢٤)
وقَصْداً فِي غِنًى

المتَّقي واقتصاد الأغنياء

فسّر بعض الشراح[4] هذه الفقرة بأحد تفسيرين كلاهما محتمل وله وجه:

الأول: أن يكون نظره ﷺ إلى أنّ المتّقي يجدر به أن يكون مقتصداً في طلب الغنى وتحصيل الثروة والمال، فيقنع ولا يكون طماعاً جشعاً حريصاً على الجمع والادخار، لأنّ كثرة الانهماك بطلب المال قد تُلهي الإنسان عن واجباته الدينية والاجتماعية،

---

(١) قال المعتزلي: «قوله: (وحرصا في علم)، حرف الجرّ هاهنا يتعلق بالظاهر، و(في) بمعنى (على) كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[طه: ٧١]»، **شرح نهج البلاغة**، ج١٠، ص١٥٠.

(٢) في **الكافي** «فقه» بدل علم.

(٣) **شرح نهج البلاغة**، لابن ميثم، ج٣، ص٤٢١.

(٤) قال العلامة الخوئي: «يحتمل أن يكون المراد اقتصاده في طلب المال وتحصيل الثروة، يعنى أنّه لا يجاوز الحدّ في كسب المال وتحصيل الغنى بحيث يؤدّى إلى فوات بعض ما عليه من الفرائض كما هو المشاهد في أبناء الدّنيا، وأن يكون المراد أنّه مع غناه مقتصد في حركاته وسكناته ومصارف ماله بل جميع أفعاله يعنى أنّ غناه لم يوجب طغيانه وخروجه عن القصد وتجاوزه عن الحدّ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٦ ـ ٧]»، **شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص١٣٦.

وتصبح الدنيا أكبر همه، وربما قصّر تجاه ربه، وضَعُفَ دينه وتأخر عن صلاته وعباداته، وغفل عن الاهتمام بتهذيب نفسه وإصلاح عيوبه. وحب الدنيا وزخارفها وأموالها إن لم نضعْ له حداً فإنه لن يقف عند حد، فإنّ «الدنيا كماء البحر كلما شرب منها الإنسان ازداد عطشاً»، وروي عنه ﷺ: **«لو كان لابن آدم واديان من مال لا تبغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»**(١)، فيكون طلب الثروة الزائدة معبراً عن حالة جشع غير مبررة، أو سبباً للابتعاد عن الله تعالى، بينما لو قنع بذاك المال الذي يؤمن له حاجياته وأموره، لبقي على خير، فالمال قد يكون سبباً للتكبر على الآخرين، وقد يؤدي بصاحبه إلى البطر والطغيان، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٦ ـ ٧]، أما المتَّقي فإنّ تقاه يحجزه عن ذلك، ويظلّ مقتصداً في صرفه متواضعاً في سلوكه مع الناس. وقد تكون كثرة المال سبباً لانحراف الإنسان، كما حصل مع ذلك الصحابي المعروف بثعلبة(٢).

الثاني: أن المقصود أن المتَّقي ومع أنه قد يكون غنياً ويطلب المال لكنّ غناه لا يجعله من أهل البطر والإسراف، فهو يقتصد في صرف المال، لأن صرف المال مسؤولية لا تقل عن مسؤلية جمعه، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين كسبه وفي ما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت»**(٣).

---

(١) **مسند أحمد**، ج٣، ص١٢٢، وزعم بعضهم أنّ هذا القول كان آية فنسخت تلاوتها، وهو زعم باطل.
(٢) انظر الملاحق ثعلبة وفتنة المال.
(٣) **الأمالي** للصدوق، ص٩٣، **والخصال**، ص٢٥٣، **والمصنف**، لابن أبي شيبة، ج٨، ص١٨٥.

(٢٥)
وخُشوعاً فِي عِبَادَةٍ

خشوع المتَّقين

وهذه علامة أخرى ومهمة جداً من علامات أهل التَّقوى والإيمان، ولا بأس بذكر بعض النقاط السريعة حولها:

أولاً: ما هو الخشوع؟

الخشوع يأتي بمعنى الخضوع والتذلل[١]، قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾[القمر: ٧]. قال الطبرسي في تفسير آية: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون: ٢] «أي: خاضعون، متواضعون، متذلِّلون، لا يرفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم، ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً»[٢]. وأكثر ما يتجلّى الخضوع والتذلّل في حالة العبادة، وفي الصلاة بالخصوص، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ٢]، وفي تفسير القمي ذكر أن الخشوع هو: «غضك بصرك في صلواتك وإقبالك عليها»[٣]. وفي مجمع البيان: «قال ابن عباس: خشع فلا يعرف من على يمينه، ولا من على يساره. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان رفع بصره إلى السماء في صلاته، فلما نزلت الآية طأطأ رأسه، ورمى ببصره إلى الأرض»[٤].

(١) كما ذكر الشيخ الطوسي في **التبيان**، ج٧، ص٣٤٨.
(٢) **مجمع البيان**، ج٧، ص١٧٦.
(٣) **تفسير القمي**، ج٢، ص٨٨.
(٤) **مجمع البيان**، ج٧، ص١٧٦.

ثانياً: موطن الخشوع

الأصل في الخشوع هو خشوع القلب، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦]، وسيأتي قوله ﷺ: «**خاشعاً قلبه**»، ومن القلب تنعكس حالة الخشوع على الجوارح، وقد وروي أنّ النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «**أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»(١)، قال الطبرسي: «وفي هذا دلالة على أن الخشوع في الصلاة يكون بالقلب وبالجوارح. فأما بالقلب فهو أن يفرغ قلبه بجمع الهمة لها، والإعراض عمّا سواها، فلا يكون فيه غير العبادة والمعبود. وأما بالجوارح فهو غض البصر، والإقبال عليها، وترك الالتفات والعبث. قال ابن عباس: خشع فلا يعرف من على يمينه، ولا من على يساره. وروي أن رسول الله ﷺ كان رفع بصره إلى السماء في صلاته. فلما نزلت الآية طأطأ رأسه، ورمى ببصره إلى الأرض»(٢).

ثالثاً: منشأ الخشوع

ما الذي يسهم في وصول العبد إلى حالة الخشوع؟

إنّ الخشوع «هو ثمرة التفكّر في جلال المعبود وملاحظة عظمته الَّذي هو روح العبادة»(٣). فكلّما عرف الإنسان ربّه أكثر وتأمّل في آيات جماله وجلاله خشع أكثر. إنّ التأمل يسهم كثيراً في تعميق حضور الله في النفس، والإحساس بجماله وعظمته، فيكون دافعاً للخشوع له.

إنّ أهل التَّقوى مع أنهم أقوياء وأعزاء أمام الخلق لكنهم أمام الخالق خاشعون لجلاله خاضعون لحكمه مسلمون لأمره، متعبّدون بشرعه، وعلى طرف النقيض من ذلك تكون عبادة المنافقين، فإنها عبادة ميتة لا روح فيها ولا خشوع ولا توجه، قال تعالى بشأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ١٤٢].

---

(١) **تخريج الأحاديث والأثار** للزيلعي، ج٢، ص٤٠٠.
(٢) **مجمع البيان**، ج٧، ص١٧٦.
(٣) **شرح نهج البلاغة** لابن ميثم، ج٣، ص٤٢٠.

(٢٦)
وتَجَمُّلًا(١) فِي(٢) فَاقَةٍ

المتَّقي والتجمّل

يهمّني عند هذه الصفة أن أشير إلى أمرين:

أولاً: معنى التجمل

التجمّل هو إظهار الجميل، وهو بمعنى التعفّف عند الفاقة والافتقار، والابتعاد عن الشكوى والتبرّم وكثرة السؤال وإظهار الحاجة، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٧٣]. وروي أنّ الآية نزلت «في أصحاب الصفة.. وهم نحو أربعمائة رجل، لم يكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر يأوون إليهم، فجعلوا أنفسهم في المسجد، وقالوا: نخرج في كل سرية يبعثها رسول الله»(٣).

ثانياً: التجمل والكرامة

إنّ الهدف من وراء إظهار التجمل والتعفف رغم أن العبد قد يكون في حاجة ماسة

---

(١) وفي نسخة «تحملاً»، هكذا وردت في **صفات الشيعة**، للصدوق، ص٢٢، **وروضة الواعظين**، ص٤٣٩، وظاهر ابن ميثم أنها تحمل، قال ابن ميثم: «التحمّل في الفاقة، وذلك بترك الشكوى إلى الخلق والطلب منهم، وإظهار الغنى عنهم. وذلك ينشأ عن القناعة والرضا بالقضاء وعلوّ الهمّة، ويعين على ذلك ملاحظة الوعد الأجلّ وما أعدّ للمتّقين» **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص٤٢٠.

(٢) **قال ابن أبي الحديد**: «قوله: «وتجملا في فاقة»، حرف الجر هاهنا متعلق بمحذوف، ولا يصح تعلقه بالظاهر، لأنه إنما يقال: فلان يتجمل في لباسه ومروءته، مع كونه ذا فاقة، ولا يقال: يتجمل في الفاقة، على أن يكون التجمل متعديا إلى الفاقة»، **شرح نهج البلاغة**، ج١٠، ص١٥١.

(٣) **مجمع البيان**، ج٢، ص٢٠٢.

هو حفظ عزة النفس وكرامتها، فالمتقون لا تهون عليهم أنفسهم، فلا يبذلون ماء الوجه بسهولة، ولا يتحمّلون ذلّ السؤال، فهم يحملون نفوساً أبية كريمة، ولذلك أحبهم الله تعالى، وفي مقابل هؤلاء ثمة أشخاص قد هانت عليهم نفوسهم وارتضوا المهانة وقبلوا ذل السؤال، وأظهروا المسكنة والبؤس والشكاية، وهذا عمل لا يحبه الله تعالى لعباده، لأنّ من هانت عليه نفسه تصبح رخيصة، بما يجعلها عرضة للبيع وللشراء حتى في سوق العمالة والخيانة، عن علي عليه السلام «**من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره**»[1]، ومع الأسف فإن بعض الناس يألف المذلة والهوان فيظهر الشكوى حتى وهو في صحة جيدة وحالة ميسورة، وهذه حالة مَرَضيّة تحتاج إلى علاج. ولا شك أن تربية الإنسان على التعفف والكرامة والعزة لها دور في محاصرة هذه الحالة أو الظاهرة الآخذة بالتزايد في هذه الظروف الاقتصادية الصعبة، فالله تعالى لا يريد للمؤمن أن يهين نفسه أو يذلها، فقد خلقه عزيزاً وقد اكتسب عزته من عزة الله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨]، ويحكى أنّ الأصمعي مرّ على كنّاس بالبصرة يكنس كنيفاً وهو يتغنّى ببعض الأشعار، ومن جملتها قوله متمثلاً:

«وأكـــرم نـفـسي إنـنـي إن أهـنـتـهـا وحـقـك لـم تـكـرم عـلـى أحـد بعدي

قال الأصمعي: فقلت له: واللَّه ما يكون من الهوان شيء أكثر مما بذلتها له، فبأيّ شيء أكرمتها؟ فقال: بلى! واللَّه إنّ من الهوان لشراً مما أنا فيه! فقلت: وما هو؟ فقال: الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس، فانصرفت عنه وأنا أخزى الناس»[2].

---

(١) **تحف العقول**، ص٤٨٣، و**عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٦٥.

(٢) **الكنى والألقاب** للقمي ج٢ ص٤٦٦، وراجع: **وفيات الأعيان**، لابن خلكان ج٥ ص٤٠١.

(٢٧)
وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ

تكلّمنا مفصّلاً عن الصبر وأهميته وآثاره وأقسامه عند شرح قوله ﷺ: «**صبروا أياما قليلة أعقبتهم راحة طويلة**»، فراجع.

(٢٨)
وَطَلَباً فِي حَلَالٍ

المتَّقون وطلب الحلال

إنّ طلب الرزق الحلال هو أمر نحتاج إلى التأكيد عليه دائماً ولا سيما في زماننا، ولهذا نقول في التعليق على هذه الفقرة:

أولاً: استسهال طريق الحرام

إنّنا نرى بأم العين كثيراً من الناس يستسهلون طريق الحرام، ويتذرعون بأنّ أبواب الرزق الحلال منسدة، وأنهم بحاجة إلى إطعام أبنائهم وعيالهم، فلا يهمّهم مصدر المال، أكان من الربا والقمار والغش والخداع والسرقة والاستدانة مع عدم السداد وبيع الممنوعات من الخمور والمخدرات أو غير ذلك، ولا يسعنا إلا أن نقول لهؤلاء إنّ هذا استسهال لأكل الحرام ولا مبرر له وهو أكلٌ للمال بالباطل، قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ** ﴾[النساء: ٢٩]، وأما التذرع بانسداد أبواب الرزق الحلال فهو تذرع باطل، فطرق الحلال ليست منسدة أبداً، بل إنّ سبلها مفتوحة على الدوام، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ**

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[النحل: ١١٤]. ولكن المسألة تحتاج إلى إرادة وقرار.

ثانياً: دوافع الإنسان لأكل الحرام

وإذا كانت أبواب الرزق الحلال مشرعة كما ذكرنا، فما الذي يدفع الإنسان إلى أكل المال الحرام يا ترى؟

إن لتطلع الإنسان إلى الكسب الحرام واستسهاله له أسباب، من أهمها:

منها: إنّ الطريق الحلال يحتاج إلى كدٍّ وتعب لا يوصل إلى الثراء والغنى بسرعة، كما يحلم الكثيرون، ممن يريدون المال دون تعب ولا كد ويبغون الثراء السريع، ولهذا فإنّ طريق الحرام من هذه الجهة أسهل وأيسر، ولكنه يبقى طريقاً محرماً، ويستوجب سخط الله تعالى وغضبه، بالإضافة إلى ما سيأتي من آثار.

ومنها: الطمع وعدم القناعة، فإنّ أكثر الذين يمدون أيديهم إلى المال الحرام، إنما دفعهم إلى ذلك الجشع والطمع أكثر مما دفعتهم الحاجة، فلو قنع الإنسان فإنه سيعيش حياته في راحة، وإذا سيطر الجشع على الإنسان فإنه يغفل عن الطريق الحلال ويستسهل الحرام، فالطمع يعمي ويصم صاحبه ويجعله يفكر في جمع المال ولا يفكر في السبيل إلى تحصيل المال!

قصة القُبرة والصياد

حكى الشعبي: «أنّ رجلاً صاد قبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشفي من قرم ولا أشبع من جوع، ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي، أما واحدة فأعلمك وأنا في يدك، وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة فإذا صرت على الجبل، قال: هات الأولى، قالت: «لا تلهفن على ما فاتك»، فخلاها، فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية، قالت: «لا تصدقن بما

لا يكون أنه يكون» ثم طارت فصارت على الجبل، فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالاً، قال: فعض على شفته وتلهف، وقال: هات الثالثة، قالت: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة؟! ألم أقل لك: «لا تلهفن على ما فاتك» و«لا تصدقن بما لا يكون أن يكون» أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالاً، ثم طارت فذهبت»(١). وبعد أن نقل الغزالي هذه الحكاية عقب عليها قائلاً: «وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون»(٢).

ثالثاً: عاقبة الحرام

إنّ عاقبة الحرام وخيمة في الدنيا قبل الآخرة، أما في الآخرة فينتظره الحساب والعقاب، عن علي عليه السلام: «**مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ وآخِرُهَا فَنَاءٌ، فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ**..»(٣). وأما في الدنيا، فلأنّ للحرام آثاراً تكوينية تظهر على الفرد وفي المجتمع، فالفرد الذي يأكل الحرام لن يكون إنساناً صالحاً، ولن يُبارك له في ماله، ولهذا يقول تعالى عن الربا: ﴿**يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ**﴾[البقرة: ٢٧٦]، والمجتمع الذي يأكل الحرام مجتمع فاسد ظالم ومعين للظلمة ومساعد لهم، إنّ الذين قتلوا الإمام الحسين عليه السلام كانوا قد أوغلوا بأكل الحرام، كما وصفهم الإمام الحسين نفسه عليه السلام: «**امتلأت بطونكم من الحرام**»(٤). ومن هنا أكد القرآن الكريم على ضرورة الاهتمام بالطعام، ﴿**فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ**﴾[عبس: ٢٤]، وفي الخبر الموثق عن **الإمام الصادق** عليه السلام: «**كسب الحرام يبيّن في الذرية**»(٥). والمجتمع الذي يأكل الحرام هو مجتمع لا يعرف التوازن ولا يملك استقامة، وكذلك الفرد، **قال تعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ

(١) **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، ج١٩، ص١٦٥.
(٢) **إحياء علوم الدين**، ج١٠، ص١٩، وراجع: **تهذيب الإحياء**، ج٦، ص٥٣.
(٣) **نهج البلاغة**، ج١، ص١٣٠، وفي الكافي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام «قَالَ: قِيلَ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: عِظْنَا وأَوْجِزْ فَقَالَ: **الدُّنْيَا حَلَالُهَا حِسَابٌ وحَرَامُهَا عِقَابٌ**..»، **الكافي**، ج٢، ص٤٥٩.
(٤) **بحار الأنوار**، ج٤٥، ص٨.
(٥) **الكافي**، ج٥، ص١٢٥.

يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[البقرة: ٢٧٥].

رابعاً: كيف يُطهّرُ المال الحرام؟

إنّ تطهير المال الحرام يكون بتخميسه إن كان مختلطاً[١]، أو الخروج منه بأجمعه إن كان كله حراماً، في الخبر عن عَلِيِّ بْن أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: «كَانَ لِي صَدِيقٌ مِنْ كُتَّابِ بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ لِي اسْتَأْذِنْ لِي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُ له عَلَيْه فَأَذِنَ له فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ سَلَّمَ وجَلَسَ ثُمَّ قَالَ جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنِّي كُنْتُ فِي دِيوَانِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فَأَصَبْتُ مِنْ دُنْيَاهُمْ مَالاً كَثِيراً وأَغْمَضْتُ فِي مَطَالِبِه فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: **لَوْلَا أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ويَجْبِي لَهُمُ الْفَيْءَ ويُقَاتِلُ عَنْهُمْ ويَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ لَمَا سَلَبُونَا حَقَّنَا ولَوْ تَرَكَهُمُ النَّاسُ ومَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا وَجَدُوا شَيْئاً إِلَّا مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ** قَالَ: فَقَالَ الْفَتَى: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَهَلْ لِي مَخْرَجٌ مِنْه؟ قَالَ: **إِنْ قُلْتُ لَكَ تَفْعَلُ** قَالَ أَفْعَلُ قَالَ لَه: **فَاخْرُجْ مِنْ جَمِيعِ مَا اكْتَسَبْتَ فِي دِيوَانِهِمْ فَمَنْ عَرَفْتَ مِنْهُمْ رَدَدْتَ عَلَيْه مَالَه ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ تَصَدَّقْتَ به وأَنَا أَضْمَنُ لَكَ عَلَى اللَّه عَزَّ وجَلَّ الْجَنَّةَ** قَالَ: فَأَطْرَقَ الْفَتَى رَأْسَه طَوِيلاً ثُمَّ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَمْزَةَ: فَرَجَعَ الْفَتَى مَعَنَا إِلَى الْكُوفَةِ فَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَى وَجْه الأَرْضِ إِلَّا خَرَجَ مِنْه حَتَّى ثِيَابَه الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَدَنِه، قَالَ: فَقَسَمْتُ لَه قِسْمَةً واشْتَرَيْنَا لَه ثِيَاباً وبَعَثْنَا إِلَيْه بِنَفَقَةٍ، قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَيْه إِلَّا أَشْهُرٌ قَلَائِلُ حَتَّى مَرِضَ فَكُنَّا نَعُودُه قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْه يَوْماً وهُوَ فِي السَّوْقِ، قَالَ: فَفَتَحَ عَيْنَيْه ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عَلِيُّ وَفَى لِي واللَّه صَاحِبُكَ. قَالَ: ثُمَّ مَاتَ فَتَوَلَّيْنَا أَمْرَه، فَخَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَالَ: **يَا عَلِيُّ وَفَيْنَا واللَّه لِصَاحِبِكَ** قَالَ: فَقُلْتُ: صَدَقْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ هَكَذَا واللَّه قَالَ لِي عِنْدَ مَوْتِه»[٢].

ولهذا علينا أن نعي ونقدر اللقمة الحلال، وأن نصبر على طلبها، أجل، إننا نحتاج إلى صبر وأناة في رحلة طلب الرزق الحلال.

---

(١) وقد ذكر ذلك الفقهاء بالتفصيل في كتاب الخمس، واستندوا إلى نصوص خاصة تدل على ذلك.

(٢) **الكافي**، ج٥، ص١٠٦.

(٢٩)
ونَشَاطاً فِي هُدًى

المتَّقون في خط الهداية

وتعليقنا على هذه العلامة أو الصفة لأهل التَّقوى سيكون من خلال الوقفات التالية:

أولاً: معنى الهداية

الهداية هي الغاية القصوى لأهل الإيمان، وقد جاءت رسالات السماء بمنظومتها العقدية والأخلاقية والتشريعية لتوصل الإنسان إلى هذه الغاية، وقد تكرر في الذكر الحكيم جملة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، لاحظ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف: ١٥٨]. إن المهتدي الحقيقي هو الإنسان الكامل والمتوازن معنوياً وأخلاقياً ومعرفياً، وهو الناجح عائلياً واجتماعياً.. فالهداية هي تلك الحالة التي تمنح الإنسان استقراراً على الأصعدة كافة، وعلى الإنسان في هذه الدنيا أن يسعى ليبقى في خط الهداية، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد: ١٧].

ثانياً: أقسام الهداية

الهداية الإلهية على نوعين:

١ ـ هناك الهداية التكوينية والمتمثّلة بتزويد الإنسان بضمير صاحٍ يؤنبه إذا دعته شهواته وغرائزه إلى ارتكاب الفواحش والمظالم، وهو ما يسميه القرآن بالنفس اللوامة، ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ٢]، وتزويده أيضاً بفطرة سليمة ترشده إلى طريق الخير، ومنحه عقلاً سديداً يميز به بين الحق الباطل، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد: ١٠].

٢ ـ وهناك الهداية التشريعيّة المتمثلة بإرسال الرسل والأنبياء عليهم السلام: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧]، وقد أرسل الله معهم الكتاب السماوي هدى ونوراً، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]. والوجه في تخصيص المتّقين بالهداية أنّهم هم الذين سوف يستفيدون عملياً من الهداية القرآنية دون غيرهم. إنّ الرسل هم عنوان الهداية، ووظيفتهم هي السعي في انتشال الإنسان من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور، ومطلوبٌ من الناس أن تقتدي بهم وتسير على هديهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].

المتَّقون هم أهل القرآن، يستنيرون به ويسيرون على ضوئه في ظلمات الحياة، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]، وأهل القرآن هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣].

ثالثاً: ما هو دورنا في الهداية؟

إنّ كثيراً من الناس يعتقدون أنه لا دور لهم في الوصول إلى الهداية وأنّ الأمر بيد الله تعالى، وهو جلّ وعلا قد كُتب لبعضهم أن يكونوا من المهتدين، وكُتب للبعض الآخر أن يكونوا من الضالين، ولا أحد يستطيع أن يغيّر ما جرى به القلم، ولذا عندما تعظ بعض الناس حتى ممن لا يؤمنون نظرياً بالجبر فتدعوه إلى الاستقامة وترك المنكر، يقول لك: «ادعُ لي بالهداية، إلى الآن لم يهدني الله تعالى»، وهذا الكلام الذي يحاول فيه أن يجد مبرراً لعصيانه ربما يحمل في طياته تصوراً خاطئاً، أو محاولة لإيجاد الأعذار الواهية، والحقّ في المسألة أن يقال: صحيح أنّ الهداية تحتاج إلى توفيق من الله تعالى، ولهذا نجد أنه كثيراً ما ينسب الهداية إليه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم: ٢٣] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[البلد: ١٠]، أي إنه تعالى جعل الإنسان في خط الهداية من خلال الفطرة السليمة والعقل السليم، ومن خلال الرسل الذين أوضحوا له السبيل، ولكن

الهداية الإلهية لا تكون بالإجبار، بل يبقى لاختيار الإنسان واستعداده وسعيه دور أساسي في الهداية والغواية، فمن كان مصراً على الغواية فلن يوفق لنور الهدى، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: ٣]، أي إننا أضأنا له الطريق لكن يبقى بيده أن يكون شاكراً أو كفوراً، وقال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾[الإسراء: ١٥]. وقد قال تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف: ١٣]. **باختصار**: إنّ الله تعالى هو من يهدي، ولكنه يهدي من أراد الهداية.

إنّ مسؤولية الإنسان أن يبقى في خط الهداية، أكانت هداية تكوينية أو تشريعية، ولكن مع الأسف فإن الإنسان يحاول جاهداً الخروج عن الهدايتين، وإطفاء نورهما، وهذا ما نراه اليوم متمثلاً بقضية الشذوذ الجنسي، فإنّ المسار الذي وصل إليه الغرب وأتباعه في النظرة إلى الشذوذ يعبّر عن خروجٍ واضحٍ عن خط الهدايتين التشريعية والتكوينية معاً، والسؤال: إلى أين يريد هؤلاءٍ أن يأخذوا الإنسان بهذا المسار؟ إنه عبث بالنواميس الإلهية، وتلاعب بالسنن الكونية، فالتزواج بين الذكور والإناث هو من السنن التي تحكم عالم المخلوقات الحية. وإذا أردتم تسويغ الرغبة المنحرفة بذريعة الحرية الشخصية ونفيتم أن يكون الشذوذ حالة مرضية، فلماذا لا تبيحون زنا المحارم أيضاً بالحجة نفسها؟ لماذا هذا مرفوض وذاك مقبول؟! هل يُعقل أن نسوّغ كل شهوة بذريعة الحرية؟ هل تقبلون بأن يمارس الإنسان العلاقة في الطريق العام وأمام الأطفال بحجة حريته الشخصية في إشباع الرغبة والغريزة كما يحلو له؟ هل تقبلون أن تمشي الناس عراة في الشارع بهذه الذريعة؟! هل يقبل ما تبقى من عقلكم الأخلاقي أن يمارس الإنسان العلاقة مع الأموات بحجة أنّ لدية رغبة في ذلك؟!

والغريب أنّ بعض الأصوات في بلادنا ارتفعت مؤيدة لهذا السلوك المنحرف، تأثراً بالغرب، نعم هو تأثرٌ بالثقافة الغربية ومحاكاة لها، وصدقوني لو أنّ الغربي والذي هو المثل الأعلى غير قناعته بعد مدة وأخذ يتحدث عن مساوئ الشذوذ ودعا إلى رفضه لرفضوه، فهم أمعة وتابعون.

رابعاً: السعي في خط الهداية

وعلى الإنسان أن يكون ساعياً على الدوام في خط الهداية، وذلك في مجالين:

الأول: هداية نفسه، لأنه مسؤول عنها بالدرجة الأولى، وقوله عليه السلام: «**ونشاطاً في هدى**»، يشير إلى هذا المجال، ومعنى «نشاطاً»، «خفة وإسراعاً فيه، وبعبارة أخرى: أن يكون سلوكه لسبيل اللَّه وإتيانه بالعبادات المشروعة الموصلة إلى رضوان اللَّه سبحانه بطيب النفس وعلى وجه الخفّة والسهولة لا عن الكسل والتغافل، وذلك ينشأ عن قضوّة اليقين فيما وعد اللَّه المتّقين من الجزاء الجميل والأجر العظيم بخلاف أهل الرّياء فانّه يكسل في الخلوة وينشط بين الناس»(١). وفي الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحب أن يُحمد في جميع أموره»(٢).

الثاني: مجال هداية الناس، والسعي في هذا المسار هو من أعظم الأعمال عند الله تعالى، في الخبر أنه يوم خيبر وبعد أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الراية لعلي عليه السلام قال له: «..**فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»(٣). وقد بقي هذا المعنى نصب عيني علي عليه السلام في كل حياته، فكانت هداية الناس هي أفضل أمانيه، قال عليه السلام: «**فَوَاللَّه مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً، إِلَّا وأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا، وإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا**»(٤).

وفي الحديث الموثق لفُضَيْل بْن يَسَارٍ قَالَ: «قُلْتُ لأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَوْلُ اللَّه عَزَّ وجَلَّ فِي كِتَابِه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢]؟ قَالَ: **مِنْ حَرَقٍ أَوْ غَرَقٍ**. قُلْتُ: فَمَنْ أَخْرَجَهَا مِنْ ضَلَالٍ إِلَى هُدًى قَالَ: **ذَاكَ تَأْوِيلُهَا الأَعْظَمُ**»(٥).

---

(١) **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص١٣٩.

(٢) **الكافي**، ج٢، ص٢٩٥.

(٣) **صحيح البخاري**، ج٤، ص٢٠٧.

(٤) **نهج البلاغة**، ج١، ص١٠٤، وهي جزء من خطبة له قالها وقد استبطأ أصحابُه إذنه لهم في القتال بصفّين.

(٥) **الكافي**، ج٢، ص٢١١.

(٣٠)
وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ

المتَّقون واجتناب الطمع

هذه العلامة وهي الابتعاد والتحرز عن الطمع علامة مهمة من علامات أهل التَّقوى، ولذا يجدر بنا التوقف عندها:

أولاً: منشأ الطمع

الطمع ينبثق عن حب الذات، وحب الذات من حيث المبدأ ليس أمراً سلبياً كما قد يتوهّم البعض، وإنما هو غريزة زرعت في الإنسان لغاية نبيلة، وكلُّ ما غرسه الله فينا لا يمكن أن يكون شراً، فحب الذات يدفع بالإنسان إلى حفظ نفسه وأبنائه وأرضه.. وحبّ الذات يدفعه إلى بذل المشاق من أجل تأمين لقمة العيش وتوفير الأمن، وما إلى ذلك، لكنّ غريزة حبّ الذات قد تتحوّل إلى آفة خطيرة عندما تستحوذ على الإنسان، وتتجاوز حدّ القناعة والكفاية. إنّ حب الذات المبالغ به سيقود إلى الطمع والجشع، فلا يُشبع نهم الإنسان شيء، بل كلما حصّل على شيء طمع بالمزيد، كما قال تعالى بشأن ذلك الطاغية: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾[المدثر: ١١ ـ ١٦].

في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ فيما نزل به الوحي من السماء: لو أنّ لابن آدم واديين يسيلان ذهباً وفضة، لابتغى إليهما ثالثاً..**»(١).

وثمة عوامل عديدة تساعد غريزة حب الذات على تجاوز الحد، ومن أهمها: الفقر والعوز والحرمان ولا سيما في الصغر، فإنه قد يخلق لديه ردة فعل نفسية تدفعه للجمع والادخار، ومنها أيضاً: عدم تربية النفس على القناعة.

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٤١٨.

ثانياً: الآثار السلبية للطمع

أ ـ **الأثر النفسي/ ذلّ النفس،** إنّ الطامع أسير شهوته، وحبيس طمعه، لذا فهو عبد الشهوة، وكم من شخصٍ يبدو حراً أمام الغير لكنه ذليل أمام أهوائه ومطامعه، فعن علي عليه السلام: «**الطمع رق مؤبد**»(١)، وعنه عليه السلام: «**الطمع رق، اليأس عتق**»(٢). ويقصد باليأس قطع الأمل عما في أيدي الآخرين، ومن تسترقه الشهوات فإنها تستذله. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**قرن الطمع بالذل**»(٣)، وإننا نرى الإنسان الطامع لا يتوانى عن إذلال نفسه، ليحصل على شيء من الفتات.

ب ـ **الأثر الفكري/عدم رؤية الحق،** إنّ الذي يتملكه الطمع فإنه يعميه ويصمه، لأن الطمع عندما يستبدّ بالإنسان يسيطر على تفكيره وعقله، فيشغله بما يمنعه من التفكير السليم، ولا يرى الخير عند الغير ولا يكتشف حتى طاقاته وإمكاناته، ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام: «**أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع**»(٤). ولذلك يفترض بالباحث والعالم والمفكر أن ينزهوا أنفسهم عن المطامع وإلا غدا فكرهم مسخراً في خدمة المطامع والأهواء، ولا يعود فكراً موضوعياً ولا متطلعاً للحقيقة. وإننا نرى بأم أعيننا أنّ الطامع بمنصب معين أو جائزة خاصة يُسخِّر فكره في خدمة السلطان الذي سيعطيه المنصب أو الجهة التي ستمنحه الجائزة.

ج ـ **الأثر الاجتماعي/ العدوان والجريمة،** والأثر السلبي الآخر لحالة الطمع هو تأثيره على المجتمع، حيث إنّه يستولد العداوات، ويستثير البغضاء، وقد يقود إلى الجريمة والسرقة. إنّ أكثر حالات الاعتداء والجريمة والسرقة لا تأتي من الفقر نفسه بل بما يستولده الفقر من الطمع والجشع، وقد لا يكون اللص فقيراً من رأس لكنّه أكثر طمعاً وجشعاً من الفقير، عن علي عليه السلام: «**ما هدم الدين**

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٤٢.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٩.
(٤) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٤٩.

مثل البدع، ولا أفسد الرجل مثل الطمع»[١]. لأن الطمع يدفع الإنسان إلى أكل حقوق الآخرين، أو المماطلة في أداء الحقوق، والمماطلة بغير مبرر، حرام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مطل الغني ظلم**»[٢].

وما تقدم يعني حكماً أنّ للطمع تأثيراً سلبياً على الدين، فمن اقترب من الطمع ابتعد عن الأخلاق ومن ابتعد عن الأخلاق ابتعد عن الدين، وهذا ما يجعلنا نعي مغزى كلام عليّ عليه السلام بحسب ما روي عنه: «**قليل الطمع يفسد كثير الورع**»[٣].

ثالثاً: في العلاج

وحيث إنّ منشأ هذه الآفة نفسي واجتماعي، فإنّ علاجها لا بدّ أن يكون باعتماد منهج تربوي أخلاقي، وهنا تظهر ميزة المنهج الإسلامي التربوي، فهو لا يعالج النتائج فحسب، بل يعالج الأسباب، فيعمل على تهذيب النفس وترويضها على القناعة والرضا بما قسم الله تعالى للعباد، عن الزّهري قال: «قال عليّ بن الحسين عليهما السّلام: **رأيت الخير كلَّه قد اجتمع في قطع الطمع مما في أيدي الناس**»[٤].

قصّة الفلاح الذي قتله الطمع

كان هناك فلاح يعيش في إحدى القرى، عاملاً عند شخص كريم منّ الله عليه بأرزاق كبيرة، وعقارات كثيرة، وقد عُرف عن الفلاح أنّه شخص طمّاع لا يشبعه شيء، وكان يطلب من المالك فيعطيه ولا يبخل عليه بشيء، ولكنّ طلباته لم تكن تقف عند حد، ومنها أنه طلب إليه عقاراً ليتملّكه فأعطاه، ولما لاحظ المالك أن طلبات هذا الشخص لا تقف عند حد أخذ يمتنع عن تلبية طلباته، وكان للمالك صديق فاستعان به العامل وشكى إليه ربَّ عمله، فعاتب هذا الصديقُ المالكَ على عدم إعطاء العامل بالرغم من فقره، فاستجاب المالك لصديقه وأعطاه، ثم عادت طلباته تتكرّر، فقطع عنه العطاء،

---

(١) **كنز الفوائد** للكراجكي، ص١٦٣.
(٢) **تحف العقول**، ص٢٦٧، **سنن الدارمي**، ج٢، ص٢٦١.
(٣) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٧٠.
(٤) **الكافي**، ج٢، ص١٤٨، و٣٢٠.

وعاود الشكاية، فأراد المالك أن يثبت لصديقه أن طمع العامل لا حد له، وأنه ليس بحاجة لما أعطيه لكنه الطمع، وصبيحة يوم من أيام الصيف الطويلة عرض المالك بحضور صديقه على العامل صفقة مربحة وفحواها أنني سوف أعطيك بمقدار ما تقطعه من الأرض مشياً أو ركضاً ولكن بشرط أن تعود للنقطة التي انطلقت منها قبل غروب الشمس، وما أن سمع الفلاح بالعرض حتى همّ بالركض، وبما أنّ العرض كان مغرياً نسي أن يأخذ معه الماء وبدأ في الجري سريعاً لتخطّي العديد من مساحات الأراضي. وقد تمكن فعلاً من قطع مسافات طويلة، وكلّما نظر إلى الوقت كان يقول لنفسه النهار طويل فلماذا أقف هنا، ويعاود الركض، حتى قطع مسافات طويلة جداً؛ حينما كان يشعر بالتعب فإنه كان يواصل مشيه حتى حانت فترة ما بعد الظهيرة، وكان يفعل ذلك لأنه لا يريد أن يخسر هذه الفرصة التي يرى أنها لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر؛ ثم في لحظة معينة أخذه العطش وتذكر أنه لم يحمل معه ماءً لكنه كان يقول لنفسه أنا شاب قوي وأستطيع التحمل ويعاود مواصلة الركض، ولم يستفق من سكرته إلا وقد شارفت الشمس على المغيب، ونسي أن طريق العودة يحتاج من الوقت مثل طريق الذهاب وأكثر، فاستدار ليعود إلى نقطة البداية، وهنا، أخذ يضاعف وتيرة الركض ليصل على الميعاد، فبدا كمن يسابق مغيب الشمس، فركض وركض، ولكن دون جدوى، كانت الشمس تسبقه وهو يحاول أن يضاعف من سيره ولكن العطش قد أخذ منه مأخذاً ضعيفاً فدب الوهن في جسده، وخارت قواه ولما وصل إلى مشارف نقطة الانطلاق سقط من الإرهاق والتعب وكان المالك وصديقه ينتظرانه ولكنه لم يعد لأنّ الموت كان أسرع إليه، وفارقت روحه الحياة، وكان كل ما يحتاجه في تلك الحال بعد أن أسلم الروح هو مجرد قطعة أرض صغيرة جداً كي يُدفن فيها. إنها خاتمة طبيعية للإنسان الذي يتملكه الطمع، فيعميه ويصمه ويودي به إلى الهلاك.

(٣١)
يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُوَ عَلَى وَجَلٍ

قد تقدّم هذا المضمون في قوله عليه السلام: «**ومن أعمالهم مشفقون**».

(٣٢)
يُمْسِي وهَمُّه الشُّكْرُ ويُصْبِحُ وهَمُّه الذِّكْرُ

المتَّقي بين الذكر والشكر

إنّ ثنائيّة الذكر والشكر هي معادلة عظيمة، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]. ونحن نعتقد أنّ الشكر هو مظهر من مظاهر الذِّكر، وأنّ الذِّكر أيضاً هو أعلى درجات الشكر لله تعالى، وإليك بيان ذلك:

أولاً: الشكر، معناه، فلسفته، وضرورته

الشكر مرتبة عظيمة لا يصل إليها إلا أهلها، وهي تعبّر عن وعي الإنسان وشعوره بما أنعم الله عليه. هناك أشخاص لا يرون نعم الله عليهم رغم وفرتها، ولذا تراهم غارقين في الاعتراض والشكوى والتبرم، وهم سلبيون يائسون يسلبون الفرحة من نفوس الآخرين، وكأنهم مصابون بداء العمى، لا يرون أنْعُم الله عليهم ولا يرون الجمال والجلال والروعة في كل ما حولهم. وهذه حالة مرضية، وإلّا لو كانوا أسوياء وكانت روحهم جميلة لرأوا الجمال، ولكنّ القبح غطى قلوبهم، فلا يرون إلا القبح، يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

أيهذا الشاكي وما بك داءٌ   كيف تغدو إذا غدوت عليلاً
وترى الشوك في الورود وتعمى   أنْ ترى الندى فوقها إكليلاً

أيــهـذا الــشــاكــي ومـــا بـــك داءٌ كــنْ جـمـيـلاً تـر الـوجـود جـمـيـلاً[١]

ولا يقف الأمر عند هذا الحد الذي يجعل الشاكين لا يرون نعم الله تعالى، بل يزيد الأمر على ذلك، فتراهم لا يقدرون الله حقّ قدره، ولا يعرفون حكمته في أفعاله، مع أنّ آثار حكمته وإبداعه بادية في كل شيء:

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـة تـــدلّ عـلـى أنـــه واحـــد[٢]

ومؤخراً[٣] أعلنت الناسا عن إطلاق تلسكوب جديد أظهر المجرات بطريقة بديعة وغير مسبوقة، وهو قادر على أنْ يحدد لنا الكوكب القابل للحياة من تلك الكواكب، والصور التي وصلت تظهر جمالاً وإبداعاً مذهلاً إلى حد أنك لا تملك إلا أن تسبّح بجلال المبدع الخلاق، مع أنّ ما كشفته الصور شيء ضئيل، إذ يقول أحد العلماء إنّ ما أظهرته الصور هو بحجم حبة الرمل التي يضعها الإنسان على طرف يده!

ومن هنا فإننا كلما اتسعت آفاقنا المعرفية أكثر أدركنا أهمية شكر الله وتنزيهه وتسبيحه أكثر فأكثر، ولأنّ نعمه وآيات جماله لا تحصى فهذا يعني أننا لسنا قادرين على شكره. إننا حقاً عاجزون عن شكر الله تعالى، لأننا محدودون ونعمه لا تحد ولا تعد ولا تحصى، فكيف للمحدود أن يشكر الكامل؟! ورد في المناجاة المنسوبة إلى سيدنا زين العابدين عليه السلام: «**فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر؟! فكلما قلت لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد**»[٤]. هذا لو كان شكره تعالى يؤدى باللسان، كيف والشكر لا بدّ أن يكون عملياً أيضاً، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**شكر المؤمن يظهر في عمله، وشكر المنافق لا يتجاوز لسانه**»[٥].

وقد تسأل: لماذا عليّ أن أشكر الله تعالى؟ وماذا ينتفع الله بشكري؟

---

(١) راجع **ديوان إيليا أبي ماضي**.

(٢) راجع: **تاريخ بغداد**، ج٦، ص٢٥١.

(٣) بتاريخ ١٢ / ٧ / ٢٠٢٢م.

(٤) من مناجاة الشاكرين، **بحار الأنوار**، ج٩١، ص١٤٦.

(٥) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٩١.

والجواب: إنّ شكر الله تعالى هو مظهر عرفانٍ بالجميل، والعقل يدرك حسن ذلك قبل أن يأمر به الشرع، وذلك انطلاقاً من حكمه (أي العقل) بحسن شكر المنعم، وتجدر الإشارة إلى أنّ الشكر لا يعود نفعه إلا إلى العبد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[لقمان: ١٢].

ثانياً: الذكر، مفهومه، وأبعاده

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢]. وفي الحديث عن أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**تَسْبِيحُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عليها السلام مِنَ الذِّكْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي قَالَ اللَّه عَزَّ وجَلَّ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾**»(١).

والذكر في حقيقته ليس ألفاظاً نرددها وكلمات نتلّفظ بها، وإنما حقيقة الذكر أن يكون الله حاضراً في قلبك بما يحجزك عن المحارم. إنّ ذكر الله يعني أن لا تنسى الله ولا تغفل عنه طرفة عين. الغافل عن الله ليس ذاكراً ولو كان لسانه يردد كلمات الذكر، ومن هنا نجد نسبة الذكر إلى القلوب في الآية القرآنية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد: ١٦]، وفي بعض أدعية الصحيفة السجادية: «**يا من ذكره شرف للذاكرين، ويا من شكره فوز للشاكرين، ويا من طاعته نجاة للمطيعين، صل على محمد وآله، واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر**»(٢).

وبناءً على ذلك، يمكن لك أن تحوّل حياتك كلها إلى ذكر وأن تكون على الدوام من الذاكرين، وقد ورد في دعاء كميل: «**أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة، وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة، حتى تكون أعمالي أورادي كلها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك**

(١) الكافي، ج٢، ص٥٠٠.
(٢) الصحيفة السجادية، ص٦٣.

سرمدا»[١]. وأن تكون أوقاتك كلها عامرة بذكر الله تعالى، لا يعني أن تجلس في مصلاك أو تحمل السُّبحة بيدك ليلاً ونهاراً وتسبح بحمد ربك وتذكره، كلا، فهذا ما لا يريده الله منك، وإنما الذكر أن يكون الله حاضراً في عقلك وقلبك في ليلك ونهارك، فتقدم رضا الله على رضا نفسك، إذا غضبت فلا يدفعك غضبك للخروج عن خط طاعة الله تعالى، وإذا أمكنك أن تنال الحرام من دون أن يراك العباد فذكرْ نفسك بأن الله يراك، وإذا فعلت معصية فعدْ إلى الله تعالى ولا تسمح للشيطان أنْ يمدّك في التمادي والطغيان والعصيان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

وإذا كان الشكر يعبّر عن تقديرك للنعمة الإلهية عليك، فإنّ الذكر يعبر عن وعيك لمدى حاجتك إلى الله تعالى والارتباط به، فذكرك لله تعالى لا يرفع من ملكه قيد أنملة وإنما يعود نفعه عليك، فيمنحك الأمن والسلام والطمأنينة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]، ذكرك لله يعني أن تسجل اسمك في سجل الذين يلحظهم الله بعطفه ويشملهم بعفوه ويرعاهم بعينه، ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[البقرة: ١٥٢]. ومن هنا تعرف أهمية الذكر، فلا تنظر إلى الأمر من زاوية أنه فرض عليك بل من زاوية أنه حاجة لك، فالذكر عيشٌ وحياة للقلب، «**مولاي بذكرك عاش قلبي**»[٢].

ثالثاً: لماذا يكون الشكر عند المساء والذكر عند الصباح؟

تضمنت الفقرة أعلاه أن الشكر يكون عند المساء والذكر عند الصباح فهل لذلك دلالة؟

والجواب: ربما كان السر في ذلك أنه عند المساء يكون المؤمن المتّقي قد رجع من يوم حافل بالعمل وتحصيل القوت ومؤنة العيال، لأن النهار مظان الحركة في سبيل

---

(١) دعاء كميل.

(٢) مصباح المتهجد، ص٥٩٢.

اكتساب الرزق، والحركة في هذا السبيل لا تخلو من المخاطر، ولذا ناسب أن يشكر الله تعالى على ما وفقه إليه من نعمه وإحسانه، وحراسته وحفظه، وأمّا عند الصباح فإنه يستقبل يوماً جديداً فيكون الأنسب استقباله بذكر الله تعالى، وذلك لأنّ المرء وعند خروجه من بيته صبيحة كل يوم جديد، فإنه يستقبل مختلف الناس من المؤمنين والفاسقين، ويتعرض للحلال والحرام، وذلك كلّه مظنَّة الانزلاق والسقوط فناسب أن يستهل يومه بذكر الله تعالى ليكون ذلك حصناً له ومعيناً في رحلته وحركته في هذا اليوم، ومن أجمل الذكر ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام عند الصباح والمساء: **«أَصْبَحْنَا وأَصْبَحَتِ الأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِجُمْلَتِهَا لَكَ: سَمَاؤُهَا وأَرْضُهَا، ومَا بَثَثْتَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، سَاكِنُه ومُتَحَرِّكُه، ومُقِيمُه وشَاخِصُه ومَا عَلَا فِي الْهَوَاءِ، ومَا كَنَّ تَحْتَ الثَّرَى أَصْبَحْنَا فِي قَبْضَتِكَ يَحْوِينَا مُلْكُكَ وسُلْطَانُكَ، وتَضُمُّنَا مَشِيَّتُكَ، ونَتَصَرَّفُ عَنْ أَمْرِكَ، ونَتَقَلَّبُ فِي تَدْبِيرِكَ. لَيْسَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ إِلَّا مَا قَضَيْتَ، ولَا مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَ. وهَذَا يَوْمٌ حَادِثٌ جَدِيدٌ، وهُوَ عَلَيْنَا شَاهِدٌ عَتِيدٌ، إِنْ أَحْسَنَّا وَدَّعَنَا بِحَمْدٍ، وإِنْ أَسَأْنَا فَارَقَنَا بِذَمٍّ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِه، وارْزُقْنَا حُسْنَ مُصَاحَبَتِه، واعْصِمْنَا مِنْ سُوءِ مُفَارَقَتِه بِارْتِكَابِ جَرِيرَةٍ، أَوِ اقْتِرَافِ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ وأَجْزِلْ لَنَا فِيه مِنَ الْحَسَنَاتِ، وأَخْلِنَا فِيه مِنَ السَّيِّئَاتِ، وامْلأْ لَنَا مَا بَيْنَ طَرَفَيْه حَمْداً وشُكْراً وأَجْراً وذُخْراً وفَضْلًا وإِحْسَاناً. اللَّهُمَّ يَسِّرْ عَلَى الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ مَئُونَتَنَا، وامْلأْ لَنَا مِنْ حَسَنَاتِنَا صَحَائِفَنَا، ولَا تُخْزِنَا عِنْدَهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِه حَظّاً مِنْ عِبَادِكَ، ونَصِيباً مِنْ شُكْرِكَ وشَاهِدَ صِدْقٍ مِنْ مَلَائِكَتِكَ»**(١).

هذا حال المتَّقي في الصباح والمساء، وعلى العكس من ذلك يكون الفاسق والمنافق، فإن همه الدنيا واللذة، في الخبر عن الإمام زين العابدين عليه السلام في بيان صفات المنافق: **«يُمْسِي وهَمُّه الْعَشَاءُ وهُوَ مُفْطِرٌ ويُصْبِحُ وهَمُّه النَّوْمُ ولَمْ يَسْهَرْ»**(٢).

---

(١) **الصحيفة السجادية**، من دعائه عليه السلام عند الصباح والمساء.

(٢) **الكافي**، ج٢، ص٣٩٦،

(٣٣)
يَبِيتُ حَذِراً ويُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ

المتَّقي بين الحذر والفرح

وبيان هذه الفقرة سيكون من خلال النقاط التالية:

أولاً: المتَّقي بين الحذر والفرح/ الخوف والرجاء

لماذا على المتَّقي أن يبيت حذراً ويصبح[١] فرحاً؟

والجواب: أنه ﷺ قد بيّن سبب كلٍّ من الحذر/ الخوف، والفرح/ الرجاء، أما الحذر أو الخوف فسببه ما حُذِّر من الغفلة ومن التقصير في جنب الله تعالى، وأما الفرح والرجاء فهو بسبب ما أصاب من فضل الله ورحمته، وما وفقه إليه من القيام بشكر الله تعالى وأداء فروضه وطاعته، وخدمة عياله.

إنّ مزج الإنسان المؤمن بين الخوف والرجاء وتردده في جميع حياته بينهما هو أمر ضروري لإيجاد نوع من التوازن بين متطلبات الدنيا والآخرة، لأنه لو عاش حياته كلها في حالة من الخوف فقط فهو قد يقع في فخ إساءة الظن بالله تعالى وبعظيم رحمته وواسع مغفرته، وبالغ عفوه، بل إنّ هذا سيجعله ينكفأ على نفسه وينعزل عن الناس مخافة أن يقصِّر في مسؤولياته العائلية والاجتماعية وأن يقع في الحرام نتيجة حركته في المجتمع والسوق، ولهذا فهو بحاجة ـ بجنب الخوف ـ إلى أن يبقى على أمل ورجاء

---

(١) قال الشارح الخوئي: «الظاهر عدم القصد إلى تخصيص الحذر بالبيات والفرح بالصّباح، وإنّما المراد أنّه يبيت ويصبح جامعا بين وظيفتي الخوف والرّجا، فعبّر عن الخوف بالحذر وعن الرّجاء بالفرح لكونه موجبا للفرح والسرور» **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص١٤٢. وما قاله قريب وحسن.

برحمة الله، كما أنّه ـ من الجهة الأخرى ـ لو عاش حياته متكئاً على الأمل برحمة الله تعالى وسعة عفوه، كما يفعل كثيرون، فهذا قد يدفعه إلى الاستهتار والتقصير في جنب الله تعالى، ويجرؤه على المعصية، لأنّ الأملَ خادعٌ للنفس ويوقعها في فخ التسويف وإمهال التوبة وتأخير العمل، باختصار: نحن بحاجة إلى أن نعيش ـ إلى جانب الخوف ـ الأمل برحمة الله تعالى، وهو عند ظن عبده به، في الخبر عن النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي إنْ ظنّ بي خيراً فله، وإن ظنّ شراً فله**»[١]. يروى أنه «دخل ﷺ على رجلٍ من أصحابه، وهو يجود بنفسه، فقال: **كيف تجدك؟** قال: أجدني أخاف ذنوبي، وأرجو رحمة ربي. فقال ﷺ: **ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجاه، وأمَّنَه ممّا خافه**»[٢].

ثانياً: الأمل طاقة إيجابية في حياتنا

وعلينا أن نشير هنا إلى أننا كما نحتاج إلى الأمل في ما يتّصل بعلاقتنا مع الله تعالى، فنحن نحتاج إليه في حياتنا بشتى أبعادها وجوانبها، فعندما نعيش حياةً صعبة فلا يجوز أن يسيطر علينا اليأس من تغيّر ظروفنا إلى الأحسن، أكانت ظروفاً سياسية أم حياتية أم اجتماعية.

إنّ ثقافة الأمل هي ثقافة إسلامية قرآنية، وذلك:

أولاً: إنّ اليأس هو قرين الكفر، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، لأن اليائس لا ثقة له بالله تعالى.

ثانياً: إنّ الأمل هو الوسيلة التي تعين الإنسان على النهوض والتغيير، في الحديث عنه ﷺ: «**إنما الأمل رحمة من الله لأمتي، لولا الأمل ما أرضعت أم ولداً، ولا غرس غارس شجراً**»[٣].

---

(١) **مسند أحمد**، ج٢، ص٣٩١.
(٢) **شرح نهج البلاغة**، للمعتزلي، ج١٠، ص١٥٥.
(٣) **الجامع الصغير**، ج١، ص٣٩٠.

(٣٤)
إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْه نَفْسُه فِيمَا تَكْرَه، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ

المتَّقي ومحاسبة النفس

في هذه الفقرة يتطرق الإمامعليه السلام إلى موضوع محاسبة النفس، وقبل التطرق إلى مضمون الفقرة، لا بأس بإلفات النظر إلى مسألة المحاسبة وضرورتها وأهميتها.

أولاً: الحاجة إلى المحاسبة

إنّ من أخطر أمراض الإنسان داءَ الغفلةَ عن معايب النفس ونواقصها، ولذا ترانا مشغولين بكل شيء عن أنفسنا، مشغولين بإحصاء عيوب الناس بدل إحصاء عيوبنا وزلاتنا بهدف إصلاحها، ولا نحب أن يوجه إلينا أحدٌ نقداً، ونمارس أحياناً حالة من الهروب والإنكار، وتواجهنا الابتلاءات ولكننا نتغافل عن أخذ الدروس، وكأنّ المرض لن يدخل إلى أجسادنا، وكأن الموت على غيرنا كتب، وإنّ من أعظم وساوس الشيطان ومصائده لنا هو دفعنا باتجاه تغافل ذنوبنا ونسيانها واستصغارها واستحقارها، وهذا التغافل يجعلنا نزداد غياً وننغمس في المعاصي أكثر دون أن نشعر، فماذا يحتاج الإنسان للخروج من حالة الغفلة؟

إنّه يحتاج إلى أن يعمل ما أودعه الله تعالى في داخله من طاقة عظيمة، تدفعه نحو الخير وتأمره بالمحاسبة، وهذه الطاقة هي الضمير أو النفس اللوامة، قال تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة: ٢]، إنّ وجود هذه النفس اللوامة مؤشر على أن الإنسان قابل للإصلاح وأما إذا انطفأت ولم تؤنب صاحبها فهذا مؤشر على دخوله في حالة من الإعجاب بالنفس.

ثانياً: أهمية المحاسبة

إنّ المحاسبة هي التي تخرجنا من حالة الغفلة، وتدفعنا نحو التغيير لما هو الأفضل، لا يمكنك أن تتحسن بدون المحاسبة، إن أهمية المحاسبة أنها: تمنع التقهقر وتضع حداً للتراجع من جهة، وأنها ـ من جهة أخرى ـ تجعلك في حالة يقظة روحية واستزادة على المستوى المعنوي، فمن لم يشعر بنقاط ضعفه فلن يسعى إلى تقويتها.

ولهذا فإنّ على المؤمن أن يكون في حالة جهاد مع النفس الأمارة وغرائزها، ليهذبها ويحملها على الأفضل، هو في حالة مساءلة مستمرة للنفس، أين أصبت؟ وأين أخطأت؟ هل هذا العمل صائب؟ هل يقرّبنا من الله تعالى أم يبعدني عنه؟ ماذا قدّمتُ لغدي؟ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الحشر: ١٨]. إنّ هذه المساءلة الذاتية ترمي إلى إيقاظنا، وتهدف إلى تحريك مكامن الخير في نفوسنا.

والمفترض بالمحاسبة أن تكون دأباً لنا وحالة مستمرة، فلا تنقطع أبداً، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْمَاضِي عليه السلام وهو الكاظم قَالَ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَه فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَإِنْ عَمِلَ حَسَناً اسْتَزَادَ اللَّه وإِنْ عَمِلَ سَيِّئاً اسْتَغْفَرَ اللَّه مِنْه وتَابَ إِلَيْه**»(١).

ثالثاً: علاجٌ لحالة استعصاء النفس على المحاسبة

ولكن قد تواجه الإنسان مشكلة في هذا المجال، وهي أن نفسه تستعصي على المحاسبة، ويصعب عليه الإقلاع عن هواه وشهواته أو الحد من غفلته ونزواته، وهو على الرغم من التفاته في بعض الأحيان إلى خطأه لكن العادة تَحُول دون تمكّنه من التغيير، وتأبى نفسه التأدب نفوراً وكراهية، لإحساسها بثقل الأمر. في الفقرة التي هي محل الكلام يطرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حلّاً لهذه المعضلة، وهو أنْ عليه في هذه الحالة أن لا يركن إلى نفسه بل يسعى لإيقاظها من نوفة الغافلين، وذلك بحرمانها ممّا تحبّ، كأن يقول لنفسه مثلاً: إنْ أنا لم أستيقظ لصلاة الصبح فسوف أصوم النهار تأديباً للنفس وزجراً لها، وإنْ أنا اغتبت مؤمناً فلن آكل الطعام الفلاني الذي يستطيبه مدة شهر، وهكذا..

(١) الكافي، ج٢، ص٤٥٣.

(٣٥)
قُرَّةُ عَيْنِه فِيمَا لَا يَزُولُ وزَهَادَتُه فِيمَا لَا يَبْقَى

المتَّقي وتنظيم الأولويات

إنّ هذه الصفة تشير إلى اهتمام المتّقي بما هو أولوية له، وتوضيحاً لهذه الصفة نقول:

إنّ ترتيب الأولويات هو من علامات نجاح الإنسان في حياته، فالتاجر لن ينجح إن لم يحدد ما هي أولوياته التجارية، وكذلك غيره من أصناف الناس، واختلال سلم الأولويات عند الإنسان يؤشر على فشل وضياع، وقد يكون سبباً لتبديد العمر فيما لا نفع فيه، ومن هنا نجد أن القرآن والسنة يعلماننا أن نحدد الأولويات ونهتم بها ونتحرك على ضوئها، وإليك بعض الأولويات التي يؤكد الإسلام عليها:

١ ـ **العقيدة قبل الشعائر**: يستفاد من القرآن الكريم أنّ الإيمان أهم وأولى من الأعمال الشعائرية، قول تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾[التوبة: ١٩]. والآية تدل أيضاً على أن الجهاد أهم من الأعمال الشعائرية، وهذا طبيعي لأن الجهاد يحمي المجتمع ولولاه لما أُقيمت الشعائر.

٢ ـ **الأسس الفكرية قبل الهوامش**، وفي الاهتمامات الفكرية والثقافية والتاريخية لا بدّ أن يركز على ما يثري عقله ويغني تجربته، بدل أن ينشغل في الهوامش والأمور الجزئية، يروى أنّه «دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم إلى مسجده، فإذا جماعة قد أطافوا برجل فقال: **ما هذا؟** فقيل: علامة فقال: **وما العلامة؟** فقالوا له: أعلم

الناس بأنساب العرب ووقائعها، وأيام الجاهلية، والأشعار العربية، قال: فقال النبي ﷺ: **ذاك علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه، ثم قال النبي ﷺ: إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل**»(١). أقول: وما أكثر الفضول والهوامش في أبحاثنا الفلسفية والكلامية والأصولية والفقهية والتاريخية!

٣ ـ **بين الدنيا والآخرة**: وعلى الإنسان في هذه الدنيا أن يحدد أولوياته على ضوء إيمانه وعلى ضوء نظرته لهذه الدنيا، فإذا كانت الدنيا هي نهاية المطاف، فعليه أن يجعل الاهتمام بالدنيا غايته وأولويته، ولكن إذا كانت الدنيا هي محطّة على طريق الآخرة فعليه أن يصبّ جل اهتمامه على ما يؤمن مستقبله الأخروي دون أن ينسى نصيبه الدنيوي، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[القصص: ٧٧].

وعلى ضوء هذا نفهم كلمته عليه السلام أعلاه، حيث يذكر أنّ «**قرة عينه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى**»، فالمتّقي قد يأخذ ببعض أعراض الدنيا التي لا بقاء لها، بيد أنّ مصب اهتمامه والذي يحرص عليه كل الحرص هو ما يبقى ولا يزول، ولكن ما هو الذي يبقى؟ وكيف يبقى؟ والجواب: إنه يبقى ببقاء أثره الطيب عند الله وعند عباد الله، فعند الله يبقى الأثر الذي سيجازى عليه في جنان الخلد، وأما عند عباد الله فيبقى ببقاء ذكره الحسن، وما هو كذلك هو العمل الصالح فهو الذي يبقى، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦]. وكذلك العلم النافع، فإنه يبقى ببقاء أثره ودوام ثوابه، يقول عليه السلام في مقارنة يعقدها بين العلم والمال: «**يَا كُمَيْلُ هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وهُمْ أَحْيَاءٌ ـ والْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ـ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ**»(٢).

---

(١) **الكافي**، ج١، ص٣٢.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٣٦.

(٣٦)
يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِـالْعِلْمِ والْقَوْلَ بِـالْعَمَلِ

شعار المتَّقي: قولنا والعمل

تقدم حديث عن مزج الحِلم بالعلم عند التعليق على قوله: «**وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ**» فلا نكرر، وأمّا مزج القول بالعمل فهو إشارة إلى ضرورة أن يكون القول مقروناً بالعمل.

أولاً: انفكاك القول عن العمل مظهر نفاق

تمتاز الشخصيّة الإسلاميّة بأنها شخصية لا تعرف انفصاماً بين ما تقول وبين ما تعمل، ولهذا فهي لا تمتدح شيئاً من أفعال الخير ثم تفعل على خلافه، فتأمر بما لا تأتمر وتنهى عما لا تنتهي. إنّ من يمتدح الصدق والأمانة لا بدّ أن يحرص على أن يكون كذلك في فعاله، ومن ينزعج من الآخرين إذا أخلوا بعهودهم والتزاماتهم معه، فعليه أن لا يقع في المحذور نفسه، وقد ورد الحديث الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام: «**عِدَةُ الْمُؤْمِنِ أَخَاه نَذْرٌ لَا كَفَّارَةَ لَه، فَمَنْ أَخْلَفَ فَبِخُلْفِ اللَّه بَدَأَ ولِمَقْتِه تَعَرَّضَ وذَلِكَ قَوْلُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾**[الصف: ٢ ـ ٣]»(١).

وتعد بعض النصوص هذه الحالة مظهراً من مظاهر النفاق، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: « أظهر الناس نفاقاً مَنْ أمر بالطاعة ولم يعمل بها ونهى عن المعصية ولم ينته عنها»(٢).

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «**إنّ المنافق ينهى ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي**»(٣).

(١) **الكافي**، ج٢ ص٣٦٤،
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١٢٢.
(٣) **الكافي**، ج٢، ص٣٩٦.

ثانياً: الداعية وأهمية مطابقة قوله لعمله

وتحرص التربية الإسلامية حرصاً بالغاً على أن يكون المربّي والرسالي والداعية ممن تكون فعالهم مطابقة لأقوالهم، وذلك كي ينجحوا في عملهم ورسالتهم، لأن هؤلاء في موقع القدوة، والناس تتأثر بالأفعال أكثر مما تأثر بالأقوال والتنظيرات، قال الشاعر:

يا أيها الرجل المعلّمُ غيرَه ألا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام لذي الضنى ومن الضنى هذا وأنت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم[1]

إن الأب الذي لا يجد غضاضة التدخين بمحضر أولاده كيف سيصغي ولده إليه عندما ينهاه لاحقاً عن فعل التدخين، وإن الأم التي تنهى ابنتها عن رمي القمامة في الطريق لن تأخذ ابنتها بنصيحتها إذا كانت الأم تقوم بالسلوك عينه الذي تنهى ابنتها عنه، وعلى هذا فَقِسْ.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج٣٤، ص١٥٩.

(٣٧)
تَراه قَرِيباً أَمَلُه

المتَّقي والأمل

توضيحاً لهذه الفقرة نذكر النقطتين التاليتين:

أولاً: الأمل والإيمان

الأمل حاجة ماسة للإنسان، وإذا فقد الأمل فسوف يعيش حالة من الإحباط ويتسلل إليه الكسل والإهمال، ويسيطر عليه اليأس فيدمر حياته، وربما دبّ الوهن في جسمه وقضي عليه، ولذا كان اليأس قرين الشرك، ويعطينا القرآن الكريم نموذجاً رائعاً عن الأمل الذي عاشه نبيّ الله يعقوب عليه السلام، فإنّه ورغم طول غيبة ابنه يوسف عليه السلام وبعده عنه دون أن يعرف عنه شيئاً ظلّ متمسكاً بحبل الأمل، وقال لأولاده: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، إن ما يجمع اليأس بالكفر هو أن اليأس يعبّر عن قلة ثقة بالله تعالى، والكفر يعبّر عن إنكار وجوده أو التشكيك فيه. وقد أجاد الطغرائي في التعبير عن هذا المعنى في لاميّة العجم:

أُعلّل النفسَ بالآمالِ أرقِبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأَمَلِ[1]

ثانياً: طول الأمل

ومن مصاديق الأمل الممدوح: الأمل بمغفرة الله تعالى، وقد عدّ اليأس من روحه

---

(١) وفيات الأعيان، ج٢، ص١٨٧.

ورحمته ومغفرته كبيرة من الكبائر، لأنه يجعل العبد يوغل في المعاصي، أجل، لا بدَّ أن يكون الأمل برحمة الله وغفرانه ضمن الحدود، فلا يطول ويمتد، لأن طول الأمل يعني التسويف في التوبة، ويقود إلى الجرأة على الله تعالى، ومن هنا ورد في النصوص ذمّ طول الأمل، فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**»(١). وفي هذا السياق جاءت كلمة علي عليه السلام بشأن المتَّقي أنه «**قريباً أمله**»، قال المجلسي: «أي لا يأمل ما يبعد حصوله من أمور الدنيا أو لا يأمل ما يتوقف حصوله على عمر طويل، بل يعد موته قريبا والحاصل أنه ليس له طول الأمل أو لا يؤخر ما يريده من الطاعة ولا يسوف فيها»(٢).

(١) **نهج البلاغة**، ج١ ص٩٣.
(٢) **بحار الأنوار**، ج٦٤، ص٣٨٢.

(٣٨)
قليلاً زللـه

المتَّقي وقلّة الزلل

وممّا يتّصف به المتَّقي أنه قليل الزلل، وتوضيحاً لهذه الصفة نقول:

أولاً: المتَّقي وقلة الزلل

لماذا يقلّ زلل المتَّقي؟ الجواب إن مردّ ذلك إلى «تيقظه وأخذه بالحائطة لدينه»[(١)]، وبعبارة أخرى: إنه يسير وفق قانون: اعمل لآخرتك كأنك ميت غداً، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. ويلاحظ أنّ علياً عليه السلام لم يقل منتفياً أو معدوماً زلله، لأن هذا لا يكون إلا في المعصوم، وإنما قال: قليلاً، فهو قد يزلُّ وهذا طبيعي في البشر، ولكن تقواه تجعل زلله قليلاً، ولو قال الإمام عليه السلام منتفياً زلله لقلنا: هذا وصف غير مقدور عليه ولا يسعنا تحقيقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١]، إن هذه الآية تريد أن تقول لنا أن المتَّقين يتعرّضون لوساوس الشيطان وتسويلاته، ولكنّ التَّقوى توقظهم من الغفلة وتمنعهم من التمادي في المعصية.

ثانياً: كيف نقلل الزلات والأخطاء؟

إن تقليل الأخطاء والزلّات لا بدّ أن يكون هدفاً أقصى للمؤمن، فما السبيل إلى ذلك؟

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٤، ص٣٨٢، ومرآة العقول، ج٩، ص٢٢٠.

أ ـ المراجعة النقدية بأن تبقى النفس اللوامة حية فعالة، وإذا كانت النفس اللوامة حاضرة، فإنها كفيلة بإنقاذ الإنسان من السبات، وإذا توقفت النفس اللوامة فهذا يعني أنّ الإنسان قد فَقَدَ صمام الأمان.

ب ـ إن أحد الطرق المساعدة على تخفيف الزلل هو تقليل الأمل، وذلك بأن ننظر بواقعية إلى الدنيا، فندرك عندها أنّها عالم مؤقت وسوف نغادره عاجلاً أم آجلاً، ونحن وكل من عليها إلى زوال، وأنت أيها المغتر بجسمك وصحتك وعمرك اعْلَم: أنّ كل يوم يمرّ عليك يموت بعضك فيه، يموت بعض من خلاياك أو بعض من عمرك أو بعض من قوّتك وطاقتك. قال الشريف الرضي:

راحــل أنــت والـلـيـالـي نـزول ومـضـر بـك الـبـقـاء الـطـويـل[1]

ج ـ دراسة أسباب وقوعنا في الزلّات، فهل هو الغضب والعصبية؟ أم هو غليان الشهوة؟ أم هو رفقة السوء؟ إن معرفة الأسباب تعين في العلاج.

ثالثاً: السفور نموذج معاصر للزلل

إنّ الزلل الذي يتحدث الإمام﵇ عن ضرورة السعي إلى تخفيفه لا يراد به الزلل الديني الذي يتصل بالعلاقة مع الله تعالى فحسب، بل هو شامل للزلل الاجتماعي، وللزلل الاقتصادي، والزلل الثقافي، وهو الأخطر.

ولنأخذ مثالاً للزلل من واقعنا، فنحن نلاحظ اليوم مظهراً من مظاهر الزلل وهو خلع الحجاب عند بعض البنات المسلمات، وأنا أعتقد أنه من الخطأ أن نقتصر في تفسير ظاهرة خلع الحجاب بكون هؤلاء البنات لا دين ولا تقوى لهن وأنهن فاسقات.. بل لا بد أن ننظر إلى المسالة من منظار واسع وأن ندرس أسباب هذا السلوك، فإنه وفي ظل فضاء ثقافي يبشر بالحرية الشخصية بمفهومها الغربي وفي ظل هيمنة الثقافة الغربية

(١) ديوان الشريف الرضي، ج٢، ص١٦٨.

الاستهلاكية التي عملت على تسليع المرأة، وفي ظل هيمنة الآخر بنماذجه النسائية في الإعلام والتمثيل.. فهل عملنا بما فيه الكفاية لإقناع بناتنا بضرورة الحجاب، أم أنّ البعض يفكّر فقط بصورته الاجتماعية؟! هل عملت مجتمعاتنا الإسلامية على تقديم نماذج نسائية رائدة تجعلهن مثلاً أعلى لهذا الجيل من الفتيات؟ إنّ علينا أن نقدم نماذج نسائية ناجحة في السياسة وفي الفن وفي الرواية وفي القصة، وأن لا نكتفي بالتغني بالماضي وأمجاده، وعند ذلك سنجد أن الحجاب يصبح جاذبا ليس للمسلمات فحسب بل لغيرهن أيضاً. أتعلمون أن اللغة العربية كانت ذات يوم لغة العلم والثقافة، لكن لماذا تراجع حضورها؟ لا لأنها لم تعد صالحة للمواكبة كما يتخيّل البعض، كلا بل لأنّ أهلها لم يعودوا يثقون بها، ولم يعملوا على تطويرها، هانوا فهانت لغتهم، وهانوا فَفَقَدَ أبناؤهم الثقة بأنفسهم.

(٣٩)
خاشعاً قلبه

لقد أسلفنا الحديث عن سمة الخشوع في المتَّقي، راجع فقرة «خشوعاً في عبادة».

(٤٠)
قانعة نفسُه

المتَّقون والقناعة

في موضوع القناعة نشير إلى النقطتين التاليتين:

أولاً: تصحيح فهم خاطئ بشأن القناعة

القناعة هي القبول بالحال وعدم تطلب المحال، وتنشأ القناعة من الرضا بقضاء الله[١] وقدره والركون إلى حكمته تعالى في قسمة الأرزاق، ولكن ثمة تفسير أو فهم خاطئ للقناعة، فكثيرٌ من الناس يخالون أن القناعة تعني الاستسلام للظروف وهو ما يورثهم فائضاً من الكسل والتراخي فيتركون العمل ويلجأون إلى مد اليد للناس، إن القناعة لا تعني ذلك، ولا تعني ترك التطلّع إلى الأفضل، ولا تعني عدم السعي إلى تغيير حياتك إلى ما هو أحسن. فاسعَ وخططْ وابذل الجهد لتغيير حياتك وابدأ بالعمل ولو كان ميسوراً، فإنّ الصبر عليه أفضل من ذل التسول، بل الصبر على العمل قد يفتح لك كنوز الدنيا، وذلك إذا أحسنت السعي وبذل الجهد.

وبناءً على ما ذكرنا، يتضح أنّ القناعة ليست ـ كما يروج بعض المعادين للدين ـ خطاباً تخديرياً، يلجأ إليه «رجال الدين» لإسكات الفقراء وفكّ أو فلّ عزائمهم كي لا يتحركوا في وجه السلطات الفاسدة والظالمة، كلا، فهذا ليس من الدين في شيء، إنّ الدين يدعوك ـ ما دمت فقيراً ـ إلى رفع صوتك في وجه الظالمين لا الركون إليهم،

(١) راجع حول مفهوم القضاء والقدر في الملاحق.

وهذا ما دفع الإمام الحسين عليه السلام إلى الثورة على يزيد، جاء في تاريخ الطبري: «أنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: **أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لِحُرَم اللَّه، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله، ألاّ وإنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله وأنا أحقُّ مَنْ غيّر**»[1].

ثانياً: أثر القناعة على النفس والمجتمع

إنّ القناعة علاج للكثير من مشكلاتنا، فهي تجعل الإنسان يربح نفسه ويحفظ كرامته ويفوز برضا ربه:

أ ـ **القناعة والاستقرار النفسي والاجتماعي**: القناعة هي الطريقة المُثلى للحياة السعيدة، فلو امتلكت مال الدنيا ولم تكن قانعاً فأنت إنسان مضطرب وغير مستقر نفسياً واجتماعياً، وإذا ملكت القليل ووفقت للقناعة، فأنت أغنى الناس، إذن القناعة تمنح الإنسان استقراراً نفسياً واجتماعياً.

ب ـ **القناعة وتحصين الإنسان من الطريق الحرام**: وأهم ما في الأمر أن يربح رضا الله، لأن عدم القناعة تضطره إلى مد يده إلى الحرام.

ج ـ **القنوع يربح كرامته وعزته**: وذلك لأن من لا يقتنع سوف يذلّ نفسه ويمدّ يده، روى سَالِم بْنِ مُكْرَم عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**اشْتَدَّتْ حَالُ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَتْ لَه امْرَأَتُه لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم فَسَأَلْتَه فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَلَمَّا رَآه النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاه ومَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاه اللَّه فَقَالَ الرَّجُلُ مَا يَعْنِي غَيْرِي فَرَجَعَ إِلَى امْرَأَتِه فَأَعْلَمَهَا فَقَالَتْ إِنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم بَشَرٌ**

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٢.

فَأَعْلِمْه فَأَتَاه فَلَمَّا رَآه رَسُولُ اللَّه ﷺ قَالَ مَنْ سَأَلَنا أَعْطَيْنَاه ومَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاه اللَّه حَتَّى فعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ ثَلَاثاً ثُمَّ ذَهَبَ الرَّجُلُ فَاسْتَعَارَ مِعْوَلاً ثُمَّ أَتَى الْجَبَلَ فَصَعِدَه فَقَطَعَ حَطَباً ثُمَّ جَاءَ بِه فَبَاعَه بِنِصْفِ مُدٍّ مِنْ دَقِيقٍ فَرَجَعَ بِه فَأَكَلَه ثُمَّ ذَهَبَ مِنَ الْغَدِ فَجَاءَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَبَاعَه فَلَمْ يَزَلْ يَعْمَلُ ويَجْمَعُ حَتَّى اشْتَرَى مِعْوَلاً ثُمَّ جَمَعَ حَتَّى اشْتَرَى بَكْرَيْنِ وغُلَاماً ثُمَّ أَثْرَى حَتَّى أَيْسَرَ فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَعْلَمَه كَيْفَ جَاءَ يَسْأَلُه وكَيْفَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قُلْتُ لَكَ مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاه ومَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاه اللَّه»[1].

ولهذا لا نبالغ إذا قلنا أنّ القنوع أغنى الناس، ومن أوتي القناعة فقد أوتي حظاً عظيماً.

وعلى الإنسان أن يدرب نفسه وعياله على القناعة، وربما كان الأسلوب النافع في ذلك هو أن يلاحظ حياة المعدمين، وأن يُري عياله وأبناءه مَنْ هم أشدّ فقراً منهم.

(١) الكافي، ج٢، ص١٣٩.

(٤١)
منزوراً أكلُه

المتَّقون وأكل الطعام

في بيان هذه الفقرة نقول:

أولاً: القصد في الطعام والشراب

إنّ الطعام والشراب حاجة لجسد الإنسان كما هو معلوم، ويباح له أن يأكل من أزكى الطعام ويشرب من أحسن الشراب، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[الأعراف: ٣٢]، ولكنّ التمتع بملذات الدنيا والأخذ منها بقدر الحاجة أمر، وأن تصبح الدنيا أكبر همنا أمر آخر. ومن هنا ذكر عليه السلام من صفات المتَّقي أنه «**منزوراً أكلُه**»، أي قليلاً، من النزر، وهو القليل، والقلة لها حدّ شرعي وهو أن لا يكون ثمة نقص لشيء ممّا يحتاجه الجسد أو إضرار به، فالمراد بالقلة الابتعاد عن التخمة، لأنها مرض بل أساس كل الأمراض، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ﴾[الأعراف: ٣١].

ثانياً: أضرار التخمة

والتخمة كما هو بديهي في زماننا هي سبب للكثير من الأمراض ومنشأ الكثير من الأضرار:

منها: أضرار صحية، فالتخمة توجب السُّمنة وغيرها من الأعراض والأمراض، إذ

من المعلوم أن «**المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء**»[١]، كما قال رسول الله ﷺ، وقد قال علي عليه السلام: «**كم من أكلة منعت أكلات**»[٢]، وفي أيامنا هذه يبذل كثير من الناس الأموال الطائلة للأطباء وأخصائيي التغذية والنوادي الرياضية في سبيل تنحيف أجسادهم، والتخفيف من السمنة ومخاطرها، لأنّ أمراض القلب والسكري وغيرها هي من آثار التخمة وكثرة الطعام وعدم اتباع الحمية. هذا ناهيك عن أن النحافة تُطلب لأغراض جمالية أيضاً ولا سيما من قبل النساء.

منها: أضرار روحيّة، فهي توجب غفلة القلب، وتحول دون نشاط النفس في مجال السمو الروحي، في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب، فإنّ القلوب تموت كالزروع إذا كثر عليه الماء**»[٣]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إياكم والبطنة فإنّها مقساة للقلب مكسلة عن الصلاة**»[٤]. وفي وصايا لقمان الحكيم: «**إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة**»[٥].

وقد تقدم سابقاً ما له صلة بهذه الفقرة، راجع قوله: «**وأجسادهم نحيفة**».

---

(١) **الخصال**، ص٥١٢، **وعلل الشرايع**، ج١، ص٩٩، **وتخريج الأحاديث والآثار** للزيلعي، ج١، ص٤٥٩.

(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٤٢.

(٣) **مكارم الأخلاق**، ص١٥٠ وعنه **بحار الأنوار**، ج٦٣ ص٣٣١، وشرح **نهج البلاغة** لابن أبي الحديد ج١٩ ص١٨٧.

(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١٠١.

(٥) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، ج١ ص٨٦، **وتنبيه الخواطر وتنزيه النواظر** (مجموعة ورّام)، ج١ ص١٠٠.

(٤٢)
سهلاً أمرُه

المتَّقون وسهولة التعامل مع الآخرين

وهذه الصفة من الصفات الجميلة في المجال الاجتماعي، فالمتَّقي في علاقاته مع الناس لا يتصرف بشكل رسمي ومفرط في الجدية، بحيث يحسب له الآخرون ألف حساب، وإنما هو إنسان عفوي ويتصرف بشكل تلقائي وعلى سجيته، ولهذا فهو لا يتكلف ولا يحتاج أن تتكلف له، إنّ مشكلة بعض الناس أنه شخص معقد، ما يجعلك في حالة توتر في علاقتك معه، فإذا طلب زيارتك فإنك تعيش في حالة قلق، لأنه قد لا يعجبه بيتك أو طعامك، ما يضطرّك إلى أن تتكلف له، وأيضاً إذا زرته في بيته فتكون في حالة توتر، كيف سيستقبلك وبماذا تخاطبه وماذا تلبس أمامه؟ ومن تصطحب معك؟ لأنك لا تدري ردات فعله، إنّ مثل هذا الشخص هو متعب وقد يكون مريضاً، والأولى أن لا يتخذه الإنسان صديقاً، وقد روي عن علي عليه السلام: «**شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَه**»[١]، الأخ الحقيقي هو الذي لا يثقل كاهل أخوانه ولا يوجب عنتهم ومشقّتهم، ولهذا توصي العديد من الأخبار بعدم التكلّف للضيف، ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تكلفوا للضيف**»[٢]، وفي الخبر «أنّ الحارث الأعور أتى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك أحبّ أن تكرمني بأن تأكل عندي، فقال له على أمير المؤمنين عليه السلام: **على أن لا تتكلّف شيئاً**»[٣].

ولمزيد من التوسع حول مفهوم التكلف راجع ملاحق الكتاب.

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١١٠، وقال الرضي: «لأن التكليف مستلزم للمشقّة وهو شرّ لازم عن الأخ المتكلّف له فهو شرّ الإخوان».

(٢) **الجامع الصغير**، للسيوطي، ج٢، ص٧٤٤، **وتاريخ مدينة دمشق**، ج١٣، ص١٢٦.

(٣) **المحاسن**، ج٢، ص٤١٥.

(٤٣)
حريزاً دينُه

المتَّقي والعناية بدينه

وتعليقاً على هذه الفقرة فإننا نسجل النقاط التالية:

أولاً: أصناف الناس إزاء الاهتمام بالدين

إنّ الناس في أمر العناية بالدين شريعة وعقيدة على أصناف:

فهناك من يستهينون بأمر دينهم، بحيث إنّ استقامة الدين وسلامته عندهم ليست أمراً مهماً ولا تعني لهم شيئاً، ولهذا لا يبالون لا بصلاةٍ ولا بصيام ولا بتقى ولا باجتناب المال الحرام، ولا بغير ذلك من أحكام الدين وشعائره.

وهناك صنف آخر يحرص على دينه ولكن حرصه عليه يأتي في المرتبة الثانية من اهتماماته، ولذا فهو عند أول منعطف يكون مستعداً للتخلي عن دينه، وكما قال سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام: «**الناس عبيد المال والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا فحصوا بابتلاء قل الديانون**»[1].

وفي مقابل ذينك الصنفين، يبرز أمامنا المتَّقي كشخص يولي أمر دينه أهمية خاصة واستثنائية، فهو يجعل دينه في حرز، بمعنى أنه يحفظ دينه بأشد ما يحفظ به ذهبه وماله، فلا يفرط في دينه لأجل دنياه، ولا يكون دينه عنده هيناً لأنه أغلى ما لديه، في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال لكميل بن زياد فيما قال: «**يا كميل أخوك دينك، فاحتط لدينك**

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج٢، ص٢٠٠، وتحف العقول، ص٢٤٥.

بما شئت»(١)، وعندما يكون الدين أو الإيمان راسخاً في النفس والوجدان والسلوك فمن الطبيعي أن لا يتخلّى عنه الإنسان عند أول منعطف أو تحدٍ، ولذا إذا دار الأمر بين دينه أو ماله، فلا يضحّي بدينه لحفظ ماله، وإذا دار الأمر بين دينه وعلاقاته الاجتماعية فرعاية دينه أولى.

ثانياً: شعار علي عليه السلام: أفي سلامة من ديني؟

وقد قدّم لنا أمير المؤمنين عليه السلام أنموذجاً يحتذى على هذا الصعيد، فقد كان لا يرى في القتل أو الموت أو البلاء مصيبة ما دام ذلك في سلامةٍ من دينه، وكان شعاره في غير موطن عندما يُخبَر بأنه سيواجه المصاعب: «أفي سلامة من ديني؟»، فقد قالها عندما أخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيقتل في شهر الصيام(٢)، وقالها عندما أخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سيلقى بعده عنتاً وظلماً(٣)، وفي موضع آخر عدّ عليه السلام قتله في رضا الله وسلامة الدين من مواطن الشكر لا الصبر، يقول عليه السلام وهو يتحدث عمّا جرى بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «.. **فَقُلْتُ: يَا رَسُولُ اللَّه أَولَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي: أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ، فَقَالَ لِي: إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ولَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى والشُّكْرِ**»(٤).

---

(١) **الأمالي** للمفيد، ص٢٨٣، **والأمالي** للطوسي، ص١١٠.

(٢) ففي الرواية أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «كأني بك وأنت تصلي لربك، وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقة ثمود، فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك. قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقلت: يا رسول الله، وذلك في سلامة من ديني ؟ فقال: في سلامة من دينك»، **الأمالي**، للصدوق، ص١٥٥.

(٣) روى الحاكم النيسابوري بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ: أما إنك ستلقى بعدي جهداً، قال: في سلامة من ديني؟ قال: في سلامة من دينك» ثم أضاف: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، **المستدرك على الصحيحين**، ج٣، ص١٤٠.

(٤) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٥٠.

(٤٤)
مَيِّتَةً شَهْوَتُه

المتَّقي والتعامل مع الشهوات

وقوفاً عند هذه الصفة لنا بعض التعليقات:

أولاً: الشهوات حاجة لنا

إنّ الشهوات مخلوقة فينا، وهي ليست دنساً، كما يُخيّل إلى البعض، فنحن لدينا شهوة الأكل والشرب والعلاقات الجنسية وحب المال، وهذه الشهوات حاجة لنا ولاستمرار حياتنا، وما إلى ذلك، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤]. لقد كتبت في مجال آخر[١] أنّ الغريزة في منطق الإسلام ليست دنساً، وإنّما هي طاقة خير، وهي المحفّز لبقاء النسل الإنسانيّ، وليس في تحريكها وإشباعها ما يُعيب، بل لا يبتعد المسلم عن عبادة الله إذا حرّك الغريزة فيما يرضي الله تعالى، ويحقّق رغباته، إنّ الرجل الذي يشبع غريزة زوجته فإنّه له بذلك الأجر والثواب عند الله، في الوقت الذي نال فيه اللّذة المحلّلة، وهكذا الحال للمرأة التي تُشبع غريزة زوجها.

ولهذا قد تسأل: عن معنى قوله ﵇ ميتة شهوته؟! وكيف يخلقها الله فينا ويطلب منّا أن نميتها؟!

والجواب: إنّ المطلوب ليس أن نميت الشهوة بقلعها أو قمعها أو كبتها كما يفكر

---

(١) **مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم**، ص٢١١، وما بعدها.

البعض. إنّ قوله ﷺ: «**ميتة شهوته**»، لا يراد به أن يكون الإنسان بلا شهوة، بل موت الشهوة يعني أنّه يطفؤها من خلال الحلال.

ثانياً: عبد الشهوة وعبد الرق

بيد أنّ بعض الناس مع الأسف في إشباعه لشهواته المحللة يتجاوز الحدود كله، فتقوده شهواته، فهو يقدم حبّ الشهوات وإشباعها على ما عداه حتى تنسيه ذكر الله تعالى، وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم باتباع الشهوة، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩] ، إذن هذا هو المبغوض، أما أن يحرِّك شهوته وفق المنهج الأخلاقي والشرعي المتوازن، فهذا لا محذور منه، وهنا يكون العبد هو القائد لغرائزه وشهواته، والمحرك لشهواته.

إنّ إنسانيتنا تفرض علينا أن نكون أحراراً في مواجهة النفس الأمّارة بالسوء، فلا نخضع لشهواتنا عندما تدعونا إلى معصية الله تعالى، ولا ننقاد لغرائزنا التي تريد أن تستذلّنا وتسترقنا. فإنّ العبوديّة للشهوات والمطامع والغرائز، لا تقلّ هواناً عن العبودية للسلاطين والمستكبرين، فعن عليّ ﷺ: «**عَبْدُ الشهوة أذلّ من عَبْدِ الرقّ**»(١)، وعن أمير المؤمنين ﷺ: «**لا يسترقنك الطمع وقد جعلك الله حرّاً**»(٢)، بل إنّ الحريّة والعزّة في مواجهة الظالمين والمستكبرين، لا يصنعها إلّا من كان حرّاً في مواجهة أطماعه ونفسه الأمّارة بالسّوء، والتي تدعوه إلى الدعة والسلامة، أو الجلوس على التلّ في مواقع الصراع والتحدّي.

بكلمة أخرى: كما أنّ المطلوب منك أن لا تنقاد وراء الشهوات المحرمة، فإنّه يطلب منك أن لا يكون الانغماس في الشهوات ولو كانت محللة هو غاية وجودك في هذه الدنيا، الشهوات حسبما عبرت الآية هي زينة الدنيا، هي متاعها، ولا ينبغي أن يشغلنا متاع الدنيا عن متاع الآخرة، فنستغرق في ملاحقة شهواتنا ورغابتنا، وننسى زاد الآخرة، يقول علي ﷺ: «**فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا**»(٣).

---

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٣٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٢٨.

(٣) **نهج البلاغة**، ج٣، ص٧٢.

(٤٥)
مَكْظُوماً غَيْظُه

الغضب أسبابه ونتائجه وسبل علاجه

الغيظ هو حالة الغضب[١] التي تعتري الإنسان، ولأن موضوع الغضب مهم جداً لا بدّ أن نتوقف عند هذه الحالة، لنتساءل: ما هو الغضب؟ وما هي مناشئه ودوافعه؟ وما هي آثاره الوخيمة؟ وما هو علاجه؟

١ - الغضب سكر وجنون

الغضب حالة انفعال تعتري الإنسان عندما يُستفز بقول أو فعل، فيتصرف بطريقة خاطئة، وحالة الانفعال في حد ذاتها كصفة نفسية ليست قبيحة فهي صفة جبلية يقتضيها طبع الإنسان، وقد أودعها الخالق فيه لمصالح شتى، أهمها أنّها تحرّك الإنسان وتخلق عنده الحافز للعمل، وتدفعه ليرفض الذل والهوان. إنها صفة مهمة للإنسان وممدوحة فيه، شريطة أن يوجهها التوجيه الصحيح، أما إذا تملّكه الانفعال وسيطر عليه وأفقده توازنه وقاده إلى حيث لا يريد فعندها يقع في المحذور.

ونلاحظ أنّ الغضب الذي يُفقد الإنسان السيطرة على نفسه ويفقد توازنه هو ضرب من الجنون، في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**الحدّة ضرب من الجنون، لأنّ صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم**»[٢]، والإنسان عندما يتملكه الغضب يغدو كالسكران لا يعرف ماذا يفعل، قال الشاعر:

---

(١) في اللغة «أن الغيظ هو الغضب، وقيل: الغيظ غضب كامن للعاجز، وقيل هو أشد من الغضب، وقيل هو سورته وأوله..»، **لسان العرب**، ج١٠، ص١٥٨.

(٢) **نهج البلاغة** ج٤ ص٥٦.

أغضب صديقك تستطلع سريرته للسّر نافذتان السكر والغضب
ما أفصح الحوض عما في قرارته من راسب الطين إلاّ وهو مضطرب

٢ - الغضب مفتاح كل شر / عواقب الغضب

إنّ بعض الناس يحاول أن يبرر اندفاعته إلى حالة الغضب، بحجة أنه يريد شفاء غيظه وبحسب التعبير الشعبي يقول: «بدنا نفش خلقنا» أو «دعه يفش خلقه»، وتعليقنا على ذلك: أنّ من المفترض بالعاقل أن يتأمل في نتائج الغضب الذي يتمكن من الإنسان ويفقده السيطرة على نفسه، فإذا اتضح أن عواقبه وخيمة لا يغدو لمحاولات التبرير أي معنى، ويغدو جلياً أنّ القضية ليست «فشة خلق»، وإليك أخطر العواقب التي تنتج عن حالة الغضب:

أ ـ هو يخرّب العلاقات الاجتماعية بين الناس، فالإنسان عندما يغضب فإنّه يعادي ويحقد، وقد يؤدي ذلك إلى التفكك الأسري وخسران الأصدقاء، والغضوب والذي لا يملك نفسه عند غضبه قد يندفع للعنف فيضرب زوجته أو يهينها، وهي قد لا تصبر على هذا الوضع فتطلب الطلاق من زوجها. كم من أسرة تدمرت بسبب الغضب الذي أدى بالزوج إلى تجاوز الحدود! وعلى ذلك فقس.

ب ـ وهو يخرب علاقته مع الله تعالى، فقد يبلغ الغضب ببعض الأشخاص حدّ أن يتجرّأ على الله تعالى، فيكفر به أو يعترض على قضائه وقدره، أو يتطاول على الحرمات والمقدسات، ومن هنا ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الغضب مفتاح كل شر**»[(١)]. ومن خسر الله فذلك الخسران المبين.

ج ـ ومن أبرز عواقب الغضب: آثاره على الغاضب نفسه، فهو قبل أن يضرّ غيره فإنّه يضر نفسه، ولا يجني إلّا عليها صحياً ونفسياً، وهذا ما نرصده في حالة التوتر والاضطراب التي يعيشها الغاضب وتؤثر على أعصابه واستقراره النفسي، وهكذا

(١) الكافي، ج٢ ص٣٠٣.

فإنّه يؤذي نفسه على الصعيد الاجتماعي حيث إنه قد ينكفأ على نفسه ويعيش العزلة، وتتحاشاه الناس وتبتعد عنه اتقاء شره، ولذا لا غرابة إن عاش هذا الإنسان فقيراً واجتنبه الناس، قال علي عليه السلام: «**سبب العطب طاعة الغضب**»[1].

باختصار: إنّ الحدّة والغضب يصادران عقل الحكيم ويذرانه يتصرّف كالمجنون، ولهذا فإن كل من يحترم عقله لا بدّ له أن لا يسمح لحالة الغضب أن تسيطر عليه تماماً كما لا يسمح للخمرة أن تذهب به.

٣ - مناشئ الغضب

للغضب دوافع كثيرة ومناشىء عدّة:

فهناك العوامل الاجتماعية، فالإنسان الذي يعيش في أجواء الفقر والقهر والمرض والمعاناة يكون معرضاً أكثر من غيره للوقوع في فخ الغضب وحبال الغيظ.

وهناك العوامل التربوية، فإنّ التربية إن كانت صحيحة ساعدت على الحدّ من سورة الغضب، وأما إن كانت خاطئة فإنها سوف تزيد من حالات الانفعال والغضب.

وهناك العوامل النفسية، فلو درسنا شخصيّة الإنسان الذي يعتريه الغضب لوجدنا أنّه يعاني من مشكلة نفسية، فهو نتيجة إعجابه وغروره بنفسه وإحساسه بالتفوق على الغير تراه يغضب إذا كلّمه الآخرون بكلام نقدي يرى أنّه لا يليق بمكانته وتفوقه، وقد روي أنّ الحواريين سألوا عيسى بن مريم: «وما بدء الغضب؟ قال: **الكبر والتجبر ومحقرة الناس**»[2].

وقال أبو حامد الغزالي: «قد عرفت أنّ علاج كل علّة بحسب مادتها وإزالة أسبابها، فلا بدّ من معرفة أسباب الغضب، وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام: «أي شيء أشد؟ قال عيسى: **الكبر والعجز والتعزز والحميّة، والأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء، والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديّة مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب بأضدادها**»[3].

---

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٨١.

(٢) **الخصال**، للصدوق، ص٦.

(٣) **المحجة البيضاء**، ج٥ ص٣٠٤.

٤ - الإسلام والحثّ على كظم الغيظ

وحيث كان للغضب كل تلك الآثار والنتائج السلبية على الفرد والمجتمع، فقد دعت وصايا القرآن والنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام إلى ترويض النفس وتهذيبها عند الغضب، وإليك بعض تلك الوصايا:

أ - امتداح كظم الغيظ: قال تعالى: ﴿**وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ**﴾[آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ**﴾[الشورى: ٣٧]، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه ومن حسّن خلقه بلّغه الله درجة الصائم القائم**»(١).

ب - الغضب مطيّة إبليس، وتؤكد التعاليم الدينية على أن الغضب هو مطية الشيطان وجند من جنود إبليس، عن أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه إلى الحارث الهمداني: «**واحذر الغضب فإنّه جند عظيم من جنود إبليس**»(٢)، لأنّه بواسطة الغضب يبلغ إبليس مبتغاه وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الغضب جمرة من الشيطان**»(٣).

ج - ويعتبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأحاديث المروية عنه أنّ الإنسان القوي ليس هو الشخص الذي يستفزه الغضب فيأخذ بالضرب أو الشتم أو التكسير والتخريب، فهذا إنسان ضعيف، وإنّما الإنسان القوي هو الذي يهزم نفسه الأمارة بالسوء ويسيطر على غضبه، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**مرّ رسول الله بقوم يرفعون حجراً فقال: ما هذا؟ فقالوا: نعرف بذلك أشدّنا وأقوانا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ألاّ أخبركم بأشدّكم وأقواكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أشدكم وأقواكم الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس بحق**»(٤).

---

(١) **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، ج١ ص٧٦.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٣ ص١٣١.
(٣) **الكافي**، ج٢، ص٣٠٥.
(٤) **مجمع الزوائد** للهيثمي، ج٨ ص٦٨.

٥ - علاج الغضب

إنّ أول خطوة يخطوها الإنسان في علاج الغضب تبدأ بالتأمل بعواقبه الوخيمة على الفرد والمجتمع، فكم من إنسان أدخله غضبه إلى السجن! وكم من إنسان حرمه غضبه من الراحة والاستقرار! وكم من إنسان أدىّ به الغضب إلى حبل المشنقة! وكم من إنسان أدّى به غضبه إلى الابتعاد عن الأهل والخلان والأوطان! وقد ورد عن علي عليه السلام: «**إياك والغضب فأوله جنون وآخره ندم**»[١]. وأهم العواقب التي علينا الالتفات إليها هي أن الغضب فيه غضب الله تعالى.

والخطوة الثانية في العلاج وهي خطوة تربوية استباقية وتبدأ بتدريب النفس على الحلم والصبر والأناة وعدم التسرع والابتعاد عن العجلة، فكما ورد في الحديث عن علي عليه السلام: «**المتأني مصيب وإن هلك والعجول مخطئ وإن ملك**»[٢]، وفي الحديث: «**الحلم يطفئ نار الغضب**»[٣]، وعن علي عليه السلام: «**ضادوا الغضب بالحلم**»[٤]، ومن هنا فلا بدّ أن ندرب أنفسنا على الحلم «**إِذَا لَمْ تَكُنْ حَلِيماً، فَتَحَلَّمْ**»[٥].

والخطوة الثالثة هي خطوة عملية يواجه فيها الإنسان فورة الغضب عند حصول موجبه، وتتمثل هذه الخطوة بأن يصرف الغاضب نفسه إلى فعل آخر غير الذي تسبب بإثارة غضبه ويشغلها به، أو يغيّر وضعيته ولا يترك نفسه مستغرقة في الأمر الذي أغضبه، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلاّ فليضطجع**»[٦].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «.. **فأيّما رجل غضب وهو قائم فليجلس، فإنّه سيذهب عنه**

---

(١) **مستدرك الوسائل**، ج١٢ ص١٢.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٠١.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠٩.
(٥) **الكافي**، ج٣، ص٢٩١، وهو مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، راجع: **تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٢٦٨.
(٦) **مسند أحمد**، ج٥ ص١٥٢.

رجز الشيطان وإن كان جالساً فليقم، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليقم إليه وليدن منه وليمسه، فإنّ الرحم إذا مست الرحم سكنت»(١)، وترشد بعض الروايات إلى الوضوء باعتباره سبباً لإطفاء لهيب الغضب، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا غضب أحدكم فليتوضأ..**»(٢).

وهناك أمر آخر يسهم دون شك في تسكين سورة الغضب والتخفيف من آثاره الوخيمة هو لجوء الإنسان الغاضب إلى الله تعالى وركونه إلى ما أعدّه تعالى لمن كظم غيظه، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة**»(٣).

٦ - ترك اتخاذ المواقف عند الغضب/ لا أدب عند الغضب

ويُنصح الإنسان أن لا يتخذ قراراً عند الغضب، فالغضب يفقده التركيز ويبعده عن اختيار الرأي السديد، فلن يكون قراره صائباً، فلو كنت موظفاً في شركة وأغضبك أمر ما فلا تسارع إلى تقديم استقالتك، فقد تندم بعد ذلك، وعندما تغضب من زوجتك فلا تبادر قبل أن يسكن غضبك إلى اتخاذ قرار بطلاقها، وهكذا.

وقد اعتبر التشريع الإسلامي أنّ الغضب إذا أخرج صاحبه عن التوازن وأفقده السيطرة على نفسه لا يترتب عليه أثر ويعدّ كلام الغاضب والحالة هذه لاغياً، فمن طلّق زوجته ـ مثلاً ـ وهو في حالة غضب شديد فلا يقع طلاقه، وفقاً لفقه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، لأنّ الغاضب فاقد السيطرة ولا يقصد ما يقول وربما لا يعي ما يقول.

كما أنّه ينبغي للغاضب أن يجتنب تأديب أولاده أو تلامذته في حالة الغضب، ففي الحديث: «**نهى رسول اللّه عن الأدب عند الغضب**»(٤)، فإنّ الأدب في هذه الحالة سيكون أقرب إلى الانتقام وشفاء الغيظ والانتصار للنفس وليس تأديباً غرضه الإصلاح والتهذيب.

---

(١) **الأمالي** للصدوق ص٤٢٠، ونحوه في **الكافي** ج٢ ص٣٠١.
(٢) **بحار الأنوار** ج٧٧ ص٣١٢، ومسند **أحمد** ج٤ ص٢٢٦.
(٣) **الكافي**، ج٢ ص١١٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٧ ص٢٦٠.

٧ - الغضب المقدس

أجل هناك حالة وحيدة من الغضب المقبول، وهي الغضب لله تعالى وفي سبيل الله، لا للنفس وأهوائها، فعندما يغضب الإنسان انتصاراً للحق وانحيازاً للقيم واحتجاجاً على الظلم والفجور والطغيان فإنّ غضبه هذا يغدو غضباً مقدساً، ومن هنا وجدنا أمير المؤمنين عليه السلام يمتدح أبا ذر الغفاري عند وداعه بعد أن نفاه عثمان بن عفان من المدينة، يقول عليه السلام: «**إنك إنما غضبت لله عز وجل، فارج من غضبت له، إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فأرحلوك عن الفناء وامتحنوك بالبلاء، ووالله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقا ثم اتقى الله عز وجل جعل له منها مخرجاً، فلا يؤنسك إلاّ الحق، ولا يوحشك إلاّ الباطل..**»[1].

إن الرسالي يغضب ولكن غضبه لا يكون للذات أو للتنفيس عن الأحقاد وشفاء الغيظ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق**»[2]، وإنّما يوجّه غضبه نحو التغيير والإصلاح، فيشكل حافزاً ومحركاً له نحو الأفضل، فإذا قيل لك: إنّك جاهل فغضبت، فليكن غضبك هذا دافعاً لك نحو المعرفة والتعلم، وإذا قيل لك: أنت فاشل، فغضبت فليحركك غضبك نحو العمل وإثبات النجاح وهكذا..

باختصار: إنّ العاقل هو الذي يقودُ غضبَه لا من يقودُه غضبُه، فإذا قادك الغضب ولم تقده فأنت لا محالة فاشل وخاسر.

(١) **نهج البلاغة**، ج٢ ص١٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٣ ص١٢٧.

(٤٦)
الْخَيْرُ مِنْه مَأْمُولٌ والشَّرُّ مِنْه مَأْمُونٌ

من صفات المتَّقي، أنّ الناس ترجو خيره وتأمن شرّه، وبياناً لهذه الصفة العظيمة نقول:

أولاً: أنسنة الإنسان هدف أسمى للدين

إن الملم بتعاليم الدين ومقاصده يعلم علم اليقين أن أعظم ما تستهدفه شرائع السماء هو أنسنة الإنسان وتهذيب نوازعه، وبالتالي فإنّ على التربية الدينية أن توصل الإنسان لهذه الغاية النبيلة، ليكون مصدر خير وأمن، فلا تخافه الناس، وتأمن شره، وتأمنه على نفسها وأرواحها وأموالها، وعليه فمن لا يرجو الناس خيره ولا تأمن شره بل يخافه الناس فليس من أهل الله تعالى، وهذا حال بعض الأشخاص، فإنه إذا دخل مجلساً خرست ألسنة الناس إلا بمدحه، وقدموه واحترموه خشية ردة فعله وفظاظة لسانه، إنّ هذا من شر خلق الله تعالى، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**شر الناس عند الله يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم**»(١). وعن علي عليه السلام فيما روي عنه: «**شر الناس من يتقيه الناس مخافة شره**»(٢).

والحقيقة أنّ ما جاء في هذه الصفة يمثل ميزاناً ومقياساً لمعرفة المتديّن الحقيقي من المزيف والمخادع، والمتديّن السلوكي من المتديّن الطقوسي، فإذا كانت الناس تخاف شرك وغضبك وظلمك! فأنت لست مؤمناً حقاً ولا متّقياً، بل أنت من شرار خلق الله

(١) **الكافي**، ج٢، ص٣٢٧.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٩٥.

تعالى، في الخبر: «أنّ علي بن الحسين عليه السلام دعا مملوكه مرتين فلم يجبه، ثم أجابه في الثالثة، فقال له: **يا بني، أما سمعت صوتي**؟ قال: بلى، قال: **فما بالك لم تجبني**؟ قال: أمنتك، قال: **الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمني**»(١).

ثانياً: كيف يصل الإنسان إلى هذه الصفة؟

إنّ وصول الإنسان إلى هذه الحالة، بأن يكون خيره مأمولاً وشره مأموناً لا يحصل اعتباطاً ولا يأتي من فراغ ولا يكون بمجرد الأمنيات، بل هو نتيجة جهد كبير في تهذيب النفس، وقد ورد عنه عليه السلام: «**الخير كله صيانة الإنسان نفسه**»(٢)، ولا يمكن أن يصل الإنسان ـ كنوع بشري ـ إلى هذه الحالة بدون أن يكون الله تعالى حاضراً في حساباته، ويكون مستحضراً محبة الله في نفسه وعاملاً بما يرضيه جلّ وعلا، أو على الأقل يكون مردوعاً بمخافة الله تعالى ورقابته التي تحصي عليه كل صغيرة وكبيرة. هذه الخلفية الإيمانية هي التي تؤنسن الإنسان، وأمّا نفي وجود الله من المعادلة فهو أمر لا يمكن أن يأتي بالخير للبشر، ولا يهذب إنساناً.

---

(١) **الإرشاد** للمفيد، ج٢، ص١٤٧، و**مناقب آل أبي طالب**، ج٣، ص٢٩٦.
(٢) **تحف العقول**، ص٢٧٨.

(٤٧)
إنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ

تقدم الحديث عن مفهوم الذكر، في شرح قوله ﵇: «**ويصبح وهمّه الذكر**»، وهذه الفقرة تريد الإشارة إلى إحدى خصوصيات الذاكر، وهي أنه حتى لو كان في أجواء الغافلين أو مجالسهم، فإن ذلك لا يخرجه من حالة الذكر القلبي، قال الشارح البحراني: «أي إنّ رآه الناس في عداد الغافلين عن ذكر اللَّه لتركه الذكر باللسان كُتب عند اللَّه من الذاكرين لاشتغال قلبه بالذكر وإن تركه بلسانه، وإن كان من الذاكرين بلسانه بينهم فظاهر أنّه لا يكتب من الغافلين»(١).

وقال العلامة الخوئي تعليقاً على الفقرة الأولى: «إنّ الغرض به الإشارة إلى دوام ذكره، يعني أنّه مع كونه بين الغافلين وفي مجلسهم لا يغفل عن ذكره عزّ وجلّ كغفلتهم عنه، بل يداوم عليه ويكتب في زمرة الذّاكرين لعلمه بأنّ الذّكر في الغافلين يوجب مزيد الأجر. ويدلّ عليه ما في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن مختار عن أبي عبد اللَّه ﵇ قال: **الذّاكر للَّه عزّ وجلّ في الغافلين كالمقاتل في المحاربين**»(٢).

وقال تعليقاً على الفقرة الثانية: «ويجوز أن يراد به معنى آخر وهو الإشارة إلى كون ذكره عن وجه الخلوص والقربة وعدم كتبه من الغافلين لأجل ذلك، وأمّا غيره فربما يكتب من الغافلين وإن كان ذاكرا لعدم كون ذكره عن وجه الإخلاص بل بقصد الرّياء كما قال تعالى في حقّ المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾[النساء: ١٤٢]»(٣).

---

(١) **شرح نهج البلاغة**، ج٣، ص٤٢٢.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص٥٠٢.
(٣) **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص١٤٧.

(٤٨)
يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَه، ويُعْطِي مَنْ حرَمَه، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَه

المتَّقي ومقابلة السيئة بالحسنة

هذا المقطع يشير الإمام عليه السلام فيه إلى ثلاثة من أعظم مكارم الأخلاق وأجلّها، وهي العفو عمن ظلمه وإعطاء من حرمه وصلة من قطعه، والوجه في كونها من أعظم مكارم الأخلاق أنّ فيها كظماً للغيظ وإسكاتاً لنائرة النفس وإطفاءً لشهية الانتقام في الحالات التي تدعوه نفسه إلى الانتقام ممّن ظلمه، وممّن حرمه وممّن قطعه، والعنصر الجامع بين هذه المقاطع هو أنّ سلوك الإنسان فيها يكون على عكس ما عومل به.

وفي بيان هذه المقاطع نقول: إنّ الإنسان يواجه في هذه الحياة صنوفاً من الناس تؤذيه، فواحد يظلمك وإن لم تعتد عليه، وآخر أنت تعطيه وهو يحرمك، وثالث، يقاطعك وأنت تصله، فكيف تتعامل مع هذه النماذج؟ هناك أسلوبان مشروعان في التعامل معها:

أولاً: الأخذ بالحق وقيوده

الأسلوب الأول: أن تأخذ بحقك فترد العدوان وتقتص ممن ظلمك، والاقتصاص مشروع بلا شك، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤١] ، وقال سبحانه: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١٩٤] وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الشورى: ٣٩ ـ ٤٠].

إنّ الأخذ بالحق والانتصار هو من مظاهر العدل، ولكنه مقيّد بقيدين:

القيد الأول: أن لا تتجاوز الحد، لأنّ ذلك يحوّلك من مظلومٍ إلى ظالم، فهو ظلمك في شيء فلا يحقّ لك أن تأخذ أكثر من حقك، كما يفعل البعض ممن شعارهم هو المثل الشعبي: «الرطل بدو رطلين ووقية»، ونحن مع الأسف نعلّم أبناءنا على هذا الأمر، فنقول له: «إذا ضربك كفاً فاضربه كفين أو عشرة»، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠]. يكون الإنسان مظلوماً وبسبب تعسفه يتحوّل إلى ظالم. ويندرج في هذا ما يسمى التعسف في استخدام الحق، فمثلاً ترى أنّ الرجل لديه حق الطلاق، لكنه وبسبب مشكلة معينة مع زوجته، فتطلب منه الطلاق، فيتعسّف في استخدام حقّ الطلاق، فيطلقها رجعياً ثم قبيل انتهاء العدة يرجع إليها بقصد الإضرار بها، قال تعالى الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾[البقرة: ٢٣١]. ويدخل في هذا الباب أيضاً ما يفعله بعض الرجال، ممن يعزم على طلاق المرأة لكن حيث إنّ مهرها مرتفع ولا يقدر عليه، فيأخذ بإيذائها والتضييق عليها حتى تبذل مهرها له، إن هذا عمل عدواني، والمال الذي يأخذه عن هذا الطريق حرام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾[النساء: ١٩]، وهذا أمر محل ابتلاء ويصدر من بعض المؤمنين مع الأسف الشديد، فتراه يحتاط ويستشكل في ابتلاع شيء ممّا يعلق بين أسنانه وهو صائم، ولكنه يبلع حصة زوجته أو أخواته دون أن يرمش له جفن، أو يسرق المياه من جيرانه ولا يهتم لصحة وضوئه، ويقيم الدنيا إذا رأى شخصاً يدعس قبراً لكنه يدوس كرامات الناس الأحياء، ويرفع الصوت عالياً عند دفن المرأة قائلاً: لا ينظرنّ إليها أحد من غير محارمها مع أنها جثة هامدة وغالباً لا يكون النظر إليها بشهوة وريبة(١)، ولكنه لا يغار على ابنته أو زوجته أو أخته في حياتهن ولا يرفع الصوت غيرة عليهنّ مع أن النظر إليهن قد يكون بشهوة!!

(١) طبيعي النظر إلى جسدها لغير المحارم غير جائز.

وهذا يذكّرني بحال بعض أهل الكوفة ممّن شاركوا في قتل الحسين ﵇ واستشكلوا في قتل ذبابة! فقد رُوِي «أنّ رجلاً سأل ابن عمر عن دم البعوض، فقال: ممّن أنت؟ فقال: من أهل العراق، فقال: انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن النبيّ ﷺ! وسمعت النبي ﷺ يقول: «**هما ريحانتاي من الدنيا**»، ورُوِيَ أنّه سأله عن المُحْرِم يقتل الذباب؟ فقال: «يا أهل العراق تسألوني عن قتل الذباب وقد قتلتم ابن رسول الله ﷺ!»[١].

القيد الثاني: أن يتمّ الأخذ بالحق من خلال القانون، فلا يتحول الشخص شاهداً وقاضياً في الآن عينه، إذن الدعوة هنا إلى الأخذ بالحق دون زيادة أو نقيصة لا تعني تشريع الباب أمام الإنسان ليأخذ حقه بيده، كما يجري في أيامنا حيث إنّ كل شخص يقدم على أخذ حقه بيده، دون الرجوع إلى القانون والسلطة القضائية، وهذا من تداعيات تراجع منطق الدولة، والإسلام يرفض لجوء الإنسان إلى أخذ حقه بيده، إنّ لك أن تدافع عن نفسك عندما تتعرض للعدوان وهذا واضح، ولكن بعد حصول العدوان ـ أكان على النفس أو المال أو العرض ـ فالمعالجة والاقتصاص لا بدّ أن يكونا من خلال السلطة المختصة، لأنّ أخذ الإنسان للحق بيده أو تطبيقه للحد بنفسه هو مظنة التجاوز. في الخبر عَنْ دَاوُدَ بْنِ فَرْقَدٍ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّه ﵇ يَقُولُ: **إِنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ وَجَدْتَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِكَ رَجُلاً مَا كُنْتَ صَانِعاً به قَالَ كُنْتُ أَضْرِبُه بِالسَّيْفِ قَالَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: مَاذَا يَا سَعْدُ؟ قَالَ سَعْدٌ قَالُوا: لَوْ وَجَدْتَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِكَ رَجُلاً مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِه فَقُلْتُ: أَضْرِبُه بِالسَّيْفِ فَقَالَ: يَا سَعْدُ وكَيْفَ بِالأَرْبَعَةِ الشُّهُودِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه بَعْدَ رَأْيِ عَيْنِي وعِلْم اللَّه أَنَّه قَدْ فَعَلَ قَالَ: إِي واللَّه بَعْدَ رَأْيِ عَيْنِكَ وعِلْم اللَّه أَنَّه قَدْ فَعَلَ لأَنَّ اللَّه عَزَّ وجَلَّ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدّاً وجَعَلَ لِمَنْ تَعَدَّى ذَلِكَ الْحَدَّ حَدّاً**»[٢].

---

(١) كشف الغمة ج٢ ص١٠.

(٢) الكافي، ج٧، ص١٧٦.

ثانياً: العفو وحدوده

الأسلوب الثاني: الأخذ بالعفو، كما أشارت الآية المتقدمة: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٧].

ولا شك أنّ العفو على المستوى الشخصي هو مبدأ أخلاقي لا يدانيه خلق، لأن الإنسان الذي يأخذ بالعفو يتسامى ولا يسمح للقوة الغضبية أن تتحكم به وتستفزه، ويزداد الإنسان رفعة وتسامياً إذا عفا عند المقدرة، وهذا قد يكون أسلوباً تربوياً رائعاً لتهذيب الآخرين، ولهذا فإن الرساليين كانوا يفضلون العفو على الأخذ بالحق، كما فعل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة المكرمة، فقد عفا عمّن ظلمه، وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(١)، وقد أشار ابن الصيفي الشاعر المعروف بحيص بيص إلى هذا المعنى قال متحدثاً على لسان أهل البيت عليهم السلام:

«ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمُ قتل الأسارى وطالما عَدَوْنا على الأسرى فنعفو ونصفح
وحسبكمُ هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح»(٢)

ولكن العفو له قيدان أيضاً:

القيد الأول: أن يكون عن الحق الشخصي لا عن الحق العام، فكل جريمة لها وجهان: وجه خاص أي عدون على إنسان بعينه، ووجه عام يتمثّل بانتهاك حرمة المجتمع وأمنه، في المجال الأول يحسن العفو، وأما في المجال الثاني فيتعيّن القصاص وترك العفو عن الظالم إلا في حالات خاصة، حفظاً للنظام العام، فالعدل

---

(١) مروي في مصادر المسلمين، انظر: **الكافي**، ج٣، ص٥١٣، **والسيرة النبوية** لابن هشام، ج٤، ص٨٧٠، **وتاريخ الطبري**، ج٢، ص٣٣٧، **وتاريخ اليعقوبي**، ج٢، ص٦٠،

(٢) ولهذه الأبيات قصة طريفة، فقد ذكروا أنّ «نصر اللَّه بن يحيى: وكان من الثقات وأهل السنة [قال]: رأيت علي بن أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنه في المنام، فقلت له: يا أمير المؤمنين تفتحون مكة فتقولون: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**، ثم يتم على ولدك الحسين ما تم! فقال لي: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ فقلت: لا. فقال: اسمعها منه. ثم انتبهت فبادرت إلى حيص بيص، فذكرت له الرؤيا فشهق وبكى وحلف باللَّه لم تخرج من فمه ولا خطّه إلى أحد وما نظمها إلا في ليلته، ثم أنشدني قوله..»، **حياة الحيوان** للدميري، ج١، ص١٩٢، وقد سبقه إلى ذكره ابن العديم في كتابه: **بغية الطلب في تاريخ حلب**، ج٦، ص٢٦٥٦، وابن خلكان في **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٣٦٤.

هو الأولى بل المتعين، سُئِلَ علي عليه السلام: «**أَيُّهُمَا أَفْضَلُ الْعَدْلُ أَوِ الْجُودُ؟ فَقَالَ** عليه السلام: **الْعَدْلُ يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا والْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، والْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ والْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ ـ فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وأَفْضَلُهُمَا**»(١).

القيد الثاني: أن العفو يظلّ مبدأ أخلاقياً سامياً ويجدر بنا السير عليه إلّا إذا ظنّ الآخر أنّ العفو كان من منطلق ضعف، فتمادى في غيّه، فهنا عليك الانتصار لكرامتك، التي هي أثمن ما تملك. ولعلّ هذا ما يشير إليه ما جاء في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: «**وحقُّ من ساءك أن تعفو عنه فإذا رأيت أن العفو يضره انتصرت**»(٢).

ثالثاً: إعطاء مَنْ حَرَمَك وصلة مَنْ قَطَعَك

تصوّر أنّ إنساناً احتجت إليه فلم يساعدك بل حرمك رغم قدرته على مساعدتك، تصور أنه ذات يوم جاءك سائلاً وأنت قادر على مساعدته، ماذا تفعل؟ نفسك قد تقول لك: لا تعطه، بل ربما تدعوك إلى طرده أو الشماتة به، لكن مكارم الأخلاق تقول لك: إذا كان بخيلاً فكن أنت الكريم، وإذا كان حقوداً لئيماً فكن أنت الطيب، وإذا فكر بالعاجلة ففكر أنت بالآجلة.. وقد قال عليّ عليه السلام: «**فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق**»(٣).

وتصور إنساناً احتجت إلى صلته لكنه قطعك، ثم دار الزمان فاحتاج إلى صلتك، فهل تقطعه كما قطعك، على قاعدة «كما تدين تدان»؟ إن مكارم الأخلاق تقول لك: ترفعْ واعفُ واصفح الصفح الجميل، وصلْه وأحسنْ إليه وإن كان قد قطعك، ففي الكافي بسنده عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ: «بَلَغَنِي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام: **أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ** صلى الله عليه وآله وسلم **فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه أَهْلُ بَيْتِي أَبَوْا إِلَّا تَوَثُّباً عَلَيَّ وقَطِيعَةً لِي وشَتِيمَةً، فَأَرْفُضُهُمْ؟ قَالَ: إِذاً يَرْفُضَكُمُ اللَّه جَمِيعاً قَالَ فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ قَالَ: تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كَانَ لَكَ مِنَ اللَّه عَلَيْهِمْ ظَهِيرٌ**»(٤).

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١٠٢.
(٢) **الأمالي**، للصدوق، ص٤٥٦، ومكارم **الأخلاق**، ص٤٢٣.
(٣) **نهج البلاغة** ج٣ ص١٢٧.
(٤) **الكافي**، ج٢، ص١٥٠.

(٤٩)
بعِيداً فُحْشُه، لَيِّناً قَوْلُه

المتَّقي ولين الكلام

الكلام يعكس شخصية المتكلم، لجهة فهمه وحكمته واتزانه، وقد قال علي عليه السلام: «**تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِه**»(١). وهذا المقطع من كلامه عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة، ولكن من خلال وجهين:

الوجه الأول: بعيدا فحشه

قال العلامة الخوئي تعليقاً على كلمة «بعيداً»: «إن أريد بالفحش معناه الظاهر أي السبّ وبذاءة اللسان، فلا بدّ من صرف لفظ البعيد عن ظاهره وجعله كناية عن العدم، وإن أبقى البعد على ظاهره المفيد لإقدامه على الفحش أحيانا فلا بدّ من ارتكاب التأويل في لفظ الفحش وجعل المراد به فضول الكلام والقول القبيح غير البالغ إلى حدّ الحرام لئلّا ينافي ملكة العدالة والتّقوى الّتي للمتّقي»(٢).

وعلى أي حال، فإنّ الفحش في القول هو أمر مذموم في ميزان الأخلاق الكريمة والعقل السليم، ناهيك عن آثاره السلبية على العلاقات الاجتماعية، ومن هنا جاء الدين ليرشد إلى قبحه، ففي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**من علامات شرك الشّيطان الّذى لا يشكّ فيه أن يكون فحاشاً لا يبالي بما قال ولا بما قيل له**»(٣).

وعن أبي عبيدة عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**البذاء من الجفاء والجفاء في النّار**»(٤).

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٩٣.
(٢) **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص٣٤٣.
(٣) **الكافي**، ج٢، ص٣٢٣، الحديث ١.
(٤) **الكافي**، ج٢، ص٣٢٥.

وفي الخبر الذي رواه الكليني في الكافي: «كَانَ لأَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام صَدِيقٌ لَا يَكَادُ يُفَارِقُه إِذَا ذَهَبَ مَكَاناً فَبَيْنَمَا هُوَ يَمْشِي مَعَه فِي الْحَذَّائِينَ[١]، ومَعَه غُلَامٌ لَه سِنْدِيٌّ يَمْشِي خَلْفَهُمَا إِذَا الْتَفَتَ الرَّجُلُ يُرِيدُ غُلَامَه ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَرَه فَلَمَّا نَظَرَ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ يَا ابْنَ الْفَاعِلَةِ أَيْنَ كُنْتَ قَالَ فَرَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام يَدَه فَصَكَّ بِهَا جَبْهَةَ نَفْسِه ثُمَّ قَالَ: **سُبْحَانَ اللَّه تَقْذِفُ أُمَّه قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ لَكَ وَرَعاً فَإِذَا لَيْسَ لَكَ وَرَعٌ** فَقَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ أُمَّه سِنْدِيَّةٌ مُشْرِكَةٌ. فَقَالَ: **أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ نِكَاحاً تَنَحَّ عَنِّي** قَالَ: فَمَا رَأَيْتُه يَمْشِي مَعَه حَتَّى فَرَّقَ الْمَوْتُ بَيْنَهُمَا». وفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ نِكَاحاً يَحْتَجِزُونَ بِه مِنَ الزِّنَا**»[٢].

في الصحيح عن عَلِيّ بْن إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيه عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنِ ابْنِ أُذَيْنَةَ عَنْ زُرَارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**دَخَلَ يَهُودِيٌّ عَلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وعَائِشَةُ عِنْدَه. فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: عَلَيْكُمْ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَرَدَّ عَلَيْه كَمَا رَدَّ عَلَى صَاحِبِه، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَرَدَّ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم كَمَا رَدَّ عَلَى صَاحِبَيْه، فَغَضِبَتْ عَائِشَةُ فَقَالَتْ: عَلَيْكُمُ السَّامُ والْغَضَبُ واللَّعْنَةُ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ يَا إِخْوَةَ الْقِرَدَةِ والْخَنَازِيرِ! فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: يَا عَائِشَةُ إِنَّ الْفُحْشَ لَوْ كَانَ مُمَثَّلاً لَكَانَ مِثَالَ سَوْءٍ. إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَه ولَمْ يُرْفَعْ عَنْه قَطُّ إِلَّا شَانَه، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه أَمَا سَمِعْتَ إِلَى قَوْلِهِمُ السَّامُ عَلَيْكُمْ؟ فَقَالَ: بَلَى، أَمَا سَمِعْتِ مَا رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ قُلْتُ: عَلَيْكُمْ. فَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ مُسْلِمٌ فَقُولُوا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وإِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ كَافِرٌ فَقُولُوا عَلَيْكَ**»[٣].

الوجه الثاني: لينا قوله

إنّ من علامات حسن الأخلاق أن نحسن اختيار كلماتنا، في مخاطبة الآخرين، فالكلمات الطيّبة والحسنة تُدخل صاحبها القلوب بغير استئذان، فيصل إلى مراده ويبلغ رسالته. وهنا لا بدّ لنا أنّ نوضح هذا الوجه من تلك الحقيقة:

---

(١) الحذاء معلوم، وإذا قرأناها «الحذّائين» بالتشديد، فيكون ثمة كلمة مقدرة وهي سوق أو نحوها، فتكون إشارة إلى أن المشي كان في سوق الحذائين.

(٢) **الكافي**، ج٢، ص٣٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٤٨.

١ - الكلمة الطيبة في القرآن والسنة والأدب

ومن أروع التشبيهات القرآنية هو ما جاء حول تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة المثمرة على الدوام، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[إبراهيم: ٢٤ - ٢٥]، وفي المقابل، فإنّه شبّه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي طعهما مر ومؤذٍ ولذا يعمد الإنسان إلى اجتثاثها، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[إبراهيم: ٢٦].

ومن روائع ما جاء به الإسلام أنه اعتبر الكلام الليّن عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**الكلمة الطيبة صدقة**»(١)، وعن علي عليه السلام: «**إنّ من العبادة لين الكلام وإفشاء السلام**»(٢).

والكلمة الطيبة هي تعبر عن أدب مطلقها وأحياناً كثيرة تحتاج إلى توفيق، «قيل للعباس بن عبد المطلب: «أيما أكبر أنت أم النبي ﷺ فقال: هو أكبر مني وأنا ولدت قبله»(٣).

ومن طريف ما يروى أن الصحابي نعيم النحام «أسلم بعد عشرة أنفس قبل إسلام عمر بن الخطاب. وكان يكتم إسلامه، ومنعه قومه لشرفه فيهم من الهجرة، لأنه كان ينفق على أرامل بنى عدي وأيتامهم ويمونهم، فقالوا: أقم عندنا على أي دين شئت، وأقم في ربعك، واكفنا ما أنت كاف من أمر أراملنا، فوالله لا يتعرّض لك أحد إلّا ذهبت أنفسنا جميعاً دونك. وزعموا أنّ النبيّ ﷺ قال له حين قدم عليه: **قومك يا نعيم كانوا خيراً لك من قومي لي**. قال: بل قومك خير يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: **قومي أخرجوني، وأقرّك قومك**، وزاد الزبير في هذا الخبر: فقال نعيم: يا رسول الله، قومك أخرجوك إلى الهجرة وقومي حبسوني عنها»(٤).

---

(١) **مكارم الأخلاق**، ص٤٦٧، وصحيح **البخاري**، ج٤، ص١٥.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١٤٢.
(٣) **المستدرك**، ج٣، ص٣٢٠.
(٤) **الاستيعاب** لابن عبد البر، ج٤، ص١٥٠٨.

٢ - الكلام اللين ودوره التربوي والاجتماعي والرسالي

والكلام الطيب واللين له العديد من الآثار الطيبة:

أولاً: دوره في تعزيز العلاقات الاجتماعية

وأول ما يتجلى فيه أثر الكلمة الطيبة هو العلاقات الاجتماعية، فشرارة الفتن كلمة، ومفتاح القلوب كلمة، ولهذا فإن علينا أن نتحرك بالكلمة الطيبة، مع كل الناس، فالكلمة الطيبة لا هوية دينية أو عرقية لها فأنت مدعو لمخاطبة الناس بالحسنى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة: ٨٣]، أيا ما كانوا، وأياً ما كانت هويتهم القومية أو الدينية. وبالأحرى أن تتحرى الكلام الطيب اللين في معاشرة أرحامك وجيرانك وأصدقائك، ومع زوجتك، إن بعض الرجال يخجل أن يتكلم بالكلام الطيب مع أقاربه، ويرى أن الكلام العذب مع زوجته غير مناسب لرجولته، مع أن الزوجة أولى بالكلام الرقيق، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**قول الرجل للمرأة: إنّي أحبّك لا يذهب من قلبها أبداً**»(١).

وإذا لم يكن معك مال لمساعدة الفقير، فلا تبخل عليه بكلمة جميلة، وإياك أن تعنفه بالكلام القاسي، إن الكلمة الجميلة والرقيقة هي أفضل من الصدقة التي يتبعها الأذى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[البقرة: ٢٦٣].

وقال المتنبي:

لا خَيلَ عِندَكَ تُهديها وَلا مالُ   فَليُسعِدِ النُطقُ إِن لَم تُسعِدِ الحالُ

قد تدخل على المريض، فما يضيرك إذا ابتسمت في وجهه، وأدخلت السرور على قلبه! أنت لن تنقذه بكلامك الجميل من المصير المحتوم ولن تطيل عمره، ولكنك بالتأكيد تطيب خاطره، وتعزز معنوياته، ففي الحديث أنّ رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده فقال ﷺ: «**لا بأس عليك، طهور إن شاء الله**، فقال الأعرابي: طهور! بل

---

(١) **الكافي**، ج٥ ص٥٦٩.

حمّى تفور على شيخ كبير تزيره القبور، قال النبي ﷺ: **فنعم إذاً**»[١]. ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تديموا النظر إلى أهل البلاء والمجذومين فإنّ ذلك يحزنهم**»[٢]. الله ما أجمل هذه الإنسانية! وهذه الرقة والرحمة! لكن أين نحن منك يارسول الله؟!

وفي هذا الصدد يوصي النبي ﷺ عُوّاد المريض وزواره أن لا يضعوا الموت نصب عينيه، بل ينبغي أن يؤملوه بالصحّة والسلامة، فقد ورد عن النبي ﷺ: «**إذا دخلتم على المريض فنفسوا** (أي وسعوا) **له في الأجل، فإنّ ذلك لا يرد شيئاً، وهو يطيّب النفس**»[٣]، وهذا الإرشاد النبوي الهادف إلى تطييب خاطر المريض والتوسعة له في الأجل، يرمي إلى مساعدته للتغلب على مرضه، لأنّ المريض الذي ينهزم نفسياً أمام المرض ويتملّكه اليأس من الشفاء سوف يحاصره المرض ويفتك به، وتقلّ فرصة تماثله للشفاء.

ثانياً: في نشر الرسالة

وهذا المجال من أعظم ما نحتاج فيه إلى لين الكلام، قال تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام عندما أمرهما بالتوجه إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٣ ـ ٤٤] وهنا تكتسب الكلمة الطيبة أهمية خاصة، لأنها تفتح قلب الآخر على الهدى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: ٣٤]، ولهذا فليس من حق الداعية أن يتحرك بمزاجية في العمل الدعوي والرسالي، فمن ينفر الناس عن الدين بكلامه الفج سوف يحمل وزر عمله، والأجدى به أن يتنحى عن هذه المهمة، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[الإسراء: ٥٣].

---

(١) **صحيح البخاري** ج٨ ص١٩٢.

(٢) **طب الأئمة**، ص١٠٦، وقوله ﷺ: «**لا تديموا النظر إلى المجذومين**»، مروي في **سنن ابن ماجة**، ج٢، ص١١٧٢، و**السنن الكبرى** للبيهقي، ج٧، ص٢١٩.

(٣) **سنن ابن ماجه**، ج١ ص٤٦٢، و**كنز الفوائد**، ص١٧٨.

وعلى هدي القرآن وكلامه ﷺ، فإننا لا بدّ أن نسير في خطابنا الديني والدنيوي والسياسي، فليس ثمة مبرر لهذا الانحدار في أسلوب التخاطب، ولما يفعله بعض الإسلامين من الإعلاميين وأهل السياسة وفيهم رجال دين، بالإقدام على شتم خصومهم السياسيين أو استخدام ألفاظ نابية وغير لائقة ومنافية للذوق العام. وما يقال إن السياسة لها أدواتها وعلى محترف السياسة أن يستخدم هذه الأدوات أو ينسحب منها هو كلام مرفوض، فإن السياسة في الإسلام لها أصولها وآدابها وقاموسها القانوني الخاص، والسياسي المسلم مدعو للأخذ بهذه الآداب ولا يتحرك على قاعة «**حسب السوق سوق**»، بل إن ما نتوقّعه من الإسلاميين أن يتركوا بصمة خاصة في الرأي العام، من خلال سلوكهم وخطابهم، ومهما تسافل خصومك فعليك أن تبقى مترفعاً، كما قال علي عليه السلام، عندما سمع أصحابه في معركة صفّين يسبّون أهل الشام، ونحن نعرف أنّه إذا رخصت الدماء وهانت فلن يبقى للكلمة السلبيّة أيّ معنى أو تأثير، لكن عليّاً عليه السلام وقف ليبيّن لهم أنّ القيمة تبقى قيمةً في حالتَيْ الحرب والسِّلم، وإنّ الكلمة الطيّبة ليس لها موسم، ولهذا أرسل لأصحابه: «**كفّوا عمّا بلغني عنكم من الشتم والأذى**»، فقالوا يا أمير المؤمنين ألسنا محقّين؟ قال: **بلى**، قالوا: ومَنْ خالفنا مبطلين؟ قال: **بلى**، قالوا: فلِمَ منعتنا من شتمهم؟ فقال: «**كرهت أن تكونوا سبّابين**»[١].

٣ - أمثال ومقولات لتبرير التجريح بالآخرين

وفي ضوء ما ذكرنا، لا بدّ أن نراجع أساليبنا في التخاطب، وأن نكفّ عن التمسّك ببعض الحجج والأعذار الواهية التي نبرر بها إطلاق الكلمات الجارحة لمشاعر الآخرين، من قبيل ما يقوله البعض عندما تعاتبه على قسوته اللفظية: «**أنا صريح**» ظاناً أن ذلك يبرر له أن يتكلم بكلام جارح مع الآخرين، أو ما يردّده بعض الناس: «**قل كلمتك وامشِ**»، وردّنا على ذلك أنّ الصراحة جيدة، ولكن ما الذي يمنع أن تكون الصراحة مع الحرص على استخدام الكلمة اللينة، نعم لا مجاملة في الحق.

---

(١) المعيار والموازنة، ص١٣٧.

وهناك مقولة أخرى يتكأ عليها بعض من يأكلون لحوم الناس بالغيبة وينشرونهم بالمناشير، وعندما يُعاتبون على ذلك يكون جوابهم: «**الكلام ما عليه جمرك**» وبالمبرر عينه يستسيغ البعض كثرة الكلام إلى حد **الثرثرة**، فتراه يتكلّم فيما يعلم وفيما لا يعلم، وفيما يجوز وما لا يجوز، وفيما ينفع وفيما لا ينفع، وهذا خطأ كبير قال تعالى: ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[ق: ١٨].

حُكي أنّ بعض الحكماء رأى رجلاً يُكثر الكلام ويُقلّ السكوت، فقال: «إنّ الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولساناً واحداً، ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به»[١].

وما عسانا في ختام الحديث عن هذه الفقرة إلا أن نذكّر بكلام علي عليه السلام: «**إذا تم العقل نقص الكلام**»[٢].

---

(١) **أدب الدين والدنيا**، للبغدادي، ص٢٨٦.

(٢) **نهج البلاغة** ج٤ ص١٥.

(٥٠)
غَائِباً مُنْكَرُه حَاضِراً مَعْرُوفُه

المتَّقون ومواجهة المنكر

إنّ من التحديات التي تواجه العاملين في هذه المرحلة تحدي مواجهة المنكر، حيث تبرز عدة أسئلة على هذا الصعيد، من أهمّها: ما هو المنكر وما هو المعروف؟ لماذا علينا أن نواجه المنكرات؟ وكيف نوفق بين فكرة النهي عن المنكر وبين مفهوم الحرية الشخصية؟ وهل من الضروري أن نَجْمُدَ على الأساليب التقليدية في عملية المواجهة أم أن المسألة متحركة ومرنة؟.

وهذه الفقرة التي يشير فيها علي ﷺ إلى ملازمة المتَّقي لفعل المعروف، واجتنابه لفعل المنكر، تشير إلى أمر مهم يكمل صورة الموقف الإسلامي في مواجهة المنكر، وفيما يلي نشير إلى بعض الأفكار التي تتّصل بمسألة المعروف والمنكر، ومجمل هذه الأفكار والأسئلة المطروحة أعلاه طرحناها وأجبنا عليها في كتاب «الإمام الحسين ﷺ ثائراً ومصلحاً».

أولاً: ما هو المنكر والمعروف؟

المعروف هو كلُّ عملٍ يوجبه أو يحسنه العقل أو الشرع، وأما المنكر فهو كلُّ ما ينكره ويقبحه العقل أو الفطرة أو الدين، وهذا له أنواعٌ عديدة ومختلفة، فهناك المنكر الأخلاقي والمتمثّل بكل أشكال الرذيلة التي يُراد نشرها في المجتمعات بما يفقدها المناعة الأخلاقية، وهناك المنكر الاقتصادي المتمثّل بالتجارات القائمة على أساس الظلم والمراباة والمقامرة، وهناك المنكر الإعلامي الذي يضلّل الرأي العام أو يروّج

للباطل أو للضعف والاستسلام أو ينشر الرذائل ويدعو للإباحية، وهناك المنكر الاجتماعي المتمثّل بالأفكار والممارسات الهدامة التي تسهم في تفكيك الأُسَر وبث التفرقة والأحقاد بين أبناء المجتمع الواحد، وهناك المنكر السياسي المتمثّل بالاحتلال والعدوان أو الاستبداد والطغيان، أو الفساد، ما يؤدّي إلى إذلال الإنسان وقهره وسحق إرادته. وهناك المنكر الفكري المتمثّل بالمفاهيم المزورة التي تلوّث العقل وتكبّله وتعيقه عن الإبداع والتحرر.

ثانياً: إدمان المنكر وانقلاب الموازين

ومن طبيعة المنكر وخصائصه أنّه إذا ارتُكِبَ مرةً تلو الأخرى دون رادع أو اعتراض وجاهر به البعض دون أن يلقى صدوداً، فإنّ ذلك سوف يكسر الحاجز النفسي تجاهه، ليس عند مرتكبه فحسب بل وعند الآخرين أيضاً، ليغدو مع الوقت أمراً مألوفاً ومعاشاً، حتى لو كنّا لا نزال نراه منكراً، ولكن إذا استمرّ السكوت على المنكر والتقاعس في مواجهته، فقد تتطوّر الأمور ونصل إلى مرحلة متقدمة من سيطرة المنكر، وهي مرحلة سقوط الغرابة والاستهجان عن ارتكابه، وبعبارة أخرى: لا يعود المنكر أمراً مألوفاً فحسب، بل لا يعود منكراً أصلاً، وقد تنقلب الموازين ويتحوّل المنكر إلى معروف والمعروف إلى منكر، وهذا ما نبّه عليه الحديث الذي رواه مَسْعَدَة بْن صَدَقَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَدَتْ نِسَاؤُكُمْ وفَسَقَ شَبَابُكُمْ ولَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ ولَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَقِيلَ لَه: ويَكُونُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّه فَقَالَ: نَعَمْ وشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ كَيْفَ بِكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ ونَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ فَقِيلَ لَه يَا رَسُولَ اللَّه ويَكُونُ ذَلِكَ قَالَ نَعَمْ وشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً والْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً**»[1]. وقد حدثنا القرآن الكريم عن وصول بني إسرائيل أو طائفة منهم إلى هذا المستوى، قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩]، ويبدو أنّ الوجه في عدم تناهيهم عن المنكر هو أنّهم أدمنوا فعله حتى صار أمراً عادياً وغير مستفزّ لمشاعرهم الدينية أو الأخلاقية.

(١) الكافي، ج٥، ص٥٩.

ثالثاً: مواجهة المنكر: ضرورتها وأثمانها

والموقف الإسلامي في التعامل مع المنكر بكل أشكاله هو موقف واضح وحاسم، فهو يرفض ـ من حيث المبدأ ـ مهادنة المنكر أو القبول به، بل يدعو إلى مواجهته، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠]. ويلفت النظر في هذه الآية المباركة وكلامها عن خيريّة الأمة الإسلاميّة، أنها قدمت وصف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله تعالى، وهي بذلك تبين أن هذه الخيرية ليست أمراً اعتباطياً ولا عبثيّاً وإنّما هي منطلقة من أمرين أساسيين: وهما إيمانها بالله تعالى، أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وهذا يبين ويدلل على محورية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في خيرية الأمة وأفضليتها وتمايزها على غيرها من الأمم.

ويدعو القرآن الكريم إلى ضرورة انبثاق جماعة من أبناء الأمة للقيام بعمل الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّ التصدي ليس عمليّة عشوائيّة، فهو يحتاج إلى معرفة المنكر والمعروف ومعرفة شروطهما وضوابطهما، وهذه المعرفة لا يتسنّى لكلّ أفراد الأمة النهوض بها، لأنّها تحتاج إلى معرفة وتخصص، قال عزّ وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

ثم إنّ مواجهة المنكر ولا سيما عند انتشاره ليست عملية سهلة وبسيطة، فالمنكر لديه أسلحته المختلفة للدفاع عن نفسه، بل الهجوم على الطرف الآخر أيضاً، ولذا علينا أن نستعد للمواجهة، فقد يقتضي الأمر أن ندفع أثماناً على هذا الصعيد، وأن نُقابل بالصدود والتكذيب والاستهزاء والإيذاء، فلنوطّن أنفسنا على التحمّل والصبر في مواجهتنا المفتوحة للمنكر حتى لو شُتمنا ورجمنا.. ألمْ يُشْتم رسول الله ﷺ عندما وقف في وجه المنكر العقائدي الذي كان متفشياً في قريش من خلال الشرك وعبادة الأصنام؟

ألم يُهَن ﷺ عندما واجه المنكر الإنساني الذي يمتهن كرامة المرأة ويكرس الطبقية الظالمة بين السادة والعبيد؟ ألم يُسب ﷺ عندما أعلنها حرباً لا هوادة فيها على المنكر الأخلاقي الذي يستبيح الاتجار بالزنا ويكره الفتيات على البغاء؟ ألم يُحاصر ﷺ ويُطرَد من مكة عندما وقف في وجه المنكر السياسي والمتمثل بالطغيان والاستكبار؟ لكنه رغم كل ذلك لم يضعف ولم يلن عزماً، بل واجه كل ذلك الأذى والشتم والإهانات بالصبر والتحمل، حتى استطاع أن يعيد للمعروف قيمته ويكرس المنكر منكراً. ومن هنا فإن العاملين الرساليين يَرَون أن الصعاب التي تعترضهم هيّنة ما دامت بعين الله تعالى وفي سبيل تحصين مجتمعهم من التصدع والتلوث. في الحديث: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **أمّا بعد فإنّه هلك من كان قبلكم حينما عملوا المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وإنّما لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات، فأْمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واعلموا أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقربا أجلاً ولن يقطعا رزقاً**»[١].

وفي الحديث أيضاً قال النبي ﷺ: «**إنّ الله عز وجل ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر**»[٢].

ثم علينا أن نتذكّر جيداً أنّ الإمام الحسين عليه السلام قدم نفسه وأبناءه وأصحابه وكل ما يملك من أجل مواجهة المنكر الذي استشرى وفتك في جسم الأمة آنذاك، ليس المنكر الأخلاقي والشرعي فحسب، بل والمنكر السياسي فقد عمّ الظلم والبغي وانتشر الفساد، وتحوّل الحاكم إلى أهمّ مروّج للمنكر وحارس له، وتمّت حراسة المنكر السياسي والأخلاقي بمنكر فكري يعتمد على بعض المفاهيم المزورة، وهذا ما جعل مواجهة المنكر أمراً صعباً ومكلفاً، وقد رأى الإمام الحسين عليه السلام أنّ الواجب يملي عليه أن يواجه المنكر السياسي ولو كلّفه ذلك أن يضحي بحياته وأهل بيته، فهو القائل في بعض منازل الطريق إلى كربلاء: «**وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكّرت وأدبر معروفها... ألا ترون إلى الحقّ**

---

(١) **الكافي**، ج٥، ص٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٩.

لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً»(١).

رابعاً: لماذا نواجه المنكر؟

وقد يتساءل البعض حتى في ساحاتنا: لماذا نواجه الباطل، ولِمَ لا نترك الناس لحريتها والمحاسب هو الله في يوم الحساب؟ وفي الجواب على ذلك نطرح الأسباب التالية التي تحتم علينا رفض المنكر وإدانته ورفضه:

السبب الأول: الإعذار إلى الله، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: قال تعالى وهو يحدّثنا عن انقسام داخل الجماعة المؤمنة من بني إسرائيل إزاء قصة تجاوز بعض المعتدين منهم للأمر الإلهي القاضي بامتناعهم عن الصيد يوم السبت: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف: ١٦٤]. إنّ الآية المباركة قد أوضحت أنّ الانهزام غير مبرر وأن عملية المواجهة لها فوائدها على مستويين:

الأول: الإعذار إلى الله في أداء الواجب، وهذه المعذرة لها فائدة نفسية، وهي أنها تجعل المسلم في موقع من يصرّ على إنكار المنكر في نفسه ورفض التعايش معه، وهذا ما تعبر عنه بعض الأخبار بإنكار المنكر بالقلب.

الثاني: احتمال التأثير، واحتمال التأثير هذا ليس احتمالاً واهياً كما يتخيل كثيرون، وذلك لأن لدى جبهة الرافضين للمنكر عنصر قوة، عليهم أن لا يغفلوا عنه، وهو أن المنكر هو في كثير من الأحيان على خلاف فطرة الإنسان، فإذا عملنا على استثارة مكامن الفطرة لدى الناس فبالتأكيد لن تذهب جهودنا سدى. وربما يأتي مزيد توضيح له في النقطة التالية.

السبب الثاني: **النهي عن المنكر وبقاء الإسلام والقيم**، ومن أهم ثمرات المواجهة

(١) مثير الأحزان، ٣٢.

أنّها تساهم في محاصرة الانحراف ونشر الخير، وتمهد لبقاء الشريعة الإسلامية واستمراريتها حية وفاعلة في وجه كل محاولات التشويه والتضليل أو الخروج عليها، ولا نبالغ بالقول: إنّ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الضامن لإقامة سائر الفرائض الإسلامية، إذ كيف ستبقى فريضة الصلاة وتستمر إقامتها إن لم نأمر بها باعتبارها رمز المعروف؟ وكيف نحاصر شرب الخمر إن لم ننه عنه باعتباره رمز المنكرات؟ ومن هنا جاء في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام التعبير عنها بأنّها فريضة تقام بها الفرائض، يقول الإمام الباقر عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ: **إِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الأَنْبِيَاءِ ومِنْهَاجُ الصُّلَحَاءِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وتَأْمَنُ الْمَذَاهِبُ وتَحِلُّ الْمَكَاسِبُ وتُرَدُّ الْمَظَالِمُ وتُعْمَرُ الأَرْضُ ويُنْتَصَفُ مِنَ الأَعْدَاءِ ويَسْتَقِيمُ الأَمْرُ..**»[1].

وفي الحديث عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»[2]. وتمكين الأشرار ومن ثمّ عدم الاستجابة للأخيار هما النتيجة الطبيعية لعدم القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ تراجع الأخيار وانكفاءهم عن الساحة سيعني تقدم الأشرار وانتشار المنكرات، وبعدها إذا أراد الأخيار معاودة الأخذ بزمام المبادرة فلن يستجاب لهم، لأنّ الموازين قد اختلت وتغيّرت ولم يعد للأخيار كلمة مسموعة.

السبب الثالث: حماية أنفسنا من عدوى المنكر، ولا يتوقف الأمر عند حماية الإسلام وبقائه حياً وفاعلاً، بل إنّ الأثر الطيب لهذه الفريضة يظهر في الأمة نفسها، من خلال صونها وأخذها بأسباب الطهارة والعفة والتكافل والنصرة، أمّا تقاعس أهل العلم والدعاة وتخاذلهم عن مواجهة المنكر وإدانته بالطرق والوسائل الممكنة كافة، فهو لن يجنبهم هم وأبناءهم أو يحميهم من آثار المنكر ونتائجه السلبية، بل سيمتدّ المرض إلى منازلهم وبيوتهم وتسري المنكرات وتعمّ شيئاً فشيئاً وتزحف إلى أبنائهم وإخوانهم.. لأنّ من طبيعة المنكر وخصائصه أنّه يعدي، وتسري العدوى إلى الآخرين، ومع الوقت ستضعف المناعة ضد المنكر، وتتهاوى منظومة القيم والأخلاق، ولهذا فإنّ قيامي

(١) **الكافي**، ج٥، ص٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٦.

وقيامك بهذه الفريضة هو عمل ضروري لحماية أنفسنا وأهلينا وأبنائنا من «فيروس» المنكر وعدواه، فإنّ أبناءنا لا يعيشون في جزيرة معزولة، بل يعيشون في هذا الوسط الاجتماعي الكبير، فإذا فسد المجتمع أو فسدت بعض شرائحه فسوف يسري الفساد والمرض إلى البقية، هذا إن لم يبادروا لوضع حد للمنكر ومحاصرته أو التمرّد عليه ورفض التعايش معه، فإنّ الذين يتعايشون مع المنكر هم كمن يعيش مع الأفعى في غرفة واحد، فلا يدري متى تلدغه بسمها القاتل.

خامساً: تطوير الأساليب في مواجهة المنكر

ومن الضروري أن ننبّه هنا إلى أن مواجهة المنكر ليست مسألة جامدة في أساليبها وأدواتها، ولذا يكون من المهم أن نعمل على تطوير أساليبنا في مواجهة المنكر، إذ الكثير من أساليبنا القديمة لم تعد تجدي نفعاً، فلا معنى للجمود عليها فالأساليب ليست مقدسة. إنّ استحكام المنكر وانتشاره وتعدد أنواعه وكثرة منابره، تفرض علينا أن نعيش حالة استنفار وطوارئ في عملية المواجهة، ولكنه استنفار مدروس ومنظم، تتظافر فيه الجهود وتُدرس فيه الخطى والأساليب.

والخطوة الأولى على هذا الصعيد هي أن تنطلق لدينا مؤسسات تُعنى بدراسة كيفية نشر المعروف ومواجهة المنكر، مستفيدين من أفضل الأساليب المعاصرة، وبما أنّ إنسان اليوم ينجذب إلى الوسائل التقنية الحديثة، فلنعمل على مخاطبته بلغة هذا العصر ولنطلّ عليه من خلال الفضائيات الهادفة ومواقع التواصل الاجتماعي الملتزمة التي تحاكي عقله وتصل إليه بسهولة، فإنه لا ينتشر الهدى إلّا من حيث ينتشر الضلال. وكل مال ينفق في هذا السبيل فهو يصرف في سبيل الله بل إنّ ذلك من أبرز مصاديق الجهاد بالمال، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة: ٤١]، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«والذي نفسي بيده ما أنفق الناس من نفقة أحبّ من قول الخير»**(١).

---

(١) **المحاسن**، ج١، ص١٥.

والخطوة الأخرى التي تكتسب أهمية خاصة، هي تربية الأشخاص الذين يتقنون فن اجتذاب الناس، والآية المباركة أشارت إلى ضرورة التخصص، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ..**﴾[آل عمران: ١٠٤] فالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينبغي أن يقوم به أشخاص منفرون، فأسلوب تقطيب الحواجب فضلاً عن التعنيف الكلامي لم يعد يجدي نفعاً في الكثير من المجتمعات، وإنما الأسلوب الأمثل بل هو الأساس في عملية الدعوة هو أسلوب الرفق، واحتضان الخاطئين والعصاة، ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[آل عمران: ١٥٩]، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

الخطوة الثالثة: المواجهة بالقدوة، فهذه إحدى أهم أساليب نشر المعروف ومواجهة المنكر، بحيث نخرج من الاعتماد فقط على النماذج التاريخية السابقة حصراً، فهذه النماذج على أهميتها، لكن علينا أن نسعى ومن وحي تلك النماذج المشرقة في تاريخنا إلى بناء نماذج تقوائية معاصرة تحمل التَّقوى عنواناً وفكراً وهدياً وسلوكاً، وذلك لإيصال فكرة مفادها أنّ التَّقوى ليست فكرة خيالية وعصية على التطبيق في الزمن الراهن، كلا بل هي الحل الأمثل لمشكلاتنا وأن ثمة مجتمعاً أو أناساً في عصرنا الحاضر قد تحلّوا بالتَّقوى ومع ذلك فهم قد عاشوا حياتهم بشكل طبيعي، إنّ وجود هذه النماذج المعاصرة هو خير رسالة بأن اجتناب المنكر وتمثُّل المعروف ليس أمراً مستحيلاً ولا ممتنعاً. وإنّ أمير المؤمنين عليه السلام في قوله «**غَائِباً مُنْكَرُه حَاضِراً مَعْرُوفُه**» لا يتحدث عن شخصيات ملائكية بل عن شخصيات من جنس البشر ويملكون ما يملك سائر البشر من غرائز وطموحات ومع ذلك وصلوا إلى هذا المستوى الرفيع والرائع، بحيث إنّ منكرهم غائب ومعروفهم حاضر.

(٥١)
لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ

حدود العاطفة: بين الخطأ والصواب

هذه الفقرة تتصل بتنظيم العاطفة في بعديها الإيجاب / الحب، والسلبي/ البغض، وبياناً لذلك نتحدث في النقاط التالية:

١ - الإنسان والعاطفة

العاطفة هي مظهر إنسانية الإنسان، فإن إنساناً بلا مشاعر ولا عواطف هو إنسان قاسٍ ومريض ويفتقد شيئاً أساسياً من إنسانيته، ويكون في معرض أن تصدر منه الكثير من السلوكيات الإجرامية، وقد يتحوّل إلى طاغية، وإنّ أكبر طغاة العالم عندما ندرس سيرتهم وحياتهم الخاصة، نجد أنه قد كان لديهم خللٌ في المشاعر ونقص في العاطفة، وكثيراً ما يلاحظ أنّهم في صغرهم لم يجدوا حضناً دافئاً، ولا لمسة حانية، ولم يأخذوا نصيبهم من المشاعر والرعاية العاطفية، لا سيما من الأبوين.

والعاطفة الإنسانية في حدودها الطبيعية لا يلام عليها الإنسان، فأن يحب الإنسان أبويه أو أبناءه حتى لو كانوا مشركين، هو أمر طبيعي ولا يعاتب عليه بل هو خارج التكليف، نعم يحرم عليه إطاعتهم فيما يغضب الله تعالى.

وإننا نعتقد أنّ التربية بشكل عام والتربية الدينية بشكل خاص مدعوة إلى تنمية المشاعر العاطفية والحفاظ عليها والابتعاد عن كل ما يشوّهها، فيوجب قسوة القلب وانحسار المشاعر، وإنّ المتأمّل في التعاليم الإسلامية والوصايا الدينية يجد أنّها تصبّ في خانة تعزيز المشاعر الإنسانية وتنميتها، وذلك من قبيل الدعوة إلى إزالة الأحقاد والأضغان من القلوب وإلى محبة الإنسان لغيره كما يحبّ لنفسه، إلى غير

ذلك من التعاليم، وفي خصوص الأطفال نلمس الاهتمام بإبعادهم عن كل ما يوجب قسوة القلب، ومن هنا يكره الإسلام للمسلم أن يرسل ابنه في بعض المهام من قبيل أن يكون جزاراً أو بياع أكفان، لأن ذلك يورث قسوة القلب[١]، ولهذا فإننا نحثّ الزوجين ونؤكّد عليهم أنهم في حال اختارا الطلاق أن يحرصا على أن يبقى الطفل بعيداً عن المشاحنات، وأن لا يُحرم من حضن أمه، وعلى الأب أن لا يفكر بذهنية من يريد الانتقام من طليقته ليحرمها من ابنها أو ابنتها، لأنه بذلك يحرم ولده من أهم ما يحتاجه وهو العاطفة، عليه أن يفكر بأن ابنه بحاجة الى قبلة أمه ولمستها وعاطفها واحتضانها، فلا يتحرك بكيدية ولا يستغل ما قد تسمح له به القوانين فيحرم الطفل من أمه، أو يحرم الأم من ابنها.

٢ - التحكم بالعاطفة

هذا ولكنّ العاطفة لها حدود، إذا تجاوزتها فقد يكون ضررها كضرر افتقادها من رأس، وإننا نلاحظ أنّ الإنسان الذي تسيطر العاطفة على قراراته، فإنها توجب انزلاقه عن جادة الصواب، وهذا الأمر ينطبق على العاطفة ببعديها الإيجابي والسلبي، فمشاعر الحب الزائدة حالها كحال مشاعر البغض الزائدة في أنها توجب الانحراف والابتعاد عن الصواب، والوقوع في الغلو، أكان غلو ارتفاع أو انخفاض، وقد قالها أمير المؤمنين عليه السلام: «هلك فيّ رجلان مُحبّ غالٍ ومُبغض قال»[٢].

وأخطر ما في تحكم العواطف بالإنسان أنها تعميه عن رؤية الحقائق، قال الشاعر:

---

(١) في الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «**جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله قد علَّمتُ ابني هذا الكتابة، ففي أيّ شيء أُسلِمهُ؟ فقال صلى الله عليه وآله: أَسلِمْه - لله أبوك - ولا تُسلْمه في خمس: وذكر منها أن يجعله قصّاباً**، وعلّل إبعاده عن هذه المهنة بالقول: «**فإنّه يذبح حتّى تذهب الرحمة من قلبه**»، **تهذيب الأحكام**، ج٦، ص٣٦٢، وعن إسحاق بن عمار قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فخبَّرته أنّه ولد لي غلام، قال: **ألا سميته محمداً؟** قلت: قد فعلت.. إلى أن قال: **ولا تسلمه جزّاراً فإنّ الجزّار تُسلَب منه الرحمة**»، المصدر نفسه، ج٦، ص٣٦٢.. وورد هذا المعنى في صحاح أهل السنّة أيضاً راجع **سنن أبي داوود**، ج٢، ص١٣١.

(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٢٨.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا(١)

ومن هنا كان القاضي مدعواً إلى أن لا يصدر حكمه عند تحكم العاطفة به، وقد ورد «**لا أدب مع غضب**»(٢)، وفي الحديث «قال رسول الله ﷺ: «**من ابتلي بالقضاء فلا يقضين وهو غضبان**»(٣)، وكذا أفتى الفقهاء بكراهة القضاء، عند الجوع والعطش والغم والفرح والوجع(٤) ومدافعة الأخبثين.

إن أكثر الأخطاء التي توجب الزلل وتوقع الإنسان في الندم قد تنشأ عن جنوح عاطفي وعن حب زائد، إنّ بعض الأمهات لا يطقن أن يفارقهن الولد الصغير ولو بأن يذهب إلى المدرسة فلو سمحت لعاطفتها أن تتحكم بها فقد يبقى ولدها جاهلاً، ونحن نعرف بعض النساء ممن إذا بكى ابنها الصغير عند إيقاظه صباحاً وكره القيام من فراشه للذهاب إلى المدرسة فهي لا تطيق سماع بكائه فتبقيه بالبيت! إنّ هذه العاطفة قد تكون كارثة على مستقبل الولد.

ومن هنا لا بدّ أن تبقى العاطفة في إمرة العقل، في المحطات الرئيسية عندما تعصف بك العواطف يميناً ويساراً حكمْ عقلك، ولا تحكمْ عاطفتك، فقد تخسر شيئاً كثيراً لا يعوض، وحتى لو بكيت قليلاً فإنك ستضحك أخيراً.

قصة الطفل زيد مع رسول الله ﷺ

ولنا في قصة الصحابي الجليل زيد بن حارثة خير مثال وعبرة، فقد كان زيد طفلاً صغيراً لم يبلغ الثامنة عندما خرجت به أمه من قبيلتها لزيارة بعض أقاربها وإذا بالزيارة تتحول إلى مصيبة عليها وعلى عائلتها وهم كبير لا يبارح خاطرها لأنّ إحدى القبائل

---

(١) **الأغاني**، ج١٢، ص٤٣١.

(٢) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٧٧٠.

(٣) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٥٣١.

(٤) روى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «لا يقضي القاضي إلّا وهو شبعان ريان»، **السنن الكبرى** للبيهقي، ج١٠، ص١٠٦. وروى عبد الرحمن بن أبي كرة أن النبي ﷺ قال: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**»، **مسند أحمد**، ج٥، ص٣٧.

أغارت على أسرتها فوقع زيد الطفل في الأسر وانتزع من حجر أمه، وحوّله آسروه إلى عبد فباعوه في بعض الأسواق فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد عم خديجة ثم أعطاه إلى خديجة وبعد أن تزوج النبي ﷺ من خديجة أهدت له زيداً فضمه النبي ﷺ إليه ورباه وأحبه حبّاً جمّاً حتى قيل له زيد الحب لشدة حب النبي ﷺ له.

من جهة أخرى، فإن أباه وأمه بكيا على ولدهما بكاءً شديداً، وأنشد والده شعراً رقيقاً في بيان ألم فراقه له(١)، وكانا يبحثان عنه ولا يفارق خاطرهما، أين تاه زيد؟ هل هو حي أم ميت؟ ماذا حلّ به؟ وأخذ والده يفتش عنه في كل البلاد، وإذا ببعض الناس من قومه يذهبون إلى مكة للحج، فرأوا زيد في سوق عكاظ فعرفهم وعرفوهم، وقال لهم انقلوا إلى أهلي هذه الأبيات من الشعر، ومنها:

أحنّ إلى قومي وإن كنت نائيا فإنّي قعيد البيت عند المشاعر

ومع رجوع القوم نقلوا الخبر إلى ذويه فهرع أباه وعمه فرحاً إلى مكة وهما يحملان معهما الأموال ليفتدياه، دخلوا مكة واستفسروا واستطلعوا الأخبار، وإذا بالغلام في حجر محمد ﷺ فدخلا على النبي ﷺ وقالا: يا ابن عبد الله يا بن هاشم يا بن سيّد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكّون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه! فقال: **من هو؟** قالا: زيد بن حارثة، فقال النبي: **فهلا غير ذلك؟**

قالا: ما هو؟ قال: **ادعوه وخيروه فإنّ اختاركم فهو لكم وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني أحداً**، قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: **هل تعرف هؤلاء؟** قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي! قال: **فأنا من عرفت ورأيت صحبتي فاخترني أو اخترهما**، قال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً. فلما رأى رسول الله ﷺ

---

(١) **الاستيعاب**، لابن عبد البر، ج٢، ص٥٤٤.

ذلك أخرجه إلى الحجر في بيت الله فقال: **يا من حضر اشهدوا أنّ زيداً ابني يرثني وأرثه،** فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا.. ونسب ذلك زيد إلى النبي فقيل له زيد ابن محمد(١).

٣ - التَّقوى وحراسة الإنسان من السقوط في طغيان العاطفة

وهنا يأتي دور التَّقوى والاستقامة لتحمي الإنسان من الوقوع في فخ العاطفة ومنزلقاتها، وهذا ما أكدت عليه كلمة الإمام عليه السلام أعلاه، فهو يشير إلى أنّ الإنسان المتّقي تحميه تقاه من أمرين:

أولاً: من أن «يَحِيف عَلَى مَنْ يُبْغِضُ» أي يظلم من يكرهه، والإنسان أكثر ما يقع في ظلم الغير عندما يتحكم به البغض والحقد، فيمنع الآخر ويحيف عليه ليس لكونه غير محق، بل لأنه يكرهه. إنّ البغضاء والأحقاد تعمي وتصم عن رؤية حسنات الآخرين. ولهذ أكد القرآن على العدل مع من نكره، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[المائدة: ٨].

وقد أوصى أمير المؤمنين علي عليه السلام بابن ملجم بعد أن ضربه على رأس الشريف، محذراً بني عبد المطلب من أن تأخذهم العاطفة فيحيفوا ويظلموا: «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، أَلا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِه هَذِه، فَاضْرِبُوه ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، ولَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: إِيَّاكُمْ والْمُثْلَةَ ولَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ**»(٢).

وثانياً: وأن «**لَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ**»، فالتَّقوى لا بدّ أن تحمينا من أن نميل إلى من نحب على حساب الحق، وقصة علي عليه السلام مع أخيه عقيل أعظم درس في هذا المجال، يقول عليه السلام: «**واللَّه لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وقَدْ أَمْلَقَ، حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، ورَأَيْتُ**

---

(١) **أسد الغابة**، ج٢، ص٢٢٥.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٣، ص٧٧.

صِبْيَانَه شُعْثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً وكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْه سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُه دِينِي، وأَتَّبِعُ قِيَادَه مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَه حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِه لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَه ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ، أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِه، وتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِه، أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى ولَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى»(١).

وقال عليه السلام مخاطباً بعض ولاته من بني هاشم: «ووَاللَّه لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ ولَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا وأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا»(٢).

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٢١٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٧.

(٥٢)
يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْه

المتَّقون والاعتراف بالحق

وهذا المقطع من كلامه عليه السلام يشير إلى مفهوم أخلاقي رفيع وهو الاعتراف بالحق، وعلينا التوقّف عنده من خلال النقاط التالية:

أولاً: الاعتراف بالحق

اعترافك بالحق فضيلة وواجب، لأنه تعبير عن صدقك، فلو كان في ذمتك حق لأحد، فلا يحقّ لك أن تنكر الحق ولو كنت قادراً على الإنكار، لأنّ الإنكار كذب، ولا يجوز لك أن تسكت وتتغافل مقدمة لأكل مال الناس بالباطل.

والأفضل أن يكون الاعتراف بالحقّ قبل أن يشهد الآخرون عليك، إنّ الاعتراف بالحق بعد قيام الشهادة عليك ليس منقبة ولا فضيلة، وإنما حياء، وقد لا يخلو من ريبة، وإنما مقتضى الأمانة هو أن يعترف به قبل أن يشهد به أحد.

قصة الرجل والسكين

ومن أجمل القصص عن الاعتراف بالحق رغم أن الإنسان ليس ضده أية شهادة تدينه بل الأمور تتجه إلى إدانة غيره، ما ورد في قصة الرجل الذي وجد يحمل سكيناً فوق جثة آخر، ففي الخبر عن أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**أُتِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِرَجُلٍ وُجِدَ فِي خَرِبَةٍ وبِيَدِه سِكِّينٌ مُلَطَّخٌ بِالدَّم وإِذَا رَجُلٌ مَذْبُوحٌ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِه فَقَالَ لَه أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: مَا تَقُولُ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا قَتَلْتُه قَالَ اذْهَبُوا بِه فَاقْتُلُوه بِه فَلَمَّا ذَهَبُوا**

بِه لِيَقْتُلُوه بِه أَقْبَلَ رَجُلٌ مُسْرِعاً فَقَالَ لَا تَعْجَلُوا ورُدُّوه إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَرَدُّوه فَقَالَ واللَّه يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا هَذَا صَاحِبَه أَنَا قَتَلْتُه فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لِلأَوَّلِ مَا حَمَلَكَ عَلَى إِقْرَارِكَ عَلَى نَفْسِكَ ولَمْ تَفْعَلْ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ومَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ وقَدْ شَهِدَ عَلَيَّ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ وأَخَذُونِي وبِيَدِي سِكِّينٌ مُلَطَّخٌ بِالدَّمِ والرَّجُلُ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِه وأَنَا قَائِمٌ عَلَيْه وخِفْتُ الضَّرْبَ فَأَقْرَرْتُ وأَنَا رَجُلٌ كُنْتُ ذَبَحْتُ بِجَنْبِ هَذِه الْخَرِبَةِ شَاةً وأَخَذَنِي الْبَوْلُ فَدَخَلْتُ الْخَرِبَةَ فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِه فَقُمْتُ مُتَعَجِّباً فَدَخَلَ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ فَأَخَذُونِي فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام خُذُوا هَذَيْنِ فَاذْهَبُوا بِهِمَا إِلَى الْحَسَنِ وقُصُّوا عَلَيْه قِصَّتَهُمَا وقُولُوا لَه مَا الْحُكْمُ فِيهِمَا فَذَهَبُوا إِلَى الْحَسَنِ عليه السلام وقَصُّوا عَلَيْه قِصَّتَهُمَا فَقَالَ الْحَسَنُ عليه السلام قُولُوا لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِنَّ هَذَا إِنْ كَانَ ذَبَحَ ذَاكَ فَقَدْ أَحْيَا هَذَا وقَدْ قَالَ اللَّه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢] يُخَلَّى عَنْهُمَا وتُخْرَجُ دِيَةُ الْمَذْبُوحِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ»[١].

ثانياً: الصدقُ والاعتراف بالحقّ في الظروف القاهرة

ثمّ، إن الاعتراف بالحق واتباعه وإن كان فضيلة وهو مطلوب كما ذكرنا، لكنّ ذلك مقيد بأن لا يكون سبباً لتعريض صاحبه للمخاطر، فعندها يجوز الإنكار[٢]، وقد أباح النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمار بن ياسر قول كلمة الكفر ليدفع الضرر عن نفسه، ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل: ١٠٦]، ولكن لو أنّ المؤمن في مثل موقف عمار آثر عدم النطق بكلمة الكفر واختار كلمة الحق والصدق، وأدى صدقه إلى دفع الثمن من دمه، فهو عند الله شهيد، وقد فعل ذلك كثيرون من أصحاب علي عليه السلام ممّن طُلب منهم أن يسبوا عليّاً أو يتبرأوا منه، لكنّهم رفضوا وقدموا أنفسهم شهداء على مذبح الصدق والولاء لعلي عليه السلام. ومن هؤلاء الأبرار حجر بن عدي الكندي وصحبه الكرام، ومنهم ميثم التمار وغيرهم.

---

(١) **الكافي**، ج٧، ص٢٨٩.

(٢) اللّهم إلا إذا كان الإنكار سبباً لتوجه الضرر على غيره، فلا يجوز للإنسان أن يدفع الخطر عن نفسه بتوجيهه إلى غيره، على تفصيل مذكور في الكتب الفقهية.

ويروى «أنّ عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما، فقال [مسيلمة] **لأحدهما:** أتشهد أن محمداً رسول الله، قال: نعم، فقال: أتشهد أني رسول الله، قال: فأهوى إلى أذنيه فقال: إني أصم، قال: ما لك إذا قلت لك: تشهد أني رسول الله، قلت إني أصم، فأمر به فقتل، وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فقال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فأرسله، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله: هلكت، قال: **وما شأنك؟** فأخبروه بقصته وقصة صاحبه، فقال: **أمّا صاحبك فمضى على إيمانه، وأما أنت فأخذت بالرخصة**»(١).

ثالثاً: الاعتراف بالخطأ فضيلة

وهناك صورة أخرى من صور الاعتراف، وهي الاعتراف بالخطأ(٢)، فإنه إذا كان الاعتراف بالحق لغيرك مع عدم كونك مخطئاً هو عملٌ طيب، فالاعتراف بالخطأ هو الآخر فضيلة عظيمة، وعلينا أن نتعلم الأخذ بهذه الفضيلة وأن نعلم أولادنا على ذلك، وأن لا نعيش حالة إنكار وكذب، لأن هذا سبب دمارنا وقد يدخلنا في المتاهات لأن حبل الكذب قصير. إنّ الاعتراف بالخطأ يحتاج إلى شجاعة أدبية، والمؤمن ينطلق في اعترافه من قاعدة أنّ «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(٣).

أ - الاعتراف أمام الله تعالى

ثم إنّ الاعتراف تارة يكون أمام الله وأخرى أمام الناس، فعندما يخطئ العبد مع ربه عليه أن يعترف لله بذنبه، قد تسأل: ولماذا اعترف ما دام ربي عالمًا بي وبذنبي؟ الجواب: إنّ الاعتراف هنا ذو أثر تربوي، فهو يعبّر عن خلوص نيتك في طلب التوبة وإلحاحك في ذلك، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(١) **المصنف** لابن أبي شيبة، ج٧، ص٦٤٢، وقد نقلها الشيخ الطوسي في **التبيان**، ج٢، ص٤٣٥.

(٢) الفرق بينها وبين الصورة السابقة، أنها في السابقة لم يصدر منك خطأ ولكنك إذا أخفيت أو أنكرت فقد أخطأت، وأما في الثانية، فقد صدر منك خطأ وإذا لم تعترف فقد راكمت خطأ على خطأ.

(٣) **تاريخ الطبري**، ج٢، ص٤٣٤.

وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

وقد امتدح الله تعالى قوماً اعترفوا بذنوبهم، وأمّلهم برحمته وغفرانه، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٢].

وعليك في مثل هذا النوع من الأخطاء أن تحصر اعترافك بالله تعالى، فما دام ما فعلته هو معصية لله وليس في رقبتك حقّ إنسان فليس عليك أن تعترف أمام الناس، ولا يحبّذ الشرع لك فضح نفسك. اعترف لربك واعتذر واطلب المغفرة.

ب - الاعتراف أمام الناس

وأما إذا كان الخطأ مع الناس، فتارة يكون بتجاوز حقّ معنوي للآخر وأخرى بتجاوز حقّ مادي، فإنْ كان بتجاوز حقّ معنوي، كما لو اغتبت شخصاً وشتمته، فهنا ينبغي أن تعترف له وتطلب مسامحته، وهكذا لو كان هناك خطأ مع الأمة أو مع جماعة من الناس، كما يحصل ذلك من بعض المسؤولين، فإنّ أدنى الواجب أن يعتذر منهم، والاعتذار هو بداية التصحيح والتغيير، ولا يأخذ به إلا من جرد نفسه من الهوى وكان لائقاً بالمسؤولية، ولكن كثيراً من المخطئين بحق الأمة يعتمدون منهج الإنكار ـ بدل الاعتراف ـ والمكابرة، والإصرار على أن ما فعلوه كان صواباً، وهذا مرض خطير يعيشه الإنسان، وانعكاساته ليس على شخص المكابر فقط، بل على المجتمع برمته.

إنّ لدينا مشكلة في الاعتذار، فترانا ننكر ونكابر، وبعضنا يكابر ولا يطلب المسامحة حتى من والديه. إنّ من كان لديه جرأة الاعتراف بالخطأ وطلب المسامحة هو إنسان جديرٌ بالاحترام، لأنه قدّم مسألة جبر القلوب التي تأذت منه على حفظ صورته

الاجتماعية.. ونقولها للذين يبالغون في حفظ صورتهم الاجتماعية: إنّ الاعتراف بالخطأ يزيدك احتراماً وتقديراً بينما الإنكار أو التكبر يظهر معدنك المريض ويسيء إلى صورتك ومكانتك.

وأما إذا كان الحق مادياً صرفاً فعليك أن توصل إليه حقه، وقد ذكر الفقهاء أنه يكفيك أن توصل له حقّه بدون اعتراف والأفضل هو الاعتذار منه، لكن اذا كان الحقّ لا يعوض بغير اعتراف كما لو كان عدم اعترافك يجعل إنساناً بريئاً في قفص الاتهام، فهنا عليك الاعتراف بالإضافة إلى أداء الحق.

ت - الاعتذار الصريح

ثم ليكن الاعتذار واضحاً لا مواربة فيه ولا يحتمل التأويل، فليقل المخطئ لمن أخطأ معهم: أنا أخطأت فاعذروني. إنّ بعض الناس يصْعُبُ عليه أن يطلب العذر من الآخرين ممّن أخطأ معهم وأساء إليهم، ويحاول الالتفاف وتغليف الاعتذار بالأعذار التي يوجدها لنفسه، بحجة أن كرامته لا تسمح له بالاعتذار الصريح! وهل كرامتك أغلى من كرامة الناس الذين أسأت إليهم؟! هذا موسى الكليم عليه السلام يتقدم من العبد الصالح معتذراً، لكونه قد اعترض عليه لخرقه السفينة، مخلفاً، أي موسى، بوعده له بأن يصبر في رحلته معه ولا يسأله عن شيء لم يخبره عنه من تلقاء نفسه، فقالها بكل وضوح مخاطباً العبد الصالح: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾[الكهف: ٧٣].

ث - الاعتراف والاعتذار مقدمة للتصحيح

ثم إنّ عليك أن تعي أنّ الاعتراف هو مقدمّة للتصحيح والتغيير، وأما أن تعتذر ثم تعود للخطأ مجدداً، فهذا ليس عملاً سوياً، طبيعي أن الإنسان يبقى هو الإنسان، فهو خطّاء، وقد يحتاج إلى أن يكرر الاعتذار، كلّما أخطأ مع الآخرين، ولكن على الإنسان العاقل أن يسعى للتخفيف من أخطائه الموجبة للاعتذار، فمن يتكرر خطأه أكثر من المعتاد ويكثر اعتذاره هو إنسان غير سوي، وقد يكون لديه مشكلة في شخصيته، وعليه

أن يفتش قبل كل شيء عن السِّر في كثرة أخطائه وتجاوزِه لحقّ الآخرين، وغالباً ما يكون السبب: إما الغضب أو اتباع الظن، أو اتباع الهوى، فمن يغضب بسرعة سوف يكثر خطأه لأنّ «**سبب العطب طاعة العطب**»، كما روي عن علي عليه السلام[1]، وهكذا فإنّ من يتبع الظنون في الحكم على الآخرين سوف يخطئ، لأنّ الظن سبب الاشتباه، ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا**﴾[النجم: ٢٨].

والغريب أنّ بعض الناس تهون عليه نفسه، فهو على استعداد أن يضع نفسه كل يوم في موقف الاعتذار من الآخرين، بسبب كثرة أخطائه معهم، وهذا الشخص ـ كما قلنا ـ ليس سوياً، وعليه أن يهتم بتنمية حسّ الكرامة لديه، بما يحرسه من أن يضع نفسه في موقف الاعتذار وما يشوبه من ذلّ.

وحذار من الاعتذار الكاذب، فأنت مكشوف أمام نفسك وأمام خالقك، ﴿**بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ**﴾[القيامة: ١٤]، فلا تداوي الخطأ بخطأ أكبر. إنّ على الإنسان أن ينشغل بنفسه فيحاسبها وينهاها عن الهوى، ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠].

رابعاً: الاعتراف بخطأ الفكر والاعتذار عنه

ما تقدّم كان في خطأ السلوك، ولكنْ ثمة نوع آخر من الخطأ، وهو من أخطر الأخطاء التي تحتاج إلى الاعتراف وإلى التصحيح في الآن عينه، ألا وهو خطأ الفكر، ولا سيما إذا كان الإنسان في موقع التأثير والاتباع. وإننا نلاحظ أنه في كثير من الأحيان يصعب على المفكّر والواعظ أن يتراجع عن رأي أو فكرة طرحها أو كتبها، ولا سيما إذا نقده الآخرون وأظهروا خطأه على الملأ! لكن في الحقيقة هنا يبرز مدى التدين وتتجلّى ملكة التَّقوى، فإذا أصرّ الإنسان على طرحه الخاطئ مع تنبيهه، فهو إنسان لا يليق بأمانة الفكر، ولا يملك تقوى العلم، وليس أهلاً ليكون وارثاً للأنبياء عليهم السلام، وطبيعي، فإنّه يتحمّل وِزر رأيه ووزر من عمل به إلى يوم القيامة.. أن تمتلك شجاعة الاعتراف بالخطأ فهذا

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٨١.

يعني أنك أهل لتحمل المسؤولية والأمانة، وإلا فأنت خائن للناس الذين وثقوا بك وائتمنوك على دينهم.

وعلى الإنسان في هذه الحالة أن يبادر إلى تصحيح الخطأ قبل فوات الأوان، وقبل أن تستحكم الفكرة الخاطئة في النفوس ويغدو قلعها وتغييرها صعباً، كما حصل مع بعض مدعي النبوة كذباً، فإنه أراد التوبة بعد فوات الأوان فلم يفلح ولم ينفعه رجوعه عند الله على ما جاء في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**كان رجل في الزمان الأول طلب الدنيا من حلال فلم يقدر عليها، فطلبها حراماً فلم يقدر عليها، فأتاه الشيطان فقال: يا هذا قد طلبت الدنيا من حلال فلم تقدر عليها، وطلبتها من الحرام فلم تقدر عليها، أفلا أدلك على شيء يكثر به دنياك ويكثر به تبعك؟ قال: نعم، قال: تبتدع دينا وتدعو إليه الناس، قال: ففعل، فاستجاب له الناس فأطاعوه وأصاب من الدنيا قال: ثم إنه فكر وقال: ما صنعت شيئاً؟ ابتدعت دينا ودعوت الناس إليه، ما أرى لي توبة إلا أن آتي من دعوته إليه فأرده عنه، قال: فجعل يأتي أصحابه الذين أجابوه فيقول: إن الذي دعوتكم إليه باطل وإنما ابتدعته كذباً، فجعلوا يقولون له: كذبت، هو الحق ولكنك شككت في دينك فرجعت عنه، قال: فلما رأى ذلك عمد إلى سلسلة فأوتد لها وتدا ثم جعلها في عنقه فقال: لا أحلها حتى يتوب الله عليّ، قال: فأوحى الله تعالى إلي نبي من أنبيائه أن قل لفلان بن فلان: وعزتي وجلالي لو دعوتني حتى تنقطع أوصالك ما استجبت لك حتى ترد من مات على ما دعوته إليه فيرجع عنه**»[١].

(١) **المحاسن** للبرقي، ج١، ص٢٠٨، ومن لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٥٧٢.

(٥٣)
لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ

المتَّقي وحفظ الحقوق

وهذه الصفة هي من أعظم صفات المتَّقي، فهو لا يضيع ما استحفظ وما حُمِّل من أمانات. والسؤال: ما الذي طُلب إلينا حفظه؟ وكيف يكون هذا الحفظ وعدم التضييع؟

ذكر شرّاح النهج آراء عدة في بيان ما طُلب حفظه، وهي كلها صحيحة في نفسها وتحتملها العبارة:

أولاً: حفظ حق الله تعالى[1]

أول ما يجب على الإنسان حفظه ومراعاته، هو حق الله تعالى، فهو الخالق وهو المالك وهو الرازق والمعطي، ونعمه وعطاياه لا تُعدّ ولا تحصى، أليس أدنى الواجب أن نفي له بحقه في الوحدانية فلا نشرك معه أحداً! ونفي له بحقه في العبودية فلا نعبد سواه! ومن أجلى مظاهر حفظ حقّه جل وعلا في العبودية أن نصلي له تعالى ونحافظ على الصلوات، التي هي صلة الوصل بيننا وبينه، ولذا ورد التأكيد في القرآن الكريم على حفظ الصلاة، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[المؤمنون: ٩]. وعبوديته لا تزيد في ملكه وإنما تؤنسننا وتعطينا أمناً وسلاماً روحياً.

ولكن أين نحن من الحفاظ على الصلاة، في حدودها وضوابطها، يؤسفنا أنّ معظمنا

(١) رجحه العلامة الخوئي في **منهاج البراعة**، ج١٢، ص١٥٢.

ضيّع حقّ الصلاة في كثير من الأحيان، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩].

ثانياً: حفظ دين الله تعالى

ومما استحفظناه أيضاً القرآن الكريم، فهو وديعة الله فينا، قال تعالى بشأن الأنبياء والربانيين: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾[المائدة: ٤٤]. وطبيعي أن حفظ كل شيء بحسبه، فحفظ المال بوضعه في الخزانة ولكن حفظ الكتاب بأن تتّخذه قدوة وإماماً، فالقرآن ما أنزله الله تعالى ليكون كتاباً للزينة ولا للبركة ولا لنؤنس الأموات بتلاوته، بل ليعمل به الأحياء وتأنس به أرواحهم وعقولهم. عندنا عادة في بلادنا وهي «تونيسة» الميت بتلاوة القرآن، وبعضهم يوصي بهذا الشيء ويبذل لذلك مال، والحقيقة أنّ القرآن إنما يكون أنيسنا في قبورنا إذا اتخذناه أنيساً لنا في حياتنا، أما إذا جعلناه في الدنيا وراءنا ظهرياً، فلن ينفعنا لا في القبر ولا في الآخرة، بل ستطالنا عندئذٍ شكوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾[الفرقان: ٣٠].

وقد طلب إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نحفظ أهل بيته عليهم السلام، لأنهم الامتداد لسُّنَّته، وحفظهم عليهم السلام من حفظه صلى الله عليه وآله وسلم وحفظ سنَّته، فعن زيد بن أرقم قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب اللَّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يَرِدا على الحوض فانظروا كيف تَخلُفوني فيهما**»[١].

ومن أهم ما يجب علينا في هذه المرحلة التأكيد على ضرورة حفظه: هو الدين، وذلك في وجه حملات التشويه التي يتعرض لها، وهي تأتي من مصدرين:

الأول: الخارج الحاقد، والذي يسعى لتشويه الدين وطمس محاسنه.

(١) **سنن الترمذي**، ج٥، ص٣٢٩.

الثاني: الداخل الساذج، الذي يخلط الدين بما ليس منه، ولا يميز بين الغث والسمين، ولا بين الضعيف والصحيح.

ومما طلب إلينا حفظه «الصلوات الخمس ونحوها من الطاعات»(١)، قال سبحانه: ﴿**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ**﴾[البقرة: ٢٣٨]، وقال أيضاً: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ**﴾[الأنعام: ٩٢].

ثالثاً: حفظ حقوق الناس المادية والمعنوية

ومما طلب إلينا حفظه وعدم تضييعه: حقوق الناس، أكانت مالية أو غيرها، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**مَا عُبِدَ اللَّه بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَاءِ حَقِّ الْمُؤْمِنِ**»(٢).

ومن أهم حقوق الناس: أموالهم وأماناتهم، فلا يجوز تضييعها ولا الاستهانة بها، بل يجب حفظها وأداؤها، ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ**﴾[المؤمنون: ٨ ـ المعارج: ٣٢]. وأداء الأمانة، هي علامة صدق الإيمان، «**ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة**»(٣)، وعن سيدنا زين العابدين عليه السلام: «**عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمداً بالحق نبياً، لو أن قاتل أبي الحسين بن علي عليهما السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته إليه**»(٤). إنّ من أعظم صفات سيدنا رسول الله، أنه الأمين، وقد كانت قريش تأتمنه على أموالها حتى بعد أن كذّبوه لما أعلن رسالته وصدع بالدعوة، ومن اللّافت أنّ نبينا صلى الله عليه وآله وسلم اتُّهم بأبشع الاتهامات الباطلة، اتُّهم بأنه كذاب ساحر وشاعر وكاهن ومجنون.. لكن لم يُتّهم بأنه خائن، لأنّ تهمة كهذه لا يمكن ترويجها ولن يصدقها أحد لظهور أمانته بين الناس.

والأمانة التي يفترض بنا حفظها لا تقتصر على الأمانة المادية، فهناك الأمانات

---

(١) **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص١٥٢.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص١٧٠.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٤.
(٤) **أمالي الصدوق**، ص٣١٩.

المعنوية، ومنها **حفظ الأسرار**(١)، فإذا وضع أحدهم سره عندك، فلا تفضحه، حتى لو اختلفت معه بعد ذلك، لأنّ فضح سره خسة وخيانة. إنّ أسرار الناس مقدّسة، وقد ورد «المجالس بالأمانة»(٢)، وعن السيدة عَائِشَةَ قَالَتْ: «أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **مَرْحَباً بِابْنَتِي**، ثمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثاً فَبَكَتْ! فَقُلْتُ لهَا: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثاً فَضَحِكَتْ؟ فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحاً أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ؟ فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: **أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقاً بِي فَبَكَيْتُ فَقَالَ: أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ**»(٣).

---

(١) قال المجلسي: «أي ما أودع عنده من الأموال والأسرار، والتضييع في الأول بالخيانة والتفريط، وفي الثانية بالإذاعة والإفشاء، ويحتمل شموله لما استحفظه الله من دينه وكتابه»، **بحار الأنوار**، ج٦٤، ص٣٢٩.

(٢) **الأمالي** للطوسي، ص٥٣.

(٣) **صحيح البخاري**، ج٤، ص١٨٣.

(٥٤)
ولَا يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ

المتَّقون والتنابز بالألقاب

وهذه الفقرة تضمنت مفهوماً إسلامياً قرآنياً يعدّ من آداب التخاطب في الإسلام، وهو الابتعاد عن التنابز بالألقاب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾[الحجرات: ١١]. وبياناً لهذا المفهوم نطرح نقاطاً عدة:

أولاً: المراد بالتنابز في الألقاب

التنابز ـ لغة ـ هو تَفَاعلٌ من النَّبْزِ، وهو يكون بذكر الآخر باللقب المشعر بالتوهين، فإنّ اللّقب تارة يكون مستحسناً، كأنْ نقول لفلان: الطيب أو الطاهر، أو يقال له العالم، إن كان أهلاً لذلك، أو يقال: الحاج، لمن حج البيت، أو ما إلى ذلك، وتارة أخرى يكون بما يوجب الوهن والنقص، وهذا هو المبغوض، قال الطبرسي: «الألقاب: جمع اللقب، وهو اسم غير الذي سُمِّي به الإنسان. وقيل: هو كل اسم لم يوضع له، وإذا دعي به يكرهه. فأما إذا كان لا يسوؤه، ولا يكرهه، فلا بأس فيه، مثل: الفقيه والقاضي. وقيل: هو قول الرجل للرجل: يا كافر، يا فاسق، يا منافق، عن قتادة وعكرمة. وقيل: كان اليهودي والنصراني يُسْلِم فيقال له بعد ذلك: يا يهودي، أو يا نصراني. فنُهوا عن ذلك، عن الحسن. وقيل: هو أن يعمل إنسان شيئاً من القبيح، ثم يتوب منه، فيعيَّر بما سلف منه، عن ابن عباس»[١]. وإن إطلاق اللفظ يسعُ كلّ ما ذكر.

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص٢٢٧.

والتنابز بالألقاب شائع في مجتمعاتنا الإسلامية، وغالباً ما يراد به التنقيص والاستهانة والإسقاط والتعيير، وما إلى ذلك. ويؤسفني أن كثيرين يستسهلون نبز الآخرين، وسبهم وتحقيرهم.

ثانياً: أشكال التنابز بالألقاب العنصرية

والنبز باللقب له أسباب عديدة، فهو إما أن يكون **تعييراً بلون،** كأن يقول له: يا أسود، وهي عبارة عنصرية تفوح منها رائحة مقيتة لا إنسانية، ولا يزال البعض يقول للأسود يا عبد، **أو تعييراً بقومية،** كأن يقال له في أوساط العرب: يا كردي، وبعض القوميات الأخرى قد تعير الشخص بعروبته، **أو تعييراً بجنس،** كأن يعبّر عن رجل: بأنه امرأة، أو يناديه: يا «حريمة»، وهو تعبير يراد به الانتقاص من الآخر ويوحي أيضاً بإهانة جنس النساء، **أو تعييراً بعيب** أو نقص في جسده أو عقله، فيقول له يا أعور، أو يا أعمى، أو يا أعرج. ومن اللّطيف أنّ العرب كانوا يكنون الأعمى بأبي بصير، رعاية لمشاعره، بينما بعضنا يناديه يا أعمى! أو يكون النقص في عقله فيقال له: يا مجنون أو يا معتوه أو يا مخبول، أو ما إلى ذلك. **أو تعييراً بحرفة،** كأن ينادي من يجمع القمامة يا زبال أو ما إلى ذلك. **أو تعييراً بدين،** كنسبته إلى دين لا يرتضيه الشخص، بحيث يكون فيه إهانة له، كأن يقال له: يا يهودي، والظاهر أنّ ذلك سبب نزول الآية المتقدمة الناهية عن التنابز بالألقاب، ففي تفسير علي بن إبراهيم: «فإنّها نزلت في صفية بنت حُيي بن أَخْطَب، وكانت زوجة رسول الله ﷺ، وذلك أن عائشة وحفصة كانتا تؤذيانها وتشتمانها، وتقولان لها: يا بنت اليهودية! فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال [لها]: **ألا تجيبيهما؟** فقالت: بماذا يا رسول الله؟ قال: **قولي: إن أبي هارون نبيُّ الله، وعميّ موسى كليمُ الله، وزوجي محمدٌ رسول الله، فما تنكران مني؟!**»[1].

(١) تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٢.

ثالثاً: اللقب المشهور

في بعض الأحيان يصبح اللّقب علماً على الشخص، أو على الأسرة، كالأخفش أو الأعمش، أو الأعور، أو الأعرج، وهنا لا محذور في إطلاقه عليه، لأنه لا يقصد به النبز، بل هو تعريف محض.

ولكن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام كانوا يكرهون تلقيب الأشخاص بمثل هذه الألقاب حتى لو اشتهر اللقب وصار علماً لصاحبه، ففي الخبر يقول الراوي: «سمعت الرضا عليه السلام يوماً ينشد وقليلاً ما كان ينشد شعراً:

كـلُّـنـا يـأمـلُ مـداً فـي الأجـلْ والـمـنـايـا هـنّ آفـات الأمـلْ
لا تـغـرّنـك أبـاطـيـلُ الـمـنـى والـزم الـقـصـد ودع عـنـك الـعـلـل
إنـمـا الـدنـيـا كـظـلٍّ زائـلٍ حـلّ فـيـه راكـب ثـم رحـل

فقلت: لمن هذا أعزّ الله الأمير[1]؟ فقال: لعراقي لكم، قلت: أنشدنيه أبو العتاهية لنفسه، فقال: هات اسمه ودع عنك هذا، إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[الحجرات: ١١] ولعلّ الرجلَّ يكره هذا»[2].

رابعاً: تكنية الطفل مخافة اللّقب

ومن الأخطاء التي نرتكبها أحياناً تلقيب الأطفال بألقاب مسيئة على سبيل الدعابة والمزاح، لكن سرعان ما يأخذ هذا اللّقب مساره ويلازم الطفل إلى شبابه وهرمه، مع أنّ الإسلام يأمر بحسن تسميته، ويعتبر ذلك حقاً من حقوقه، وقد حثّ الأئمة عليهم السلام على تكنية الطفل حذراً من الألقاب القبيحة، ومخافة أنْ ينبزوا بها في كبرهم، فعن مَعْمَرِ بْنِ خُثَيْم قَالَ: قَالَ لِي أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «**مَا تُكَنَّى؟** قَالَ قُلْتُ: مَا اكْتَنَيْتُ بَعْدُ ومَا لِي مِنْ وَلَدٍ ولَا امْرَأَةٍ ولَا جَارِيَةٍ! قَالَ: **فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ؟** قَالَ قُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنَا عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام! قَالَ: **ومَا**

---

(١) ظاهره أن السؤال حصل في زمن توليه لولاية العهد.

(٢) **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، ج٢، ص١٩١.

هُوَ؟ قُلْتُ: بَلَغَنَا عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّه قَالَ مَنِ اكْتَنَى ولَيْسَ له أَهْلٌ فَهُوَ أَبُو جَعْرٍ[١]، فَقَالَ أَبُو جَعْفَر عليه السلام: شَوْه[٢] **لَيْسَ هَذَا مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ عليه السلام إِنَّا لَنُكَنِّي أَوْلَادَنَا فِي صِغَرِهِمْ مَخَافَةَ النَّبَزِ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ**»[٣]، فلاحظ أنه عليه السلام قد كذّب ما نُسب إلى علي عليه السلام، ثم دعاه إلى تكنيته.

---

(١) قال الفراهيدي: «الجعر ما يبس في الدبر من العذرة، أو خرج يابساً»، **كتاب العين**، ج١، ص٢٢٤.

(٢) أي: «قبحا لهم أو بعدا لهم، وفي بعض نسخ الكافي «سوءة»»، **ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار**، ج١٢، ص٤١٢.

(٣) **الكافي**، ج٦، ص٢٠.

(٥٥)
وَلا يُضارُّ بِالْجَارِ

الجوار حقوق وآداب

إنّ المنظومة الأخلاقية القيمية التي أكدّ عليها الإسلام آخذة بالتلاشي في الكثير من مجتمعاتنا، كما أنّ الكثير من المفاهيم آخذة بالانقراض. من هذه المفاهيم: مفهوم الجوار، ورعاية حقوقه، وهذا من نتائج تأثر الأجيال الإسلامية بالنزعة الفردانية، وهي نزعة مادية روّج لها الغرب، حتى غدا الإنسان هناك مهتماً بنفسه واحتاجاته، ولا يعنيه آلام الآخرين وهمومهم حتى لو كانوا من أرحامه أو جيرانه، وهذا ما يحتم علينا أن نسعى للتذكير والتبشير بالقيم النبيلة والأصيلة التي جاءت بها شريعتنا الإسلامية، ونحن قد بحثنا قضية الجوار في كتاب من حقوق الإنسان في الإسلام، فليراجع، ونُذَكِّر هنا ببعض الأمور التي تناولناها هناك:

أولاً: أهميّة التجاور

إنّ دائرة الجيران، هي دائرة بالغة الأهمية بالنسبة للنظام الاجتماعي العام. فإنّ انتظام العلاقات في إطار هذه الدائرة أو عدم انتظامها، له تأثيراته الإيجابية أو السلبية على حياة الفرد أو الجماعة، فمن الزاوية الفردية يرتبط استقرار حياة الشخص بحسن انتظام علاقاته مع الآخرين من جيرانه، بينما سوء هذه العلاقة بهم سيجلب له الكثير من المتاعب ويقلق راحته ويوتر أعصابه. وأمّا من الزاوية الاجتماعية، فإنّ فساد أو سوء هذه العلاقة بين الجيران، سوف يفقد المجتمع لحمته وتماسكه، ويزلزل الثقة المتبادلة بين أبنائه، الأمر الذي يسهّل اختراقه من قبل أعدائه المتربصين به شراً، ويجعله عرضة للانهيار أمام أيّ هزة داخلية أو خارجية.

إنّ الجوار بالإضافة إلى أنه يحقّق استجابة لحاجة فطرية ملحة وضرورة حياتية، كان باستمرار يثير بعض النزاعات بين المتجاورين، نتيجة الأطماع والغرائز واختلاف الأطباع والسلائق، ومن هنا نشأت الحاجة إلى قوانين ترعى علاقات الجوار وتنظّمها.

ويلاحظ أنّ القوانين الوضعية ركّزت على تنظيم الجانب السلبي من العلاقة، وذلك بمنع الجار من إيذاء جاره أو إقلاق راحته، فضلاً عن التعدّي عليه والإساءة له، دون أن تطلّ على الجانب الإيجابي من العلاقة، لجهة حثّ الجار على مؤازرة جاره ونصرته وحمايته. لكن ما ميّز الإسلام أنّه نظّم العلاقة المذكورة من جانبيها الإيجابي والسلبي، وعالجها بشكل أكثر شمولية وعمقاً، انسجاماً مع رؤيته العامة للحياة ورسالته الإنسانية الهادفة، ولذا جاءت التعاليم والقوانين الإسلامية بشأن الجوار مستهدفة ـ مضافاً إلى صرف الأذى بكل أشكاله عن الجار ـ تحقيق المبادئ التالية:

١ ـ النصرة والحماية، ليقوم الجار بدور الحماية لجاره، من كل ما يتعرّض له من أخطار طبيعية أو غير طبيعية.

٢ ـ إنهاء حالة البداوة والعزلة، مع ما تحمله وتختزنه من صفات التوحّش والشدّة والتصحّر الأخلاقي، وما يرافقها من أمراض وعقد نفسية واجتماعية، لينتقل المجتمع ومن خلال أخذه بمبدأ الجوار من حالة البداوة إلى حالة التحضر والتمدن.

ثانياً: حدّ الجوار

ونلاحظ أنّ دائرة الجيران بحسب فهم الكثير من الناس في زماننا ضيقة جداً فهي لا تشمل سوى الأشخاص المتقاربين جداً في منازلهم، بينما التشريع الإسلامي يوسع الدائرة أوسع من ذلك، وذلك بهدف مدّ جسور التواصل بين الناس قدر المستطاع.

والحدّ الذي نصّت عليه الشريعة بحسب ما جاء في الأخبار يتسع ليشمل أربعين منزلاً من الجهات الأربع، ففي صحيحة جَمِيلِ بْنِ دَرَّاج عَنْ أَبِي جَعْفَر عليه السلام قَالَ: «**حَدُّ الْجِوَارِ أَرْبَعُونَ دَاراً مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه ومِنْ خَلْفِه وعَنْ يَمِينِه وعَنْ شِمَالِه**»[1].

(١) الكافي، ج٢ ص٦٦٩.

ثالثاً: حسن الجوار وآثاره

إنّ ما يريده الإسلام لعلاقات الجوار، أن تبنى على أساس المحبة والصداقة المتبادلة، بعيداً عن كل الشوائب التي تعكر صفوها، فيحْسن الإنسان مجاورة الآخرين ويحسن الآخرون مجاورته، ممّا يؤسّس لبناء مجتمع متماسك متكافل متضامن، ففي الخبر عن أَبِي الرَّبِيعِ الشَّامِيِّ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام والْبَيْتُ غَاصٌّ بِأَهْلِه فِيه الْخُرَاسَانِيُّ والشَّامِيُّ ومِنْ أَهْلِ الآفَاقِ فَلَمْ أَجِدْ مَوْضِعاً أَقْعُدُ فِيه، فَجَلَسَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام وكَانَ مُتَّكِئاً ثُمَّ قَالَ: **يَا شِيعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ اعْلَمُوا أَنَّه لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَه عِنْدَ غَضَبِه ومَنْ لَمْ يُحْسِنْ صُحْبَةَ مَنْ صَحِبَه، ومُخَالَقَةَ مَنْ خَالَقَه، ومُرَافَقَةَ مَنْ رَافَقَه ومُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَه، ومُمَالَحَةَ مَنْ مَالَحَه، يَا شِيعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ اتَّقُوا اللَّه مَا اسْتَطَعْتُمْ ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه**»[(١)].

وإنّ لحسن الجوار آثاراً وفوائد جمة، على مستوى الفرد والجماعة، فهو يسهم في تحقيق وتوطيد الأمن الاجتماعي، أمّا على المستوى الفردي، فحسن الجوار يسهم في تكثير أصدقاء المرء ومحبيه، قال علي عليه السلام: «**من أحسن إلى جيرانه كثر خدمه**»[(٢)] وقال: «**من حسن جواره كثر جيرانه**»[(٣)]، ولا يبتعد عن ذلك كثيراً ما ورد في روايات أخرى بأنّ: «**حسن الجوار يعمر الديار وينسئ في الأعمار**»[(٤)] كما في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإنّ عمارة الديار، قد تكون إشارة إلى الاستقرار الاجتماعي والفردي، وزيادة الأعمار هي حصيلة طبيعية لاستقرار الإنسان النفسي والاجتماعي، وزيادة الرزق أيضاً ناتجة عن كثرة أعوان الشخص ومريديه، وربما تكون بعض هذه الآثار مكافأة ومنحة إلهية، لمن يحسن مجاورة الآخرين.

وإذا كانت هذه آثار حسن الجوار، فمن البديهي أن لسوء الجوار آثاراً معاكسة لذلك، فهو يسهم في تفكك المجتمع، وتخلق المتاعب النفسية والصحية للإنسان، ففي الحديث عن علي عليه السلام: «**ما عزّ من ذلّ جيرانه**»[(٥)].

---

(١) **الكافي** ج٢ ص٦٣٧، ورواه مختصراً في ج٢، ص٦٦٨.

(٢) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٥٨٩.

(٣) **تصنيف غرر الحكم**، ص٤٣٧.

(٤) **الكافي**، ج٢، ص٦٦٧.

(٥) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٨٠.

رابعاً: انتقاء الجار واختياره

ثمة علاقة وثيقة بين راحة الإنسان واستقرار حياته، وبين حسن علاقاته بجيرانه، ولهذا يكون من الطبيعي والضروري أن يفكّر كل عاقل في اختيار جاره ودراسة سلوكه وطبعه قبل أن يقرر السكنى في جواره، وقد اشتهر الحديث القائل: «**الجار قبل الدار**»(١).

إنّ عليه أن يختار صاحب الأخلاق الطيبة والصفات الحميدة، ممن يرتاح له ويأنس به ويألفه، ولا يؤذيه في نفسه أو أهله وولده وماله، ولا يقلق راحته أو يوتّر أعصابه، كما عليه أيضاً أن يأخذ بالحسبان معياراً آخر وهو أن يكون جاره ممن لا يتسبب جواره له بإضعاف إيمانه وتديّنه ومناعته الأخلاقية والروحية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**جاور من تأمن شره ولا يعدوك خيره**»(٢)، وعنه عليه السلام: «**بئس الجار جار السوء**»(٣)، وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**من القواصم الفواقر التي تقصم الظهر جار السوء، إن رأى حسنة أخفاها وإن رأى سيئة أفشاها**»(٤).

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستعيذ بالله من جار السوء، ويقول: «**أعوذ باللّه من جار السوء في دار إقامة، تراك عيناه ويرعاك قلبه، إن رآك بخير ساءه وإن رآك بشر سره**»(٥).

خامساً: حقوق الجار في الإسلام

جاء في وصية علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «**الله الله في جيرانكم فإنّهم وصية نبيّكم ما زال يوصي بهم حتى ظننت أنه سيورثهم**»(٦). فما هي حقوق الجار على جاره؟:

أ ـ حرمة إيذائه إنّ إيذاءه والتعدي عليه أو على ماله أو إقلاق راحته وإزعاجه

---

(١) روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، انظر: **المعجم الكبير** للطبراني، ج٤، ص٢٦٩، **ومجمع الزوائد**، ج٨، ص١٦٤، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، **نهج البلاغة**، ج٣، ص٥٦، **والكافي**، ج٨، ص٢٤، وسيأتي عن السيدة الزهراء عليها السلام.

(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٢١.

(٣) المصدر نفسه ص١٩٣.

(٤) **الكافي**، ج٢ ص٦٦٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٢ ص٦٦٩، وراجع: **سنن النسائي**، ج٨ ص٢٧٤.

(٦) **نهج البلاغة**، ج٣ ص٧٧.

من خلال الأصوات المرتفعة، أو انتهاك حرمته، والنيل من عرضه وكرامته والتجسس عليه وكشف أسراره، إلى غير ذلك من أشكال الإيذاء، هي أعمال عدوانية ومحرمة، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «**ليس منا من لا يأمن جاره بوائقه**»(١). وبوائقه تعني ظلمه، وفي الحديث عن علي ﷺ: «**من تطلع على أسرار جاره انهتكت أستاره**»(٢).

ب ـ **تحمل أذاه**: وفي الحديث عَنْ الإمام الكاظم ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ حُسْنُ الْجِوَارِ كَفَّ الأَذَى ولَكِنَّ حُسْنَ الْجِوَارِ صَبْرُكَ عَلَى الأَذَى**»(٣).

ج ـ **السعي في تأمين احتياجاته الضرورية**: في الخبر عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ﷺ قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللَّه** ﷺ: «**مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وجَارُه جَائِعٌ. قَالَ: ومَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ يَبِيتُ وفِيهِمْ جَائِعٌ يَنْظُرُ اللَّه إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٤).

د ـ **حقوق أخرى**: وفي إشارة بليغة إلى المكانة الرفيعة التي يوليها الإسلام لعلاقات الجوار وحسن انتظامها، تذكر الروايات جملة أخرى من الحقوق الأخلاقية، ففي الخبر المروي عن رسول الله ﷺ: «**حقّ الجار: إنْ مرض عُدْتَه، وإن مات شيّعته، وإنْ استقرضك أقرضته، وإنْ أعوز سترته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح، ولا تؤذه بريح قِدْرِك إلا أن تغرف له منه**»(٥).

---

(١) هذا الحديث مروي في طرق الفريقين، وفي بعضها جاء: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُه بَوَائِقَه**»، **الكافي**، ج٢، ص٦٦٦، وفي بعضها جاء: «**ليس من المؤمنين من لم يأمن جاره بوائقه**»، كما جاء في حديث السيدة فاطمة ﷺ عن أبيها ﷺ، **دلائل الإمامة**، ص٦٦، وفي بعضها جاء: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه»، **مكارم الأخلاق**، ص١٢٦، وفي بعضها يقسم النبي ﷺ على الإيمان عنه مع التكرار، كما في حديث البخاري: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن! قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن من جاره بوائقه»، **صحيح البخاري**، ج٧، ص٧٨، **والمستدرك للحاكم**، ج١، ص١٠، وفي بعضها جاء: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»، **صحيح مسلم**، ج١، ص٤٩، وهو مروي عن الإمام الرضا ﷺ بصيغة: «ليس منا من لم يأمن جاره بوائقه»، **عيون أخبار الرضا** ﷺ، ج٢ ص٢٧، إلى غير ذلك.

(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٣٦.

(٣) **الكافي**، ج٢ ص٦٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٢ ص٦٦٨، وراجع: **المستدرك للحاكم** النيسابوري، ج٢ ص١٢.

(٥) **كنز العمال**، ج٩ ص٢٥، **بحار الأنوار**، ج ٩٤ ص٧٩.

ويبلغ الأدب الإسلامي منتهى الإنسانية، في دعوته إلى استحضار الجار حتى في الدعاء، وتمني الخير له على الدوام، ففي الحديث أنّ الإمام الحسن عليه السلام قال: «**رأيت أمي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أماه لم لا تدعونَّ لنفسك كما تدعونّ لغيرك؟ فقالت يا بني: الجار ثم الدار**»(١).

ولن يتسنى للمرء القيام بحقوق جاره سواء الإلزامية منها أو الأخلاقية، إلا بعد التعرف عليه وزيارته ومخالطته، وتفقد أحواله وأوضاعه، وهذا بدوره أمر مطلوب من المشرع الحكيم، لأنّه يمهد لانتظام العلاقات الاجتماعية والإنسانية. ومن هنا ورد في الحديث عن علي عليه السلام: «**من حُسن الجوار تفقُّدُ الجار**»(٢)، وعنه عليه السلام: «**من المروة تعهُّدُ الجيران**»(٣).

سادساً: الجار على غير الإسلام

ويلاحظ المتأمل في العديد من النصوص والوصايا الإسلامية المتقدمة بشأن الجار وحقوقه، أنّها مطلقة وشاملة لغير المسلم، كما هي شاملة للمسلم، بل إنّ مورد بعضها هو غير المسلم، كما في الحديث الذي ينقل لنا سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روي أنّه: «**كان له جار يهودي لا بأس في خلقه فمرض، فعاده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه**»(٤)، وهذا المعنى يدلّ على أنّ الأخلاق في الإسلام مطلقة ولا تقبل التجزئة أو التخصيص بالمسلمين، وإن كان الإسلام في حدّ ذاته يستدعي حقاً خاصاً للمسلم على أخيه المسلم، مع صرف النظر عن أي اعتبار آخر، ما قد يراكم الحقوق ويكاثرها، بحيث لو كان الجار مسلماً فسوف يكون له حقان: حق الجوار، وحق الإسلام، ولو أضفت إلى ذلك خصوصية كونه من الأرحام، فسيكون له حق ثالث، هو حق الرحم، وهكذا قد

(١) **علل الشرائع** للشيخ الصدوق، ج١ ص١٨١.
(٢) **تحف العقول**، ص٨٥.
(٣) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٦٧٣.
(٤) **الكامل في التاريخ**، ج٦، ص١٧٩.

تراكم الحقوق إذا دخلت بعض الخصوصيات الأخرى المقتضية للإكرام والاحترام. ويؤيد[١] هذا المعنى ما جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ: «**الجيران ثلاثة: فجار له حقٌّ واحد، وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق: فأما الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار. وأما الذي له حقان فجار مسلم، له حقّ الإسلام وحقّ الجوار. وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم، له حقّ الإسلام وحقّ الجوار وحقّ الرحم**»[٢].

(١) جعلناه مؤيداً بسبب ضعف سند الخبر، قال العجلوني: رواه «البزار وأبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم عن جابر وهو ضعيف»، **كشف الخفاء**، ج١، ص٣٢٨.

(٢) **الجامع الصغير** للسيوطي، ج١ ص٥٦٥، **وكنز العمال**، ج٩ ص٥١، ورواه الشيخ الطوسي مرسلاً، **التبيان في تفسير القرآن**، ج٣، ص١٩٤، وهكذا رواه الفتال النيسابوري، في **روضة الواعظين**، ص٣٨٩.

(٥٦)
وَلا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ

المتَّقون واجتناب الشماتة بالآخر

تناولنا قضيّة الشماتة من الزاوية الفقهية في كتاب فقه العلاقات الاجتماعية والمدنية مع الآخر الديني، ونقارب هنا هذه القضية من بعض الزوايا، فنقول: كثيراً ما يلجأ بعض الناس إلى الشماتة بالآخرين ممّن لا تربطهم بهم علاقة مودة، أو ممّن يختلفون معهم في الدين أو المذهب أو السياسة أو غيرها، فيفرحون لما يؤلم الخصوم ويصيب الأعداء ويظهرون السرور والشماتة بما نزل بهم من كوارث أو مصائب أو أمراض أو نحوها، والسؤال: ما هو الموقف الشرعي من الشماتة بالآخر ولا سيما الآخر الديني؟ والإجابة على هذا السؤال ستكون بعد التعرّف على معنى الشماتة.

أولاً: معنى الشماتة

الشماتة لغة وعرفاً: هي فرحُ الشخص ببليّة تنزل بمن يعاديه، أكانت موتاً أو مرضاً أو نحو ذلك. قال ابن فارس في مادة «شمت»: «الأصل فرح عدو ببلية تصيب من يعاديه، يقال: شمت به، يشمت شماتة، وأشمته الله عز وجل بعدوه وفي كتاب الله تعالى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾[الأعراف: ١٥٠]»[(١)]. وقال الخليل بن أحمد: «الشماتة: فرح العدو ببلية تنزل بمعاديه. وقد شمت به [يشمت] شماتة.وأشمته الله بكذا.وشمت العاطس تشميتاً: قلت له: يرحمك الله. والتشميت: الدعاء، وكل داع لأحد بخير فهو مشمت له»[(٢)].

---

(١) **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص٢١٠.
(٢) **العين**، ج٢، ص٢٤٧.

والشماتة مؤذية ومؤلمة للإنسان الذي يتعرّض لها، حتى روي أنّه «قيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: **شماتة الأعداء**»(١). وبعد رجوع موسى عليه السلام من ميقات ربه وجد أنّ قومه قد عبدوا العجل بإضلال السامري لهم، فغضب وتأسف، وأقبل على أخيه هارون عليه السلام معاتباً، فكان طلب هارون عليه السلام من أخيه موسى أن لا يفعل به ما يتسبب بشماتة الأعداء، قال تعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٥٠].

ثانياً: حكم الشماتة

يمكن القول: إنّ حكم الشماتة يختلف باختلاف مواردها، ونرى أنّ الأنسب بما تقتضيه الأدلة هو تقسيم الشماتة إلى صورتين:

الأولى: الشماتة بالعدو، بمعنى الفرح عند الانتصار عليه وهزيمته، أو بما ينزل عليه من نوائب ومصائب تضعف قوته.

الثانية: الشماتة بغير العدو، بمعنى الفرح لما أصاب شخص لا يحسب في عداد الأعداء من مكروه، أكان مسلماً أو غير مسلم.

الصورة الأولى: الفرح بالنصر على الأعداء

أما الصورة الأولى، فالفرح فيها ليس مذموماً بل هو أقرب إلى أن يكون حالة طبيعية تعتري الإنسان، وهي تصدر من العقلاء، ولم يرد ما يدلّ على تحريمها والمنع منها، بل ورد ما يستفاد منه جوازها، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١٤]، وقال تعالى في الإشارة إلى غلبة الروم على الفرس: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾[الروم: ٤ ـ ٥]. والفرح هنا ليس فرحاً شخصياً بل هو أقرب إلى أن يكون فرحاً رسالياً، بمعنى أن الشخص يفرح لغلبة جبهة الحق على الباطل. وفي العمق، فإنّ المؤمن الرسالي لا يفرح بقتل الناس، بقدر فرحه

(١) ربيع الأبرار، للزمخشري، ج٣، ص٣٧٨.

بهدايتهم إلى الهدى، يقول الإمام عليّ عليه السلام فيما روي عنه: «**فَوَاللَّه مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً، إِلَّا وأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا، وإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا**»[١].

الصورة الثانية: الفرح بما ينزل بغير العدو

أما الصورة الثانية، وهي الفرح بما ينزل من مصائب وآلام بالعدو في العداوات الشخصية التي تنشأ بين الناس لخلافات على قضايا دنيوية متعددة، فيمكن على نحو الإجمال أن نقول إنّها مذمومة في ميزان العقل، ومبغوضة شرعاً لأنه إذا كان الآخر أخاً في الدين، فالشماتة فيه تنافي الأخوة التي نصّ عليها القرآن الكريم بين المؤمنين قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[الحجرات: ١٠]. ناهيك عن أنه ورد النهي عنها بعنوانها، فعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**لا تظهر الشماتة لأخيك، فيعافيه اللّه عزّ وجلّ ويبتليك**»[٢]، وروى الكليني في الكافي بسنده عن أَبَانِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام أَنَّه قَالَ: «**لَا تُبْدِي الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمَه اللَّه ويُصَيِّرَهَا بِكَ**» وقَالَ[٣]: «**مَنْ شَمِتَ بِمُصِيبَةٍ نَزَلَتْ بِأَخِيه لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْتَتَنَ**»[٤].

---

(١) **نهج البلاغة**، ج١، ص١٠٤، وهي جزء من خطبة له قالها وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفّين.

(٢) **سنن الترمذي**، ج٤، ص٧١، وقال: «هذا حديث حسن غريب». **والمعجم الأوسط**، للطبراني، ج٤، ص١١١، **وكتاب المجروحين**، لابن حبان، ج١، ص٣٥٥. ورواه الشيخ المفيد في **الأمالي**، ص٢٦٩، وكذلك رواه الطوسي في **أماليه**، ص٣٣، والصدوق في **الأمالي**، ص٢٩٧.

(٣) قال المازندراني: «والظاهر أن قوله: (وقال: **من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن**) من تتمة الرواية المذكورة بالإسناد المذكور، واحتمال كونه رواية أُخرى بحذف الإسناد بعيد، ويفتتن بالبناء للمفعول من الفتنة وهي المحنة والمصيبة والابتلاء وأصلها من قولهم: فتنت الذهب والفضة إذا أحرقته بالنار لتبين الجيد من الرديء، وإنما يفعل الله تعالى به ذلك غيرة وانتصاراً ورغماً له وجزاءً لما صنع بأخيه بسبب ما أنزل الله فيه»، **شرح أصول الكافي**، ج١٠، ص١٤.

(٤) الكافي، ج٢، ص٣٥٩، وقد وصفه المولى محمد تقي المجلسي بالموثق، **روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه**، ج١٢، ص١٣٧، وقال العلامة محمد باقر المجلسي: «حسن موثق»، **مرآة العقول**، ج١١، ص٤، ولكن أبان في السند، لم تثبت وثاقته، وإنما قال النجاشي بشأنه: «شيخ من أصحابنا، روى عن أبي عبد الله عليه السلام كتاب الحج»، **رجال النجاشي**، ص١٤. وأما باقي رجاله فثقات.

وأما إن كان غير مسلم، فإنّ الشماتة به تنافي ما ورد من أن من حق الإنسان الآخر عليك أن تكره له ما تكره لنفسك وتحبّ له ما تحب لنفسك، في موثقة يَعْقُوبَ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**أَوْحَى اللَّه عَزَّ وجَلَّ إِلَى آدَمَ عليه السلام أَنِّي سَأَجْمَعُ لَكَ الْكَلَامَ فِي أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، قَالَ يَا رَبِّ ومَا هُنَّ؟ قَالَ: وَاحِدَةٌ لِي ووَاحِدَةٌ لَكَ ووَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وبَيْنَكَ ووَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ النَّاسِ، قَالَ: يَا رَبِّ بَيِّنْهُنَّ لِي حَتَّى أَعْلَمَهُنَّ، قَالَ: أَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، وأَمَّا الَّتِي لَكَ فَأَجْزِيكَ بِعَمَلِكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْه. وأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وبَيْنَكَ فَعَلَيْكَ الدُّعَاءُ وعَلَيَّ الإِجَابَةُ، وأَمَّا الَّتِي بَيْنَكَ وبَيْنَ النَّاسِ فَتَرْضَى لِلنَّاسِ مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ وتَكْرَه لَهُمْ مَا تَكْرَه لِنَفْسِكَ**»(١). ونحوه مرسل أبي البلاد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٢).

وفي وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «.. **يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، واكْرَه لَه مَا تَكْرَه لَهَا، ولَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، واسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُه مِنْ غَيْرِكَ، وارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاه لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، ولَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، ولَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ**..»(٣). وقد ذكرنا وجوها أخرى تدل على كراهية الشماتة بالآخر في الكتاب المشار إليه فليراجع.

---

(١) **الكافي**، ج٢، ص١٤٦.

(٢) روى الكليني بإسناده عن أَبِي الْبِلَادِ رَفَعَه قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وهُوَ يُرِيدُ بَعْضَ غَزَوَاتِه فَأَخَذَ بِغَرْزِ رَاحِلَتِه فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه عَلِّمْنِي عَمَلاً أَدْخُلُ بِه الْجَنَّةَ فَقَالَ: **مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَه النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِه إِلَيْهِمْ ومَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَه النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِه إِلَيْهِمْ خَلِّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ**»، المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٦.

(٣) **نهج البلاغة**، ج٣، ص٤٥.

(٥٧)
وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ

المتَّقون والتزام الحق

إنّ من أهم صفات المتّقي أنه لصيق بالحق وملازم له، ومفارق للباطل ومجانب له، ونتوقف عند هذه الصفة ببعض الوقفات:

أولاً: ضرورة لزوم الحق واجتناب الباطل

إنّ من أكثر ما حثت عليه الشرائع السماوية لزوم اتباع الحق واجتناب الباطل، لأن انتظام المجتمعات لا يكون إلا باتباع الحق ورفض الباطل، وهذا أمر طبيعي ويقتضيه العقل، ناهيك عن أنّ الإيمان يحتّم عليك التزام طريق الحق، وقد قال عليّ عليه السلام لأبي ذر عند وداعه له: «**ولا يؤنسنّك إلّا الحق، ولا يوحشنّك إلا الباطل**»(١).

وطبيعي أيضاً أنّ التزام الحق أمر يسهل ادعاؤه، ولكن العبرة في الأفعال، فكل إنسان يسهل عليه أن يدعي أنه مستعد لاتّباع الحق، وكلٌّ يتغنى بالحق، وينظم فيه الأشعار، كما أنّ الدعوات والمذاهب الفلسفية والفكرية كافة تدعي أنّها تمثل الحق، وأنها تقف في وجه الباطل وتحاربه، ولكن الأمر لا يكون بالمزاعم والأقوال بل بالمواقف والأفعال، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ**»(٢). وفي بعض الأحيان نبتلي بأشخاصٍ مختلفين في أمر ما ثم يأتيك أحدهم ويقول لك: احكمْ بيني وبين فلان، وأنا على استعداد لاتباع الحكم، فإذا حكمت، فإنك ترى أنّ من

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص١٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٨.

كان الحكم في صالحه يمتدحك ويثني على عدلك، وأما من كان الحكم ضده فإنه يعمد إلى ذمك وذم حكمك ولا يقبل منك، وقد يذهب إلى غيرك ليستفتيه أو يستقضيه في المسألة ذاتها، أو يترك المسار الشرعي ويذهب إلى القضاء المدني.

ثانياً: طريق الحقّ يحتاج إلى تضحيات

وسلوك طريق الحق يحتاج إلى شجاعة، وهو مكلف، فأكثر الناس قد ألفوا الباطل، وصار بينهم وبينه صداقة ومساكنة، فإذا واجهتهم بالحق فإنّك قد تخسر صداقتهم، ولن يتقبّلوا ذلك منك وقد يؤدي الأمر إلى أن ينبذك الناس، يروى أن أبا ذر كان يقول في الربذة: «**ما ترك الحق لي صديقاً**»(١).

ولكنّ هذا لا ينبغي أن يردعنا عن قول كلمة الحق، فنحن مكلفون باتباع الحق ولو كان مرّاً، ومأمورون بالنطق بكلمة الحق رضي من رضي وغضب من غضب، قال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩].

ثالثاً: الحياد بين الحق والباطل مسلك باطل

إنّ أمانة الانتماء للحق تفرض على الإنسان أن يكون منحازاً للحق انحيازاً كلياً، وغير مجزأ، وتمنعه من أن يعيش في منطقة رمادية بين الحق والباطل، ففي كلام لأمير المؤمنين عليه السلام وقد سئل عن الذين اعتزلوا القتال معه فقال: «**خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل**»(٢). إنّ هذه الكلمة لأمير المؤمنين عليه السلام تشير إلى منهج ينبغي للمسلم أن يسير عليه، وهذا المنهج يتمثّل في أن يكون المسلم دائماً إلى جنب الحق منافحاً ومدافعاً ومناصراً، وأن يكون رافضاً للباطل ومحارباً له في كل صوره وأشكاله، والناس في هذا المجال على ثلاثة أنواع:

هناك من يقف إلى جانب الحق ويرفض الباطل، وهناك من يقف مع الباطل ويرفض

(١) **شرح نهج البلاغة**، للمعتزلي، ج٣، ص٥٨، و**أنساب الأشراف**، للبلاذري، ج٥، ص٥٤٤.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٥.

الحق، وهناك صنف ثالث وهم أولئك الأشخاص الذين يقفون على الحياد أو كما يقال: يقفون على التلّ، فلا هم ينصرون الحق ولا هم يقفون في وجه الباطل، ونحن وفقاً لمنهج الإسلام الأصيل واستفادة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام نستطيع القول وبكل وضوح: كما أن الذي يرفض الحق ويقف إلى جانب الباطل هو إنسان مدان ولا يقبل ذلك منه، كذلك فإنّ الشخص الذي يقف على الحياد هو إنسان مدان ومخطئ. إن الذين يقفون على الحياد في معركة الحق والباطل وإن لم يكونوا جيشاً وجنوداً للباطل ولكنهم في الوقت عينه لم ينصروا الحقّ. إن المطلوب منك أن لا تكون جندياً للباطل وأن تكون في الوقت عينه جندياً للحق، فأنت مكلف بأمرين، **أولاً**: بخذلان الباطل **وثانياً**: بنصرة الحق، فمن يرد أن يكون أقرب إلى التَّقوى فلا خيار أمامه إلا أن يقف مع جبهة الحق ويرفض جبهة الباطل، أما الاعتزال فهو مرفوض، بل هو نوع نصرة للباطل.

رابعاً: أسباب لا تكسبك حقاً

ثمة أسباب كثيرة لا تكسب الإنسان الحق، ومن أهمها:

أ ـ **الغلبة والقهر**، فهما لا يعطيان الإنسان حقاً ولو تقادم الزمن، ولهذا فمهما استمر الاحتلال الصهيوني الرابض على قلب الأمة في فلسطين ومسجدها الأقصى، فلن يُسقِطَ ذلك حق المسلمين والفلسطينيين في تلك الأرض. بكلمة: إنّ تقادم الزمن لا يسقط الحق، ولا يحول الباطل إلى حق.

ب ـ **الحكم الصادر خطأً**، إذا أخطأ القاضي فحكم لك، فهذا لا يعطيك حقاً إذا كنت تعلم أن المال لغيرك، وقد ورد في الحديث عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ والأَيْمَانِ وبَعْضُكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْضٍ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ قَطَعْتُ لَه مِنْ مَالِ أَخِيه شَيْئاً فَإِنَّمَا قَطَعْتُ لَه بِه قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»(١).

(١) الكافي، ج٧، ص٤١٤.

ج ـ **اعتماد الظن**، عندما تسير في الحياة لا بدّ أن تسير على هدى وحجة وبرهان، لا على أساس أوهام وظنون، طريق الظنون باطل ولا يمنحك حقاً لا في فكر ولا في موقف، وطريق الحجة طريق حق، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[يونس: ٣٦]، ويدخل في ذلك الاعتماد على الأقاويل، وما يتداوله الناس، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَمَا إِنَّه لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُةُ أَصَابِعَ**، فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا؟ فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثم قال: **الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، والْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ**»(١).

د ـ **اتباع الهوى**، إنّ الأهواء غالباً ما تجانب الحق وتصد عنه، عن علي عليه السلام: «**أيّها الناس إنّ أَخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة**»(٢). وعن مفهوم الهوى راجع ملاحق الكتاب.

هـ ـ **كثرة الناس المجتمعين على أمر**، فهذا ليس دليل كونهم على حق، في الخبر عن علي عليه السلام «أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ حَوْطٍ أَتَاه فَقَالَ: أَتَرَانِي أَظُنُّ أَصْحَابَ الْجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ؟! فَقَالَ عليه السلام: **يَا حَارِثُ إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ ولَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ. إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاه، ولَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاه**، فَقَالَ الْحَارِثُ، فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ وعَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ ـ فَقَالَ عليه السلام إِنَّ سَعِيداً وعَبْدَ اللَّه بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الْحَقَّ، ولَمْ يَخْذُلَا الْبَاطِلَ»(٣).

خامساً: مصادر معرفة الحق وتمييزه عن الباطل

ويبقى أنه قد تختلط الأمور علينا ولا نميّز الحق من الباطل، وهذا يحتّم علينا ذكر بعض المعايير التي تفرق بين الحق والباطل:

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٩٣.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٦٣.

أ ـ **العقل**، يمكن للعقل أن يميز بين الحقّ والباطل، فهو يدرك مثلاً أن الله تعالى علينا حقّ الطاعة، وأنّ ظلم الآخر قبيح والعدل حسن ومطلوب، وأن الإحسان يقابل بالإحسان لا بالإساءة، وقد جاء التأكيد على مرجعية العقل في القرآن الكريم[١].

ب ـ الفطرة، الفطرة هي مصدر فارق بين الحق والباطل، إن ما تمليه عليك الفطرة الإنسانية هو حق لا غبار عليه، وما ترفضه الفطرة هو باطل، طبيعي أن الفطرة لا تحكم في كل شيء، ولكن بعض القضايا يفصل فيها الوجدان والفطرة[٢].

ج ـ **الوحي**، وهو في اعتقادنا مصدر مهم وأساسي لتحديد الحقوق، وهو أيضاً مكمّل لما يحكم به العقل والوجدان، وذلك لأنّ الإنسان كائن تتشابك فيه الغرائز والعواطف بما يؤثر على سلامة العقل، ولذا فقد يكبو العقل ويغفو الضمير والوجدان، ومن هنا تضيع الحقوق، ليس بسبب التجاوز فحسب، بل بسبب اختلال الرؤية، وليس أَوْلى من خالق الإنسان والعالِم بمكنونه وبما يصلحه ويفسده في وضع منظومة من الحقوق التي تحفظ مصالحه وتأخذ بيده نحو الكمال وتضبط علاقاته بالكون والطبيعة والإنسان، إنّ منظومة الحقوق تستهدف تحقيق مصالح وانتظام شؤون حياته، والله عالم بالإنسان وبشجونه أكثر من الإنسان نفسه.

(١) كما أوضحنا ذلك مفصلاً في كتاب: **أصول الاجتهاد الكلامي**، ص٢٧٤، وما بعدها.
(٢) وقد أوضحنا ذلك في المصدر نفسه، فراجع.

(٥٨)
إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّه صَمْتُه»

الصمت المحلل والمحرم

هل الصمت أفضل أم الكلام؟

لا نستطيع القول إنّ الصمت قيمة مطلقة، وكذا لا نستطيع القول إنّ الكلام قيمة مطلقة، فقد يكون الصمت مطلوباً، وقد يكون مذموماً، وكذلك حال الكلام، وفيما يلي التفصيل في ذلك:

أولاً: الصمت المحرم

عندما يكون الصمت والسكوت إزاء ما يفعله ظالم أو فاسد، أو يوحي بتأييد طاغية فإنه يكون محرماً وخيانة، ويكون الكلام عندها واجباً، فـ«**الساكت عن الحق شيطان أخرس**»، وكذلك عندما يعبّر الصمت عن اللّاموقف في الحالة التي يكون الموقف فيها مطلوباً، فإنه يكون مرفوضاً.

طبيعي أنّ إنكار المنكر قد يكون أحياناً بالصمت الدال على الرفض، والصمت في بعض الأحيان قد يكون أبلغ من الكلام، فمثلاً: قد تعاتب شخصاً مرة وأخرى ولا يبقى للكلام أثر، فهنا ليكن صمتك هو الموقف.

ثانياً: الصمت الواجب

ربما كان الصمت في بعض الأحيان واجباً، وقد كانت الأمم السابقة تنذر صوم الصمت، وكان مشروعاً عندهم، كما حدثنا الله تعالى عن السيدة مريم عليها السلام: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾[مريم: ٢٦]، ولكن

هذا الصوم قد نسخ(١) في شريعتنا، ولكن بصرف النظر عن ذلك، فثمة أنحاء من الصمت الواجب:

أ ـ عندما يكون الكلام فيه تعريض للنفس المحترمة للخطر دون ضرورة، فهنا يتحتم الصمت، وهذا ما تقتضيه القواعد الفقهية، ويؤيده ما عن علي عليه السلام: «**الزم الصمت تسلم**»(٢).

ب ـ عندما يكون الكلام في معرض تناول الآخرين وغيبتهم وكشف عوراتهم، فيكون الصمت مطلوباً وواجباً.

ج ـ الصمت والإنصات لغاية الاستماع إلى الخطيب في صلاة الجمعة، أو الصمت والاستماع بهدف الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤].

ثالثاً: الصمت الممدوح عقلاً ونقلاً

وثمة صمت ممدوح وإن لم يصل إلى حدّ الوجوب، وذلك من قبيل:

أ ـ **الصمت ترفعاً**، وذلك عندما يكون الكلام مجرد ثرثرة لا فائدة منها، وما أكثر الثرثرات في مجالسنا! وهكذا عندما يكون في الكلام انحطاطٌ للنفس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾[الفرقان: ٧٢]، وقال أبو العتاهية:

الصمت زين والسكوت لسلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مهذاراً
ولئن ندمت على سكوتك مرّة ... فلتندمنّ على الكلام مراراً

وعلى أقل تقدير فإنّ الصمت في هذه المواطن منجاة ولن يحاسب عليه الإنسان، أما الكلام فسوف يسأل عنه، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

---

(١) لنا في ذلك كلام مفصّل في محله، راجع: **القواعد الناظمة لفقه العلاقة مع الآخر الديني**، (تحت الطبع).
(٢) **الأمالي**، للمفيد، ص٢٢٢، **والأمالي** للطوسي، ص٨.

قالوا سكتَّ وقد خوصمت قلت لهم إن الـجـواب لِـبـابِ الـشـر مـفـتـاح
والصمت عن جاهل أو أحمق اشرف وفـيـه أيـضـاً لـصـون الـعـرض إصـلاح
أما ترى الأُسْدَ تُخشى وهي صامتة والكلب يخشى لعمري وهو نباح..[(١)]

وفي ضوء ذلك تفهم دلالة قول علي ﵇: «**إنْ صَمَتَ لم يغمّه صمته**» لأن صمته عندما يكون في موقعه فهو يرضي الله تعالى، وما يرضي الله فهو يرضي المؤمن.

ب ـ **الصمت تفكراً**، عن الرضا ﵇: «**من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة**»[(٢)]، وهذا معنى ما ورد عن أبي عبد الله ﵇: «**ما عبد الله بشيء أفضل من الصمت**». وما أحوجنا إلى الصمت التفكري التأملي، فإنه من جنس العبادة! وممّا يؤسف له أن عبادة التفكر معطلة في واقعنا، وقد ورد «**تفكّر ساعة خير من عبادة سنة**»[(٣)].

ج ـ **الصمت اعتباراً**، عندما يكون الموقف موقف اعتبار، كأن تقف على جنازة أو تدخل مقبرة، فهنا يحسن الصمت اعتباراً، ولكن بكل أسف وحزن فإنّ كثيراً من الناس بدل أن ينشغلوا في مثل هذه المواقع بالتفكّر والاعتبار تراهم مشغولين بالثرثرة وربما الضحك!

---

(١) راجع ديوان الشافعي.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص١١٣، **والخصال**، ص١٥٨.
(٣) **بحار الأنوار**، ج٦٨، ص٣٢٧.

(٥٩)
وإنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُه

المتَّقون والضحك

الضحك ـ في الأغلب ـ هو تعبير عن الفرح والأنس، لذا إذا أردنا بيان موقف الإسلام منه، فيجدر بنا بداية أن نبيّن الموقف من المرح واللّهو البريء بشكل عام:

أولاً: نظرة الإسلام إلى المرح واللَّهو البريء

إنّ الإسلام ـ بحكم وسطيّته واعتداله ـ ينطلق في تشريعاته وأحكامه من مصالح نوعيّة، تراعي خصائص الإنسان ومتطلباته الفطريّة المختلفة، وتعمل على تأمينها. ومن هذه الخصائص الفطريّة، أنّه ـ أي الإنسان ولا سيّما الشاب ـ لا يتسنّى له أن يبقى جاداً في كلّ حالاته، بل يحتاج إلى شيء من المرح واللّهو البريء. ومن هذا المنطلق فقد راعى التشريع الإسلاميّ هذه الحاجة، ووازن بين متطلبات الإنسان المتنوعة، فوازن بين الدنيا والآخرة، وقد روي عن الإمام الحسن عليه السلام أنّه قال: «**اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدا**»[1]، ووازن بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح، ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[القصص: ٧٧]، فالمرح واللّهو يمثّلان استجابة وتلبية لمتطلبات الجسد، والبرنامج العبادي الذي أقرّه الإسلام يمثّل تلبية لمتطلبات الروح.

إنّ ساعة اللهو البريء التي ينشغل بها الإنسان ولا سيّما الشاب، لا تلبّي حاجته

---

(١) **كفاية الأثر**، للخزار القمي، ص٢٢٨.

الطبيعيّة لذلك فحسب، بل إنّها تساعده على تجديد نشاطه وحيويته، ليتسنّى له معاودة أعماله العبادية أو الاجتماعية أو التجارية أو غيرها بكلّ إقبال وفاعلية وحيويّة، وفي الواقع فإنّ من خصائص النفس البشرية أنّها تستمرّ على وتيرة واحدة، فهي تملُّ وتحتاجُ إلى التغيير، وقد ورد في الحديث النبويّ الشريف: «**إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفلوا، وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة**»(١). فهذا النصُّ يدعو إلى التخفّف من النوافلِ في حالِ إدبار القلوب.

ومن هنا، فلا يمكن للإسلام وهو الشريعة السمحة السهلة أن يمنع الفرح، كما لا يمكنُه أن يمنعَ الحزن؛ لأنّ الفرح ـ كما الحزن ـ هو حالة إنسانيّة فطريّة يحتاج إليها الإنسان، وقد تفرض نفسها عليه، فيكون النهي عنها تكليفاً بغير المقدور.

ومن المحطات المهمّة التي تتجلّى فيها واقعيّة التشريع الإسلاميّ، ومراعاته لطبيعة الإنسان واحتياجاته المتنوعة: ارتياد المتنزهات والمزاح والدعابة، وقد أوضحنا ذلك في كتاب مع الشباب في همومهم وتطلّعاتهم، فراجع، ومرت الإشارة إلى ذلك في شرح فقرة «قلوبهم محزونة».

ثانياً: الضحك والتبسم

ومن مظاهر الفرح: الضحك، فمن يمزح ويمرح فإنّه في العادة يضحك، والضحك هو فعل طبيعي وجبلي، ولذا ترى الطفل الرضيع يضحك، وما كان كذلك فهو جائز لا إشكال فيه، وهو مظهر سرور وفرح، والإنسان في ظلّ ما يواجهه في هذه الحياة هو بحاجة إلى شيء من الفرح والضحك، وقد كان الأنبياء عليهم السلام يضحكون، فقد حدثنا الله تعالى عن سليمان أنه عندما سمع كلام النملة: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[النمل: ١٩]، وفي الخبر الصحيح، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام فَقُلْتُ: «جُعِلْتُ فِدَاكَ الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الْقَوْمِ فَيَجْرِي بَيْنَهُمْ كَلَامٌ يَمْزَحُونَ ويَضْحَكُونَ؟ فَقَالَ: **لَا بَأْسَ مَا لَمْ يَكُنْ** فَظَنَنْتُ أَنَّه عَنَى الْفُحْشَ، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم كَانَ يَأْتِيه الأَعْرَابِيُّ فَيُهْدِي لَه الْهَدِيَّةَ ثُمَّ يَقُولُ مَكَانَه:**

(١) **الكافي**، ج٣، ص٤٥٤. وهو مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، انظر: **نهج البلاغة**، ج٤، ص٧٥.

أَعْطِنَا ثَمَنَ هَدِيَّتِنَا! فَيَضْحَكُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وكَانَ إِذَا اغْتَمَّ يَقُولُ مَا فَعَلَ الأَعْرَابِيُّ لَيْتَه أَتَانَا»[١]. وقد كان النبي ﷺ يضحك حتى تبدو نواجذه، كما جاء في الأخبار، والنواجذ أقصى الأضراس، في الحديث « أتى رجل النبي ﷺ فقال: هلكت وقعت على أهلي في رمضان! قال **أعتق رقبة**، قال: ليس لي، قال: **فصم شهرين متتابعين**، قال: لا أستطيع، قال: **فأطعم ستين مسكيناً**، قال: لا أجد، فأُتي[٢] بعِرقٍ[٣] فيه تمر، فقال: **أين السائل، تصدق بها**، قال: على أفقر مني، والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر منا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: **فأنتم إذاً**»[٤].

ثالثاً: ضابطان للضحك

ولكن على قاعدة أنّ كل شيءٍ زاد عن حدّه وتجاوز المألوف أصبح غير محبذ شرعاً، فإنّ بإمكاننا أن نشير إلى حدّين يجعل الضحك غير محبذ:

الأول: كثرة الضحك، بحيث تكون السِّمة العامة والطاغية على شخصية الإنسان هي الضحك، فتراه يضحك في المواطن كافة، حتى في مواطن الاعتبار والحزن، وهذا ليس سمتاً سوياً، إنّ حياة الإنسان السوي لا بدّ أن تتسم بقدر عالٍ من الجدية والاتّزان، وإلا فقد هيبته ووقاره وغدا أضحوكة. في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب**»[٥]، وعن علي عليه السلام: «**من كثر ضحكه ذهبت هيبته**»[٦].

الثاني: أن لا يعلو صوته فوق المتعارف في الضحك، وهو ما يسمى القهقهة، فهذا ليس مناسباً، ولا ينبغي فعله، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه الآنف: «**وإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُه**».

---

(١) **الكافي**، ج٢، ص٦٦٣، الحديث ١.
(٢) يقصد النبي ﷺ.
(٣) قيل: العرق المكتل
(٤) **صحيح البخاري**، ج٧، ص٩٤.
(٥) **صحيح ابن حبان**، ج٢، ص٧٩، وراجع: **معاني الأخبار**، ص٣٣٥.
(٦) **الكافي**، ج٨، ص٢٢.

طبيعي، أنّ هذين القيدين يدخلان في الآداب، فكثرة الضحك، أو الضحك بصوت عالٍ لا يعدّ محرماً، بل هو مكروه، وقد ورد له في الأحاديث كفارة، وهي أن يقول: «**اللَّهم لا تمقتني**»[1]. لكن من الجدير بنا أن نعتني بالآداب والمستحبات والمكروهات وأن نحاول الأخذ بما أمكن منها. إنّ بعض المؤمنين ليس في قاموسه العملي شيء من المستحبات والمكروهات، ويقول لك: علِّمْني الواجب والحرام فقط، وهذا ليس سوياً فالأخذ بالمستحبّات واجتناب المكروهات له دوره في تهذيب شخصية المؤمن.

(١) **الكافي**، ج٢، ص٦٦٤.

(٦٠)
وإِنْ بُـغِيَ عَلَيْه صَبرَ حَتَّى يَكُونَ اللّه هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ له

كيف يرد المتَّقي الظلم الذي يتعرض له؟

إن البغي الذي يرتكبه الإنسان على نحوين:

أولاً: الإخلال بالنظام العام

وهذا البغي هو ضرب من ضروب الفساد في الأرض، من قبيل: قطع الطرقات العامة، سرقة الكهرباء والماء، العدوان على البيئة وتلويثها، ونحو ذلك من أشكال البغي والتعدي، وفي هذا النحو لا تشمله كلمة الإمام أعلاه الداعية إلى الصبر ولا مجال للتسامح ولا للعفو فيه، وإلا لزم الاختلال بالنظام، وساد الهرج والمرج، وأصبحنا في شريعة الغاب، ومن هنا فلا بدّ أن يوضع حدٌ للباغي ولا يسمح له بتعريض المجتمع للمخاطر، وهذا ما فعله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقتاله لأهل البغي، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩]. والفقهاء المسلمون إنما عرفوا كيفية التعاطي مع البغاة من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في التعامل مع أهل حربه، فإنّ معارك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما كانت مع المشركين، وهي معارك لها أحكامها الخاصة لجهة الغنائم والأسرى، وهذه الأحكام لا تجري في المسلمين من أهل البغي.

واليوم ينتشر في مجتمعاتنا حالات من البغي يمارسها بعض المتنفذين وأرباب العصابات، فيمارسون العدوان على الناس ويسلبونهم أمنهم وراحتهم، وهؤلاء مجرمون بكل معنى الكلمة ويمكن عدهم مفسدين في الأرض.

ثانياً: البغي والاعتداء على الأشخاص

وفي مثل هذا النحو من البغي يوجد بعدان: بعد شخصي وبعد عام، فمن قتل شخصاً فقد اعتدى عليه وسلبه حياته، وهذا ما يسمى الحق الخاص، ولكنه في الوقت عينه قد اعتدى على المجتمع وروّع الناس بإقدامه على جريمة القتل، ويمكن أن يكون فعله سبباً للتطاول على القانون والاستهانة به أو دافعاً للآخرين لارتكاب الجريمة، وهذا ما يسمّى الحق العام. وبلحاظ الحق العام، فللحاكم العادل أن يعزّر المعتدي ويؤدّبه جزاءَ ما اجترأ على سفك الدماء، وحتى لا يتطاول مرّة أخرى على ذلك، وليكون عبرة لغيره. وأما بلحاظ الحق الخاص، فيمكن للشخص المعتدى عليه أن يقتص، وله أن يعفو. وعلى سبيل المثال: لو أنّ شخصاً قتل ابنك فإنّ بإمكانك أن تقتص منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾[الإسراء: ٣٣]، ولك أن تعفو ما دام الحق خاصاً وشخصياً، والعفو أقرب إلى التَّقوى، وهذا ما يشير إليه الإمام عليه السلام بقوله: «**وإنْ بُغِيَ عَلَيْه صَبرَ حَتَّى يَكُونَ اللّه هُوَ الَّذي يَنْتَقِمُ لَه**». وهذا المعنى المشجع على الصبر أخذه الإمام علي عليه السلام من القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦]، لأن فيه تحملاً لمرارة الأذى، طمعاً برضوان الله، وفيه عفو عن عباد الله طمعاً بعفو الله ورحمته.

وقال الخوئي في شرح الفقرة المذكورة من كلامه عليه السلام: «يعني: إنْ ظلمه أحدٌ وتعدّى عليه صبر على ذلك وفوّض أمره إلى اللَّه عزّ وجلّ حتّى ينتقم له من الباغي، لأنّه تعالى قد وعد له النصرة في كتابه العزيز بقوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ﴾[الحج: ٦٠]، أي من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، ثمّ ظلم عليه لينصرنّه اللَّه أي المظلوم الَّذي بغى عليه لا محالة»[١].

---

(١) **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، ج١٢، ص١٥٧.

ثالثاً: هل من فرق بين الإسلام والمسيحية في الأخذ بمبدأ العفو؟

والجواب: إنه في مجال الحقّ الخاص، إذا كانت المسيحية تدعو إلى التسامح، كما قال السيد المسيح: «**مَنْ لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الأيسر**»(١) فإن رسوله الله ﷺ يدعو إلى الخلق نفسه، وأمير المؤمنين عليه السلام كذلك، كما مرّ في كلامه الآنف، وأمّا بلحاظ الحق العام، فإن الإسلام لا يؤمن بالعفو والتسامح وإلا يلزم اختلال النظام والرضوخ للظالم، ولا أظنّ أنّ السيد المسيح يؤمن بالخنوع والخضوع للظلمة، وإن كانت بعض التعاليم الكنسية تدعو إلى ذلك، ولهذا فقد اعترض الشاعر القرويّ سليم رشيد الخوري على هذه الدعوة في قوله:

إذا حاولتَ رفْعَ الضيم فاضرب ... بسيف محمدٍ واهجر يسوعا
أحبوا بعضكم بعضًا وعظنا ... بها ذئبًا فما نجَّت قطيعا
ألا أنزلتَ إنجيلاً جديدًا ... يعلِّمنا إباءً لا خنوعا
أجِرنا من عذاب النير لا من ... عذاب النار إن تك مستطيعا

---

(١) **إنجيل متّى** الاصحاح الخامس، ص٣٨.

(٦١)
نَفْسُه منْه فِي عَنَاءٍ والنَّاسُ منْه فِي رَاحَة، أَتْعَبَ نَفْسَه لِآخِرَتِه وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِه

المتَّقي: إتعاب النفس وإراحة الآخرين

تعليقاً على هذه الفقرة نذكر النقاط التالية:

أولاً: المتّقي بين نفسه وغيره

في شرح قوله: «نَفْسُه مِنْه فِي عَنَاءٍ والنَّاسُ مِنْه فِي رَاحَةٍ» نطرح وجهين صحيحين قد يكون نظره عليه السلام إليهما:

المعنى الأول: لا راحة على حساب أوجاع الآخرين: إنّ كثيراً من الناس تراه يريح نفسه ويعطيها سؤلها وهواها ولو على حساب وجع الناس، فهو يرغب في الانشراح واللّهو كيفما كان، فتراه يضحك على فلان ويسخر من فلان أو يستهزأ به، وهو يطمح أن يعيش برفاهية، فلا مانع عنده ـ في سبيل تحقيق هذه الغاية ـ أن يعتدي على أموال الغير، وربما يكون المعتدى عليه أحوج منه إلى ما سرقه منه، مع ذلك لا يرمش له جفن، فالمهم أن يأكل ولو جاع غيره، والمهم أن يشرب ولو عطش غيره، والمهم أن يفرح ولو حزن غيره. هذا لكنّ المتّقي له سلوك مختلف، فهو يسير عكس الشائع، فلا يقبل أن يريح نفسه على حساب الناس، ولا أن يغنى على حساب إفقار الآخرين وسلبهم أموالهم وثرواتهم، بل يسعى لراحة الآخرين كما يسعى لراحة نفسه. ولا ينسيه أمر الناس أمر نفسه، بل هو منكبّ على إصلاح نفسه، ومنصرف عن تعداد معايب الناس بالنظر في عيوب نفسه.

ومع الأسف فإنّ البعض يقول: هكذا تسير الحياة، ويتصرّف الناس، فلا ضير في أنْ نُغمض أعيننا عن بعض التجاوزات، المهم راحتنا، ومع الأسف فقد أصبح هذا السلوك طاغياً إلى حدّ أن البعض يتخذه قدوة له، فيقول لك: «شو هلّق وقفت عليّ»، أو يتذرّع بالقول: «إذا لم نفعل ما يفعل غيرنا فلا نستطيع أن نعيش».. لكن هذا المنطق مرفوض، والإسلام لا يقبل منا أن نتماشى مع حياة تسير على أساس التجاوز وأكل لحوم الناس بالغيبة وأكل أموالهم الباطل، بل لا بدّ لنا أن نصنع حياة ملؤها الطهارة والاستقامة، إذا كان المجتمع يسير على أساس الباطل، فهذا لا يبرّر لنا أن نخوض مع الخائضين، بل لا بدّ لنا أن نسنّ سنة طيبة ونسير على أساس الحق.

المعنى الثاني: انشغاله بنفسه أولى بالاهتمام من غيره: إنّ المتَّقي بسبب انشغاله بنفسه لا يلتفت إلى غيره ليهزأ به أو يسخر منه أو يعتدي به، فنفسه أولى بالنظر إليها من النظر إلى ما عند الآخرين، وإصلاح عيوبه أولى من الانشغال بعيوب الناس، وإصلاح أولاده وأسرته أهم من أي انشغال آخر، ولذا فهو وبسبب انكبابه على نفسه لإصلاحها وعلى أسرته لإعالتها وتهذيبها لم يعد له متسع وفراغ ليتسنى له إيذاء الآخرين، فهو ـ بسبب هذا الاهتمام بإصلاح نفسه وشؤونه الخاصة ـ يكون قد أراح الناس من التدخل في أمورهم. وكأن الإمام عليه السلام يدعو الإنسان إلى العمل والانخراط في إصلاح نفسه وترميم شؤون حياته، لأن الفراغ مقتل له ولغيره.

ثانياً: أَتْعَبَ نَفْسَه لِآخِرَتِه

وهذه صفة مهمة في المتقي، فهو صاحب نظر بعيد، ولا يقصر اهتمامه بالدنيا، كما يفعل أصحاب النظر القصير، وإنما يحسب حساب الآخرة أيضاً بما يلائم أهميتها، وهذا ما يقدم عليه كل عاقل، ألا تسمع بعض الناس ممن يعمل في شبابه ويجمع ويدخر إذا سئل عن ذلك أجاب: أريد تأمين آخرتي، ويقصد بذلك مستقبله عندما يهرم ولا يستطيع بعدها أن يعمل، وهذا تفكير صحيح، ولكن ماذا عن الحياة الآخرة ألا تحتاج إلى تأمين؟ ألا تحتاج إلى جهد وجهاد وسعي؟! بالطبع تريد، بل هي أولى بالاهتمام، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٩].

ولكنّ السؤال: ما هو سعي الآخرة؟ وهل هو مختلف عن سعي الدنيا؟

ثالثاً: سعي الدنيا وسعي الآخرة

الكثيرون يتخيلون أنّ سعي الدنيا مناقض بشكل كلي لسعي الآخرة، فهو يفترض أن سعي الدنيا معناه أنه لا بدّ أن يسلك طريقاً مغايراً لطريق الآخرة، وهذا خطأ كبير، فإنّ أعظم ما جاء به الإسلام أنه جعل بالإمكان أن يكون سعي الدنيا كلّه في طريق الآخرة، إذ ما الذي يتطلبه سعي الدنيا؟

أ ـ إنه يتطلب أن يكون لك مال وبنون، وهذا لا ينافي سعي الآخرة، فليكن لك مال وبنون، ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[الأعراف: ٣٢].

ب ـ وهو يتطلب أن يكون لك زوج، فليكن ومن حرّم ذلك؟! بل سعي الآخرة يسير وفق المسار الطبيعي للحياة، والأخذ بمتطلباتها ومنها الزواج.

ج ـ هو يتطلّب التجمّل والتزين واستعمال الطيب، فليكن وما المحذور في ذلك؟ فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يفعل ذلك ويحبه، في الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**حُبِّب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعل قرة عيني في الصلاة**»[1].

د ـ هو يدفعك لامتلاك الدور والبيوت والعقارات والقصور، فليكن، فاعمل وادخر، ولكن لا تنسَ نصيب الفقراء من مالك، ولا تجعل قصورك أبراجاً مخصوصة بطبقة المتكبرين، بل أكرم فيها الضيف وأغث فيها الملهوف، كما ما قاله عليه السلام للعلاء بن عاصم، كما مرَّ سابقاً. راجع المحور الأول، فقرة التصوف الخاطئ.

(١) **الخصال**، ص١٦٥.

إن علياً عليه السلام في قوله عن المتّقي «**أَتْعَبَ نَفْسَه لِآخِرَتِه**» يريد أن يقول لنا: إنّ نفوسكم ثمينة فلا تبيعوها بالرخيص، وعنه عليه السلام: «إنّه ليس لأنفسكم ثمنٌ إلّا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها»(١)، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التوبة: ١١١].

(١) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١٠٥.

(٦٢)
بُعْدُه عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْه زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ، ودُنُوُّه مِمَّنْ دَنَا مِنْه لِينٌ ورَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُه بِكِبْرٍ وعَظَمَةٍ ولَا دُنُوُّه بِمَكْرٍ وخَدِيعَةٍ

ما الذي يحكم علاقة المتَّقي بغيره؟

ما الذي يَحكم علاقتنا مع الآخرين؟ لماذا نقرِّب شخصاً منا ونبعد الآخر عنا؟ وإن شئت فقل: لماذا نصادق هذا ونجانب فلاناً؟ هل الذي يحكم علاقاتنا هي المصالح أو المبادئ؟

أولاً: الصداقة / لماذا أقترب من بعض الناس؟

إنّ الإمام عليه السلام في الإجابة على هذا السؤال يطرح مبدأين في العلاقات: أحدهما مقبول عنده، والآخر مرفوض، وبيان ذلك:

الأول: أما الأمر المقبول في الاقتراب من الآخرين ومصادقتهم، فهو الاقتراب القائم على خلفية إنسانية، حيث يشير الإمام عليه السلام إلى ضرورة أن يحكم علاقتك بالآخرين مبدأ اللّين والرحمة.. إنّ قربك من والديك قبل أن يكون فريضة دينية هو ممّا حكمت به الفطرة البشرية، ومن يضمر ذرة من الشر لوالديه هو مريض، ولا يمكن أن يرجى منه الخير. اللين والرقة اتجاه الوالدين زرعهما الله فيك ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾[الإسراء: ٢٤]. وكذا قربك من أبنائك هو استجابة لضرورة أو حاجة بشرية جبلية، فالإنسان مفطور على حب أولاده والاقتراب منهم والعيش معهم واحتضانهم. الإنسان الذي لا يتعامل بلين ورحمة مع والديه عليه أن يراجع إنسانيته، وكذلك الأب الذي لا ينبض قلبه بحب أولاده عليه أن يراجع حساباته، لأنّ حبَّ الأولاد هو مما زرعته يد الحكمة الإلهية فينا لِحِكَمٍ كثيرة تتصل بالأولاد وبنا وبالمجتمع بصورة عامة.. ومبدأ

الرحمة عينه لا بد أن يحكم العلاقات الزوجية، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١]، بل يمتد هذا المبدأ إلى حالات الاقتراب من الآخرين لغرض رسالي، ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٣ ـ ٤٤]. إذن الاقتراب المقبول لا بدّ أن يكون على أساس اللين والرحمة.

الثاني: وأما المبدأ أو المنطلق المرفوض في الاقتراب من الآخرين، فهو الذي يكون على أساس المكر والخديعة، وما أقبح بالإنسان أن يتقرّب من غيره لأجل أن يخدعهم أو يمكر بهم، أو يكشف أسرارهم ويطلع على عوراتهم ليفشيها! والبعض تراه عندما يأتي إليك كأنه حمل وديع ثم يصدمك بكمية الحقد التي يحملها ضدك عندما يفشي سرك ويأكل لحمك بالغيبة! وأمثال هذا الإنسان له خصائص: منها أنه ذو لسانين ووجهين، ومنها: أنه يغدر ويمكر وغالباً ما ينقلب على الآخرين ويفترس أموالهم ويتسلق من خلالهم ويأكل على موائدهم، حتى إذا استغنى عنهم تنكّر لهم، أو حتى إذا تنكرت الدنيا لهم انفضّ عنهم..

وهناك مبدأ ثالث في العلاقات، وهو أن يقترب منك لحاجته ومصلحته الخاصة، وهذا لا مشكلة فيه من حيث المبدأ، لكنّ السؤال: كيف يتصرف بعد قضاء حاجته؟ إنّ بعضهم يكون وفياً ويتحلّى بمكارم الأخلاق، فلا ينسى الفضل ولا يتركك إذا عجزت عن قضاء حاجته، ولكنّ بعضهم الآخر يكون انتهازياً فيبقى قريباً منك ما دمت محققاً لحاجته فقط، ولا تعنيه بشيء اذا انقضت حاجته عندك، بل يتخلّى عنك ويُسلِمك للنكبات.

ولا شكّ أنّ أسمى الأشخاص وأوفى الأصدقاء من يقترب منك لا لحاجة ولا مصلحة وإنّما حباً بك، وهذا سيبقى معك في السراء والضراء.

كلمتان على هامش زلزال تركيا وسوريا

ومن الاقتراب المقبول والذي يؤكد عليه الإسلام، هو مساعدة الناس في النكبات والزلازل، ولهذا فإنني ومن وحي ما جرى في سوريا وتركيا مؤخراً من زلزال مدمّر قد

حصد الأرواح، ودمر البيوت والمساكن وذهب ضحيته عشرات الآلاف وفيهم الأطفال والمسنين، فإني أقول كلمتين:

الأولى: إنّ هذا الحادث الأليم يقتضي من كل ذي حس إنساني أن يتضامن مع المتضررين، إنّ إنسانية الإنسان تُختبر هنا، بحيث يضع الحسابات الدينية والمذهبية جانباً ويتعاطف مع المستضعفين لكونهم مستضعفين ومحرومين، والحمد لله رأينا ما يشبه الانتفاضة الشعبية العارمة لدى كثير من شعوبنا الإسلامية في التضامن مع المنكوبين، ولكن ويا للأسف فإنّ بعض الدول التي تتنادى بحقوق الإنسان لا زالت تمارس الحصار على سوريا وشعبها، إنه النفاق بأوضح صوره!

الثانية: بعض الناس وأمام هول ما جرى أخذ يتساءل: أين رحمة الله تعالى؟ بل انبرى بعض الناس ليحاكم الله، ويضعه في قفص الاتهام.. ويقولون بالفم الملآن: هنا ظلم الله وهنا عدل، هنا كان رحيماً وهنالك كان قاسياً، وهذا الحكم غريب ويدل على جهل الإنسان: هل أنت تعرف كل شيء عن الله حتى تحاكمه؟ ألسنا نتّفق على أن القاضي لا يدين الشخص ويصدر حكما بتجريمه قبل أن يعرف دوافعه؟ ولكن الإنسان الذي لا يزال يجهل الكثير الكثير ليس عن الله فحسب بل عن خلق الله وحتى عن نفسه، ويقيناً إن مجهولاته أكثرُ من معلوماته، ومع ذلك ينصب نفسك قاضياً ويصدر الأحكام بحق الله تعالى، يا أخي تواضع قليلاً واترك احتمالاً في أن يكون فيما تجهله جواب يزيل عنك الالتباس لو علمته. والأغرب من ذلك أنّنا نريد أن نحاكم الله تعالى وفق معاييرنا وليس وفق معاييره، ووفق رؤيتنا للأمور وليس وفق مخططه وتقديره، إنّ مخطّطه يقول: الدنيا مرحلة مؤقتة ويليها عالم الأبدية، فحكمك على الله لا يجوز أن يكون بالنظر إلى هذه الدنيا فقط، هو جل وعلا يقول لك: أنا استرجع ما وهبت وآخذ هذا الطفل الذي خلقته وصورته إلى عالم أجمل وأروع وأرحب وتأتي أنت وتقول له أنت ظلمته؟ وبأيّ حقّ تأخذه وتميته؟!

ثانياً: الابتعاد / لماذا أبتعد عن بعض الناس؟

وهنا أيضاً يوجد دافعان للابتعاد، أحدهما مقبول والآخر مرفوض، أما المبرر المقبول، فهو الابتعاد زهداً ونزاهة، وهذا في الحقيقة بعد رسالي، فأنت تبتعد عن فلان أو تجتنب بعض التجمعات (سهرات/ وجلسات وما إلى ذلك) تنزهاً، لأنك ترى أنّها توقعك في المحظور وتوجب تلوثك الأخلاقي والروحي والنفسي.

وأمّا المبرّر المرفوض فهو أن يكون ابتعادك عن الناس قائماً على أساس الكبر والعظمة والغرور، بحيث ترى نفسك أرفع منهم وأفضل، وهذا يعبر عن مرض مدمّر، ولا بدّ للمؤمن أن يتنزه عنه، ونستطيع القول: إن المتكبر هو شخص مسكين في عقله، لأنّ من كان مكتمل العقل لا يتكبر، عن الإمام الباقر ﷺ: «**ما دخل قلب امرئٍ شيءٌ من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك، قلّ ذلك أو كثر**»(١). ومعالجة الكبر تحتاج إلى تربية ومجاهدة للنفس التي تدفع الإنسان للتعالي على بعض العباد، عن علي ﷺ قال: «**كفوا عنّي خَفْق نعالكم، فإنها مفسدة لقلوب نوكى**(٢) **الرجال**»(٣).

---

(١) **بحار الأنوار**، ج٧٥، ص١٨٦.

(٢) النوكى، أي الحمقى.

(٣) **سنن الدارمي**، ج١، ص١٣٤.

الملاحق

ما سنذكره في هذه الملاحق هو عبارة عن سلسلة من المحاضرات العامة التي ألقيت في مناسبات شتى، وهي تتضمن جملة من المفاهيم أو المطالب التي درسناها وحللناها مستهدين بالقرآن الكريم وروايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام، وقد أدرجناها هنا لصلتها ببعض المطالب الجانبية التي مرّ الحديث عنها في ثنايا هذا الكتاب، وبالتأكيد فإنّ هذه المطالب يمكن التوسع في درسها وتحليلها، ولكننا تحدثنا عنها بشكل موجز بحسب ما تقتضيه طبيعة المحاضرات والمواعظ العامة.

الملحق رقم (١)

ثعلبة وفتنة المال

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾[التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

آية كريمة تحكي قصة الطمع والبخل الذي يتغلب على الإيمان ويحوّل الإنسان إلى منافق ومتمرد على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

١ - قصة الآية

إنّها قصة ثعلبة بن حاطب، وهو صحابي من الأنصار مؤمن مداوم على الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يدع جمعة ولا جماعة، وكان كعامة المسلمين آنذاك إنساناً فقيراً يعيش بالكفاف، وقد أوجعه الفقر وآلمه، ولذا كان يمنّي النفس بالثروة والمال الوفير، فجاء ذات يوم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو على عقيدة بأنّ له صلى الله عليه وآله وسلم مكانة عظيمة عند الله تجعله في موقعٍ لا يرد له دعاء أو طلب، فقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا ثعلبةُ قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه**»، لكن ثعلبة أصرّ وألحّ في الطلب، وخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أما لك فيّ أسوة حسنة يا رسول الله، فوالذي نفسي بيده لو أردت أن تسيّر الجبال معي ذهباً وفضة لسارت.(لاحظوا معي عقيدته بالنبي) كل ذلك والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يتباطئ في الاستجابة لثعلبة، لأنّه أدرى بما يصلحه وما يفسده. لكنه أصرّ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة تلو الأخرى قائلاً: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ادعُ الله أن يرزقني مالاً، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطيّن كل ذي حق حقه، (وليبقَ هذا الوعد في بالنا)

عند ذاك دعا النبي ﷺ بكلام مختصر: «**اللَّهم ارزق ثعلبة مالاً**»، وفتحت هذه الكلمة أبواب الرزق لثعلبة على مصراعيها، تقول الرواية: فاتخذ ثعلبة غنماً، وببركة دعائه ﷺ نمت الأغنام كما ينمو الدود! فضاقت عليه المراعي القريبة من المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها. وأخذ يتباطىء عن حضور الجماعة خلف رسول الله ﷺ، ثم زاد نمو الغنم، فتباعد عن المدينة أكثر، فشُغِل بذلك عن الجمعة والجماعة، (ثعلبة الذي لم يكن يترك صلاة جماعة خلف الرسول إذا به لا يحضر لا جماعة ولا جمعة!)، ثمّ لما نزلت آية الزكاة بعث رسول الله ﷺ عامل الجباية، ليأخذ الزكاة من ثعلبة، فماذا كان موقف ثعلبة؟ لقد أبى أن يدفعها بخلاً وطمعاً، وقال: ما هذه إلاّ أخت الجزية! فلمّا وصل خبره إلى رسول الله ﷺ علّق قائلاً: «**يا ويح ثعلبة**» (قالها ثلاثاً) فأنزل الله الآيات، المذكورة أعلاه[١].

٢ - دروس الآية

وفي هذه الآية وقصتها الكثير من الدروس والعبر إليك أهمها:

أولاً: فتنة المال: يشكل المال مصدراً هاماً لاستقرار الحياة، وبالتالي فليس المطلوب أن يكون المؤمن فقيراً ولا يملك المال كما قد يُخيّل إلى البعض، وإنّما المطلوب أن لا يتملّكه المال، وأن لا يرضخ لسطوة المال وفتنته، ولا يبخل به، فالمال هو أكبر امتحان لإيمان الإنسان وتديّنه، وكم سقط رجال في فتنة المال، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ**﴾[التغابن: ١٥]. إنّ مشكلة ثعلبة أنّه سقط في امتحان المال مرتين:

أ ـ عندما لم يقنع بما هو عليه من الحال وتطلع إلى الثروة الكبيرة، رغم نصيحة النبي ﷺ له بقوله: «**قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه**».

ب ـ عندما طمع وبخل، ورفض أداء الزكاة الواجبة، وردّ مبعوث النبي ﷺ خالي اليدين، مع أن كلّ ماله هو ببركة دعاء النبي ﷺ.

(١) راجع: **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج١٠، ص٢٤١، **وبحار الأنوار**، ج٢٢، ص٤٠، وإلى غير ذلك من المصادر.

ثانياً: سوء العاقبة: إنّ أفضل ما يناله الإنسان في هذه الدنيا أن يُختم له بخير، وإنّ أسوأ حال يكون عليها ما لو خُتم له بعاقبة سيئة، ولذا فإنّ على الإنسان أن يبقى في حالة حذر وخوف مستمر ومراقبة دائمة لنفسه حتى لا ينحرف قيد أنملة عن خط التَّقوى، فإنّ التَّقوى هي ضمانة حسن العاقبة، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه: ١٣٢]، ومجرد أن يكون الواحد منا ملتزماً جادة الشريعة في مرحلة من عمره فهذا ليس ضماناً على أن يختم له بخير، فربما انقلب عن خط التَّقوى بعد ذلك، وقصة ثعلبة خير مثال على ذلك، فقد كان رجلاً مؤمناً لا يترك جمعة ولا جماعة، بل وكان له اعتقاد عجيب برسول الله «لو شئت أن تسير الجبال معي لسارت!» ومع ذلك وبسبب بخله وطمعه وحرصه على الدنيا فقد خُتم له بالعاقبة السيئة، وخَتم الله على قلبه بالنفاق، وذلك، ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[التوبة: ٧٧].

ثالثاً: أهميّة الوفاء بالوعد والعهد، فالعهد مع الله دين لا بدّ من الوفاء به، ومن لا يطمئن من نفسه بالقدرة على الوفاء بالعهد فلا يورّط نفسه بالعهد مع الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٤]، وثعلبة كان نموذجاً للشخص الذي أخلف عهد الله تعالى، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾[التوبة: ٧٥]، وعهد رسوله ﷺ: «**والذي بعثك بالحق لئن رزقني اللّه مالاً لأعطين كل ذي حق حقه**»، ولما لم يفِ بعهده مع الله ومع رسوله ﷺ، أعقبه الله نفاقاً في قلبه إلى يوم القيامة. نسأل الله حسن العاقبة.

الملحق رقم (٢)

التكلّف والمتكلّفين

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦].

من وحي هذه الآية المباركة نتحدث في النقاط التالية:

أولاً: ما هو التكلّف؟

قال الراغب الأصفهاني: «الكلف: الإيلاع بالشيء. يقال: كَلِفَ فلان بكذا، وأَكْلَفْتُه به: جعلته كَلِفاً، والْكَلَفُ في الوجه سمّي لتصوّر كُلْفَةٍ به، وتَكَلُّفُ الشيء: ما يفعله الإنسان بإظهار كَلَفٍ مع مشقّة تناله في تعاطيه، وصارت الْكُلْفَةُ في التعارف اسماً للمشقة، والتَكَلُّفُ: اسم لما يفعله بمشقَّة، أو تصنع، أو تشبّع، ولذلك صار التَّكَلُّف على أنحاء:

الأول: محمود: وهو ما يتحراهُ الإنسان ليتوصّل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلاً عليه، ويصير كَلِفاً به ومحباً له، وبهذا النّظر يستعمل التَّكْلِيفُ في تكلّف العبادات.

والثاني: مذموم: وهو ما يتحرّاه الإنسان مراءاة، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦]، وقول النبي ﷺ: «**أنا وأتقياء أمتي براء من التَكَلّف**»[١].

أقول: ما ذكره من تنويع التكلف إلى ممدوح ومذموم صحيح، ولكن الملاحظ في النصوص أنه دائماً يأتي في موضع الذم. قد ورد في الحديث عن علي عليه السلام: «**التكلّف من أخلاق المنافقين**»[٢]. وسنذكر بعد قليل أصناف التكلف التي يستفاد من النصوص ذمها.

(١) **المفردات في غريب القرآن**، ص٤٣٩.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٩.

ثانياً: علامات المتكلف

وللمتكلّف علامات أرشدت إليها الروايات، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**أما علامة المتكلف فأربعة: الجدال فيما لا يعنيه، وينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويجعل همه لما لا ينجيه**»(١).

أما العلامة الأولى فهي علامة واضحة وملحوظة في المتكلّفين، فهم يدخلون فيما لا يعنيهم، وأما العلامة الثانية، فيراد بها تنطعه إلى المواقع التي هي أكبر منه وليس أهلاً لها، وفي خبر آخر «ينازع من فوقه بالمعصية»(٢)، وأما العلامة الثالثة، فهي واضحة في أنه شخص غير متوازن ولا يدرس الأمور بدقة، فهو يسعى وراء ما لا يُدرك ولا يُنال، فيضيع عمره دون نتيجة، وأما العلامة الرابعة، فهي تشير إلى أنه لا يحسب الأمور بدقة ولا يوازن بين الاهتمامات فيصرف عمره في أشياء لا تقع ضمن مسؤوليته، ولا تسهم في نجاته وسعادته.

ومن وصية رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «**للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويقول ما لا يعلم، ويتعاطى ما لا ينال**»(٣).

وفي ضوء هذه العلامات، يتّضح أنّ الإنسان المتكلف هو شخصية غير متوازنة، وهو يعيش حياته في حالة من التوتر واللاستقرار، فمن رام السعادة عاش حياته بواقعية دون تكلف وتصنع، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أهنأ العيش إطراح الكلف**»(٤)، وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «**من تكلّف ما ليس من علمه ضيع عمله وخاب أمله**»(٥).

ثالثاً: أنواع التكلف وأشكاله

وللتكلف أشكال عديدة:

الأول: التكلّف للأخوة في الطعام والشراب او الهدايا أو نحوهما، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**شرّ الأخوان من تُكلِّف له**»(٦).

---

(١) **تحف العقول**، ص٢١.
(٢) **الكافي**، ج١، ص٣٧.
(٣) **من لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص٣٦١، و**تحف العقول**، ص١٠.
(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١١٨.
(٥) **بحار الأنوار**، ج١، ص٢١٨.
(٦) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١١٠، وقال الرضي: «لأن التكليف مستلزم للمشقة وهو شرّ لازم عن الأخ المتكلّف له فهو شرّ الإخوان».

وفي حديث آخر عنه ﵇: «**لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً، أحبب حبيبك هوناً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما**»(١).

وعن أبي عبد الله ﵇ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تكرمة الرجل لأخيه المسلم أن يقبل تحفته ويتحفه بما عنده ولا يتكلف له شيئاً**»(٢).

الثاني: تكلف ما لا يعلم، عن أمير المؤمنين ﵇: «**اعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحاح السدد المضروبة دون الغيوب، والإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً**»(٣)، وعن الإمام الصادق ﵇: «**ومن العلماء من يصنع [يضع] نفسه للفتيا ويقول: سلوني ولعلّه لا يصيب حرفاً واحداً والله لا يحبّ المتكلفين**»(٤).

الثالث: تكلف الإنسان ما لا يعنيه، ودخوله ما ليس من شأنه ولا مما يقع تحت مسؤوليته، كما يفعل الكثير من الفضوليين، ودخول الإنسان فيما لا يعنيه هو تصرف غير سوي، فعن الإمام الحسن ﵇ ـ لما سأله أبوه أمير المؤمنين ﵇ عن الكلفة ـ: «**التمسك بمن لا يؤمنك، والنظر فيما لا يعنيك**»(٥). وقد ورد في الدعاء الذي علّمه رسول الله لأمير المؤمنين ﵇: «**وارحمني من تكلّف ما لا يعنيني**»(٦).

الرابع: التكلف في تطبيق الشريعة، بمعنى التشدد في ذلك، لأن الله تعالى جعل شريعته سهلة، ولم يرد للعباد أن يضيّقوا على أنفسهم في تطبيقها، ففي الحديث عن علي ﵇: «**أنّ المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام لكثر عددنا وقوينا على عدونا، فقال رسول الله ﷺ: ما كنت**

(١) **الأمالي** للطوسي، ص٧٠٣.
(٢) **الكافي**، ج٥، ص١٤٣.
(٣) **نهج البلاغة**، ج١، ص١٦٢.
(٤) **الخصال**، ص٣٥٣.
(٥) **معاني الأخبار**، ص٤٠١.
(٦) **الكافي**، ج٢، ص٥٧٧.

لألقى اللّه عزّ وجلّ ببدعة لم يحدث إليّ فيها شيئاً، وما أنا من المتكلّفين، فأنزل اللّه تعالى عليه يا محمد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس: ٩٩]»(١).

ويعدّ الخوارج من أبرز الجماعات التي عرفت باعتماد منهج التشدّد في الدين، أكان تشدّداً على أنفسهم، أو على غيرهم، في الخبر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام كان يقول: «**إنّ الخوارج ضيّقوا على أنفسهم بجهالتهم**»(٢). وفي رواية الكليني بسنده عن إسماعيل الجعفي قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن الدين الذي لا يسع العباد جهله، فقال: **الدين واسع ولكن الخوارج ضيّقوا على أنفسهم من جهلهم**»(٣).

الخامس: التكلف في استظهار النص، وذلك بحمله على بعض الوجوه البعيدة عن الظاهر، وقد عبّرت بعض الروايات عن ذلك بالتعمق، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إياكم والتعمق في الدين، فإن الله تعالى قد جعله سهلاً، فخذوا منه ما تطيقون، فإن الله يحب ما دام من عمل صالح، وإن كان يسيراً**»(٤). وراجع تفصيل الكلام حول مفهوم التعمق ودلالاته في ملاحق كتاب حاكمية القرآن، وفي كتاب العقل التكفيري ـ قراءة في المنهج الإقصائي.

---

(١) **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، ج١، ص١٢٤، **والاحتجاج** للطبرسي، ج٢، ص١٩٦.
(٢) **قرب الإسناد**، ص٣٨٥، **ومن لا يحضره الفقيه**، ج١، ص٢٥٨.
(٣) **الكافي**، ج٢، ص٤٠٥.
(٤) **الجامع الصغير** للسيوطي، ج١، ص٤٥٢، **وكنز العمال**، ج٣، ص٣٥.

الملحق رقم (٣)

الهوى

السعيد من غلب هواه والشقي من غلبه هواه، بهذه الكلمة المختصرة يمكن لنا أن نلخص بها موقف الإسلام من السعادة والشقاء، في بعدهما الأخلاقي والتربوي والنفسي والروحي، ومن وفق لذلك فسوف ينال الفوز في الدارين، **قال تعالى**: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

وعن الهوى يدور حديثنا في النقاط التالية:

١ - ما هو الهوى؟

قال الراغب الأصفهاني: «الهوى ميل النفس إلى الشهوة. ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه[1] في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوى سقوط من علو إلى سفل، وقوله عز وجل: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة: ٩] قيل: هو مثل قولهم: هوت أمه أي ثكلت وقيل: معناه مقره النار، والهاوية هي النار..»[2]. ولا شكّ أنّ لكل إنسان هوى معيّناً، ولا ضير في ذلك شريطة أن لا يدخله هواه في معصية، ولا يقدّم الهوى على الهدى وتعاليم الدين وضوابط الأخلاق.

سلطان الهوى

وللهوى سلطان قوي على الإنسان، فهو يحركه ويوجهه وإذا تحكم به فسيدفعه

(١) عن الشعبي قال: «إنما سمى الهوى لأنه يهوي بصاحبه»، **سنن الدارمي**، ج١، ص١٠٩.
(٢) **المفردات في غريب القرآن**، ص٥٤٨.

للتكبر وعدم الاعتراف بالحق، وقد يرديه ويسلك به طريق المكاره، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين ﷺ أن زيد بن صوحان قال له: «أي سلطان أغلب وأقوى؟ قال: **الهوى**»[(١)].

٢ - الآثار السلبية لاتباع الهوى

إنّ المتأمّل في الجرائم كلِّها أو معظمها وكذا النزاعات البشرية يجد أنّها تنشأ من اتباع الهوى، ويمكننا أن نبيّن أخطر الآثار المترتبة على اتباع الهوى:

أولاً: خطره على المجتمع، فالهوى المذهبي والحزبي والسلطوي يؤثر على وحدة الأمة وتماسكها واستقامتها على خط الرسالة الأصيل، يقول الإمام علي ﷺ فيما روي عنه: «**إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع**»[(٢)]، إنّه ﷺ بهذا الكلام يشير إلى أمر في غاية الأهمية وهو أنّ الفتن التي قد تعصف بالأمة إنّما تنشأ من اتباع الهوى. والمتأمل في تاريخ الصراعات يكتشف أنّ سلطان الهوى وحب السلطة هو أكبر سبب لسفك الدماء في التاريخ البشري.

ثانياً: خطره على الدين، فإنّ الأهواء سبب لتحريف الدين، فقد حُرِّف الدين وتعاليمه ونصوصه ووضعت أحاديث على لسان الرسول ﷺ نتيجة أهواء معينة، سواء أكانت أهواء سلطانية أو أهواء أشخاص لم يدخل الإسلام في قلبهم وأرادوا الكيد للدين، وأخطر ما في الأمر أن يتم إلباس الأهواء لبوساً دينياً، وعن ابن لهيعة قال: «سمعت شيخا من الخوارج وهو يقول إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإنّا كنا إذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً»[(٣)].

ثالثاً: آثاره على الفرد، ولاتباع الهوى آثار وخيمة وعواقب سيئة على الفرد أيضاً، ومن هذه الآثار:

---

(١) **من لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص٣٨٢، و**معاني الأخبار**، ص١٩٨، و**دستور معالم الحكم** للقضاعي ص١٠١.

(٢) **نهج البلاغة**، ص٨٨ و٧٥٦ و٨٠٨.

(٣) **الكفاية في علم الرواية**، للخطيب البغدادي، ص١٥١.

١ ـ أنّه يعمي عقل الإنسان، فكلما تقدم الهوى تراجع العقل وضعفت العزيمة، إنها معادلة تصدقها التجارب، لا يمكن أن ينطلق العقل ليبدع ويطور إلا إذا حوصر الهوى، في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**من لم يملك شهوته لم يملك عقله**»(١). وعنه عليه السلام: «**كم من عقل أسير تحت هوى أمير**»(٢)، وعنه عليه السلام: «**منْ قوي هواه ضعف عزمه**»(٣).

٢ ـ وكما أنّ اتباع الهوى يجمد العقل، فإنه أيضاً يحول دون انتفاعه بالحكمة، فالهوى حجاب، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حرام على كل عقل مغلول بالشهوة أن ينتفع بالحكمة**»(٤).

٣ ـ وهو أيضاً يبعد عن الله تعالى ويوجب قساوة القلب، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حرام على كل قلب متولّه بالشهوات أن يسكنه الورع**»(٥). وهو من أسوأ الآثار عاقبة.

٤ ـ مذلة الشخص، فإنّ «**عبد الشهوة أذل من عبد الـرّق**»(٦). كما قال الإمام علي عليه السلام.

٥ ـ الهلاك الأخـروي، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أول الشهوة طرب وآخرها عطب**»(٧).

٦ ـ وفي الحديث أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى أنّ اتباع الهوى يؤدّي إلى الضلال والعمى، يقول فيما روي عنه: «**أوصيكم بمجانبة الهوى فإنّ الهوى**

---

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٢٧.
(٢) **نهج البلاغة** ج٤، ص٤٨.
(٣) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٣٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٣.
(٥) **تنبيه الخواطر ونزهة النواظر**، ص٤٤١.
(٦) **شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين** عليه السلام لابن ميثم البحراني ص١١٧.
(٧) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١١٢.

يدعو إلى العمى وهو الضلال في الآخرة والدنيا»[(١)]، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[الروم: ٢٩].

ومن أجمع كلمات علي في بيان مخاطر اتباع الهوى: «**من اتبع هواه أعماه وأصمّه وأذله وأضلّه**»[(٢)].

٣ - مستويات اتباع الهوى

إن بداية الهوى هي إعجاب المرء بذاته ونفسه، ثم يتطور ذلك شيئاً فشيئاً حتى يتملك الهوى من الإنسان ويعمي عقله، لتراه يقدم هواه على المبادئ كلها وإذا بهذا الشخص الذي خلقه الله على الفطرة الطيبة لا يفكر إلا بمصالحه، ويصل الأمر إلى أنه يعمل على الإطاحة بكل من يقف في وجه طموحاته، فيظلم ويعتدي حتى على أقرب المقربين إليه إذا أحسّ بأنّهم سوف يشكلون خطراً على مصالحه وشهواته، وقد قالها هارون الرشيد ـ على ما يحكى ـ لابنه: «**لو نازعتني الملك لأخذت الذي فيه عيناك**»[(٣)].

وفي تطور أخطر لتملك الهوى من النفس قد نجد أنّ الهوى قد تملّك بصاحبه إلى درجة أنه أصبح إلهاً ومعبوداً من دون الله، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية: ٢٣]، وكيف يعبد هواه؟

عندما يصبح هواه هو المطاع وهو المتّبع دون أمر الله تعالى ونهيه الله، فإذا كان أمر الله مخالفاً لهواه فإنّه يقدم هواه على أمر الله تعالى، وهذا نوع من الشرك العملي بالله تعالى، وهو شرك الطاعة، والشريك هو الهوى.

٤ - ما هو علاج هوى النفس؟

إن معالجة معضلة تملك الهوى من الإنسان تحتاج إلى برنامج عملي وسلوكي خاص، يعمد إلى تهذيب النفس ويبدأ الأمر:

---

(١) **دعائم الإسلام**، ج٢ ص٣٥٠.

(٢) **غرر الحكم ودرر الكلم** للآمدي، ص٦٥، ونقله عنه في **مستدرك الوسائل** ج١٢ ص١١٥.

(٣) **عيون أخبار الرضا**، ص٨٦.

١ ـ بإيقاظ الشعور الإيماني واستحضار عظمة الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

٢ ـ والمواعظ المنعشة هي أيضاً عامل في تذويب الشهوات، في الكافي ـ في حديث رفعه ـ قال: «**إنّ موسى** عليه السلام **ناجاه الله تبارك وتعالى فقال له:.. يا موسى ضع الكبر ودع الفخر واذكر أنّك ساكن القبر فليمنعك ذلك من الشهوات**»[١]، وفي الحديث المعروف عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**اذكروا هادم اللذات، قيل: يا رسول الله وما هادم اللذات؟ قال: الموت**»[٢]، ولا ريب أنّ محاسبة النفس المستمرة سوف تجعل الإنسان قادراً على امتلاك غرائزه وشهواته، فعن الإمام الكاظم عليه السلام: «**إذا مرّ بك أمران لا تدري أيهما خير وأصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه فإنّ كثير الصواب في مخالفة هواك**»[٣].

٣ ـ ومن وسائل التغلب على الشهوات تعزيز عناصر التوازن في الشخصية، ففي الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**كلما قويت الحكمة ضعفت الشهوة**»[٤]، وعنه عليه السلام: «**من كمل عقله استهان بالشهوات**»[٥].

٤ ـ تحصين النفس وتنمية الشعور بالكرامة والعزة، فالإنسان الكريم تمنعه كرامة النفس من أن يقترف بعض المعاصي وينقاد للشهوات، وعنه عليه السلام: «**العفة تضعف الشهوة**»[٦].

أشجع الناس من غلب هواه

وفي سياق العلاج أيضاً، علينا تصحيح مفهوم الشجاعة فإنّ الشجاعة لا تكون بهزيمة

(١) **الكافي**، ج٨ ص٤٦.
(٢) أوضح أسانيده وبيّن مصادره في **إرواء الغليل في شرح منار السبيل**، ج٣، ص١٤٥.
(٣) **تحف العقول**، ص٣٩٨.
(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٣٩٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٤٥.
(٦) المصدر نفسه، ص٦٧.

الآخرين والتغلب عليهم فحسب، بل في السيطرة على شهواتك، عن رسول الله ﷺ: «**إنّ الشديد ليس من غلب الناس ولكن الشديد من غلب نفسه**»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أشجع الناس من غلب هواه**»[2].

---

(١) **سنن النسائي**، ج٦ ص١٠٥.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص١١٥.

الملحق رقم (٤)

الغرور

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۞ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[الانفطار: ٦ ـ ٧].

من وحي هذه الآية يمكن التوقّف عند عدة نقاط:

أولاً: الغرور ومرض انتفاخ الشخصية

الغرور مرض قاتل ومدمر للإنسان، حيث يعيش الغرور انتفاخ الشخصية وتورمها فيتكبر على الآخرين ويستخف بهم ما يجعله غائباً عن نفسه، فهو كالسكران الذي يعيش نشوة السكر بل أسوأ منه، لأن السكران ربما أفاق من سكره قبل المغرور، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**سكر الغفلة والغرور أبعد إفاقة من سكر الخمور**»(١)، ولذا فالمغرور إنسان مريض لا يعرف ما يصلحه وقد يصل به الغرور حد أن لا تنفعه الموعظة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بينكم وبين الموعظة حجاب من الغِرّة**»(٢)، ولذا على الإنسان أن يتدارك نفسه قبل أن يقضي عليه غروره ويحرقه.

ثانياً: أنحاء الاغترار

والاغترار له أشكال عدة:

١ - الاغترار بالدنيا

من مظاهر الغرور: الغرور بالدنيا، بزخارفها ومناصبها وجاهها ومتاعها، ومن هنا نبه علي عليه السلام من السكون إلى الدنيا، فقال فيما روي عنه: «**سكون النفس إلى الدنيا من أعظم**

---

(١) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٤٠٥، **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٨٥.

(٢) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٦٨.

الغرور»[١] مع أنّ ما في هذه الدنيا كلّها ودائع وسوف يفارقها الإنسان يوماً ما، لك أن تفرح بالمال وتأنس بالأولاد وتهنأ بهم وتبلغ بهم حاجاتك ولكن لا يصح أن يعميك ذلك عن واجباتك ويحجبك عن ربك، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اتقوا غرور الدنيا فإنها تسترجع أبداً ما خدعت به من المحاسن وتُزعج المطمئن إليها والقاطن**»[٢]. وينسب إلى الإمام علي عليه السلام قوله شعراً:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت — أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها — إلا التي كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها — وإن بناها بشر خاب ثاويها
أين الملوك التي كانت مسلطة — حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
لكل نفس وإن كانت على وجل — من المنية آمال يقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها — والنفس ينشرها والموت يطويها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها — ودورنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن في الآفاق قد بنيت — أمست خراباً ودان الموت أهليها[٣]

٢ - الاغترار بالنفس

والمظهر الآخر للغرور هو الغرور بالنفس وبملكاتها وذكائها وجمالها وشبابها وقوتها، أنا أجمل من الآخرين أنا أذكى أنا أعلم أنا.. أنا.. أنا صاحب الجاه، والحقيقة أنّ منشأ هذا الغرور هو الجهل، عن علي عليه السلام: «**من جهل اغتر بنفسه، وكان يومه شراً من أمسه**»[٤] ولذا فإن العالم المحترم لعلمه يتواضع على الدوام، لأنه يعرف أنّ علمه لا يؤهله للتكبر على الآخرين، وأن فوقه من هو أعلم منه، فإذا كان له أن يتكبر على من هو أقل منه فللأعلى أن يتكبر عليه.

---

(١) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٤٠٥، و**عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٨٥.
(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٨٨.
(٣) تنسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، راجع: **ديوان الإمام علي عليه السلام**، ص١٨١، وقد تكلمنا حول صحة انتساب هذا الديوان إليه عليه السلام، في كتاب **المرأة في النص الديني**، ص٣٠٧، فراجع.
(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٦٢.

٣ - الاغترار بالله تعالى

ومن مظاهر الغرور: الغرور بالله تعالى، وهو ما نصت عليه الآية الكريمة: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾[الانفطار: ٦]، والغرور بالله يعني أن يأمن من مكر الله فيتجرأ عليه بالعصيان والتمرد أو بالغفلة عنه، وإليك بعض الأحاديث في الاغترار بالله، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا ابن مسعود لا تغتر باللَّه، ولا تغترن بصلاحك وعلمك وعملك وبرّك وعبادتك»**[١].

وعن علي عليه السلام: **«من الغرة باللَّه أن يصرّ العبد على المعصية ويتمنى على اللَّه المغفرة»**[٢].

وعنه عليه السلام: **«كم من مستدرج بالإحسان إليه مغرور بالستر عليه ومفتون بحسن القول فيه وما ابتلى اللَّه أحداً بمثل الإملاء له»**[٣].

---

(١) مكارم الأخلاق، ص٤٥٢.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٧٠.
(٣) نهج البلاغة، ج٤، ص٢٨.

الملحق رقم (٥)

التكبر

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان: ١٨].

١ - الكِبْر حقيقته وعلاماته

الكبر هو مرض نفسي يبدأ من إعجاب المرء بنفسه، ومن شعور بالتمايز عن الآخرين فيعيش تورماً وانتفاخاً في شخصيته وزهواً يدفعه إلى الاستعلاء على الآخرين والاستخفاف بهم. فعمق المشكلة لدى المتكبّر هي في داخل النفس، وأمّا ما يصدر منه من أعمال ظاهرية من خلال القول أو الفعل أو اللباس فهي تعبيرات تعكس وتظهر ما في النفس، وبالأحرى هي علامات التكبر، من قبيل المشي متبختراً أو شامخاً بأنفه أو مائلاً بوجهه عن الناس أو نحو ذلك ممّا قد يتّصل باللّباس أو ما يصدر عنه من كلمات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾[الإسراء: ٣٧]، وكثيراً ما يتردّد على لسان المتكبر عبارة «أنا»، وقد قاله إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[ص: ٧٦]، وكقول صاحب الجنتين لأخيه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف: ٣٤]، وغالباً ما يميّز نفسه باللّباس ومكان الجلوس أو غير ذلك من التصرّفات.

وعلينا أن لا نخلط بين العزة والكبر، فالعزة ورفض الذل شيء، والتكبر على العباد وعدم التواضع لهم شيء آخر، قال رجل للحسن عليه السلام: إنّ فيك كبراً، فقال: كلا، الكبر لله وحده، ولكن فيّ عِزة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨][(١)].

(١) بحار الأنوار، ج٢٤، ص٣٢٥.

ولا يظنن أحدٌ أنّ الدعوة إلى التواضع ورفض الكبر هي دعوة إلى أن يكون الإنسان قذراً أو ذا لباس بال، كلا، فالتجمل والنظافة لا ينافيان التواضع، وقد ورد في الخبر: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنني آكل الطعام الطيب وأشمّ الريح الطيبة وأركب الدابة الفارهة ويتبعني الغلام فترى في هذا شيئاً من التجبر فلا أفعله؟ فأطرق أبو عبد الله عليه السلام ثم قال: «**إنّما الجبار الملعون من غمض الناس وجهل الحق**، قال عمر: فقلت: أمّا الحق فلا أجهله والغمض لا أدري ما هو، قال: **مَنْ حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار**»[1].

وكذلك، فإن علينا أن لا نتخيل أنّ صرف الإعجاب بالجمال أو بالمال أو بالولد هو من الكبر، في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «.. **يا أبا ذر، من مات وفي قلبه مثقال ذرة من كبر، لم يجد رائحة الجنة إلاّ أن يتوب قبل ذلك**. فقال رجل: يا رسول الله، إنّه ليعجبني الجمال حتى وددت أن علاقة سوطي وقبال نعلي (قبال النعل الزمام) حسن، فهل ترهب علي ذلك؟ فقال: **كيف تجد قلبك؟** قال: أجده عارفا للحق مطمئناً إليه، قال: **ليس ذلك بالكبر، ولكن الكبر أن تترك الحق وتتجاوزه إلى غيره، وتنظر إلى الناس فلا ترى أحداً عرضه كعرضك ولا دمه كدمك**»[2].

٢ - دوافع الكِبْر

وهنا يأتي السؤال ما الذي يدفع الإنسان للتكبر على الآخرين من بني جنسه؟ يمكننا أن نذكر جملة من الأسباب التي تدفع الإنسان إلى التكبّر:

١ ـ الغرور، إنّ الإنسان يحبّ نفسه وهذا أمر طبيعي، ولكن حبّه لنفسه قد يتجاوز الحدّ فيصل إلى حالة مرضيّة بحيث لا يرى معايبها بل يزين لها كل أعمالها فيعيش في شرنقة من الغرور، الأمر الذي يدفعه للشعور بالتمايز على الآخرين لأنّه يمتلك جمالاً لا يمتلكه غيره أو يمتلك مالاً لا يمتلكه الكثيرون أو لأنّه يمتلك جاهاً ومركزاً لا يملكه الكثيرون، أو لأنّه من عشيرة ذات مكانة

(١) **الكافي**، ج٢ ص٣١١.
(٢) **أمالي الطوسي**، ص٥٣٨.

أو ابن زعيم أو مرجع ديني أو له نسب مميّز كالنسب العلوي، إلى غير ذلك من أعراض الدنيا وحطامها الذي يمتلكه الإنسان، وهذا ما دفع البعض للتكبر على الأنبياء والتكذيب برسالاتهم، بحجة أنّ هذا النبي عليه السلام أو ذاك فقير أو من طبقة مستضعفة، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١]، وهذا الشعور بالأفضلية هو ما دفع إبليس للكفر والتكبر ورفض السجود لآدم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[الإسراء: ٦١]. وتعبّر بعض الآيات أنّ هوى النفس كان دافعاً عند بعض الناس للكفر والتكبر على الأنبياء، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧].

٢ ـ مذلة النفس، وإذا تأملنا في شخصية الكثير من المتكبرين لوجدنا أنّهم يعيشون عقدة نقص تدفعهم إلى الاستعلاء والتكبر، وقد أرشد إلى ذلك الإمام الصادق عليه السلام حيث قال فيما روي عنه: «**ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلاّ لِذلة وجدها في نفسه**»[١]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما تكبّر إلّا وضيع**»[٢]، وهذا ما يؤكده التحليل النفسي لشخصيات المتكبرين، حيث نجد أنّ بعضهم عانى من بداية حياته فقراً مدقعاً ثم مع الوقت أثرى وأقبلت الدنيا عليه فشعر بالزهو وأخذ يمارس نوعاً من التصرفات الاستكبارية ليشعر الناس أنّه لم يعد فلاناً الفقير الذي كنتم تشفقون عليه أو تهزئون منه، ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام فيما روي عنه: «**احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع**»[٣]، وهكذا فإنّ بعض الطغاة المستكبرين نجد أنّهم عانوا في بداية حياتهم قهراً وظلماً ما جعلهم بعد وصولهم إلى السلطة يمارسون الاستعلاء والظلم كمحاولة للتعويض النفسي.

---

(١) **الكافي**، ج٢، ص٣١٢.

(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٧٥.

(٣) **نهج البلاغة**، ج٤، ص١٤.

٣ - عواقب التكبر وسلبياته

إنّ دراسة ظاهرة التكبر تقود إلى أنّه خلق قبيح وكله مفاسد ومضار إن بالنسبة للمتكبّر نفسه أو بالنسبة للمجتمع برمّته، وإليك بعض آثاره السلبية:

١ ـ الكبر آفة العقل ومانع من المعرفة، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**شر آفات العقل الكبر**»(١)، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**ما دخل قلب امرئ من الكبر إلاّ نقص من عقله**»(٢)، ولكن كيف يكون الكبر آفة العقل؟

الجواب: لأنّ المتكبر يعيش وهماً كبيراً فلا يرى الأمور على حقيقتها فهو جاهل وبعيدٌ عن الحق، ولا يسمح له الكبر أن يرى عيبه ليصلحه، ولذا قال علي عليه السلام ـ فيما روي عنه ـ: «**عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله**»(٣).

ولو أنّ المتكبّر رأى عيبه فإن كبرياءه قد لا يسمح له بإصلاح العيب، فيتمادى في غيّه، ومن هنا فإنّ المتكبّر لن يتعلم، قال علي عليه السلام فيما روي عنه: «**لا يتعلم من يتكبر**»(٤)، من يريد العلم لا بدّ أن يتواضع كما تواضع موسى كليم الله وقال للعبد الصالح: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾[الكهف: ٦٦].

٢ ـ الكبر ورفض الحق، وهكذا فالمتكبر يرفض الحق ولا ينصاع له، لأنّه يرفض التنازل أو الاعتراف بالخطأ أو التواضع واتباع الغير، قال تعالى: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا**﴾[نوح: ٧]، وإنّ إبليس هو خير نموذج للشخصية التي ترفض الحق وتصدّ عنه وتتمرّد على الهدى مع علمها به، لا لشيء سوى التكبر الذي تملك نفسه، فالتكبّر هو الذي أوصل إبليس بعد طول عبادة مع الملائكة حتى سُمّي طاووس

(١) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٢٩٥.
(٢) **بحار الأنوار**، ج٧٥، ص١٨٦.
(٣) **نهج البلاغة**، ج٤، ص٤٩.
(٤) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٧٧٢.

الملائكة إلى ما وصل إليه من الكفر والتمرد على الله، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[ص: ٧٣ ـ ٧٤]، وبسبب تكبره هذا طرد من الجنة لأنّ الجنة لا يقطنها من كان في قلبه ذرة كبر، قال تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[الأعراف: ١٣].

٣ ـ الكبر والطغيان، والتكبّر في معظم الأحيان يقود إلى الطغيان والتعدي على الآخرين أو تجاوز حقوقهم وانتهاك كراماتهم والاستخفاف بهم والسخرية منهم، قال الإمام علي عليه السلام فيما روي عنه: «**احذر الكبر فإنّه رأس الطغيان ومعصية الرحمان**»(١).

ولو درست سيرة الطغاة لوجدت أنهم شخصيات متعجرفة ويتملكها الكبر ويستبد بهم الزهو والفخر.

٤ ـ السقوط، ومآل المتكبر والمتبختر إلى السقوط وتلك سنَّة الله في خلقه، «**من تكبر على الناس ذل**»، كما يقول علي عليه السلام(٢)، وعنه عليه السلام: «**بكثرة التكبر يكون التلف**»(٣)، وهذا أمر طبيعي لأنّ الناس سوف تنفضّ عن المتكبر المتعجرف، فعنه عليه السلام: «**ليس لمتكبر صديق**»(٤)، بل سوف تمنعه الناس وتعاديه وترفضه، وهذه سنن التاريخ تعلمنا أنّ الاستكبار والطغيان مآله إلى الزوال، فهذا فرعون وهامان ونمرود وأبو جهل وأبو لهب كلهم سقطوا.

وعن الإمام علي عليه السلام: «**فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم واستعيذوا باللَّه من لواقح الكبر كما تستعيذونه من طوارق الدهر**»(٥). وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص١٦٢.
(٢) **الكافي**، ج٨، ص١٩.
(٣) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٣٠٢، **وعيون الحكم والمواعظ**، ص١٨٨.
(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٤٠٩.
(٥) **نهج البلاغة**، ج٢ ص١٤٣.

«اجتنبوا الكبر، فإنّ العبد لا يزال يتكبر حتى يقول الله عز وجل: اكتبوا عبدي هذا في الجبارين»[١]، وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا يزال الرجل يتكبر ويزهو بنفسه حتى يكتب من الجبارين فيصيبه ما أصابهم»**[٢].

٤ - علاج الكبر

وفي معالجة الكبر هناك أكثر من خطوة لا بدّ من اتخاذها، وهناك أكثر من عبرة ينبغي التأمل فيها، ما يساعد على التخلص من هذا المرض النفسي المدمّر:

أ ـ **المحاسبة الذاتية:** فعلى الإنسان أن يحاسب نفسه ويسائلها: لماذا أتكبّر على الناس وأنا مثلهم وحالي حالهم في البداية والخاتمة؟! خُلقت من التراب كما خلقوا، وإليها أعود كما يعودون، أموت كما يموتون، وأُلْحَدُ وحيداً في قبري كما يُلحدون، وأخرج وحيداً كما يخرجون، وإنّ مالي وجاهي وعشيرتي لا تغني عني شيئاً، يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام فيما روي عنه: **«عجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة»**[٣]. وهذا تاريخ المتكبرين خير مثال للاعتبار، أين أصبحوا؟ وماذا كسبوا وربحوا؟ هل ربحوا الآخرة؟ بالطبع لا، هل ربحوا الدنيا؟ لقد تصرمت الدنيا وانقضت لذاتها، ولم يبق منها سوى الذكريات التاريخية، وهم دون شك قد دونت أسماؤهم في سجلات الملعونين والمنبوذين!

إن مساءلة النفس مهمة جداً لجعلها تتواضع، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يراقب نفسه فيخشى من كثرة الناس الذين معه ويصلون خلفه أن يداخله شيء من الكبر، ففي الحديث: «أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف وأمرهم أن يتوقفوا ثم مشى خلفهم، فسئل عن ذلك؟ فقال: **إني سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر**»[٤]، ولذا فما أحرانا نحن بمثل هذه المراقبة والمحاسبة.

---

(١) **الجامع الصغير**، ج١، ص٣٢.
(٢) **المعجم الكبير** للطبراني، ج٧، ص٢١.
(٣) **المحاسن**، ج١، ص٢٤٢.
(٤) **كنز العمال**، ج٣، ص٨٣٠.

ب ـ **الاستعانة باللّه وعبادته ودعاؤه:** فإذا كان لنا جاه ومرتبة فلا يدفعنا ذلك إلى الشعور بالتمايز عن الآخرين والتفوق عليهم، وإذا نازعتني النفس إلى مثل هذا الشعور فلنستعن بالله تعالى من ذلك، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: «**وَلا تَرْفَعْنِي فِيْ النَّاسِ دَرَجَةً إِلّا حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلا تُحْدِثْ لِي عِزّاً ظَاهِراً إِلّا أَحْدَثْتَ لِي ذِلَّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا**»(١).

إنّ عبادة الله تعالى والتذلّل له ينبغي أن يعلّماننا درساً في التواضع مع عيال لله، وذلك لأنّ الكبرياء هي رداء الله تعالى ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[الحشر: ٢٣]، وكبرياؤه عزّ وجل ليس تعجرفاً ولا احتقاراً لمن سواه من المخلوقين، وإنّما كبرياؤه هو عظمته وعلّو شأنه وقدرته التي لا يدانيه فيها قدرة، فالكبر صفة من صفاته عز وجل، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**الكبر رداء اللّه والمتكبر ينازع الله رداءه**»(٢).

وعن دور العبادة في تعليم الإنسان درساً في التواضع وعدم التكبر تقول السيدة الزهراء عليها السلام في خطبتها الشهيرة: «**فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك والصلاة تنزيهاً من الكبر**»(٣).

إنّ الإنسان في حالة العبادة هو في حالة تذلل لله تعالى ولا سيما وهو في حالة السجود، والتذلّل لله ينبغي أن يعطيه ويمنحه عزة أمام الآخرين وليس تكبراً، فالعبادة هي درس عظيم في التواضع وتأديب النفس وتهذيب نوازعها، ومن يتعالى أو يستكبر على عبادة الله فبالأولى أن يتكبّر على عباد الله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[غافر: ٦٠].

ج ـ **التخلي عن زي المتكبرين**، والابتعاد عن التشبه بهم، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنئاً لأهله يدفع به الكبر**

---

(١) **الصحيفة السجادية**، من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص٣٠٩.
(٣) **من لا يحضره الفقيه**، ج٣، ص٥٦٨، والكلام عينه مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، انظر: **نهج البلاغة**، ج٤، ص٥٥.

عن نفسه»[١]، وتذكر بعض الروايات أمثلة أخرى ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من رفع جيبه وخصف نعله وحمل سلعته فقد برئ من الكبر**»[٢]، وهذه الأمور متحركة ولا خصوصية لها، والمغزى منها أن يحمل الإنسان الذي يخشى من الكبر، يحمل نفسه على فعل بعض الأمور التي تعلّم النفس على التواضع وتدفعه إلى ذلك، وذلك من قبيل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «البادئ بالسلام بريء من الكبر»[٣]، فإنّ البعض يرى أنّ على الآخرين أن يبادروا للسلام عليه وليس عليه هو أن يبادر ويكون ذلك منطلقاً من حالة كبر في نفسه، فدعوته إلى المبادرة بالسلام هي محاولة لتهذيب النفس.

د ـ **اتخاذ النموذج**: ومن الضروري في مقام العلاج والعمل على الخروج من أسر الكِبر أن نتخذ نماذج نقتدي بها في هذا المجال، فلو لاحظنا الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف خلق الله تعالى لوجدنا أنّ سَمْتهم التواضع وأنّ تواضعهم هذا زادهم رفعة وعلواً، وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يصفه الإمام علي عليه السلام: «**ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف بيده نعله ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلفه ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة** ـ لأحدى أزواجه ـ **غيّبيه عني، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه**»[٤]، وهكذا كان لا يتمايز عن أصحابه شيء حتى إذا دخل الداخل عليه يسأل: أيكم محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟[٥]

والأمر عينه والخُلُق ذاته نجده عند علي عليه السلام، فقد كان ـ كما قال ضرار بن ضمرة

(١) **تنبيه الخواطر ونزهة النواظر**، ص٢٠٩.
(٢) **ثواب الأعمال**، ص١٧٨.
(٣) **الجامع الصغير** للسيوطي، ج١، ص٤٩٢.
(٤) **نهج البلاغة**، ج٢ ص٥٩.
(٥) **أسد الغابة**، ج٢، ص٦٣. **البداية والنهاية**، ج٥، ص٧٤.

في وصفه عليه السلام عندما سأله معاوية عن ذلك ـ: «**يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استفتيناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له**»[١]. هؤلاء هم أئمة الدين فمن يتخذهم أئمة فلا بدّ أن يقتدي بهم فيتواضع للناس، أمّا المتكبر فإمامه ليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا علياً عليه السلام، وإنّما إمامه في حقيقة الأمر هو إبليس، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له في ذم التكبر: «**..فعدوّ اللّه إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ونازع الله رداء الجبرية وادّرع لباس التعزز وخلع قناع التذلّل ألا ترون كيف صغّره الله بتكبره ووضعه بترفعه فجعله في الدنيا مدحوراً وأعدّ له في الآخرة سعيراً**»[٢].

هـ ـ **الإسلام وذم التكبر**: وعلينا كمسلمين، أن نحب ما أحبه الله لنا ونبغض ما يبغضه الله لنا، ولما لا نفعل ذلك، وهو الأعلم بما يصلحنا وما يفسدنا، وقد أحب لنا التواضع وكره الكبر، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[الإسراء: ٣٧]. وقال تعالى وهو يحدثنا عن صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٦٣]. وهذه الآيات إنّما تركز على المشي باعتباره أحد أبرز مظاهر التكبر والاستعلاء على الناس. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إياكم والكبر فإنّ إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم**»[٣]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إياك والكبر فإنّه أعظم الذنوب وألأم العيوب وهو حلية إبليس**»[٤].

---

(١) **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، ج١٨، ص٢٢٦.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٢ ص١٣٨.
(٣) **الجامع الصغير**، ج١، ص٤٥١.
(٤) **عيون الحكم والمواعظ**، ص٩٦.

٥ - متكبّر في ثوب متواضع

وعلينا هنا أن ننبّه إلى خفاء الكبر في بعض الحالات، حيث إنّ بعض الناس تراه يمارس التكبر حتى في ثياب المتواضعين، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إياكم والكبر فإنّ الكبر يكون في الرجل وأنّ عليه العباءة**»[1]، ومن هنا نرى بعض الناس يلبسون ثياباً قصيرة بحجة الالتزام بالسنة، وتراهم يمشون متبخترين، فيقعون في عكس المراد من الدعوة إلى تقصير الثياب، فإنّ الحديث الوارد عن النبي ﷺ يعلل النهي عن إطالة الثوب بأنّه علامة التكبر، فإذا بنا نقصر الثوب خيلاءً! في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**من جرّ ثوبه من مخيلة لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»[2]. ومن يتكبر بلباس التقى والزهد أو لباس الدين هو من أسوأ المتكبرين لأنّه يضيف على تكبره لبوساً دينياً، فهو لا يتكبر من موقع دنيوي بل من موقع ديني مع أنّ الدين ذمّ التكبر واعتبره خلقاً قبيحاً.

---

(١) **الجامع الصغير**، ج١، ص٤٥١.

(٢) **مسند أحمد**، ج٢، ص٤٢.

الملحق رقم (٦)

الرضا بالقضاء والقدر

إن أعظم طموح يتطلّع إليه الإنسان وأغلى منية يتمناها أن يعيش بسلام مع نفسه، بعيداً عن الخوف من المستقبل والقلق من المرض والرعب من الموت، فهل من وصفة يمكن أن تمنحنا ذلك وتحقق لنا هذه الأمنية؟

كل المدارس ـ دينية أو غيرها ـ تسعى للإجابة على هذا السؤال وتقدّم وصفتها على هذا الصعيد، فإذا ذهبت إلى بلاد الهند ستجدهم يعتبرون اليوغا وصفة لراحة البال، وإذا ذهبت إلى المدرسة المادية فإنها ترى أن توفير مستوى معيشي مرفّه للإنسان، يحقّق له هذه الأمنية، ومع أن توفير ذلك مهم للإنسان لكنَّ افتراض أن ذلك يحقق تلك الأمنية هو وهم أو سراب، فهذه الدول الغربية الاسكندنافية التي يعدّها مؤشرُ السعادة العالمي في المرتبة الأولى، هي من أكثر الدول التي يقدم فيها الإنسان على الانتحار، كما تقول الأرقام.

وديننا الإسلامي ـ وربما غيره من الأديان ـ لديه وصفته الخاصة التي يقدمها لمن يريد أن يعيش آمناً مطمئناً، دعونا نتعرف على هذه الوصفة ونحاول تجربتها.

وهذه الوصفة عنوانها: الرضا بقضاء الله وقدره، إننا نعتقد أن ذلك هو المدخل ليعيش الإنسان حياته بهناء وسعادة، فما هو الرضا؟ وما هي آثاره الإيجابية؟

أولاً: القضاء والقدر

بداية لا بدّ أن نشير إشارة عابرة ـ والتفصيل متروك إلى محله ـ إلى معنى القضاء والقدر، فكثيرون فهموا ذلك خطأً، فهموا القضاء والقدر على أنه ملغٍ لاختيار الإنسان،

فغدا حال الإنسان أمام سيف القضاء والقدر كحال الريشة في مهبّ الريح تتقاذفها يمنة ويسرة دون أن تملك ردّاً وتغييراً.

ولكنّ هذا الفهم خاطئ بكل تأكيد، نعم هو صحيح بالنسبة لسائر الكائنات من العجماوات والجمادات، فهذه منقادة انقياداً تاماً للتقدير الإلهي ولا تملك رداً أو تمرداً، أما بالنسبة للإنسان، فإنّ اختياره يقع جزءاً أساسياً من نظام القضاء والتقدير الإلهيين، فالله تعالى قدر وقضى ما سوف نفعله باختيارنا، فإذا أطعنا أو تمردنا لم يمنعنا تكويناً عمّا عزمنا على فعله أو تركه.

بَيْد أنّ كثيراً من الناس إما أنهم أساؤوا فهم القضاء والقدر، فجعلوه موازياً للجبر، وإما أنهم ـ مع فهمهم للقضاء والقدر ـ تذرعوا به ليتهربوا من المسؤولية، كما حدثنا القرآن عن المشركين، قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾[الأنعام: ١٤٨]، وإما أنّ الدوافع السياسية جعلتهم يتبنون هذه العقيدة ليتنصلوا من مسؤولياتهم عن الأعمال الإجرامية ويبرّروا استبدادهم وانغماسهم في الشهوات، ولذا كانت السلطة الأموية على رأس المروِّجين لهذه العقيدة، كما أوضحنا ذلك في محل آخر[١]. وقد عرف عن معاوية أنّه كان جبرياً أو يتذرع بذلك، فلمّا عيّن ابنه يزيد خليفة للمسلمين واعترض عليه عبد الله بن عمر فأجابه: «إنَّ أمْرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم»[٢].

ثانياً: الرضا بين التواني والسخط

وهنا نأتي إلى النقطة الأساسية: ما المراد بالرضا بالقضاء والقدر؟

إن الرضا بالقضاء لا يعني التواني ولا الكسل ولا ترك العمل والتخطيط، بل إنّ السعي في تطوير واقع الإنسان إلى ما هو أفضل هو من صلب القضاء والقدر، فلا يجوز لك أن تسترخي وتقول إن الله كتب عليَّ ذلك، لو أنه كتب عليك ذلك لما أمرك بالعمل والكد وأن تسير في مناكب الأرض.

---

(١) راجع كتاب: **عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء**.

(٢) **الإمامة والسياسة** لابن قتيبة، (تحقيق الزيني)، ج١، ص١٦١.

كما أنه لا يعني بطبيعة الحال ترك الاحتراز عند تعرض الإنسان للمخاطر والتهديدات أو تعرضه للأمراض، فلا تستطيع أن تهمل نفسك إذا لاحت عليك أمارات المرض، ولا تستمع إلى نصائح الأطباء، ومن ثم تقول: إذا بانت عندك الأمراض وتعرضت للذبحة القلبية أو غيرها: إن هذا ما قدره الله لي وعليّ أن أرضى به! من قال: إن الله قدر لك ذلك، لو أنه قدر لك ذلك لما أمرك بالمداواة ولما حرم عليك إلقاء النفس في التهلكة، وقد روي «**أنّ أمير المؤمنين** عليه السلام **عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر، فقيل له، يا أمير المؤمنين أتفرّ من قضاء الله؟ فقال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل**»[1].

وهكذا فإن الرضا بالقضاء ليس معناه ترك مواجهة الفساد وتغيير الواقع نحو الأفضل، كما يحصل مع كثيرين منا ممن يستسلمون للسلطة ثم يقولون: هذا قدرنا ولا بدّ أن نرضى به! من قال إن هذا قدرك أو أن هذا كتبه الله عليك؟! إن هذا مما كتبته أنت على نفسك.

إذن الرضا بالقضاء والقدر لا يعني الاستسلام والتراخي بل المطلوب من الإنسان ـ بحكم العقل وإمضاء الشرع وتأكيده ـ أنْ يسعى إلى تغيير واقعه إلى ما هو أفضل على الصعيد المادي أو الصحي أو الاجتماعي أو السياسي، ليكون له بيت ملائم وحياة طيبة ومكانة اجتماعية مرموقة ووظيفة مرضية، إنّ طموح الإنسان وتطلعه إلى ذلك لا ينافي القضاء بل هو أمر مشروع وممّا يقتضيه القضاء نفسه، ولولا طموح الإنسان وتطلعه نحو الأفضل لما تطورت الحياة، ولكن الطموح لا يكفي إن لم يقترن بالسعي الجاد والهادف والمنظم لتحسين أموره.

أجل، وبعد أخذ الإنسان بالسنن الإلهية، عليه أن يعي حقيقة، وهي أن من طبيعة هذه الحياة وسننها أنّها مشوبة بالكدر والآلام فسوف يتوجع مهما احترس وسوف يموت ولو كان في بروج مشيّدة.. وقال الشاعر:

---

(١) **معاني الأخبار**، ص٣٦٩، **والاعتقادات**، ص٣٥. طبيعي أن هناك كلاماً عن الفرق بين القضاء والقدر في كلامه عليه السلام وبحثه موكول إلى محله من الكتب المتخصصة.

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقذاء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار[١]

ومن هنا فإنّ الإنسان قد لا يصل إلى ما يصبو إليه رغم سعيه وجده وتخطيطه، وقد يخفق في كثير من الحالات ولا يصل إلى ما يتمناه، فهنا ماذا عليه أن يفعل؟

هنا ـ وبعد الأخذ بالسنن ـ يأتي دور التسليم بالقضاء والقدر، يقول لك: إن عليك أن لا تصاب بالإحباط، ففشل تجربة معينة لا يعني الفشل الدائم في كل التجارب، وما نلاحظه لدى البعض أنّهم إذا فشلوا في تجربة معينة فإنّهم يصابون بالإحباط ولا يندفعون إلى الأخذ بالأسباب مجدّداً لتطوير حياتهم، فتراهم ساخطين على أنفسهم وعلى الناس من حولهم ويعيشون حياتهم في حالة من الغم والهم واليأس.

الرضا بالقضاء يعني أن تتقبّل هذه الحياة بقوانينها وتتكيّف معها، ولا تسخط عليها ما دمت غير قادر على تغييرها، فالسخط هو إتعاب للنفس دون جدوى.

ثالثاً: الرضا بالقضاء وآثاره الإيجابية

إنّ الرضا بقضاء الله وقدره يعبر من جهة أولى عن إيماننا الحقيقي، ومن لا يرضى بما قدر له الله تعالى يضع نفسه في موقع المعترض على الله تعالى وهذا ما يلامس حدّ معاداة الله والكفر به تعالى، وعندها سيحبط الله أجره، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: **«من رضي القضاء أتى عليه القضاء وهو مأجور ومن سخط القضاء أتى عليه القضاء وأحبط اللَّه أجره»**[٢]، وعن الإمام الحسن عليه السلام: **«كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يسخط قِسَمه ويحقّر منزلته والحاكم عليه اللَّه وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له»**[٣]. وعن مولانا الصادق عليه السلام فيما أوصى به ولده الإمام الكاظم عليه السلام: **«من لم يرضَ بما قسم اللَّه عزّ وجلّ اتّهم اللَّه تعالى في قضائه»**[٤].

---

(١) هذا الشعر لأبي الحسن التهامي (٤١٦هـ)، انظر: **وفيات الأعيان**، ج٣، ص٣٨٠.
(٢) **الخصال**، ص٢٣.
(٣) **الكافي**، ج٢، ص٦٢.
(٤) **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، لابن الجوزي، ج٨، ص١١، و**بحار الأنوار**، ج٧٥، ص٢٠٢، و**تهذيب الكمال** للمزي، ج٥، ص٨٩.

ومن جهة ثانية فإنّ الرضا بالقضاء والقدر سوف يمنحنا الأمن والهناء في الدنيا، والسعادة في الآخرة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**ارض بقسم الله تكن أغنى (أرغد) الناس**»(١)، لأنّ الغنى ليس بكثرة المال فكم غني في الظاهر هو فقير في داخل نفسه وينعق البومُ والغراب في بيته، ويتسلل الخوف إليه وهو على فراشه الوثير فيؤرقه ويقلق راحته ويسلبه لذة النوم، وتراه يعيش الاضطراب الدائم والخوف المستمر من أن يتعرض للسرقة أو أن يخسر ماله، بينما الفقير يعيش مرتاح البال فليس لديه ما يخسره أو يخاف عليه، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ أهنأ الناس عيشاً من كان بقسم الله راضياً**»(٢)، فالعيشة الهنيّة لا تكون بكثرة المال أو بوصول الإنسان إلى مراتب عالية في هذه الدنيا وإنّما هي بالقناعة بما رزقه الله، فالقناعة كنز لا يفنى.

يقول الشاعر:

كن عن همومك معرضاً ... وكل الأمور إلى القضا
وأبشر بخير عاجل ... تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخط ... لك في عواقبه رضا
ولربما اتسع المضيق ... ولربّما ضاق الفضا
اللَّه عوّدك الجميل ... فقسْ على ما قد مضى

عليك أن تداوي مرارة الحياة ـ بعد استنفاذ الجهد في سبيل تلاقيها ـ بدواء التسليم لله تعالى والرضا بقدره، في الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**الرضا بمكروه القضاء من أعلى درجات اليقين**»(٣) لأنّ النفس التي ترضى بما تواجهه من مكاره هي نفس مطمئنة ومسلمة لله تعالى. وإنسان كهذا هو بعين الله وهو مجتبى عند الله، عن رسول الله ﷺ: «**إذا أحبّ اللَّه عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإنّ رضي اصطفاه**»(٤)،

---

(١) روي أنه قال ذلك لأبي هريرة، **كنز العمال**، ج١٦، ص٤٢٣، وروي أنه قال ذلك للحسن بن علي عليهما السلام وهو صبي، **مناقب الإمام أمير المؤمنين** عليه السلام، **لمحمد بن سليمان الكوفي**، ج٢، ص٢٧٦.
(٢) **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص٢٢٠، **عيون الحكم والمواعظ**، ص١٤٣.
(٣) **التمحيص**، للإسكافي، ص٦٠، **وعيون الأخبار** لابن قتيبة، ج٢، ص٤٠٣.
(٤) **مسكن الفؤاد**، للشهيد الثاني، ص٨٠.

فالإنسان في مواجهة الابتلاء إما أن يجزع أو يصبر أو يرضى، أما الجزع في مواجهة المصائب فمذموم ولا سيما أنّه قد يجر إلى الاعتراض على الله تعالى، وأمّا الصبر عند المصيبة والتماسك أمامها فهو منزلة عظيمة ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ﴾[البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]، ولكن ثمة مرتبة أرفع من مرتبة الصابرين وهي مرتبة الراضين بالقضاء الذين يكون لسان حالهم: أنّ كل ما يأتي منك يا رب فهو جميل، ولسان حالهم مشابهاً لما نُسب إلى الإمام الحسين ﵇: «**إلهي إن كان هذا يرضيك فخذ مني حتى ترضى**»[(١)].

وتعبّر بعض الروايات أنّ الرضا هو طاعة لله تعالى، فعن الإمام الصادق ﵇: «**رأس طاعة اللّه الرضا بما صنع اللّه فيما أحب العبد وفيما كره**»[(٢)].

وخلاصة القول: إنّ على الإنسان ـ بعد أن يسعى ويعمل آخذاً بالأسباب ـ أن يرضى بالقضاء، ومن لم يرض بالقضاء وبما قسم الله له فإنه بالإضافة إلى كونه لن يستطيع بمجرد عدم رضاه ردّ القضاء والقدر سوف يعيش الهمّ في الدنيا والهمّ في الآخرة، من خلال إحباط ثوابه، بل وتعرضه للمساءلة والحساب في حال تطور عدم رضاه بالقضاء إلى الاعتراض على الله تعالى.

رابعاً: المسلمون والرضا بقضاء اللّه

وقد تقول لي: إنّنا كمسلمين راضون بالقضاء والقدر وعابدون لله ونؤدي الشعائر والطقوس، ومع ذلك لا نجد في أنفسنا هذه الراحة والاطمئنان، بل هذه مجتمعاتنا يكثر فيها القلق والتوتر النفسي، وحتى أنّ الانتحار أصبح فيها ظاهرة لا تُنكر.

والجواب: صحيح أننا نؤمن بالقضاء والقدر لكننا نؤمن بهما لفظاً وليس قلباً وقالباً، الرضا بالقدر والقضاء ليس مجرد شعارات وطقوس وإنّما هو تسليم قلبي وانقياد روحي لله تعالى، ومن هنا فإن وظيفة العبادات والشعائر أن توصل الإنسان إلى طهارة القلب

(١) **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، ج٦، ص٣٢٤.
(٢) **الأمالي** للطوسي، ص١٩٧.

وسلامة الروح، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢]، وهذه منزلة عظيمة ويحتاج الوصول إليها إلى تهذيب للنفس، وتوفيق من الله تعالى، والأشياء الغالية لا تأتي بالمجان، إن الواحد منا إذا مرض فهو مستعد ليصرف مال الدنيا ليحصل على الدواء، فما بالنا نبخل في التفتيش عن أغلى أمنية، وهي التي تمنحنا الاستقرار الروحي، وهي التي تجعلنا نواجه مصاعب الحياة ومكاره الدهر.

خامساً: تدريب النفس على الرضا بالقضاء

إنّ وصول الإنسان إلى مرحلة الرضا بالقضاء، حلوه ومره، تحتاج إلى استعداد وتدريب للنفس، **وأول ما ينبغي** أن نلتفت إليه على هذا الصعيد هو أمر منطقي، وهو أنه لا راد للقضاء والقدر، فما وقع لا يمكن تغييره ولا ردّه فإن رضينا بالقضاء فلنا الأجر والثواب وإن اعترضنا لم ينلنا شيء سوى مزيد من الغم والهم واحباط الأجر، في الحديث أنّ الإمام علي عليه السلام دخل على الأشعث بن قيس يعزيه في ابن له فقال له: «**يا أشعث إن تحزن على ابنك فقد استحقت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله من كل مصيبة خلف، يا أشعث إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور**»[(١)].

ومن جهة أخرى، فإنّ العبد إذا عرف الله تعالى وحكمته وأنّه لا يفعل شيئاً من موقع الانتقام وإنّما من موقع مَنْ يقدر مصلحة عباده فسوف تهون عليه المصائب ويتماسك أمامها ويواجهها بالرضا بالقضاء، ومن هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ أعلم الناس باللّه أرضاهم بقضاء الله عزّ وجل**»[(٢)]، ألا يمكن أن يكون هذا المال الذي خسرته هو نقمة عليك في الدنيا والاخرة؟! ألا يمكن أن يكون الولد الذي حرمت منه سبباً في إضلالك وانحرافك؟! وقد قال الإمام علي عليه السلام: «**ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله**»[(٣)].

---

(١) **نهج البلاغة**، ج٤ ص٧١.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص٦٠.
(٣) **الاستيعاب** لابن عبد البر، ج٣، ص٤٠.

ويبقى للدعاء إلى الله تعالى والطلب إليه بأن يلهمنا الرضا بالقدر والقضاء دور في تهيئة النفس لمواجهة الأخطار، وما أكثر ما ورد في أدعية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام التأكيد على هذا المعنى، ففي دعاء أبي حمزة الثمالي عن الإمام..: «**اللَّهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنّه لن يصيبني إلا ما كتبت لي ورضّني من العيش بما قسمت لي يا أرحم الراحمين**»[1].

(١) انظر: **مصباح المتهجد**، للشيخ الطوسي، ص٥٩٨.

الملحق رقم (٧)

الدين النصيحة[١]

إنّ مفهوم النصيحة، هو من جملة المفاهيم الإسلامية الرائعة، ولكنها مع الأسف غائبة عن حياتنا ولا نعطيها حقها من الاهتمام، وفي الإشارة إلى هذا المفهوم قال تعالى على لسان نبيّه نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٦٢]. وفيما يلي إطلالة على هذا المفهوم وأهميته وأبعاده:

أولاً: النصيحة وموقعها في الدين

إنّ النصيحة ـ دون شك ـ من محامد الأخلاق ومحاسن الصفات التي يتحلّى بها الإنسان، ولهذا كان من البديهي أن يحثّ الإسلام عليها ويندب إليها، وقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ أعظم الناس منزلة عند اللّه يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه**»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم في حديث هام ـ سيأتي كاملاً ـ : «**الدين النصيحة..**»، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ طبقاً لهذا الحديث ـ يلخص الدين بكلمة واحدة وهي «النصيحة»، فماذا تعني هذه الكلمة؟

إنّها تعني باختصار: أنّ من لا تكون النصيحة منهجه في الحياة فهو بعيد كل البعد عن الدين في تعاليمه وقيمه، إنها تشير إلى أهمية النصيحة ـ كمبدأ أخلاقي ـ وموقعها

(١) من خطبة في يوم الجمعة بتاريخ ١٨/ ١٠/ ٢٠١٣.
(٢) **الكافي**، ج٢، ص٢٠٨.

في المنظومة الدينية، فالدين لا يقتصر على طقوس جوفاء وفارغة من المعاني الإنسانية والأخلاق العملية، إنّ المقياس في تدين الإنسان هو في سلوكه مع الناس وليس في مجرّد انكبابه على الأعمال العبادية.

ثانياً: ماذا يعني أن تكون ناصحاً؟

وإذا عرفنا معنى النصيحة وعرفنا منزلتها وقيمتها وأنها تعادل الدين، فهذا يعني أنّ الإنسان المسلم لا بدّ أن يكون ناصحاً، والناصح هو الإنسان الذي يحمل في قلبه وعقله ولسانه الخير للناس، فيحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، فعن رسول الله ﷺ: «**لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه**»(١).

وأن تكون ناصحاً يعني أن تكون مسؤولاً، وتعيش هموم الناس وتتفاعل مع آلامهم وآمالهم وأن يكون لديك حسّ المشاركة، **فما نراه في أيامنا** من انكفاء بعض الناس على ذواتهم وانشغالهم بهمومهم الخاصة وعدم مبالاتهم بما يجري مع إخوانهم أو أبناء مجتمعهم هو خلق سيئ وعادة قبيحة وهي من مؤثرات الثقافة الغربية ولا تمتُّ إلى الأخلاق الإسلامية بصلة، ومن هنا فإن المثل الشعبي الذي يقول «**تبعد عن رأسي وبسيطة**» وكذا المثل الآخر القائل: «**دع الفخار يكسّر بعضه بعضاً**» هما مثلان مرفوضان، لأنهما يعبّران عن أنانية لدى الإنسان وفقدان كامل لحسِّ المسؤولية، بل إنّ هذا المفهوم «تبعد عن رأسي بسيطة» هو مفهوم خاطئ، لأنّ الانحراف والفساد إذا انتشر في المجتمع فإنّه لن يبتعد عنك بل سيسري إلى بيتك وأهلك وولدك.

ثالثاً: سعة مفهوم النصيحة

والنصيحة ليست منحصرة في أمور البيع أو الزواج أو نحوها كما قد يتوهم بعضنا، بل هي مفهوم أوسع من ذلك بكثير، فكل إنسان منا يلزمه أن يكون ناصحاً، **فالعالم** عليه أن ينصح لأمته عندما يساهم في رفع الجهل والأمية عنها، ولا أقصد بالعالم خصوص رجل الدين بل هو يشمل الخبير أو صاحب الحرفة والصنعة الذي ينقل خبرته للآخرين، فإنه

(١) **الكافي**، ج٢، ص٢٠٨.

ينصح أمته في ذلك، **والغني عليه أن ينصح** لأمته بأن يسهم في توظيف ماله بطريقة ترفع العوز والفقر عن كاهلها، لما يسببه الفقر من مشاكل اجتماعية وأخلاقية، **والمسؤول** أو الذي يمتلك منصباً سياسياً أو إدارياً عليه أن ينصح لأمته فلا يخون المسؤولية أو يحوّل موقعه إلى مطية يستغلها للإفادة الشخصية، بل يقوم بواجبه على أتم وجه.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ النصيحة تارة تكون بالقول وأخرى بالفعل، فالنصيحة بالقول هي أن ترشد الناس إلى ما فيه صلاحهم وتنهاهم عما فيه ضررهم في الدنيا والآخرة.

وأما النصيحة بالفعل فهي أن يكون سلوكك يمثل النصيحة للآخرين فلا تظلم ولا تغش أحداً ولا تعتدي على الآخرين ولا تؤذيهم بقول أو فعل.

رابعاً: لمن النصيحة؟

بعدما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الرواية: «**الدين النصيحة**» سئل: لمن؟ قال: **لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[١]. فما المقصود بذلك؟

أما النصيحة لله تعالى، فهي تعني أن تحفظ دين الله تعالى ونحيطه ولا تكذب على الله تعالى، أو تتمرّد على شريعته وتعاليمها، وأن تطيعه وتعبده مخلصاً له في العبادة، لأنّ المرائي كأنّما يغش ربه وهو في الحقيقة يغش نفسه، لأنه مكشوف لله تعالى ولا يخفى عليه من أمره خافية.

وأما النصيحة لكتاب الله تعالى، فتعني أن تحمل قيم القرآن الكريم ومبادئه وتبشر بها ولا تحاول العمل ببعض الكتاب دون البعض الآخر، أو أن تتلاعب بآياته فتؤولها أو تفسرها بغير ظاهرها، ومع الأسف فإنّ كثيرين يتلاعبون بالكتاب، فيجعلونه مطية لأفكارهم المسبقة، وعليك أيضاً أن تكون تبعاً للكتاب في حياتك كلها.

وأمّا النصيحة لأئمة المسلمين، فتعني أن لا تغدر بهم ولا تنقلب عليهم ما داموا على خط الاستقامة والعدل، وأن لا تبخل بتقديم النصح لهم بقول الحق ولو كان مراً وأن ترشدهم إلى مواطن الخلل في جسم الأمة أو في جهاز الحكم، ولا تداهنهم ولا تمالئهم

---

(١) **صحيح البخاري**، ج١، ص٢٠، و**مستدرك الوسائل**، ج١٣، ص٣٢٧.

ولا تصانعهم، وهو ما يدعونا إليه ويحرضنا عليه الإمام علي عليه السلام، إنه يدعونا على القيام بمسؤليتنا في نصيحة القادة وفي نقدهم الإيجابي والبناء، وذلك في كلمته الشهيرة: «**فلا تكلّموني بما تُكلّم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يُتحفّظ به عند أهل البادرة ولا تظنوا بي استثقالاً لحق قيل لي أو عدل عرض علي فإن من استثقل الحق أن يُقال له أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل بهما عليه أثقل فلا تكفّوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل..**»(١).

وأما النصيحة لعامة المسلمين، فهي أن تتعامل معهم بالخير وحسن الظن ولا تحمل لهم إلاّ المودة والحب، ولا تغشهم في بيع ولا تجارة ولا في أي أمر مما قد يحتاجون إليك به ويسألونك عنه. وأن تحمل هموم الأمة وتدافع عنها، عن علي عليه السلام: «**وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة**»(٢).

وتعتبر بعض الروايات أنّ النصيحة للأخ المؤمن هي حقٌّ من حقوقه، ففي الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة**»(٣)، وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة في المشهد والمغيب**»(٤).

خامساً: لا استنسابية في النصيحة

والنصيحة هي من القيم الأخلاقية التي لا تقبل التجزئة والاستنسابية، فعليك أن تحمل الخير لكلّ الناس، سواء كانوا من الذين يلتقون معك في الدين والقومية والحزبية أم كانوا من الذين يختلفون معك في ذلك، فالناصح هو كالشمس التي ترسل ضوءها ونورها للجميع بَراً كان أو فاجراً، وكالغيث الذي يبعث بقطراته لتروي الأرض وجميع الكائنات دون تمييز، وعلى هذا فلو أنّ الآخر كان ممن يكرهك ويحقد عليك، فالنصح هو السبيل الأمثل لاستيعابه، **إنّ النصح منهج في التعامل**، وهو يدعوك لتقابل حقده بالحبّ وأن تذيب كراهيته بأخلاقك وإنسانيتك، وهذا هو السمو الذي لا يصل إليه إلا من يحمل الهمّة العالية، ولنستمع إلى إمامنا زين العابدين عليه السلام وهو يتحدث عن

(١) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٢٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٧.
(٣) **الكافي**، ج٢، ص٢٠٨.
(٤) المصدر نفسه.

هذه الأخلاقية، يقول عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: «**وسدّدني لأن أعارض من غشني بالنصح..**»[١]، وهكذا كان أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد قابلوا كل الإساءات التي تعرضوا لها بالإحسان، ولم يتحركوا على أساس الانتقام أو الثأر، لقد أقصي علي عليه السلام عن حقه في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينصح الخلفاء الذين تولوا السلطة قبله، فقد استشاره عمر بن الخطاب في الخروج بنفسه إلى قتال الفرس، فنصحه بعدم الخروج، وقال له: «..**فكن قطباً واستدر الرحا بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها..**»[٢]، وما أحوجنا وأحوج سياسيينا إلى هذه الأخلاق، إنّ السياسة اليوم لا تمت إلى الأخلاقيات بصلة، فعندما نختلف في السياسة، فإننا مع الأسف نحوّل خلافاتنا وخصوماتنا السياسية إلى عداوات، ونقف في وجه مصالح الناس والعباد ونقف في وجه المشاريع الإنمائية والاقتصادية لئلّا يستفيد خصومنا في السياسة من هذا الإنجاز أو ذاك المشروع.

سادساً: علامات الناصح الناجح

والناصح الناجح والمؤثّر لا بد أن تتوافر فيه جملة من المواصفات والشروط:

أولاها: وأهمّها أن يبدأ بنصيحة نفسه، لأنّ بعض الناس على استعداد أن ينصح غيره، ولكنه يغش نفسه ويخدعها فهو مشغول بالآخرين عن إصلاح نفسه وتهذيبها، فالناصح الصادق لا بدَّ أن يبدأ بنفسه ليحملها على الخير والهدى ومكارم الأخلاق وعبادة الله تعالى، في الحديث عن علي عليه السلام: «**عباد اللّه إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه**»[٣]، والناصح لنفسه عليه أن يعلم أن قيمته عند الله ليست في ماله ولا جاهه ولا في عشيرته وحزبه، فالمال ما كان ليصنع إنساناً ولا العشيرة تصنع عزاً ومكانة، ولا الجاه يعطيك احتراماً، أجل قد يعطيك ذلك عزاً مستعاراً أو احتراماً مصطنعاً وعابراً ومؤقّتاً يزول بزوال المال أو الجاه، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**وصنيع المال يزول بزواله**»[٤].

(١) **الصحيفة السجادية**، من دعائه عليه السلام في **مكارم الأخلاق**.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٢، ص٢٩.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٠.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٣٦.

وثانيها: أن يجعل الحقَّ رائدَه وهو الفيصل بينه وبين الناس، في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**أما علامة الناصح فأربعة: يقضي بالحق، ويعطي الحق من نفسه، ويرضى للناس ما يرضاه لنفسه، ولا يعتدي على أحد**»(١).

وعلى الناصح أن يعلم أنّ النصيحة قد تكون مُكلِفة، فقد لا يرحب بها الآخرون، وقد لا يتقبّل منك الآخر نصيحتك له، هنا تظهر أهميّة النصيحة، ففي مثل هذه الحالات قد ينكفأ الكثيرون ويتراجعون عن النصيحة، ولكن الناصح الأمين الذي لا يبغي رضا الناس بل يبغي رضوان الله ويرمي إلى تحصين مجتمعه أخلاقياً واجتماعياً لا يمكنه إلا أن يصدع بالنصيحة ولو كانت مرّة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**امحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة**»(٢).

سابعاً: تقبّل النصيحة

وكما يفترض بالمسلم أن يقوم بنصح الآخرين، فإنّ المترقب منه أن يكون على استعداد لتقبّل نصيحتهم، لأن النصح هو مهمة متبادلة، وبهذا يتحول المجتمع كلّه إلى مجتمع التناصح أو ما يعبّر عنه القرآن الكريم بالتواصي بالحق ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾[العصر: ٣].

وممّا يؤسف له أنّ الكثيرين من الناس لا يتقبّلون النصيحة إلاّ إذا كانت من نوع المدح لهم والإشادة بذواتهم أو توافق مصالحهم وأهواءهم، مع أنّ من ينصحك ولو بنقدٍ يوجهه إليك أو يرشدك إلى خطأ ترتكبه هو أفضل بكثير ممّن يمدحك ويداهنك ويكذب عليك ويزين لك الأمور ويصفق لك على الدوام، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**اتبع من يبكيك وهو لك ناصح ولا تتّبع من يضحكك وهو لك غاش**»(٣)، وفي حديث آخر: «**أَحَبُّ أخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي**»(٤)، وفي المثل: «صديقك من صَدَقَكَ لا من صدّقك».

---

(١) **تحف العقول**، ص٢٠.
(٢) **نهج البلاغة**، ج٣ ص٥٤.
(٣) **الكافي**، ج٢ ص٦٣٨.
(٤) **نهج البلاغة**، ج٢ ص٦٣٩.

المصادر

١. **القرآن الكريم.**

٢. **الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين** عليهما السلام، تحقيق: السيد محمد باقر الأبطحي، مؤسسة الإمام المهدي ومؤسسة أنصاريان، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣. **إنجيل متّى الأصحاح الخامس.**

٤. ابن الأثير، المبارك بن محمد المعروف بـ«ابن الأثير» (ت: ٦٠٦هـ)، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، إسماعيليان ـ بالأوفست عن طبعة بيروت، قم، إيران، الطبعة العاشرة، ١٣٦٤هـ.

٥. ابن الأثير الجزري (بن أبي الكرم)، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد المعروف بالشيباني (ت: ٦٣٠هـ)، **أسد الغابة**، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

٦. ابن الأثير، نفسه، **الكامل في التاريخ**، دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٧. ابن أبي الحديد المعتزلي (ت: ٦٥٦هـ)، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية.

٨. ابن أبي شيبة، إبراهيم بن عثمان الكوفي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، **المصنف**، تعليق وتحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

٩. ابن الجوزي، الإمام أبي الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ)، **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، تحقيق: الدكتور علي حسين البواب، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٠. ابن الجوزي، نفسه، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا/ راجعه وصححه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١١. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي (المتوفي سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، ، **صحيح ابن حبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

١٢. ابن حبان، نفسه، **المجروحين**، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، توزيع: دار الباز للنشر والتوزيع ـ عباس أحمد الباز ـ مكة المكرمة.

١٣. ابن حنبل، الإمام أحمد (ت: ٢٤١هـ)، مسند أحمد، دار صادر، بيروت.

١٤. ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.

١٥. ابن سعد، محمد بن سعد (ت: ٢٣٠هـ)، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت.

١٦. ابن شاذان، شاذان بن جبرئيل القمي (٦٦٠هـ)، **الروضة في فضائل أمير المؤمنين** عليه السلام، تحقيق: علي الشكرچي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٧. ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني (ت: ٥٨٨هـ)، **مناقب آل أبي طالب**، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، انتشارات علامة، قم ـ إيران.

١٩. ابن طاووس (ت: ٦٦٤هـ)، **إقبال الأعمال**، تحقيق : جواد القيومي الأصفهاني، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة : الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٠. ابن طيفور، أحمد بن طاهر (ت: ٢٠٨هـ)، **بلاغات النساء**، انتشارات الشريف الرضي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

٢١. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري (ت: ٤٦٣ هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٢٢. ابن العديم الصاحب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، حققه وقدم: الدكتور سهيل زكار، دمشق ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٣. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: علي شيري، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٥م.

٢٤. ابن فارس، أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤٠٤هـ.

٢٥. ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم ابن قتيبة (٢٧٦هـ)، **عيون الأخبار**، الناشر : منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٦. ابن قتيبة الدينوري، نفسه، **الإمامة والسياسة**، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيني، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

٢٧. ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ)، **سنن ابن ماجة**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٢٨. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت: ٧١١هـ)، **لسان العرب**، نشر أدب الحوزة، قم ـ إيران، ١٤٠٥هـ.

٢٩. ابن هشام، محمد بن إسحاق (ت: ١٥١هـ) **السيرة النبوية**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٣٨٣هـ.

٣٠. أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، **سنن أبي داود**، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٣١. الآمدي القاضي، ناصح الدين أبي الفتح عبد الواحد بن محمد التميمي (ت: ٥٥٠هـ)، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ترتيب وتدقيق: عبد الحسن دهيني، دار الهادي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٣٢. الإحسائي، ابن أبي جمهور (ت: ٨٨٠هـ)، **عوالي اللآلي**، تحقيق: السيد المرعشي والشيخ مجتبى العراقي، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٣. الإحسائي، نفسه، **مجلي مرآة المنجي**، تحقيق: محمد علي رضا بول فارمد، دارالمحجة البيضاء، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ.

٣٤. الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت:٦٩٣هـ)، **كشف الغمّة في معرفة الأئمّة**، مكتبة بني هاشم، تبريز ـ إيران، ١٣٨١هـ.

٣٥. الأردبيلي، أحمد بن محمد المعروف بالمحقق الأردبيلي (ت: ٩٩٣هـ)، **زبدة البيان في أحكام القرآن**، تحقيق: محمد باقر البهبودي، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

٣٦. الإسكافي، أبي علي محمد بن همام (ت: ٣٣٦ هـ ق)، **التمحيص والابتلاء في كتاب الله**، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة.

٣٧. الأشتري، ورّام بن أبي فراس (ت: ٦٠٥هـ)، **تنبيه الخواطر ونزهة النواظر**، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٣٦٨هـ. ش.

٣٨. الأصفهاني، الراغب (ت: ٤٢٥هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، دفتر نشر الكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٣٩. الألباني، محمد ناصر الدين (ت: ١٩٩٩م)، **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٤٠. الأمين، السيد محسن، **أعيان الشيعة**، دار المعارف للمطبوعات ـ بيروت، ١٩٨٣م.

٤١. البحراني، ميثم بن علي بن ميثم (ت: ٦٧٩هـ)، **شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين** عليه السلام، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، مركز النشر الإسلامي التابع لجامعة المدرسين، قم.

٤٢. البحراني، نفسه، **اختيار مصباح السالكين**، تحقيق : الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، مشهد ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ. ق/ ١٣٦٦هـ.ش.

٤٣. البحراني، نفسه، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: عني بتصحيحه عدة من الأفاضل وقوبل بعدة نسخ موثوق بها، الناشر: مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي ـ الحوزة العلمية ـ قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٣٦٢ش.

٤٤. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨١م.

٤٥. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد (ت: ٢٧٤هـ)، **المحاسن**، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية ـ إيران.

٤٦. البغدادي، المحدث أبو بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، **الكفاية في علم الرواية**، تحقيق وتعليق: الدكتور أحمد عمر هاشم، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٤٧. البغدادي، نفسه، **تاريخ بغداد، أو مدينة السلام**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٤٨. البغدادي، علي بن محمد (وفاة: ٤٥٠هـ)، **أدب الدنيا والدين**، ط١، دار اقرأ، بيروت.

٤٩. البلاذري، أحمد بن يحيي بن جابر (ت: ٢٧٩هـ)، **أنساب الأشراف**، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥٠. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت: ٤٥٨هـ)، **السنن الكبرى**، دار الفكر ـ بيروت.

٥١. الترمذي، محمد بن عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، **الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي**، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٥٢. الترمذي، نفسه، **الشمائل المحمدية**، تحقيق: أسامة الرحال/ تقديم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا ـ دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٥٣. الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت: ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، **البيان والتبيين**، حققه وقدم له المحامي: فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، اللعازارية ـ بيروت.

٥٤. الجزائري، السيد نعمة الله الموسوي الجزائري (١٠٥٠ ـ ١١١٢هـ. ق)، **نور البراهين أو أنيس الوحيد في شرح التوحيد**، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.ق.

٥٥. الحراني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة (القرن الرابع)، **تحف العقول عن آل الرسول** صلى الله عليه وآله وسلم، تحقيق:علي أكبرالغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٥٦. الحر العاملي، محمد بن الحسن (١١٠٤هـ)، تفصيل **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة المعروف اختصاراً بـ«وسائل الشيعة»**، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٥٧. الحر العاملي، نفسه، **أمل الآمل في علماء جبل عامل**، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الأولى.

٥٨. الحسيني العاملي، ابن قاسم، **المواعظ العديدة**، ط١، طليعة النور، قم، ١٣٨٤ هـ.

٥٩. الحلي، الشيخ حسن بن سليمان (من أوائل علماء القرن التاسع الهجري)، **مختصر بصائر الدرجات**، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، انتشارات الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ـ قم، الطبعة الأولى، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.

٦٠. الحلي، نجم الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما (ت: ٦٤٥ هـ)، **مثير الأحزان**، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

٦١. الحميري، عبد الله بن جعفر (القرن الثالث الهجري)، **قرب الإسناد**، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٦٢. الخشن، حسين أحمد، **أصول الاجتهاد الكلامي**، المركز الإسلامي الثقافي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٦٣. الخشن، نفسه، **الشيعة والغلو**، دار الانتشار العربي، ط ١، بيروت ـ لبنان، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

٦٤. الخشن، نفسه، **هل ظلمنا اللَّه**؟ دار روافد، بيروت ـ لبنان، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١مـ.

٦٥. الخشن، نفسه، **عاشوراء قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء**، دار الملاك، بيروت ـ لبنان، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٦٦. الخشن، نفسه، **مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم**، المركز الإسلامي الثقافي، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

٦٧. الخشن، نفسه، كتاب **القواعد الناظمة لفقه العلاقة مع الآخر الديني**، (تحت الطبع).

٦٨. الخشن، نفسه، **المرأة في النص الديني**، دار الانتشار العربي، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٧م.

٦٩. الخشن، نفسه، الحسين مصلحاً وثائراً، دار منارات، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

٧٠. الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م/ ١٤١٧هـ.

٧١. الخطيب، السيد عبد الزهراء الحسيني، **مصادر نهج البلاغة وأسانيده**، دار الزهراء، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٧٢. الخوئي، الميرزا حبيب الله (ت: ١٣٢٤هـ)، **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، ناشر: بنياد فرهنكي إمام المهدي، طهران ـ إيران، الطبعة الرابعة.

٧٣. الدارمي، عبد الله بن مهرام (ت: ٢٥٥هـ)، **سنن الدارمي**، مطبعة الاعتدال ـ دمشق، ١٣٤٩هـ.

٧٤. الدميري، كمال الدين (ت: ٨٠٨هـ)، **حياة الحيوان الكبرى**، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٧٥. الرازي، أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)، **الجرح والتعديل**، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٧٦. الراوندي، سعيد بن هبة الله، **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، تحقيق: السيد عبد اللطيف الكوكهمري، نشر: مكتبة آية الله المرعشي العامة ـ قم، ١٤٠٦هـ.

٧٧. الزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ)، **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، تحقيق: عبد الأمير مهنا، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٧٨. الزيعلي (ت: ٧٦٢هـ)، **تخريج الأحاديث والآثار**، تحقيق : عبد الله بن عبد الرحمن السعد، الناشر : دار ابن خزيمة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٧٩. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، **الجامع الصغير**، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٨٠. الشريف الرضي، محمد بن الحسين (ت:٤٠٦هـ)، **المجازات النبوية**، تحقيق: طه محمد الزيني، مكتبة بصيرتي، قم.

٨١. الشريف الرضي، نفسه، **ديوان الشريف الرضي**، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ.

٨٢. الشريف الرضي، نفسه، **نهج البلاغة**، تحقيق: محمد عبده، دار المعرفة، بيروت.
٨٣. الشريف الرضي، نفسه، **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح، الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
٨٤. الشريف الرضي، نفسه، **نهج البلاغة**، تعليق وشرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٨٥. الشريف الرضي، نفسه، **خصائص الأئمة** عليهم السلام (خصائص أمير المؤمنين عليه السلام)، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد هادي الأميني، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية، مشهد ـ إيران، ١٤٠٦هـ.
٨٦. الشهيد الثاني الشيخ زين الدين، علي بن أحمد الجبعي العاملي (١١٩ـ ٩٦٥هـ)، **مسكن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد**، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ. ق.
٨٧. الصدر، السيد موسى، **موسوعة الإمام الصدر**.
٨٨. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، **من لا يحضره الفقيه**، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.
٨٩. الصدوق، نفسه، **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ لبنان، ١٤٠٤هـ.
٩٠. الصدوق، نفسه، **الأمالي**، مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٩١٧هـ.
٩١. الصدوق، نفسه، **الخصال**، تحقيق: علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٣هـ.
٩٢. الصدوق، نفسه، **علل الشرائع**، المكتبة الحيدرية، العراق ـ النجف الأشرف، ١٩٦٦م.
٩٣. الصدوق، نفسه، **معاني الأخبار**، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٣٧٩هـ.
٩٤. الصدوق، نفسه، **الاعتقادات في دين الإمامية**، تحقيق: عصام عبد السيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م.

٩٥. الصدوق، نفسه، **كمال الدين وتمام النعمة**، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤٠٥هـ.

٩٦. الصدوق، نفسه، **صفات الشيعة**، كانوني انتشارات عابدي، طهران.

٩٧. الصدوق، نفسه، **ثواب الأعمال وعقاب الأعمال**، الناشر: منشورات الرضي، قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٤هـ.ش.

٩٨. الصنعاني، محمد بن إسماعيل الكحلاني المعروف بـالأمير (١٠٥٩م/ ١١٨٢هـ)، **سبل السلام**، نشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، راجعه وعلق عليه المرسوم: الشيخ محمد عبد العزيز الخولي، الطبعة الرابعة.

٩٩. الطبراني، سليمان بن أحمد (ت: ٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد، دار إحياء التراث العربي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

١٠٠. الطبراني، الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي (ت: ٣٦٠هـ)، **المعجم الأوسط**، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٠١. الطبراني، نفسه، **المعجم الصغير**، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

١٠٢. الطبرسي، الحسن بن الفضل (من أعلام القرن السادس الهجري)، **مكارم الأخلاق**، الناشر: منشورات الشريف الرضي، الطبعة السادسة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٠٣. الطبرسي، أحمد بن علي (ت:٥٦٠هـ)، **الاحتجاج**، تحقيق: محمد باقر الخرسان، دار النعمان ـ النجف، ١٩٦٦م.

١٠٤. الطبرسي، الفضل بن الحسن (ت: ٥٤٨هـ)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٠٥. الطبري، محمد بن جرير (ت:٣١٠هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري**، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٠٦. الطبري، محمد بن جرير (ت:٣١٠هـ)، **تاريخ الطبري**، نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

١٠٧. الطبري، محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير (من أعلام القرن الخامس الهجري)، **دلائل الإمامة**، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٠٨. الطريحي، الشيخ فخر الدين (١٠٨٥هـ)، **مجمع البحرين**، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، ناشر: مرتضوي ـ تهران.

١٠٩. الطوسي، محمد بن الحسن (ت٤٦٠)، **الأمالي**، مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، ط١، ١٤١٤هـ.

١١٠. الطوسي، نفسه، **التبيان في تفسير القرآن**، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١١١. الطوسي، نفسه، **تهذيب الأحكام**، تحقيق: السيد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية ـ إيران، ١٣٦٥هـ.

١١٢. الطوسي، نفسه، **مصباح المتهجد**، الناشر: مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة : الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١١٣. الطوسي، نفسه، **اختيار معرفة الرجال للكشي**، (رجال الكشي)، تعليق السيد الميرداماد الاسترابادي، تحقيق، السيد مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران، ١٤٠٤هـ.

١١٤. العامري الكوفي، الشيخ أبو صدق سليم بن قيس الهلالي، **كتاب سليم بن قيس الهلالي**، المحقق: الشيخ محمد باقر الأنصاري الزنجاني الخوئيني، الناشر: نشر الهادي، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.ق/ ١٣٧٣هـ. ش.

١١٥. العاملي، الشيخ البهائي، **الكشكول**، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة السادسة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٣م.

١١٦. العجلوني، إسماعيل بن محمد (ت: ١١٦٢هـ)، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

١١٧. عياض، اليحصبي المعروف بالقاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ)، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.

١١٨. الغزالي، أبي حامد، (ت: ٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١١٩. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت: ١٧٥هـ)، **كتاب العين**، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١٢٠. القضاعي، الإمام القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة، **دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم** (من كلام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه).

١٢١. القمي، علي بن إبراهيم القمي (٣٢٩ هـ)، **تفسير القمي**، تصحيح: السيد طيب الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

١٢٢. القمي، الشيخ عباس (ت: ١٣٥٩هـ)، **الكنى والألقاب**، مكتبة الصدر، الطبعة الخامسة، طهران، ١٤٥٩هـ.

١٢٣. الكاشاني، محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني (ت:١٠٩١هـ)، تعليق في الحاشية: أبو الحسن الشعراني، **الوافي**، مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام، أصفهان، ١٤٠٦هـ.

١٢٤. الكاشاني، نفسه، **المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء**، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، الناشر: دفتر انتشارات اسلامى وابسته به جامعه مدرسين حوزه علميه، قم.

١٢٥. الكراكجي، أبو الفتح محمد بن علي (ت: ٤٤٩هـ)، **كنز الفوائد**، مكتبة المصطفوي، الطبعة الثانية، قم، ١٣٦٩هـ.

١٢٦. الكليني، محمد بن يعقوب (ت: ٣٢٩هـ)، **الكافي**، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران، ١٣٨٨هـ.

١٢٧. الكوفي، الحافظ محمد بن سليمان الكوفي القاضي (من أعلام القرن الثالث)، **مناقب الإمام أمير المؤمنين** عليه السلام، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مجمع احياء الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى، إيران ـ قم، ١٤١٢هـ.

١٢٨. المازندراني، المولى محمد صالح (ت: ١٠٨١هـ)، **شرح أصول الكافي**، تعليق: الميرزا أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٢٩. المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (٨٨٨ ـ٩٧٥هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حيّاني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م/ ١٤٠٥هـ.

١٣٠. المزّي، يوسف (ت: ٧٤٢ هـ)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

١٣١. المجلسي، محمد باقر (ت:١١١١هـ)، **بحار الأنوار**، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٣٢. المجلسي، نفسه، **مرآة العقول في شرح أخبار الرسول**، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٨ق/ ١٣٥٦ش.

١٣٣. المجلسي، نفسه، **ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار**، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، مكتبة آية الله المرعشي، قم ـ إيران، ١٤٠٧هـ.

١٣٤. المجلسي، المولى محمد تقي (المجلسي الأول) (ت ١٠٧٠هـ)، **روضة المتَّقين في شرح من لا يحضره الفقيه**، بنياد فرهنگى إسلامى، قم ـ إيران، ط١، ١٤١٣هـ.

١٣٥. المجلسي، نفسه، **روضة المتَّقين في شرح من لا يحضره الفقيه**، تحقيق: محمد أحمد الشيخ محمد صالح، شركة دار المصطفى لإحياء التراث، ط١، بيروت ٢٠٠٩م.

١٣٦. المصري، القاضي نعمان بن محمد بن منصور المغربي التميمي (ت: ٣٦٣هـ)، **دعائم الإسلام**، تحقيق آصف بن علي أصغر فيض، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٣٧. المعتزلي، ابن أبي الحديد (ت: ٦٥٦هـ)، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية.

١٣٨. المعتزلي، أبي جعفر الإسكافي محمد بن عبد الله (ت: ٢٢٠هـ)، **المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** عليه السلام، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

١٣٩. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٣٢٦ـ ٤١٣هـ)، **الأمالي**، تحقيق: الحسين أستاذ ولي وعلي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤١٤هـ.

١٤٠. المفيد، نفسه، **الاختصاص**، تحقيق: علي أكبر الغفاري ـ السيد محمود الزرندي، دار المفيد للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت ـ لبنان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٤١. المفيد، نفسه، **الإرشاد في معرفة حجج اللَّه على العباد**، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية المفيد، الطبعة الأولى، قم ـ إيران، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٤٢. النجاشي، أحمد بن علي بن أحمد بن العباس الأسدي (ت: ٤٥٠هـ)، **فهرست أسماء مصنفي الشيعة** (رجال النجاشي)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ.

١٤٣. النسائي، أحمد بن شعيب (ت: ٣٠٣هـ)، **السنن**، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٣٠م.

١٤٤. النوري، الميرزا حسين الطبرسي (ت: ١٣٢٠هـ)، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٤٥. النيسابوري، محمد بن عبد الله الحاكم (ت:٤٠٥هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان لا.ط.

١٤٦. النيسابوري، محمد بن الفتال النيسابوري (ت: ٥٠٨هـ)، **روضة الواعظين**، منشورات الشريف الرضي، قم ـ إيران.

١٤٧. النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ)، **صحيح مسلم**، دار الفكر ـ بيروت.

١٤٨. النيسابوريان، عبد الله وحسين ابنا بسطام (٤٠١هـ)، **طب الأئمة**، انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الثانية، قم ـ إيران، ١٤١١هـ.

١٤٩. الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر (ت: ٨٠٧هـ)، **مجمع الزوائد**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٨٨م.

١٥٠. الواحدي، عبد الواحد بن محمد التميمي، **تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم**، إعداد: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، قم.

١٥١. الواسطي، علي بن محمد الليثي (القرن السّادس هـ)، **عيون الحكم والمواعظ**، دار الحديث، قم ـ إيران، ط١، ١٣٧٦هـ.ش.

١٥٢. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر المعروف بـاليعقوبي (ت: ٢٨٤هـ)، **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت ـ لبنان.

١٥٣. **الأصول الستة عشر من الأصول الأولية**، مجموعة من كتب **الرواية الأوّلية في عصر الأئمّة المعصومين**عليهم السلام، تحقيق: ضياء الدين المحمودي، دار الحديث للطباعة والنشر، قم، ١٤٢٣ ق/ ١٣٨١.

الفهرس

المقدِّمة ٥

المحور الأول: التَّقوى، مفهومها، أبعادها، والسبيل إليها

التَّقوى، مفهومها، أبعادها، والسبيل إليها ٩
(١) إمام المتَّقين عليه السلام كما وصف نفسه ١٠
علي عليه السلام وإمامة المتَّقين ١٠
من هو إمام المتَّقين بنظر علي عليه السلام؟ ١١
لماذا كان عليٌّ دون سواه إمامَ المتَّقين؟ ١١
أولاً: تربية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١٢
ثانياً: ربيب القرآن الكريم ١٦
ثالثاً: تهذيب النفس ١٨
(٢) الرؤية الصحيحة للتقوى والرؤى الخاطئة ٢١
١ ـ **كيف يفسر علي عليه السلام التَّقوى؟** ٢١
أ ـ التَّقوى حصن وملكة ٢١
ب ـ منتهى درجات الكمال ٢٢
ت ـ الوصول إلى التَّقوى غير ممتنع ٢٢
ث ـ التَّقوى حاجة مستمرة ٢٤
٢ ـ **تفسيرات ورؤى خاطئة** ٢٤
أ ـ التَّقوى والخوف ٢٤

ب ـ التَّقوى والعصمة ٢٦
ت ـ «إذا وصلت فاصنع ما شئت» ٢٧
ث ـ «إذا عرفت فاصنع ما شئت» ٢٨
(٣) التَّقوى في مساراتها وأبعادها ٣٠
١ ـ مسارات التَّقوى ٣٠
المسار الأول: تقوى العقل ٣٠
قصة الشهيد الصدر وفلسفتنا ٣١
المسار الثاني: تقوى القلب ٣٢
المسار الثالث: تقوى الحواس ٣٣
٢ ـ التَّقوى في بُعْدَيها الفردي والاجتماعي ٣٤
أ ـ التَّقوى الفردية ٣٤
ب ـ التَّقوى الاجتماعية ٣٤
أين نختبر تقوانا؟ ٣٥
(٤) ما هو السبيل إلى التَّقوى؟ ٣٨
١ ـ الالتفات إلى أهمية التَّقوى في حياتنا ٣٨
٢ ـ الحذر من لصوص الطريق ٣٩
٣ ـ الطريق المشروع للوصول إلى حالة التَّقوى ٤٠
ترك الحرام والمعاصي (التخلية) ٤٠
امتثال أوامر الله (التحلية) ٤١
٤ ـ طرقٌ غير مشروعة ٤١
الأول: التصوّف الخاطئ ٤٢
قصة الإمام عليه السلام مع الأخوين علاء وعاصم ابني زياد ٤٣
الثاني: طريق العرفان المزيّف ٤٣
الثالث: طريق اليوغا ٤٥
(٥) ثمرات التَّقوى وآثارها ٤٦

١ ـ الأثر الأخروي ٤٧
إنَّما يتقبل الله من المتَّقين ٤٨
٢ ـ الأثر النفسي والروحي ٥١
٣ ـ التَّقوى والفرقان ٥٢
٤ ـ التَّقوى والرفاه الاقتصادي ٥٣
٥ ـ التَّقوى وعزة الإنسان ٥٧
(٦) التَّقوى: عنوان الكرامة ٥٩
أولاً: التَّقوى مفتاح الكرامة الإلهية وعنوانها ٥٩
ثانياً: التنافس المذموم ٥٩
التفاخر بالتَّقوى! ٦٠
ثالثاً: وهْمُ التميّز ٦١
رابعاً: التفاخر كمرض نفسي ٦٤
(٧) التَّقوى والحاجة إلى الرقيب ٦٦
أولاً: الرقابة الخارجية ٦٦
١ ـ الرقيب القانوني ٦٧
٢ ـ الرقيب الاجتماعي ٦٨
ثانياً: الرقابة الداخلية ٦٩
١ ـ الرقيب الداخلي/ الضمير ٦٩
٢ ـ الرقابة الإلهية ٧٠
(٨) البركة وعلاقتها بالتَّقوى ٧١
١ ـ البركة مفهوماً ومصدراً ٧١
٢ ـ عناصر البركة ٧٢
٣ ـ تشويه واتجار ٧٤
٤ ـ شروط نزول البركة ٧٥
٥ ـ ما يُذهب البركة ٧٦
٦ ـ البركة في آخر الزمان ٧٦

(٩) مع المتَّقين في سورة البقرة ٧٧
الصفة الأولى: الإيمان بالغيب ٧٨
أولاً: دلالات الإيمان بالغيب ٧٨
ثانياً: تصحيح أفهام خاطئة ٧٩
الصفة الثانية: القيام للصلاة ٨٠
الصفة الثالثة: ومما رزقناهم ينفقون ٨٢
الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ٨٤
الصفة الخامسة: وبالآخرة هم يوقنون ٨٥
أ ـ لماذا علينا الاعتقاد بيوم القيامة؟ ٨٥
ب ـ ما هو دور الإيمان بالآخرة في حياتنا؟ ٨٧
ج ـ اليقين بالآخرة ٨٨

المحور الثاني:
في رحاب خطبة صفات المتّقين

بين يدي الخطبة ٩١
الخطبة كاملة ٩١
قصة الخطبة ٩٣
أهمية الخطبة ٩٣
الخطبة في الميزان الأدبي ٩٤
مصدر الخطبة ٩٥
من هو همّام؟ ٩٥
تثاقل الإمام عن إجابته ٩٦
الشرح التفصيلي للخطبة ٩٦
اللَّه الغني ٩٧
أولاً: غنى الله وفقر العبد ٩٧

ثانياً: قد تسأل، ولماذا خلقنا؟ ٩٧
العطاء الإلهي ٩٨
أولاً: العطاء المادي والمعنوي ٩٨
ثانياً: سرّ التفاوت في العطاء المادي ٩٩
ثالثاً: سرّ التفاوت في العطاء المعنوي ١٠٠
(١) **مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ** ١٠١
منطق أهل التَّقوى: ١٠١
أولاً: الكلام ترجمان الإنسان ١٠١
ثانياً: مسؤولية الكلمة ١٠١
ثالثاً: إمام اللسان ١٠٢
رابعاً: أدب اللسان ١٠٣
خامساً: صدق الكلام ١٠٣
(٢) **ومَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ** ١٠٥
لباس المتَّقين ١٠٥
أولاً: حاجة الإنسان للباس ١٠٥
ثانياً: لباس الاقتصاد ١٠٥
ثالثاً: الاقتصاد منهج عام ١٠٦
رابعاً: لباس علي عليه السلام ١٠٦
(٣) **ومَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ** ١٠٨
مشي المتَّقين ١٠٨
أولاً: التواضع واحترام الإنسان لإنسانيته ١٠٨
ثانياً: التواضع في المشي وغيره ١٠٨
ثالثاً: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدوة في التواضع ١٠٩
(٤) **غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ الله عَلَيْهِمْ** ١١٠

غضّ البصر ١١٠

أولاً: نعمة البصر ١١٠

ثانياً: غضّ البصر لا غمضه ١١١

ثالثاً: فلسفة غض البصر ١١١

(٥) ووَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ ١١٣

وظيفة السمع ١١٣

أولاً: السمع بوابة العقل والقلب ١١٣

ثانياً: لمن تعطي سمعك؟ ١١٣

ثالثاً: المتقون أناس مثقفون ١١٤

(٦) نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ، كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ ١١٦

المتَّقون في حالَتي الشدّة والرخاء ١١٦

(٧) ولَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّه عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ ١١٨

الإيمان بالجنة والنار ١١٨

أولاً: الإيمان بالجنة والنار ١١٨

ثانياً: الإيمان بالجنة والنار ودوره في تقويم السلوك ١١٩

ثالثاً: الجنة دار القرب والنار دار البعد عن الله ١١٩

(٨) عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهَ فِي أَعْيُنِهِمْ ١٢١

حضور اللّٰه تعالى في نفوس المتَّقين ١٢١

أولاً: حضور الله يطرد ما عداه ١٢١

ثانياً: كيف ننمي حضور الله في نفوسنا؟ ١٢٢

ثالثاً: ثمرة حضور الله في نفوسنا ١٢٢

(٩) فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ ١٢٣

المتّقون وإيمانهم بالجنة والنار ١٢٣

أولاً: الإيمان بالآخرة كموجّه ورقيب ١٢٣
ثانياً: الإيمان بالجنة والنار بين الإيمان الشكلي والإيمان الحقيقي ١٢٤
(١٠) قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ١٢٥
الحزن والفرح في حياة المؤمن ١٢٥
أولاً: الفرح وحاجة الإنسان إليه ١٢٥
ثانياً: الحزن وحالاته المشروعة ١٢٧
(١١) وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ١٢٩
المتّقي ومجانبة الشر ١٢٩
أولاً: دلالة قوله «شرورهم مأمونة» ١٢٩
ثانياً: ما السر في كون شره مأموناً؟ ١٢٩
(١٢) وأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ١٣١
المتَّقون: نحافة الأجساد وخفة الحاجات ١٣١
أولاً: نحافة أجساد المتَّقين ١٣١
ثانياً: خِفّة الحاجات ١٣٢
(١٣) وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ ١٣٣
العفّة مفهومها، مناشئها، مجالاتها، وآثارها ١٣٣
أولاً: معنى العفة ١٣٣
ثانياً: مناشئ العفة ١٣٤
ثالثاً: مجالات العفة ١٣٤
رابعاً: آثار العفة على الفرد والمجتمع ١٣٥
خامساً: موسى ويوسف عليهما السلام نموذجان في العفة ١٣٦
سادساً: إعفاف الأولاد ١٣٨
(١٤) صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ ١٣٩
الصبر وأهل التَّقوى ١٣٩

أولاً: الصبر مفهومه، أهميته وثماره ١٣٩
ثانياً: تصحيح فهم خاطئ ١٤٠
ثالثاً: أقسام الصبر ١٤١
رابعاً: جزاء الصابرين ١٤٣
خامساً: علي عليه السلام إمام الصابرين ١٤٤
(١٥) **أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا** ١٤٥
نظرة علي عليه السلام إلى الدنيا ١٤٥
أولاً: الدنيا مزرعة الآخرة ١٤٥
ثانياً: سر التحذير من الدنيا ١٤٦
ثالثاً: هل الدنيا عدو؟ ١٤٧
(١٦) **قال عليه السلام: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ويَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ»** ١٤٨
المتقون وإحياء الليل بالعبادة وقراءة القرآن ١٤٨
أولاً: لماذا الليل؟ ١٤٨
ثانياً: أنواع عبادة الليل ١٤٩
ثالثاً: كيف يقرأ المتَّقي القرآن؟ ١٤٩
(١٧) **وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ويَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا، ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ** ١٥٢
بعض صفات المتَّقين في النهار ١٥٢
(١٨) **لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، ولَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ومِنْ**

أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ١٥٥
ميزان أعمال المتَّقي ١٥٥
أولاً: الطموح العالي ١٥٥
ثانياً: اتهام النفس بالتقصير ١٥٦
(١٩) إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَه فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُون ١٥٧
المتَّقي وامتداح نفسه ١٥٧
أولاً: كراهية مدح النفس والغير ١٥٧
ثانياً: كيف يقابل المتَّقي حالة مدحه؟ ١٥٨
قصة الإمام الخميني مع الشيخ المشكيني ١٥٨
(٢٠) فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَه قُوَّةً فِي دِين ١٦٠
قوةً في دين ١٦٠
أولاً: القوة علماً وعملاً ١٦٠
ثانياً: علي عليه السلام وأصحابه كانوا أقوياء في دينهم ١٦١
(٢١) وحزماً في لين ١٦٣
أولاً: الحزم جدية وليس تجبراً ١٦٣
ثانياً: الحزم المشوب باللين ١٦٤
(٢٢) وإيماناً في يقين ١٦٥
الإيمان واليقين ١٦٥
أولاً: اليقين هو أعلى مراتب أهل الإيمان ١٦٥
ثانياً: ثمرات اليقين ١٦٥
ثالثاً: ما الذي يورث اليقين؟ ١٦٦
رابعاً: علي عليه السلام النموذج الأعلى لأهل اليقين ١٦٧
(٢٣) وحرصاً في علم وعلماً في حلم ١٦٩

(٢٤) وقَصْداً فِي غِنًى ١٦٩
المتَّقي واقتصاد الأغنياء ١٦٩
(٢٥) وخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ ١٧١
خشوع المتَّقين ١٧١
أولاً: ما هو الخشوع؟ ١٧١
ثانياً: موطن الخشوع ١٧٢
ثالثاً: منشأ الخشوع ١٧٢
(٢٦) وتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ ١٧٣
المتَّقي والتجمّل ١٧٣
أولاً: معنى التجمل ١٧٣
ثانياً: التجمل والكرامة ١٧٣
(٢٧) وصَبْراً فِي شِدَّةٍ ١٧٥
(٢٨) وطَلَباً فِي حَلَالٍ ١٧٥
المتَّقون وطلب الحلال ١٧٥
أولاً: استسهال طريق الحرام ١٧٥
ثانياً: دوافع الإنسان لأكل الحرام ١٧٦
قصة القُبرة والصياد ١٧٦
ثالثاً: عاقبة الحرام ١٧٧
رابعاً: كيف يُطهّرُ المال الحرام؟ ١٧٨
(٢٩) ونَشَاطاً فِي هُدًى ١٧٩
المتَّقون في خط الهداية ١٧٩
أولاً: معنى الهداية ١٧٩
ثانياً: أقسام الهداية ١٧٩
ثالثاً: ما هو دورنا في الهداية؟ ١٨٠

رابعاً: السعي في خط الهداية ١٨٢
(٣٠) وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ ١٨٣
المتَّقون واجتناب الطمع ١٨٣
أولاً: منشأ الطمع ١٨٣
ثانياً: الآثار السلبية للطمع ١٨٤
ثالثاً: في العلاج ١٨٥
قصّة الفلاح الذي قتله الطمع ١٨٥
(٣١) يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُوَ عَلَى وَجَلٍ ١٨٧
(٣٢) يُمْسِي وهَمُّه الشُّكْرُ ويُصْبِحُ وهَمُّه الذِّكْرُ ١٨٧
المتَّقي بين الذكر والشكر ١٨٧
أولاً: الشكر، معناه، فلسفته، وضرورته ١٨٧
ثانياً: الذكر، مفهومه، وأبعاده ١٨٩
ثالثاً: لماذا يكون الشكر عند المساء والذكر عند الصباح؟ ١٩٠
(٣٣) يَبِيتُ حَذِراً ويُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ ١٩٢
المتَّقي بين الحذر والفرح ١٩٢
أولاً: المتَّقي بين الحذر والفرح/ الخوف والرجاء ١٩٢
ثانياً: الأمل طاقة إيجابية في حياتنا ١٩٣
(٣٤) إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْه نَفْسُه فِيمَا تكْرَه، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ ١٩٤
المتَّقي ومحاسبة النفس ١٩٤
أولاً: الحاجة إلى المحاسبة ١٩٤
ثانياً: أهمية المحاسبة ١٩٥
ثالثاً: علاجٌ لحالة استعصاء النفس على المحاسبة ١٩٥
(٣٥) قُرَّةُ عَيْنِه فِيمَا لَا يَزُولُ وزَهَادَتُه فِيمَا لَا يَبْقَى ١٩٦
المتَّقي وتنظيم الأولويات ١٩٦

(٣٦) يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ والْقَوْلَ بِالْعَمَلِ ١٩٨
شعار المتَّقي: قولنا والعمل ١٩٨
أولاً: انفكاك القول عن العمل مظهر نفاق ١٩٨
ثانياً: الداعية وأهمية مطابقة قوله لعمله ١٩٩
(٣٧) تَرَاه قَرِيباً أَمَلُه ٢٠٠
المتَّقي والأمل ٢٠٠
أولاً: الأمل والإيمان ٢٠٠
ثانياً: طول الأمل ٢٠٠
(٣٨) قليلاً زلله ٢٠٢
المتَّقي وقلّة الزلل ٢٠٢
أولاً: المتَّقي وقلة الزلل ٢٠٢
ثانياً: كيف نقلل الزلات والأخطاء؟ ٢٠٢
ثالثاً: السفور نموذج معاصر للزلل ٢٠٣
(٣٩) خاشعاً قلبه ٢٠٤
(٤٠) قانعة نفسُه ٢٠٥
المتَّقون والقناعة ٢٠٥
أولاً: تصحيح فهم خاطئ بشأن القناعة ٢٠٥
ثانياً: أثر القناعة على النفس والمجتمع ٢٠٦
(٤١) منزوراً أكلُه ٢٠٨
المتَّقون وأكل الطعام ٢٠٨
أولاً: القصد في الطعام والشراب ٢٠٨
ثانياً: أضرار التخمة ٢٠٨
(٤٢) سهلاً أمرُه ٢١٠
المتَّقون وسهولة التعامل مع الآخرين ٢١٠
(٤٣) حريزاً دينُه ٢١١

المتَّقي والعناية بدينه ٢١١
أولاً: أصناف الناس إزاء الاهتمام بالدين ٢١١
ثانياً: شعار علي ﷺ: أفي سلامة من ديني؟ ٢١٢
(٤٤) مَيِّتَةً شَهْوَتُه ٢١٣
المتَّقي والتعامل مع الشهوات ٢١٣
أولاً: الشهوات حاجة لنا ٢١٣
ثانياً: عبد الشهوة وعبد الرق ٢١٤
(٤٥) مَكْظُوماً غَيْظُه ٢١٥
الغضب أسبابه ونتائجه وسبل علاجه ٢١٥
١ ـ الغضب سكر وجنون ٢١٥
٢ ـ الغضب مفتاح كل شر / عواقب الغضب ٢١٦
٣ ـ مناشئ الغضب ٢١٧
٤ ـ الإسلام والحثّ على كظم الغيظ ٢١٨
٥ ـ علاج الغضب ٢١٩
٦ ـ ترك اتخاذ المواقف عند الغضب/ لا أدب عند الغضب ٢٢٠
٧ ـ الغضب المقدس ٢٢١
(٤٦) الْخَيْرُ مِنْه مَأْمُولٌ والشَّرُّ مِنْه مَأْمُونٌ ٢٢٢
أولاً: أنسنة الإنسان هدف أسمى للدين ٢٢٢
ثانياً: كيف يصل الإنسان إلى هذه الصفة؟ ٢٢٣
(٤٧) إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ ٢٢٤
(٤٨) يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَه، ويُعْطِي مَنْ حَرَمَه، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَه ٢٢٥
المتَّقي ومقابلة السيئة بالحسنة ٢٢٥
أولاً: الأخذ بالحق وقيوده ٢٢٥
ثانياً: العفو وحدوده ٢٢٨

ثالثاً: إعطاء مَنْ حَرَمَك وصلة مَنْ قَطَعَك ٢٢٩
(٤٩) بعِيداً فُحْشُه، لَيِّناً قَوْلُه ٢٣٠
المتَّقي ولين الكلام ٢٣٠
الوجه الأول: بعيدا فحشه ٢٣٠
الوجه الثاني: لينا قوله ٢٣١
١ ـ الكلمة الطيبة في القرآن والسنة والأدب ٢٣٢
٢ ـ الكلام اللين ودوره التربوي والاجتماعي والرسالي ٢٣٣
أولاً: دوره في تعزيز العلاقات الاجتماعية ٢٣٣
ثانياً: في نشر الرسالة ٢٣٤
٣ ـ أمثال ومقولات لتبرير التجريح بالآخرين ٢٣٥
(٥٠) غَائِباً مُنْكَرُه حَاضِراً مَعْرُوفُه ٢٣٧
المتَّقون ومواجهة المنكر ٢٣٧
أولاً: ما هو المنكر والمعروف؟ ٢٣٧
ثانياً: إدمان المنكر وانقلاب الموازين ٢٣٨
ثالثاً: مواجهة المنكر: ضرورتها وأثمانها ٢٣٩
رابعاً: لماذا نواجه المنكر؟ ٢٤١
خامساً: تطوير الأساليب في مواجهة المنكر ٢٤٣
(٥١) لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، ولَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ ٢٤٥
حدود العاطفة: بين الخطأ والصواب ٢٤٥
١ ـ الإنسان والعاطفة ٢٤٥
٢ ـ التحكم بالعاطفة ٢٤٦
قصة الطفل زيد مع رسول الله ﷺ ٢٤٧
٣ ـ التَّقوى وحراسة الإنسان من السقوط في طغيان العاطفة ٢٤٩
(٥٢) يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْه ٢٥١

المتَّقون والاعتراف بالحق ٢٥١
أولاً: الاعتراف بالحق ٢٥١
قصة الرجل والسكين ٢٥١
ثانياً: الصدقُ والاعتراف بالحقّ في الظروف القاهرة ٢٥٢
ثالثاً: الاعتراف بالخطأ فضيلة ٢٥٣
أ ـ الاعتراف أمام الله تعالى ٢٥٣
ب ـ الاعتراف أمام الناس ٢٥٤
ت ـ الاعتذار الصريح ٢٥٥
ث ـ الاعتراف والاعتذار مقدمة للتصحيح ٢٥٥
رابعاً: الاعتراف بخطأ الفكر والاعتذار عنه ٢٥٦
(٥٣) **لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ** ٢٥٨
المتَّقي وحفظ الحقوق ٢٥٨
أولاً: حفظ حق الله تعالى ٢٥٨
ثانياً: حفظ دين الله تعالى ٢٥٩
ثالثاً: حفظ حقوق الناس المادية والمعنوية ٢٦٠
(٥٤) **ولَا يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ** ٢٦٢
المتَّقون والتنابز بالألقاب ٢٦٢
أولاً: المراد بالتنابز في الألقاب ٢٦٢
ثانياً: أشكال التنابز بالألقاب العنصرية ٢٦٣
ثالثاً: اللقب المشهور ٢٦٤
رابعاً: تكنية الطفل مخافة اللّقب ٢٦٤
(٥٥) **ولَا يُضَارُّ بِالْجَارِ** ٢٦٦
الجوار حقوق وآداب ٢٦٦
أولاً: أهميّة التجاور ٢٦٦

ثانياً: حدّ الجوار ٢٦٧
ثالثاً: حسن الجوار وآثاره ٢٦٨
رابعاً: انتقاء الجار واختياره ٢٦٩
خامساً: حقوق الجار في الإسلام ٢٦٩
سادساً: الجار على غير الإسلام ٢٧١
(٥٦) ولَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ ٢٧٣
المتَّقون واجتناب الشماتة بالآخر ٢٧٣
أولاً: معنى الشماتة ٢٧٣
ثانياً: حكم الشماتة ٢٧٤
الصورة الأولى: الفرح بالنصر على الأعداء ٢٧٤
الصورة الثانية: الفرح بما ينزل بغير العدو ٢٧٥
(٥٧) ولَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ ولَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ ٢٧٧
المتَّقون والتزام الحق ٢٧٧
أولاً: ضرورة لزوم الحق واجتناب الباطل ٢٧٧
ثانياً: طريق الحقّ يحتاج إلى تضحيات ٢٧٨
ثالثاً: الحياد بين الحق والباطل مسلك باطل ٢٧٨
رابعاً: أسباب لا تكسبك حقاً ٢٧٩
خامساً: مصادر معرفة الحق وتمييزه عن الباطل ٢٨٠
(٥٨) إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّه صَمْتُه» ٢٨٢
الصمت المحلل والمحرم ٢٨٢
أولاً: الصمت المحرم ٢٨٢
ثانياً: الصمت الواجب ٢٨٢
ثالثاً: الصمت الممدوح عقلاً ونقلاً ٢٨٣
(٥٩) وإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُه ٢٨٥

المتَّقون والضحك ٢٨٥
أولاً: نظرة الإسلام إلى المرح واللَّهو البريء ٢٨٥
ثانياً: الضحك والتبسم ٢٨٦
ثالثاً: ضابطان للضحك ٢٨٧
(٦٠) وإِنْ بُغِيَ عَلَيْه صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ الله هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَه ٢٨٩
كيف يرد المتَّقي الظلم الذي يتعرض له؟ ٢٨٩
أولاً: الإخلال بالنظام العام ٢٨٩
ثانياً: البغي والاعتداء على الأشخاص ٢٩٠
ثالثاً: هل من فرق بين الإسلام والمسيحية في الأخذ بمبدأ العفو؟ ٢٩١
(٦١) نَفْسُه مِنْه فِي عَنَاءٍ والنَّاسُ مِنْه فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَه لِآخِرَتِه وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِه ٢٩٢
المتَّقي: **إتعاب النفس وإراحة الآخرين** ٢٩٢
أولاً: المتّقي بين نفسه وغيره ٢٩٢
ثانياً: أَتْعَبَ نَفْسَه لِآخِرَتِه ٢٩٣
ثالثاً: سعي الدنيا وسعي الآخرة ٢٩٤
(٦٢) بُعْدُه عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْه زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ، ودُنُوُّه مِمَّنْ دَنَا مِنْه لِينٌ ورَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُه بِكِبْرٍ وعَظَمَةٍ ولَا دُنُوُّه بِمَكْرٍ وخَدِيعَةٍ ٢٩٦
ما الذي يحكم علاقة المتَّقي بغيره؟ ٢٩٦
أولاً: الصداقة / لماذا أقترب من بعض الناس؟ ٢٩٦
كلمتان على هامش زلزال تركيا وسوريا ٢٩٧
ثانياً: الابتعاد / لماذا أبتعد عن بعض الناس؟ ٢٩٩
الملاحق ٣٠١
الملحق رقم (١): **ثعلبة وفتنة المال** ٣٠٣
١ ـ قصة الآية ٣٠٣
٢ ـ دروس الآية ٣٠٤
الملحق رقم (٢): **التكلّف والمتكلّفين** ٣٠٦

أولاً: ما هو التكلّف؟ ٣٠٦
ثانياً: علامات المتكلف ٣٠٧
ثالثاً: أنواع التكلف وأشكاله ٣٠٧
الملحق رقم (٣): الهوى ٣١٠
١ ـ ما هو الهوى؟ ٣١٠
سلطان الهوى ٣١٠
٢ ـ الآثار السلبية لاتباع الهوى ٣١١
٣ ـ مستويات اتباع الهوى ٣١٣
٤ ـ ما هو علاج هوى النفس؟ ٣١٣
أشجع الناس من غلب هواه ٣١٤
الملحق رقم (٤): الغرور ٣١٦
أولاً: الغرور ومرض انتفاخ الشخصية ٣١٦
ثانياً: أنحاء الاغترار ٣١٦
١ ـ الاغترار بالدنيا ٣١٦
٢ ـ الاغترار بالنفس ٣١٧
٣ ـ الاغترار بالله تعالى ٣١٨
الملحق رقم (٥): التكبر ٣١٩
١ ـ الكِبْر حقيقته وعلاماته ٣١٩
٢ ـ دوافع الكِبْر ٣٢٠
٣ ـ عواقب التكبر وسلبياته ٣٢٢
٤ ـ علاج الكبر ٣٢٤
٥ ـ متكبّر في ثوب متواضع ٣٢٨
الملحق رقم (٦): الرضا بالقضاء والقدر ٣٢٩
أولاً: القضاء والقدر ٣٢٩

ثانياً: الرضا بين التواني والسخط ٣٣٠
ثالثاً: الرضا بالقضاء وآثاره الإيجابية ٣٣٢
رابعاً: المسلمون والرضا بقضاء الله ٣٣٤
خامساً: تدريب النفس على الرضا بالقضاء ٣٣٥
الملحق رقم (٧): الدين النصيحة ٣٣٧
أولاً: النصيحة وموقعها في الدين ٣٣٧
ثانياً: ماذا يعني أن تكون ناصحاً؟ ٣٣٨
ثالثاً: سعة مفهوم النصيحة ٣٣٨
رابعاً: لمن النصيحة؟ ٣٣٩
خامساً: لا استنسابية في النصيحة ٣٤٠
سادساً: علامات الناصح الناجح ٣٤١
سابعاً: تقبّل النصيحة ٣٤٢
المصادر ٣٤٣
الفهرس ٣٥٧